

نحو فهم صحيح للحقائق الإسلامية

إِسْعَافُ السَّوُولِ

بشرح

ثَلَاثَةِ الْأُصُولِ

لأبي عبد الله صادق بن عبد الله

المجلد الثالث

المتن

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ،
وَالْحُجِّ، وَالْأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ
ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ.

الشرح

قال المؤلف: (فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ،
وَالْحُجِّ، وَالْأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ
الْإِسْلَامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ).

أراد المؤلف رحمه الله، أن يبين أن البداءة لابد أن تكون بالتوحيد، وترسيخ العقيدة،
ثم بعد ذلك يأتي الأمر بالصلاة، ثم باقي شرائع الدين، خلافاً لما تفعله بعض الطوائف
الدعوية، من البداءة بالقفز إلى رأس الهرم، فلا بد من تأسيس القاعدة العريضة، وتوعية
الناس بالتوحيد، وبيان حقيقة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أولاً وقبل كل شيء،
وخلافاً لمن يبدأ بفضائل الأعمال في الدعوة إلى الله جل وعلا، فهاهو النبي ﷺ، قضى
جُلَّ وقته، وأفرع جهده في التوحيد وبيانه، ثم لم يتوسع في بيان فضائل الأعمال والأمر

نَحْوُ فَهْمٍ صَحِيحٍ لِلْحَقَائِقِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بها، وبيانها والحث عليها، إلا بعد أن هاجر إلى المدينة، بعد أن رسخ التوحيد، وظهرت معالمه، فلا بد من البداية بالأهم، ثم المهم، فلنعلم أن هذا هو الترتيب النبوي، فمن خالف ذلك فقد ضل سواء السبيل.

وفي قوله: (فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.... الخ)، تذكير بقول الله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١]، فهذه هي حالة الأنبياء والمرسلين، وهي حالة عباد الله الصالحين المتقين الذين يسعون في مرضي الله تعالى، وشكر نعمته، إذ مكن لهم في الأرض، بخلاف المنافقين والكافرين، الذين يستعملون هذا التمكين في تثبيت عروشهم بالباطل، وخدمة الشيطان الرجيم والهوى، ونصرة الشرك أهله، ونشر الفساد في الأرض، عياذا بالله من الخذلان، والمكر والاستدراج.

وإليك جملة من الآيات الدالة على مثل هذا المعنى؛ لتحذر كل أمة يحصل لها نوع من التمكين، فتختبر حالها مع ما حصل لها من تمكين، هل هي ممكنة بحق ورضى من الله جل وعلا؟، أم أنها أمة مَكُورٌ بها مُسْتَدْرَجَةٌ من الله جل وعلا، حتى إذا أخذهم الله، فإنه أخذه أليم شديد، وعذابه عظيم، وعاقبتهم وخيمة خاسرة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا

وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ {
[الأنعام: ٤-٦].

وقال: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف: ٢٦-٢٨].

وقال تعالى في نعت الفريق الذي حقق شكر نعمة الله تعالى عليه؛ فسعى في الإصلاح والإصلاح، والفريق الآخر الغافل، الذي اغتر بهذا التمكين المؤقت المزيف؛ فسعى في إهلاك نفسه ومن معه، فبقارن الله تعالى بينهما، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ٩٦-١٠٣].

وقال: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [النور: ٥٤-٥٧].

فمن وجد شيئاً من التمكين، وهو لم يقم بشروطه، ولوازم بقائه؛ فليعلم أنه مستدرج، من حيث لا يشعر، وليتربص الزوال والنكال، فَسَنَّهُ اللَّهُ لَا تُحَابِي أَحَدًا. نسأل الله العافية والسلامة من الخذلان.

التكليف بالأعمال العامة تابع للتمكين:

واعلم أن السياق دال على أن خطاب الأمر بالقيام بالأعمال العامة في الأمة بقوة السلطان، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وإقامة للحدود، هو خطاب لمن حصل له التمكين، وأنه قبل ذلك داخل في عموم قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا} [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [الطلاق: ٧].

ولنحذر من تلاعب من آتاهم الله تعالى دولة وإمكانات، ثم يعتذرون عن تطبيق شرع الله تعالى، بدعوى عدم التمكين، وعدم القدرة، فإنما هو النفاق والعياذ بالله.

أَعْظَمُ وَأَهَمُّ وَظِيفَةٍ وَعَمَلٍ لِلسُّلْطَانِ:

وعليه فمتى ما حصل التمكين تعين القيام بهذه الفريضة العظيمة، التي تمثل إقامة شرع الله تعالى في أرضه، حتى لا يكون سلطان فوق سلطان الله تعالى، وحتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

فهذه أعظم وظيفة لمن ولاه الله تعالى الأمر، وجعله خليفة في الأرض، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٢٥٨].

وقال: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦].

وإلا فالأمر كما قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٦]، وقال: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [النحل: ١١٢] - [١١٣]. وقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} (٢٨)

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُبْسِ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ {إبراهيم: ٢٨-٣٠}.

ولنحذر من حال فرعون اللعين مع قومه الفاسقين، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ {طه: ٧٧ - ٧٩}. وقوله: {وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ {الزخرف: ٥١-٥٦}.

ثم مثل المؤلف رحمه الله بجملة من شرائع الإسلام؛ ليبين تأخر فرض أكثرها؛ لأن بعضها كان قد جاء ذكره فيها قبل الهجرة، كما في صحيح مسلم قال عمرو بن عبسة السلمي كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جُراءً عليه قومه فتكلمت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له ما أنت قال: "أنا نبي". فقلت وما نبي قال: "أرسلني الله" فقلت وبأي شيء أرسلك

قَالَ: "أَرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوحِّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ" ... الحديث.

وفي الصحيحين في قصة أبي سفيان **t** - قبل أن يسلم - مع هرقل وسؤاله إياه عن النبي **r** ودينه وأصحابه **y**، وفيه قال: [مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ أَبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ] ... الحديث.

فعامة الشرائع تأخرت إلى ما بعد الهجرة، أما الزكاة والصوم فمختلف فيهما، وأما الحج والآذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا لم يشرع إلا في المدينة. مثل المؤلف بهذه العبادات؛ لأنها أخص وأبرز شعائر الإسلام، فالزكاة والصوم والحج من أركان الإسلام.

وأما الآذان به تتميز البلدان المؤمنة من الكافرة؛ ولهذا كان النبي **r** إذا أراد أن يغير على قوم أرجئهم حتى الصباح، فإن سمع آذاناً تركهم وإن لم يسمع آذاناً أغار عليهم، والآذان من أعظم ما تشرق به نفوس المنافقين وأعداء الدين.

كما في الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ **e** يُغَيِّرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ وَكَانَ يَسْتَمِعُ الْأَذَانَ فَإِنْ سَمِعَ آذَانًا أَمْسَكَ وَإِلَّا أَغَارَ فَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **e**: "عَلَى الْفِطْرَةِ". ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **e**: "خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ". فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزَى.

وأما الجهاد فهو ذروة سنام هذا الدين، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جهاد النفس، وهذا ينقسم إلى قسمين:

١- جهاد الطلب: ودليله قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ١٢٣]، وقوله: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: ٣٩]، قال ابن عباس: (قاتلوا حتى لا يكون شرك)، ونحو ذلك من الآيات، وأما الأحاديث فمتكاثرة متواترة، قولاً وعملاً، فمنها ما في الصحيحين عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ"، وهذا الخبر جاء في الصحيحين عن أبي هريرة **t** أيضاً، وفي البخاري عن أنس **t**، وفي مسلم عن جابر **t**. وهذا الجهاد يستلزم الأمير العام، وتوفر الشوكة عُدَّةً وَعَدَدًا.

٢- جهاد الدَّفْع: ويكون في حالة تسلط الأعداء على بلد من بلدان المسلمين، فيجب دفعهم، بكل ما هو متاح، وبكل سبيل؛ ليكفوا بأس الذين كفروا، وهذا النوع فرض عين على أهل البلدة المُغار عليها، فإن اندفع الكفار بذلك، وإلا انتقل الفرض إلى من يليهم، وهكذا حتى يطبق الأرض كلها، فهو من فروض الكفايات، بحيث إن اندفع بقوم؛ سقط عن الآخرين، وإن لم يندفع لزم الجميع، وإن كانت الأمة بأسرها، وقد حكى ابن قدامة في المغني وغيره الإجماع على ذلك، إلا إنه لا شك داخل تحت عموم

قوله تعالى: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } وَلَا وَسْعَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ { [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } [الطلاق: ٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: [وَإِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهُ عَلَى الْأَقْرَبِ فَلَا قَرَبَ إِذْ بِلَادُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَلَدَةِ الْوَاحِدَةِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ النَّفِيرُ إِلَيْهِ بِلَا إِذْنٍ وَالِدٍ وَلَا غَرِيمٍ، وَنُصُوصُ أَحْمَدَ صَرِيحَةٌ بِهَذَا وَهُوَ خَيْرٌ بِمَا فِي الْمُخْتَصَرَاتِ. لَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَكَانِ النَّفِيرُ إِذَا نَفَرَ إِلَيْهِ الْكِفَايَةُ كَلَامُ أَحْمَدَ فِيهِ مُخْتَلَفٌ وَقِتَالُ الدَّفْعِ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ كَثِيرًا لَا طَاقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ لَكِنْ يُخَافُ إِنْ انْصَرَفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ عَطَفَ الْعَدُوُّ عَلَى مَنْ يُخَلَّفُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَهَذَا قَدْ صَرَّحَ أَصْحَابُنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مُهْجَهُمْ وَمُهْجَ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ فِي الدَّفْعِ حَتَّى يَسْلَمُوا وَنَظِيرُهَا أَنْ يَهْجُمَ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَتَكُونَ الْمُقَاتِلَةُ أَقَلَّ مِنَ النِّصْفِ فَإِنْ انْصَرَفُوا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْحَرِيمِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ قِتَالُ دَفْعٍ لَا قِتَالُ طَلَبٍ لَا يَجُوزُ الْإِنْصِرَافُ فِيهِ بِحَالٍ وَوَفَعَةُ أَحَدٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ] ١. هـ.

القسم الثاني: جهاد اللسان، وهذا الذي أشار إليه المؤلف بقوله: (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وهو جهاد عظيم لإظهار الحق وبيان، والدعوة إليه، والعمل على إخماد الباطل، وتجفيف منابعه، وهو النزاع بسيف البرهان، لتقطيع رقاب الباطل، وإزهاقه، وكشف شبهاته وعواريه، وهذا جهاد عامة الأنبياء والمرسلين، فإن الذي قاتلوا الكفار من الرسل قلة، ولكنهم كانوا جميعاً، يجاهدون الكفر وأهله، والباطل

وَزَحَّه، بالحجة والبرهان، وهذا أيضاً من فروض الكفايات، وقد يتعين، وقد تقدم الحديث عنه من قبل.

وقد سماه الله تعالى جهاداً كبيراً، كما في قوله تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان: ٥٢]، كما قال ابن كثير في تفسيره: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ} يعني: بالقرآن، قاله ابن عباس: {جِهَادًا كَبِيرًا}، كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [١٠١] هـ.

وقال الشنقيطي في (أضواء البيان): [قوله تعالى: {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [٥٢/٢٥]، أي بالقرآن لقوله قبله {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا}]. ومعلوم أن المنافقين كافرون فكان جهاده ٢ للكفار بالسيف ومع المنافقين بالقرآن [١٠١] هـ.

قال ابن القيم في (القصيدة النونية): فصل: في مقدمة نافعة قبل التحكيم:

يا أيها الرجل المريدُ نجاته ... اسمع مقالة ناصحٍ معوانٍ
كن في أمورك كلها متمسكا ... بالوحي لا بزخارف الهذيانِ
وانصر كتاب الله والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقانِ
واضرب بسيف الوحي كل معطل ... ضرب المجاهد فوق كل بنانٍ
واحمل بعزم الصدق حملة مخلص ... متجرد لله غير جبانٍ
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فإذا أُصِبتَ ففي رضا الرحمنِ
واجعل كتاب الله والسنن التي ... ثبتت سلاحك ثم صبحَ بجنانِ

من ذا يُبَارِزُ فَلْيُقَدِّمِ نَفْسَهُ ... أو من يسابق يَبْدُ في الميدانِ
واصدع بما قال الرسول ولا تخف ... من قِلَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ
فَاللَّهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَاللَّهُ كَافٍ عَبْدَهُ بِأَمَانِ
لا تخش من كيد العدو ومكرهم ... فقتلهم بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ
فجنود أتباع الرسول مَلَايِكُ ... وجنودهم فَعَسَاكِرُ الشَّيْطَانِ
شَتَّانَ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ فَمَنْ يَكُنْ ... مُتَحَيِّرًا فَلْيَنْظُرِ الْفِتْنَتَانِ
وَأُثْبِتْ وَقَاتِلْ تَحْتَ رَايَاتِ الْهُدَى ... وَاصْبِرْ فَنَصْرُ اللَّهِ رَبِّكَ دَانِي
وَاذْكُرْ مَقَاتِلَهُمْ لِفِرْسَانِ الْهُدَى ... اللَّهُ دَرُّ مَقَاتِلِ الْفِرْسَانِ
وَاذْكُرْ أَرْبَابَ النَّصِّ فِي نَحْرِ الْعِدَا ... وَارْجُمُوهُم بِسَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ
لَا تَخْشَ كَثَرَتَهُمْ فَهُمْ هَمَجُ الْوَرَى ... وَذُبَابُهُ أَتَخَافُ مِنْ ذُبَانِ
وَأَشْغَلُهُمْ عِنْدَ الْجِدَالِ بِيَعْضِهِمْ ... بَعْضًا فَذَاكَ الْحَزْمُ لِلْفِرْسَانِ
وَإِذَا هُمُ حَمَلُوا عَلَيْكَ فَلَا تَكُنْ ... فِرْعَا لِحَمَلَتِهِمْ وَلَا بِجَبَانِ
وَأُثْبِتْ وَلَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ فَمَا ... هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشَّجْعَانِ
فَإِذَا رَأَيْتَ عَصَابَةَ الْإِسْلَامِ قَدْ ... وَافَتْ عَسَاكِرَهَا مَعَ السُّلْطَانِ
فَهَنَّاكَ فَاخْتَرِ الصَّفُوفَ وَلَا تَكُنْ ... بِالْعَاجِزِ الْوَانِي وَلَا الْفَزْعَانِ
وَتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ يَلْبِسُهُمَا ... يَلْقَى الرَّدَى بِمَذْمَةٍ وَهَوَانِ
ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرْكَبِ فَوْقَهُ ... ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بِسِتِ الثُّوبَانِ
وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرُ حُلَّةٍ ... زِينَتُهَا الْأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ
وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ .. مَعَ نُصْحِ الرَّسُولِ فَحَبَّذَا الْأَمْرَانِ

وَتَمَسَّكَ بِحَبْلِهِ وَبَوَحِيهِ ... وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلَانِ
 فالحق وصف الرب وهو صراطه الهادي إليه لصاحب الإيمان
 وهو الصراط عليه رب العرش أيضا وذا قد جاء في القرآن
 والحق منصور وممتحن فلا... تَعَجَّبْ فَهَٰذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ
 وَبِذَاكَ يَظْهَرُ حِزْبُهُ مِنْ حَرْبِهِ... ولأجل ذاك الناس طائفتان
 ولأجل ذاك الحرب بين الرسل والكفار مُذْ قَامَ الْوَرَى سِجْلَانِ
 لَكِنَّمَا الْعُقْبَى لِأَهْلِ الْحَقِّ إِنَّ... فَاتَتْ هُنَا كَانَتْ لَدَى الدِّيَانِ

جهاد البدع وأهلها:

ومن ذلك وأعظمه جهاد البدع وأهلها، ومطاردتهم بالحجج والبراهين؛ لكشف
 حقيقة البدعة وخبثها، وعظيم ضررها على العباد والبلاد، وانظر لما تَوَآنَى النَّاسُ فِي
 ذَلِكَ؛ كَيْفَ انْتَشَرَتِ الْبِدْعُ، وَصَارَ لَهَا رُؤُوسٌ وَمُنَظَّرُونَ، وَجَمَاعَاتٌ وَأَحْزَابٌ، بَلْ
 وَدُوْلٌ تَرَعَى ذَلِكَ وَتَنْصُرُهُ، حَتَّى اتَّخَذَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا، وَلَهْوًا وَلَعِبًا، حَتَّى
 أَحْدَثُوا أَعْيَادًا وَطُقُوسًا وَشَعَائِرَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَتَلَقَّى كَثِيرٌ مِنْ أَفْرَادِ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ غَرَبَةِ السُّنَّةِ بَيْنَ أَهْلِهَا.

حتى صارت عندنا أعياد متنوعة، أَلْقَتْهَا الْأَهْوَاءُ عَلَى الْأُمَّةِ؛ فَاسْتَحْسَنْتَهَا، وَزَخَّرَفَهَا
 الشَّيْطَانُ فَعَمَلَتْ بِهَا.

فصار عندنا أعياد رأس السنة، وعيد الأم، وعيد الاستقلال، واليوم الوطني، وأسبوع الشجرة، وأسبوع المساجد، ويوم الطفل، ويوم المرأة، وغير ذلك من الأهواء التي قلّدنا فيها شياطين الإنس والجن.

كما حصل من أهل الكتاب، الذين كانوا يتخذون من الأعياد، ما تُثْلِيهِ عَلَيْهِ أهواؤهم، وما يَرُوقُ لَهُمْ، مِمَّا يُعْظَمُونُهُ وَيُحِبُّونُهُ، وتأمل في هذا الخبر، المُخَرَّج في الصحيحين عَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةُ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرُؤُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: (أَيُّ آيَةٍ)، قَالَ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}، قَالَ عُمَرُ: (قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ).

وتأمل هذا الفقه العظيم، من هذا الخليفة الراشد **t**، حيث أخبر اليهودي باليوم الذي نزلت فيه هذه الآية، والمعنى أننا لسنا أصحاب أهواء؛ نتخذ من الأعياد ما نشاء، وما نستهي ونعظم ونحب، بل إنما هو اتباع الشرع، فلا نتعبد لله تعالى إلا بما شرع، فقد علمنا ذلك اليوم؛ ولم نتخذه عيداً؛ لأننا لم نؤمر بذلك، بل أمرنا بعيد الفطر والأضحى.

كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ تُغْنِيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ - قَالَتْ وَلَيْسَتْا بِمُغْنِيَتَيْنِ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَرَ امِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ عِيدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **e**: "يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا".

وفي الصحيحين من طريق أبي عبيد مولى ابنِ أَرْهَرٍ أَنَّهُ شَهِدَ الْعِيدَ يَوْمَ الْأَضْحَى مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ **t** ، فَصَلَّى قَبْلَ الْخُطْبَةِ ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ **e** قَدْ نَهَاكُمْ عَنْ صِيَامِ هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيَوْمُ فِطْرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيَوْمُ تَأْكُلُونَ نُسُكَكُمْ).

وهناك يوم الجمعة عيد الأسبوع نصلي في جمعتنا، وفيه ساعة الإجابة نسأل فيه ربنا تبارك وتعالى من خيري الدنيا والآخرة.

كما في صحيح البخاري: قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ثُمَّ شَهِدْتُ مَعَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَصَلَّى قَبْلَ الْخُطْبَةِ ثُمَّ خَطَبَ ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذَا يَوْمٌ قَدْ اجْتَمَعَ لَكُمْ فِيهِ عِيدَانِ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَتَبَّرَ الْجُمُعَةَ مِنْ أَهْلِ الْعَوَالِي فَلْيَتَتَبَّرْ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْجِعَ فَقَدْ أَذْنَتْ لَهُ). فَيَا لِعُرْبَةِ السُّنَّةِ وَأَهْلِهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ ، وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

تنبيه: فرض الكفاية أشد من فرض العين، من جهة متعلقه بعموم الأمة، فمثلاً لو أن أحداً رأى منكراً، فعلى القول بأن إنكار المنكر فرض عين، فإن لم ينكر هذا الإنسان هذا المنكر، أثم وحده؛ لأنه تعين عليه، ولم يفعل، ولم يتعين على غيره فلا يَأْثُمُونَ، أما على القول بأنه فرض كفاية، فإنه إن ترك الإنكار، وهو قادر؛ أثم؛ ولزم غيره الإنكار، وهكذا حتى يعم الإثم جميع الأمة؛ لأن البعض يظنون، أن فرض العين أشد من فرض الكفاية، على كل حال.

القسم الثالث: جهاد المال: وهذا يشمل بذل المال في إقامة جهاد العلم، والدعوة، وجهاد المشركين في القتال، فالمال جعله الله قياماً للناس، ولا بد على الأمة أن تسلطه على

هلكته في الحق، فمن جهز غازياً فقد غزا، وطلب العلم نفير في سبيل الله جل وعلا، وقد جمع النبي ﷺ ذلك كله، فيما صح عنه، قال النبي ﷺ: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"، وإسناده صحيح كما تقدم.

فَقَدَّمَ ذِكْرَ جِهَادِ الْمَالِ؛ لبيان أن الحاجة إليه ماسة، بل قد تكون هي أهم في بعض الحالات، ففي الذكر الحكيم قال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: ٤١]، وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٠-١٤].

وفي الصحيحين عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ **t** أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ جَهَّزَ غَازِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا".
وفي صحيح البخاري من طريق أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عُثْمَانَ **t** حِينَ حُوصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: (أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ وَلَا أَنْشُدُ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

٢ قَالَ مَنْ حَفَرَ رُومَةً فَلَهُ الْجَنَّةُ فَحَفَرْتُهَا، أَلَسْتُ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ فَجَهَّزْتُهُمْ، قَالَ فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ.

جهاد النفس:

واعلم رحمك الله، أن بعض أهل العلم، يضيف نوعاً رابعاً من الجهاد، ألا وهو جهاد النفس، ولا شك أن ذلك من الجهاد، لعموم قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]، وقد حكاه البغوي عن الحسن البصري، وسيأتي.

ويروون في ذلك حديثاً ضعيفاً جداً: [قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل وما الجهاد الأكبر قال جهاد القلب^١]، وهذا الخبر على نكارتة إسناداً،

١ - لما أردت تخريج الحديث وجدت أحد الباحثين في موقع (ملتقى أهل الحديث) قد خرجته فأجاد وأفاد فاقصرت على ذلك: وإليك جملاً من نص كلامه بحروفه جزاه الله خيراً: روى البيهقي في كتاب الزهد أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان حدثنا أحمد بن عبيد حدثنا تميم حدثنا عيسى بن إبراهيم حدثنا يحيى بن يعلى عن ليث عن عطاء عن جابر قال قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة فقال عليه السلام: "قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" قيل وما الجهاد الأكبر قال: "مجاهدة العبد هواه" قال البيهقي هذا إسناد فيه ضعف. انتهى. وروى النسائي في كتاب الكنى أخبرني حدثنا أبو مسعود محمد بن زياد المقدسي سمعت إبراهيم بن أبي عبلة يقول لأناس جاءوا من الغزو وقد جئتم من الجهاد الأصغر فما فعلتم في الجهاد الأكبر قالوا يا أبا إسحاق وما الجهاد الأكبر قال جهاد القلب. انتهى. والحديث رواه الخطيب أيضاً في "تاريخه" (٥٢٤ - ١٣/٥٢٣) "من طريق الحسن بن هاشم عن يحيى بن أبي العلاء، قال: حدثنا ليث به، وكذلك رواه أبو بكر الشافعي في "الفوائد المنتقاة

فكذلك هو منكر متنا، فإن تسمية جهاد القلب والنفس والهوى، بالجهاد الأكبر، وتسمية قتال الكفار في حَوْمَةِ الْوَعَى بالجهاد الأصغر، هذا فيه نظر كبير.

وعلى كل فالمؤلف لا يتكلم هنا عن هذا النوع من الجهاد، ولكن عن جهاد المشركين، بالقتال في سبيل الله، وسيأتي بيان فضل هذا الجهاد، في آخر الكتاب، إن شاء الله.

فصل في ذكر حظ وافر من جهاد رسول الله ﷺ

قال ابن القيم في كتابه (زاد المعاد): [فصل في غزواته وبعوثه وسراياه ﷺ: غزواته كلها وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة في مدة عشر سنين فالغزوات سبع وعشرون وقيل خمس وعشرون وقيل تسع وعشرون وقيل غير ذلك قاتل منها في تسع: بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف . وقيل قاتل في بني النضير والغابة ووادي القرى من أعمال خيبر. وأما سراياه وبعوثه فقريب من ستين والغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر وأحد والخندق وخيبر والفتح وحنين وتبوك.

" (١٣/٨٣) من طريق عيسى ابن إبراهيم البركي قال : نا يحيى بن يعلى قال: نا ليث عن عطاء عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ قوم عراة، فقال النبي ﷺ: فذكره.

درجة الحديث: ضعيف: (البيهقي)، لا أصل له: (ابن تيمية) ١١/١٩٧، ضعفه العراقي في تحريج الإحياء، قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس: هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة: (كشف الخفاء للعجلوني)، الخ. انتهى.

وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن فسورة الأنفال سورة بدر، وفي أحد آخر سورة آل عمران من قوله: {وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} إلى قبيل آخرها بيسير، وفي قصة الخندق وقريظة وخيبر صدر سورة الأحزاب، وسورة الحشر في بني النضير، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة الفتح، وأشير فيها إلى الفتح، وذكر الفتح صريحاً في سورة النصر. وجرح منها ٢ في غزوة واحدة وهي أحد، وقاتلت معه الملائكة منها في بدر وحنين، ونزلت الملائكة يوم الخندق فزلزلت المشركين وهزمتهم، ورمى فيها الحصباء في وجوه المشركين فهربوا، وكان الفتح في غزوتين: بدر وحنين. وقاتل بالمنجنيق منها في غزوة واحدة وهي الطائف، وتحصن في الخندق في واحدة وهي الأحزاب، أشار به عليه سلمان الفارسي [١]. هـ.

قال زين العابدين بن الحسين بن علي: «كنا نعلم مغازي رسول الله ٢ كما نعلم السور من القرآن»، وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول: يا بني إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها.

والآن فلنذكر غزوات الرسول ٢ وسراياه وبعوثة بشيء من التفصيل، وسأقتصر على ذكر أشهرها وأظهرها، وسأكتفي ببيان وتعليق يسير مما جمعته ونقلته من مَظَانٍّ متفرقة، وربما أطلت إن استدعى الأمر، وهي على النحو التالي:

سرية حمزة إلى سيف البحر: وكان أول لواء عقده رسول الله ٢ لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره وكان لواء أبيض وكان حامله أبو مرثد كنان بن الحصين الغنوي حليف حمزة وبعثه في ثلاثين رجلاً من

المهاجرين خاصة يعترض عيرا لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل . فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص ، فالتقوا واصطفوا للقتال فمشى مجدي بن عمرو الجهني ، وكان حليفا للفريقين جميعا ، بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا .

سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب : ثم بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب في سرية إلى بطن رابغ في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة وعقد له لواء أبيض وحمله مسطح بن أثاثه بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانوا في ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري فلقي أبا سفيان بن حرب ، وهو في مائتين على بطن رابغ ، على عشرة أميال من الجحفة ، وكان بينهم الرمي ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا للقتال وإنما كانت مناوشة وكان سعد بن أبي وقاص فيهم وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ثم انصرف الفريقان على حاميتهم . قال ابن إسحاق : وكان على القوم عكرمة بن أبي جهل ، وقدم سرية عبيدة على سرية حمزة .

سرية سعد إلى بطن رابغ : ثم بعث سعد بن أبي وقاص إلى الخرار في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر وعقد له لواء أبيض وحمله المقداد بن عمرو ، وكانوا عشرين راكبا يعترضون عيرا لقريش ، وعهد أن لا يجاوز الخرار ، فخرجوا على أقدامهم فكانوا يكمنون بالنهار ويسرون بالليل حتى صبحوا المكان صبيحة خمس فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

غزوة وَدَّان: وهي قرية بين مكة والمدينة، وكان خروجه لها ليعترض عيراً لقريش فوجدها قد سبقته فرجع، وقعت يوم في صفر من السنة الثانية من الهجرة بعد سنة من وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة في منطقة يقال لها وَدَّان موضع يبعد عن المدينة ٢٥٠ كلم وكذلك تسمى الأبواء وهو وادي بالحجاز به قبر أمينة أم رسول الله ﷺ، وهي أول غزوة غزاها بنفسه ﷺ وحمل لواء حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض واستخلف على المدينة سعد بن عباد، وخرج في المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش، فلم يلق كيذا، وفي هذه الغزوة وادع مخشي بن عمرو الضمري وكان سيد بني ضمرة في زمانه على ألا يغزو بني ضمرة، ولا يغزوه ولا أن يكثروا عليه جمعا، ولا يعينوا عليه عدوا، وكتب بينه وبينهم كتابا، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

غزوة بواط: وهو جبل جهينة بين المدينة وينبع، ثم غزا رسول الله ﷺ بواط في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرا من مهاجره وحمل لواء سعد بن أبي وقاص، وكان أبيض واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، ويقال السائب بن عثمان بن مظعون وخرج في مائتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش، فيها أمية بن خلف الجمحي، ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير فبلغ بواط من ناحية رضوى، وهما جبلان فرعان أصلهما واحد من جبال جهينة، مما يلي طريق الشام، ولما علمت عيون قريش بخروج المسلمين أسرع القافلة بحركتها وسلكت طريقاً غير طريق القوافل المعبدة، فتخطت المسلمين، ورجع المسلمون إلى المدينة. وبين بواط والمدينة نحو أربعة برد، ففي هذه الغزوة لم يلق النبي ﷺ كيذا فرجع.

خروجه ٢ في طلب كرز الفهري: ثم خرج على رأس ثلاثة عشر شهرا من مهاجره يطلب كرز بن جابر الفهري ، وحمل لواءه علي بن أبي طالب ٣ وكان أبيض واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، وكان كرز قد أغار على سرح المدينة، فاستاقه وكان يرعى بالحمى، فطلبه رسول الله ٢ حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز ولم يلحقه فرجع إلى المدينة.

غزوة العسيرة: خرج رسول الله ٢ في جهادى الآخرة على رأس ستة عشر شهرا، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض واستخلف على المدينة أبا سلمة بن - عبد الأسد المخزومي، وخرج في خمسين ومائة ويقال في مائتين من المهاجرين ولم يكره أحدا على الخروج وخرجوا على ثلاثين بعيرا يعتقبونها يعترضون عيرا لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد كان جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العسيرة، وقيل العشراء بالمد. وقيل العسيرة بالمهملة وهي بناحية ينبع، وبين ينبع والمدينة تسعة برد فوجد العير قد فاتته بأيام وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، وهي التي وعده الله إياها، أو المقاتلة وذات الشوكة ووفى له بوعده. وفي هذه الغزوة وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة.

وجاء في صحيح البخاري في (كِتَابُ الْمُغَازِي) قال: بَابُ غَزْوَةِ الْعُسَيْرَةِ أَوْ الْعُسَيْرَةِ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَوَّلُ مَا غَزَا النَّبِيُّ ٢ الْأَبْوَاءَ ثُمَّ بَوَاطُ ثُمَّ الْعُسَيْرَةَ. وفي الصحيحين من طريق أبي إسحاق كُنْتُ إِلَى جَنْبِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقِيلَ لَهُ كَمْ غَزَا النَّبِيُّ ٢ مِنْ غَزْوَةٍ قَالَ: تِسْعَ عَشْرَةٍ قِيلَ كَمْ غَزَوْتَ أَنْتَ مَعَهُ قَالَ سَبْعَ عَشْرَةٍ قُلْتُ فَأَيُّهُمْ كَانَتْ أَوَّلَ قَالَ الْعُسَيْرَةُ أَوْ الْعُسَيْرُ. ١.هـ.

سرية نخلة: ثم بعث عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من الهجرة في اثني عشر رجلا من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيرا لقريش، وفي هذه السرية سمى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ولما فتح الكتاب وجد فيه: "إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم" فقال سمعا وطاعة وأخبر أصحابه بذلك، وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فمضوا كلهم، فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه وبعد عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على ملاقاتهم فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله كان في الإسلام وأول قتيل في الإسلام وأول أسيرين في الإسلام وأنكر رسول الله ﷺ عليهم ما فعلوه واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك وزعموا أنهم قد وجدوا مقالا، فقالوا: قد أحل محمد الشهر الحرام واشتد على المسلمين ذلك حتى أنزل الله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل} يقول سبحانه هذا الذي أنكرتموه عليهم وإن كان كبيرا، فما ارتكبتموه أنتم من

الكفر بالله والصد عن سبيله وعن بيته وإخراج المسلمين الذين هم أهل منه والشرك الذي أنتم عليه والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام وأكثر السلف فسروا الفتنة ها هنا بالشرك، ولما كان في شعبان من هذه السنة حولت القبلة وقد تقدم ذكر ذلك.

غزوة بدر الأولى: وبدر موضع بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب في الجنوب الغربي منها، خرج فيها النبي ﷺ لتعقب من أغار على سرح المدينة فلم يجده ويطلق عليها اسم غزوة سفوان، فحين قدم النبي ﷺ من غزوة العشيرة لم يبق بالمدينة إلا ليالي لم تبلغ العشرة حتى غزا وخرج خلف كرز بن جابر الفهري وقد أغار قبل أن يسلم على سرح المدينة أي النعم والمواشي التي تسرح للمرعى بالغداة خرج في طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان بالمهملة والفاء ساكنة وقيل مفتوحة من ناحية بدر؛ ولذا قيل لها غزوة بدر الأولى وفاته كرز ولم يدركه وكان قد استعمل على المدينة زيد بن حارثة وحمل اللواء وكان أبيض علي بن أبي طالب.

غزوة بدر الكبرى: وتسمى يوم الفرقان، وهي أعظم غزوات الإسلام وكانت في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة. وذلك لما بلغ محمداً ﷺ أن قافلة تجارية يقودها أبو سفيان بن حرب تتجه من الشام عائدة إلى مكة. فخرج النبي ﷺ ومعه حوالي ٣١٣ رجلاً ليقطع الطريق عليهم، وهو الذين قال فيهم النبي ﷺ فيما توترت عنه: "لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"، ولما بلغ أبا سفيان ذلك؛ أرسل رسولا إلى مكة ليحذر قريش

ويطلب الإمدادات، فأرسلت قريش جيشاً عدد جنوده يتراوح من بين الألف والتسعمائة رجلاً، والتقى الجمعان عند آبار بدر حيث دارت معركة طاحنة انتصر فيها المسلمون على قلة عددهم، {وما النصر إلا من عند الله}، واكتفي بهذا لشهرتها.

غزوة بني سليم: وكانت بعد فراغه ﷺ بسبعة أيام من غزوة بدر الكبرى حيث نهض بنفسه صلوات الله وسلامه عليه إلى غزو بني سليم، حتى بلغ ماء يقال له الكدر فمكث ثلاثاً ثم رجع ولم يلق حرباً وكان قد استعمل على المدينة سباع بن عرفة وقيل عبد الله بن أم مكتوم.

ثم غزا بني قينقاع: وكانوا من يهود المدينة، فنقضوا عهده فحاصروهم خمسة عشر ليلة حتى نزلوا على حكمه فشفع فيهم عبد الله بن أبي، وألح عليه فأطلقهم له وهم قوم عبد الله بن سلام، وكانوا سبعمائة مقاتل وكانوا صاغة وتجاراً، فطلبوا من النبي ﷺ أن يخرجوا من ديارهم بالنساء والأولاد ويتركوا للمسلمين الأموال، فقبل منهم ذلك وأجلاهم.

غزوة السويق: لما رجع فل المشركين إلى مكة موتورين محزونين نذر أبو سفيان أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو رسول الله ﷺ فخرج في مائتي راكب حتى أتى العريض في طرف المدينة، وبات ليلة واحدة عند سلام بن مشكم اليهودي فسقاه الخمر وبطن له من خبر الناس فلما أصبح قطع أصواراً من النخل أنصار وحليفاً له ثم كر راجعاً، ونذر به رسول الله ﷺ فخرج في طلبه فبلغ قرقرة الكدر، وفاته أبو سفيان وطرح الكفار سويقاً كثيراً من أزوادهم يتخففون به فأخذها المسلمون فسميت غزوة السويق، وكان

ذلك بعد بدر بشهرين، في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة، وكان قد استخلف عليها أبا لبابة، فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقية ذي الحجة ثم غزا نجدا يريد غطفان، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان ؓ فأقام هناك صفراً كله من السنة الثالثة ثم انصرف ولم يلق حرباً.

غزوة ذي أمر وهي غزوة غطفان: حيث أقام بقية ذي الحجة سنة ٣ هجرية ثم غزا نجدا يريد غطفان واستعمل على المدينة عثمان بن عفان فأقام بنجد صفراً من السنة الثانية كله ثم رجع ولم يلق حرباً. يقول المباركفوري في كتاب الرحيق المختوم: [هي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله قبل معركة أحد، قادها في المحرم سنة ٣ هـ. وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله أن جمعاً كبيراً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله المسلمين، وخرج في أربعمئة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان. وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له: جُبَار من بني ثعلبة، فأدخل على رسول الله، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمه إلى بلال، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو. وتفرق الأعداء في رءوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة. أما النبي فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم، وهو الماء المسمى بذي أمر فأقام هناك صفراً كله من سنة ٣ هـ أو قريباً من ذلك، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين، ويستولي عليهم الرعب والرهبة، ثم رجع إلى المدينة] اهـ.

غزوة الفرع وتسمى غزوة بحران: فأقام بالمدينة ربيعا الأول ثم خرج يريد قريشا، في شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها: بحران واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، فبلغ بحران معدنا بالحجاز من ناحية الفرع ، ولم يلق حربا ، فأقام هنالك ربيعا الآخر وجهادى الأولى ، ثم انصرف إلى المدينة .

غزوة أحد: وقعت في يوم السبت، السابع من شوال في السنة الثالثة للهجرة، قال ابن القيم في (زاد المعاد): ولما قتل الله أشراف قريش ببدر وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم وجاء كما ذكرنا إلى أطراف المدينة في غزوة السويق ولم ينل ما في نفسه أخذ يؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ويجمع الجموع فجمع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحباش وجاؤوا بنسائهم لثلاثي ففروا وليحاموا عنهن ثم أقبل بهم نحو المدينة فنزل قريبا من جبل أحد بمكان يقال له: عينين وذلك في شوال من السنة الثالثة واستشار رسول الله ﷺ أصحابه أخرج إليهم أم يمكن في المدينة ؟ وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي وكان هو الرأي فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر وأشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه في ذلك وأشار عبد الله بن أبي بالمقام في المدينة وتابعه على ذلك بعض الصحابة فألح أولئك على رسول الله ﷺ فنهض ودخل بيته ولبس لأمته وخرج عليهم وقد انثنى عزم أولئك وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج فقالوا: يا رسول الله! إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل فقال رسول الله ﷺ: "ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه"، فخرج

رسول الله ﷺ في ألف من الصحابة واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة وكان رسول الله ﷺ رأى رؤيا وهو بالمدينة رأى أن في سيفه ثلثة ورأى أن بقرا تذبح وأنه أدخل يده في درع حصينة فتأول الثلثة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون وتأول الدرع بالمدينة، فخرج يوم الجمعة فلما صار بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عبد الله بن أبي بنحو ثلث العسكر وقال: تحالفني وتسمع من غيري فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع فرجع عنهم وسبهم وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى وسلك حرة بني حارثة وقال: من رجل يخرج بنا على القوم من كذب؟ فخرج به بعض الأنصار حتى سلك في حائط لبعض المنافقين وكان أعمى فقام يحثو التراب في وجهه المسلمين ويقول: لا أحل لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه فقال: "لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر"، ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي وجعل ظهره إلى أحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم فلما أصبح يوم السبت تبعى للقتال وهو في سبعمائة فيهم خمسون فارسا واستعمل على الرماة - وكانوا خمسين - عبد الله بن جبير وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم وألا يفارقوه ولو رأى الطير تتخطف العسكر وكانوا خلف الجيش وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لثلا يأتوا المسلمين من ورائهم، فظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يومئذ وأعطى اللواء مصعب بن عمير وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام وعلى الأخرى المنذر بن عمرو واستعرض الشباب يومئذ فرد من استصغره

عن القتال وكان منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعرابة بن أوس وعمرو بن حزم وأجاز من رآه مطيقا وكان منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة فقليل: أجاز من أجاز لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة ورد من رد لصغره عن سن البلوغ وقالت طائفة: إنما أجاز من أجاز لإطاقته ورد من رد لعدم إطاقته ولا تأثير للبلوغ وعدمه في ذلك قالوا: وفي بعض ألفاظ حديث ابن عمر: فلما رأني مطيقا أجازني، وتعبت قريش للقتال وهم في ثلاثة آلاف وفيهم مائتا فارس فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى اليسرة عكرمة بن أبي جهل ودفع رسول الله ﷺ سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة وكان شجاعا بطالا يختال عند الحرب، وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق واسمه عبد عمرو بن صيفي وكان يسمى: الراهب فسماه رسول الله ﷺ الفاسق وكان رأس الأوس في الجاهلية فلما جاء الإسلام شرق به وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة فخرج من المدينة وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه فكان أول من لقي المسلمين فنادى قومه وتعرف إليهم فقالوا له: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر ثم قاتل المسلمين قتالا شديدا وكان شعار المسلمين يومئذ أمت، وأبلى يومئذ أبو دجانة الأنصاري وطلحة بن عبيد الله وأسد الله وأسود رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وأنس بن النضر وسعد بن الربيع، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار فانهمز عدو الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه وقالوا: يا قوم

الغنيمة فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ فلم يسمعوا وظنوا أن ليس للمشركين رجعة فذهبوا في طلب الغنيمة وأخلو الثغر وكر فرسان المشركين فوجدوا الثغر خاليا قد خلا من الرماة فجازوا منه وتمكنوا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة وهم سبعون وتولى الصحابة وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ فجرحوا وجهه وكسروا ربايته اليمنى وكانت السفلى وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين فأخذ علي بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله وكان الذي تولى أذاه ﷺ عمرو بن قمئة وعتبة بن أبي وقاص وقيل: إن عبد الله بن شهاب الزهري عم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري هو الذي شجعه وقتل مصعب بن عمير بين يديه فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثنيته من شدة غوصهما في وجهه وامتنص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه وترس أبو دجانة عليه بظهره والنبيل يقع فيه وهو لا يتحرك وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان فأتى بها رسول الله ﷺ فردها عليه بيده وكانت أصح عينيه وأحسنهما وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمدا قد قتل ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين وفر أكثرهم وكان أمر الله قدرا مقدورا، ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ فقال: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل الناس ولقي سعد

بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد فقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف نحووا من عشرين جراحة، وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إليه أن اسكت واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه وفيهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصمة الأنصاري وغيرهم فلما استندوا إلى الجبل أدرك رسول الله ﷺ أبي بن خلف على جواد له يقال له: العوذ زعم عدو الله أنه يقتل عليه رسول الله ﷺ فلما اقترب منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها فجاءت في ترقوته ففكر عدو الله منهزما فقال له المشركون: والله ما بك من بأس فقال: والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لمتوا أجمعون وكان يعلف فرسه بمكة ويقول: أقتل عليه محمدا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: "بل أنا أقتله إن شاء الله تعالى" فلما طعنه تذكر عدو الله قوله: أنا قاتله فأيقن بأنه مقتول من ذلك الجرح فمات منه في طريقه بسرف مرجعه إلى مكة وجاء علي إلى رسول الله ﷺ بماء ليشرب منه فوجده آجنا فرده وغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه فأراد رسول الله ﷺ أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به فجلس طلحة تحته حتى صعدا وحانت الصلاة فصلى بهم جالسا وصار رسول الله ﷺ في ذلك اليوم تحت لواء الأنصار، وشد حنظلة الغسيل وهو حنظلة بن أبي عامر على أبي سفيان فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد بن الأسود فقتله وكان جنبا فإنه سمع الصيحة وهو على امرأته فقام من فوره إلى الجهاد فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله ثم قال: "سلوا أهله ما شأنه" فسألوا امرأته فأخبرتهم الخبر وجعل

الفقهاء هذا حجة أن الشهيد إذا قتل جنبا يغسل اقتداء بالملائكة، وقتل المسلمون حامل لواء المشركين فرفعته لهم عمرة بنت علقمة الحارثية حتى اجتمعوا إليه وقاتلت أم عمارة وهي نسيبة بنت كعب المازنية قتالا شديدا وضربت عمرو بن قمئة بالسيف ضربات فوقته درعان كانتا عليه وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحا شديدا على عاتقها، وكان عمرو بن ثابت المعروف بالأصيرم من بني عبد الأشهل يأبى الإسلام فلما كان يوم أحد قذف الله الإسلام في قلبه للحسنى التي سبقت له منه فأسلم وأخذ سيفه ولحق بالنبي ﷺ فقاتل فأثبت بالجراح ولم يعلم أحد بأمره فلما انجلت الحرب طاف بنو عبد الأشهل في القتلى يلتمسون قتلاهم فوجدوا الأصيرم وبه رمق يسير فقالوا: والله إن هذا الأصيرم ما جاء به لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ثم سألوه ما الذي جاء بك؟ أحذب على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام آمنت بالله ورسوله ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون ومات من وقته فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "هو من أهل الجنة" قال أبو هريرة: ولم يصل لله صلاة قط، ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قوام الإسلام بهم فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوءك فقال: قد كان في القوم مثله لم آمر بها ولم تسؤني ثم قال: أعل هبل فقال النبي ﷺ: "ألا تحييونه" فقالوا: ما نقول؟ قال: "قولوا: الله أعلى وأجل" ثم قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال: "ألا تحييونه" قالوا: ما نقول؟، قال: "قولوا: الله مولانا ولا

مولى لكم"، ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال فأجابه عمر فقال: لا سواء قتلتنا في الجنة وقتلناكم في النار، وقال ابن عباس: ما نصر رسول الله ﷺ في موطن نصره يوم أحد فأنكر ذلك عليه فقال: بيني وبين من ينكر كتاب الله إن الله يقول: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه}، وقال ابن عباس: والحس: القتل ولقد كان لرسول الله ﷺ ولأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب المشركين سبعة أو تسعة وذكر الحديث، وأنزل الله عليهم النعاس أمانة منه في غزاة بدر وأحد والنعاس في الحرب وعند الخوف دليل على الأمن وهو من الله وفي الصلاة ومجالس الذكر والعلم من الشيطان، وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله ﷺ ففي الصحيحين: عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد. ا.هـ.

غزوة حمراء الأسد: وكانت يوم الأحد لثمان خلون من شوال في السنة الثالثة للهجرة على رأس اثنين وثلاثين شهرا، ودخل المدينة يوم الجمعة وغاب خمسا. قالوا لما صلى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأحد ومعه وجوه الأوس والخزرج، وكانوا باتوا في المسجد على بابه - سعد بن عباد، وحباب بن المنذر وسعد بن معاذ، وأوس بن خولي وقتادة بن النعمان، وعبيد بن أوس في عدة منهم. فلما انصرف رسول الله ﷺ من الصبح أمر بلالا أن ينادي إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس.

قال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل: وكانت وقعة أحد يوم السبت في سابع شوال سنة ثلاث كما تقدم فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها بقية

شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فلما استهل هلال المحرم بلغه أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعوان بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ فبعث أبا سلمة وعقد له لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلا من الأنصار والمهاجرين فأصابوا إبلًا وشاء ولم يلقوا كيدا فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة.

فصل: فلما كان خامس المحرم بلغه أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي قد جمع له الجموع فبعث إليه عبد الله بن أنيس فقتله قال عبد المؤمن بن خلف: وجاءه برأسه فوضعه بين يديه فأعطاه عصا فقال: هذه آية بيني وبينك يوم القيامة فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه وكانت غيبته ثمان عشرة ليلة وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، فلما كان صفر قدم عليه قوم من عضل والقارة وذكروا أن فيهم إسلاما وسألوه أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فبعث معهم ستة نفر في قول ابن إسحاق وقال البخاري: كانوا عشرة وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي وفيهم خبيب بن عدي فذهبوا معهم فلما كانوا بالرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلًا فجاءوا حتى أحاطوا بهم فقتلوا عامتهم واستأسروا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فذهبوا بهما وباعوهما بمكة وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر فأما خبيب فمكث عندهم مسجونًا ثم أجمعوا قتله فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم فلما أجمعوا على صلبه قال: دعوني حتى أركع ركعتين فتركوه فصلاهما فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزع لزدت ثم قال: اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا... قبائلهم واستجمعوا كل مجمّع

وكلهم مُبْذِي العداوة جاهدا ... علي لأني في وثاقٍ بِمَضْمَعٍ
وقد قَرَّبُوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرَّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُنْعٍ
إلى الله أشكو غُرْبتي بعد كُرْبتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مَضْرَعِي
فذا العَرْشِ صَبْرُنِي على ما يُرَادُ بِي ... فَقَدْ بَصَّعُوا حَمِييَ وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وقد خَيَّرُونِي الكُفْرَ والموت دُونَهُ ... فَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعٍ
وما بِي حِذَارِ الموت إني لَمَيِّتٌ ... وإنَّ إِلَى رَبِّي إِيَابِي وَمَرْجِعِي
وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مسلما ... على أَيِّ شِقِّ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْجِعِي
وذلك في ذَاتِ الإله وإن يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعاً ... ولا جَزَعاً إِنِّي إِلَى اللَّهِ مَرْجِعِي

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمدا عندنا تضرب عنقه وإنك في أهلِكَ فقال: لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. وفي الصحيح: أن خبيبا أول من سن الركعتين عند القتل، وقد نقل أبو عمر بن عبد البر عن الليث بن سعد أنه بلغه عن زيد بن حارثة أنه صلاهما في قصة ذكرها وكذلك صلاهما حجر بن عدي حين أمر معاوية بقتله بأرض عذراء من أعمال دمشق، ثم صلبوا خبيبا ووكلوا به من يحرس جثته فجاء عمرو بن أمية الضمري فاحتمله بجذعه ليلا فذهب به فدفنه، ورئي خبيب وهو أسير يأكل قطفا من العنب وما بمكة ثمرة وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه، وأما موسى بن عقبة فذكر سبب هذه الواقعة أن رسول الله ﷺ بعث هؤلاء الرهط يتحسسون له أخبار قريش فاعترضهم بنو لحيان.

فصل: وفي هذا الشهر بعينه وهو صفر من السنة الرابعة كانت وقعة بئر معونة وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك المدعو ملاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد فقال: يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد فقال أبو براء: أنا جار لهم فبعث معه أربعين رجلا في قول ابن إسحاق وفي الصحيح: أنهم كانوا سبعين والذي في الصحيح: هو الصحيح وأمر عليهم المنذر بن عمرو - أحد بني ساعدة الملقب بالمعنق ليموت - وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم فنزلوا هناك ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه وأمر رجلا فطعنه بالحربة من خلفه فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال: فزت ورب الكعبة ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقيين فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء فاستنفر بني سليم فأجابته عصية ورعل وذكوان فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار فإنه ارتث بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة فنزل المنذر بن محمد فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه وأسر عمرو بن أمية الضمري فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه ورجع عمرو بن أمية فلما كان بالقرقرة من صدر قناة نزل في ظل شجرة وجاء رجلا من بني كلاب فنزلا معه فلما ناما فتك بهما عمرو وهو يرى أنه قد أصاب ثأرا من أصحابه وإذا معها عهد من رسول

الله ﷻ لم يشعر به فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينيهما، فكان هذا سبب غزوة بني النضير[١.هـ].

غزوة بني النضير: حدثت في السنة الرابعة للهجرة في ربيع الأول في منازل بني النضير جنوب المدينة المنورة ويهود بني النضير قيل بلغ عددهم ١٥٠٠ وأتت هذه الغزوة بعد محاولة يهود بني النضير محاولة اغتيال الرسول ﷺ فإنه خرج ﷻ إليهم ليعينوه في دية القتيلين اللذين قتلها عمرو بن أمية، لما بينه وبينهم من الحلف فقالوا: نعم وجلس هو وأبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه فاجتمع اليهود وتشاوروا وقالوا: من رجل يلقي على محمد هذه الرمح فيقتله؟ فانبعث أشقاها عمرو بن جحاش لعنه الله ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله يعلمه بما هموا به فنهض رسول الله ﷻ من وقته راجعا إلى المدينة ثم تجهز وخرج بنفسه لحربهم فحاصروهم ست ليال واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك في ربيع الأول.

غزوة ذات الرقاع وهي غزوة نجد: وقد غزا رسول الله ﷻ بنفسه هذه الغزوة، وذلك لما بلغه أن قبائل من نجد يتهيئون لحربه، فخرج إليهم ﷻ في جمادى الأولى من السنة الرابعة وقيل: في المحرم يريد محارب وبني ثعلبة بن سعد بن غطفان واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري وقيل: عثمان بن عفان وخرج في أربعمئة من أصحابه وقيل: سبعمئة فلقي جمعا من غطفان فتواقفوا ولم يكن بينهم قتال إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف، قال ابن القيم في (زاد المعاد) هكذا قال ابن إسحاق وجماعة من أهل السير والمغازي في تاريخ هذه الغزاة وصلاة الخوف بها وتلقاه الناس عنهم وهو مشكل جدا[١.هـ].

قال ابن إسحاق: حتى نزل نخلا، وهي غزوة ذات الرقاع. قال ابن هشام: وإنما قيل لها: غزوة ذات الرقاع، لأنهم رقعوا فيها راياتهم، ويقال ذات الرقاع: شجرة بذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع. وقيل: اسم لصخور فيها بقع حمر وبيض وسود في جبل بجهة نجد.

غزوة بدر الآخرة: كانت غزوة بدر الآخرة في شعبان سنة ٤ هـ، وتسمى هذه الغزوة ببدر الآخرة، وبدر الصغرى، وبدر الثانية، وبدر الموعد.

وذلك لما انصرف أبو سفيان ومن معه يوم أحد نادى: "إن موعدكم بدر"، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل: "نعم هو بيننا وبينك موعد".

قال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل: وقد تقدم أن أبا سفيان قال عند انصرافه من أحد: موعدكم وإيانا العام القابل ببدر فلما كان شعبان وقيل: ذو القعدة من العام القابل خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة وكانت الخيل عشرة أفراس وحمل لواءه علي بن أبي طالب واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة فأنتهى إلى بدر فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا فلما انتهوا إلى مر الظهران - على مرحلة من مكة - قال لهم أبو سفيان: إن العام عام جذب وقد رأيت أني أرجع بكم فانصرفوا راجعين وأخلفوا الموعد فسميت هذه بدر الموعد وتسمى بدر الثانية [١٠.هـ].

غزوة دومة الجندل: وهي جهة بين المدينة المنورة ودمشق، على بعد خمس ليال من دمشق وخمس عشرة ليلة من المدينة، بلغ محمد أن بها جمعا من الأعراب يعتدون على من

يمر بهم وأنهم يريدون القرب من المدينة، فخرج إليهم في ألف من أصحابه، وقعت غزوة دومة الجندل في ربيع أول سنة خمس للهجرة في منطقة دومة الجندل التي تقع على حدود الشام في منطقة الجوف شمال شرقي تبوك.

قال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل: في غزوة دومة الجندل، وهي بضم الدال، وأما دومة بالفتح فمكان آخر خرج إليها رسول الله ﷺ في ربيع الأول سنة خمس وذلك أنه بلغه أن بها جمعا كثيرا يريدون أن يدنوا من المدينة وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة وهي من دمشق على خمس ليال فاستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري وخرج في ألف من المسلمين ومعه دليل من بني عذرة يقال له: مذكور فلما دنا منهم إذا هم مغربون وإذا آثار النعم والشاء فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحدا فأقام بها أياما وبث السرايا وفرق الجيوش فلم يصب منهم أحدا فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن] اهـ.

غزوة المريسيع أو بني المصطلق: وهم حي من خزاعة ساعدوا قريشا على حرب المسلمين في غزوة أحد ثم تجمعوا لحرب المسلمين، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جمع كثير فالتقى الجمعان بجهة المريسيع وهو ماء لقبيلة خزاعة؛ فانهزم المشركون بين قتيل وأسير، وقد تزوج محمد جويرية بنت زعيمهم الحارث وأعتق سائر نسائهم، وفي أثناء رجوع المسلمين من هذه الغزوة حصلت حادثة الإفك المشهورة.

قال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل: في غزوة المريسيع وكانت في شعبان سنة خمس وسببها: أنه لما بلغه ٢ أن الحارث بن أبي ضرار سيد بن المصطلق سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ٢ فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم له ذلك فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله ٢ فأخبره خبرهم فندب رسول الله ٢ الناس فأسرعوا في الخروج وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها واستعمل على المدينة زيد بن حارثة وقيل: أباذر وقيل: نميلة بن عبد الله الليثي وخرج يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان وبلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ٢ وقتله عينه الذي كان وجهه ليأتيه بخبره وخبر المسلمين فخافوا خوفا شديدا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب وانتهى رسول الله ٢ إلى المريسيع وهو مكان الماء فضرب عليه قبته ومعه عائشة وأم سلمة فتهيؤوا للقتال وصف رسول الله ٢ أصحابه وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق وراية الأنصار مع سعد بن عباد فتراموا بالنبل ساعة ثم أمر رسول الله ٢ أصحابه فحملوا حملة رجل واحد فكانت النصره وانهمز المشركون وقتل من قتل منهم وسبى رسول الله ٢ النساء والذراير والنعم والشاء ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد هكذا قال عبد المؤمن بن خلف في سيرته وغيره وهو وهم فإنه لم يكن بينهم قتال وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذرايرهم وأموالهم كما في الصحيح: أغار رسول الله ٢ على بني المصطلق وهم غارون وذكر الحديث، وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبتها فأدى عنها رسول الله ٢ وتزوجها فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا وقالوا:

أصهار رسول الله ﷺ، قال ابن سعد: وفي هذه الغزوة سقط عقد لعائشة فاحتبسوا على طلبه فنزلت آية التيمم [١]. هـ.

فصل: قال المبار كفوري في (الرحيق المختوم): [البعوث والسرايا بعد غزوة المُريسيع:

١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بني كلب بدوامة الجندل، في شعبان سنة ٦ هـ. أقعده رسول الله ﷺ بين يديه وعممه بيده، وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب، وقال له: "إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم"، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن ثُمّاضر بنت الأصيغ، وهي أم أبي سلمة، وكان أبوها رأسهم وملكهم.

٢ - سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك، في شعبان سنة ٦ هـ. وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعاً يريدون أن يمدوا اليهود. فبعث إليهم علياً في مائتي رجل، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فأصاب عيناً لهم، فأقر أنهم بعثوه إلى خير يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خبير. ودل العين على موضع تجمع بني سعد، فأغار عليهم علي، فأخذ خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظعن، وكان رئيسهم وبر بن عليم.

٣ - سرية أبي بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادي القرى، في رمضان سنة ٦ هـ. كان بطن من فزارة يريد اغتيال النبي ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق. قال سلمة بن الأكوع: وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة، فوردنا الماء، فقتل أبو بكر من قتل، ورأيت طائفة وفيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، وفيهم امرأة هي أم

قِرْفَةً، عليها قَشْعٌ من أديم، معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فلم أكشف لها ثوبا، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قِرْفَةَ، فبعث بها إلى مكة، وفدي بها أسري من المسلمين هناك.

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي ﷺ، وجهزت ثلاثين فارساً من أهل بيتها لذلك، فلاقت جزاءها، وقتل الثلاثون.

٤ - سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرَيْنِيِّينَ، في شوال سنة ٦ هـ، وذلك أن رهطاً من عُكْلٍ وَعُرَيْنَةٍ أظهروا الإسلام، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها، فبعثهم رسول الله ﷺ في ذود في المراعي، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صَحُّوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ، واستاقوا الإبل، وكفروا بعد إسلامهم، فبعث في طلبهم كُرْزاً الفهري في عشرين من الصحابة، ودعا على العرينيين: "اللهم أعم عليهم الطريق، واجعلها عليهم أضيق من مَسَكٍ"، فعمي الله عليهم السبيل فأدركوا، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وُسِمِلَتْ أعينهم، جزاء وقصاصاً بما فعلوا، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا، وحديثهم في الصحيح عن أنس.

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمري مع سلمة بن أبي سلمة، في شوال سنة ٦ هـ. أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ؛ لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي ﷺ، بيد أن المبعوثين لم ينجحوا في الاغتيال، لا هذا، ولا ذاك. ويذكرون أن عمرا قتل في الطريق ثلاثة رجال، ويقولون: إن عمرا أخذ جثة الشهيد حُبَيْبٍ في هذا السفر، والمعروف أن حبيباً استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر، ووقعة الرجيع كانت في صفر سنة ٤ هـ، فلا أدري هل اختلط السفران على أهل السير، أو كان

الأمران في سفر واحد في السنة الرابعة، وقد أنكر العلامة المنصورفوري أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة. والله أعلم.

هذه هي السرايا والغزوات بعد الأحزاب، وبني قريظة، لم يجر في واحدة منها قتال مرير، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية، أو تحركات تأديبية؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد. ويظهر بعد التأمل في الظروف أن مجري الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم في انهيار متواصل، ولم يكن بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخضد شوكتها، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام، والتسجيل على بقائها في ربوع الجزيرة العربية[١] هـ.

غزوة الخندق وتُسمى أيضاً غزوة الأحزاب: وهي غزوة وقعت في شهر شوال من العام الخامس من الهجرة.

قال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل: وكان سبب غزوة الخندق أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أحد وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل خرج أشرافهم كسلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ ويؤلبونهم عليه ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم فأجابتهم قريش ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف ووافتهم بنو سليم بمر

الظهران وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه استشار الصحابة فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة فأمر رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون وعمل بنفسه فيه وبادروا هجوم الكفار عليهم وكان في حفره من آيات نبوته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به وكان حفر الخندق أمام سلع وسمع: جبل خلف ظهور المسلمين والخندق بينهم وبين الكفار، وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين فتحصن بالجبل من خلفه وبالخندق أمامهم، وقال ابن إسحاق: خرج في سبعمائة وهذا غلط من خروجه يوم أحد، وأمر النبي ﷺ بالنساء والذراري فجعلوا في أطام المدينة واستخلف عليها ابن أم مكتوم، وانطلق حيي بن أخطب إلى بني قريظة فدنا من حصنهم فأبى كعب بن أسد أن يفتح له فلم يزل يكلمه حتى فتح له فلما دخل عليه قال: لقد جئتكم بعز الدهر جئتكم بقريش وغطفان وأسد على قادتها لحرب محمد قال كعب: جئني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ ودخل مع المشركين في محاربته فسر بذلك المشركون وشرط كعب على حيي أنه إن لم يظفروا بمحمد أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه فيصبيه ما أصابه فأجابه إلى ذلك ووفى له به، وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد فبعث إليهم السعدين وخوات بن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوا: هل هم على عهدهم أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون وجاهروهم بالسب والعداوة ونالوا من رسول الله ﷺ فانصرفوا عنهم ولحقوا إلى

رسول الله ﷺ لحنا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا فعظم ذلك على المسلمين فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: "الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين" واشتد البلاء ونجم النفاق واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة وقالوا: {إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا} وهم بنو سلمة بالفشل ثم ثبت الله الطائفتين، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهرا ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وجماعة معه أقبلوا نحو الخندق فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فاقتحموه وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وطلع ودعوا إلى البراز فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب ؓ فبارزه فقتله الله على يديه وكان من شجعان المشركين وأبطالهم وانهزم الباقون إلى أصحابهم وكان شعار المسلمين يومئذ حم لا ينصرون، ولما طالت هذه الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يصلح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما وجرت المرافضة على ذلك فاستشار السعدين في ذلك فقالا: يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة وإن كان شيئا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو يبيعا فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف فصوب رأيها وقال: "إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة"، ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمرا من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم وقل حدهم فكان مما هيأ من ذلك أن

رجلا من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر ؓ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت فمرني بما شئت فقال رسول الله ﷺ: "إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة" فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة وكان عشيرا لهم في الجاهلية فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال: يا بني قريظة إنكم قد حاربتم محمدا وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن قالوا: لقد أشرت بالرأي ثم مضى على وجهه إلى قريش فقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم قالوا: نعم قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونهم عليكم فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك فلما كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلى اليهود: إنا لسنا بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صدقكم والله نعيم فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحدا فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم فتخاذل الفريقان وأرسل الله على المشركين جندا من الريح فجعلت تقوض خيامهم ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها ولا طنبا إلا قلعته ولا يقر لهم قرار وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم فوجدهم على هذه الحال وقد تهيؤوا

للرحيل فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيل القوم فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغیظه لم ينالوا خيرا وكفاه الله قتالهم فصدق وعده وأعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده فدخل المدينة ووضع السلاح فجاء جبريل عليه السلام وهو يغتسل في بيت أم سلمة فقال: أوضعتم السلاح إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها انفض إلى غزوة هؤلاء يعني بني قريظة فنأدى رسول الله ﷺ: "من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة" فخرج المسلمون سراعا وكان من أمره وأمر بني قريظة ما قدمناه واستشهد يوم الخندق ويوم قريظة نحو عشرة من المسلمين[١٠هـ].

غزوة بني قريظة: وكانت في السنة الخامسة من الهجرة، حيث توجه رسول الله ﷺ إلى يهود بني قريظة، بعد فراغه من غزوة الخندق، وذلك إثر الغدر الذي قامت به بنو قريظة مواطاة مع قريش وكفار العرب.

قال ابن القيم في (زاد المعاد): [وأما قريظة فكانت أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ وأغلظهم كفرا، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على إخوانهم. وكان سبب غزوهم أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة الخندق والقوم معه صلح جاء حيي بن أخطب إلى بني قريظة في ديارهم فقال قد جئكم بعز الدهر جئكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوك والسلاح فهلتم حتى نناجز محمدا ونفرغ منه فقال له رئيسهم بل جئني والله بذل الدهر جئني بسحاب قد أراق ماءه فهو يرعد ويبرق فلم يزل حيي يخادعه ويعدده ويمنيه حتى أجابه أصابهم ففعل ونقضوا عهد رسول الله ﷺ وأظهروا سبه فبلغ رسول الله ﷺ الخبر فأرسل يستعلم الأمر فوجدتهم قد نقضوا العهد فكبر وقال أبشروا يا معشر المسلمين][١٠هـ].

وفي هذه أخرج البخاري ومسلم حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ يَوْمَ الْحَنْدَقِ وَوَضَعَ السَّلَاحَ وَاعْتَسَلَ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الْعُبَارُ فَقَالَ وَضَعْتَ السَّلَاحَ فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَأَيْنَ" قَالَ هَاهُنَا وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ قَالَتْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وأمر النبي ﷺ أصحابه ٧ بالنفير إلى بني قريظة، وأكد عليهم في ذلك، حتى قال فيما أخرجه البخاري ومسلم عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: "لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ"، فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصَرَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يَرِدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنَّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ.

فانطلق ﷺ ومعه الصحابة الكرام ٧ حتى نزلوا بساحتهم، قال ابن القيم في (زاد المعاد): [وأعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ونازل حصون بني قريظة وحصرهم خمسا وعشرين ليلة ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد في دينه وإما أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا إليه بالسيوف مصلته يناجزونه حتى يظفروا به أو يقتلوا عن آخرهم وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه فأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهن فبعثوا إليه أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيره فلما رأوه قاموا في وجهه يبكون وقالوا: يا أبا لبابة كيف ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ فقال نعم وأشار بيده إلى حلقه يقول إنه الذبح ثم علم من فوره أنه قد خان الله ورسوله فمضى على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد مسجد المدينة، فربط

نفسه بسارية المسجد وحلف ألا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبدا، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك قال: "دعوه حتى يتوب الله عليه"، ثم تاب الله عليه وحله رسول الله ﷺ بيده ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فقامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء مواليينا، فأحسن فيهم فقال ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم قالوا: بلى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا: قد رضينا، فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم لجرح كان به فأركب حمارا وجاء إلى رسول الله ﷺ فجعلوا يقولون له وهم كنفته يا سعد أجمل إلى مواليك، فأحسن فيهم فإن رسول الله ﷺ قد حكمك فيهم لتحسن فيهم وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئا، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة، فنعى إليهم القوم فلما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابه قوموا إلى سيدكم فلما أنزلوه قالوا: يا سعد إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك، قال وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال على من ها هنا وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالا له وتعظيما؟ قال: "نعم وعلي". قال فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال فقال رسول الله ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول وهرب عمرو بن سعد، فانطلق فلم يعلم أين ذهب وكان قد أبى الدخول معهم في نقض العهد فلما حكم فيهم بذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من جرت عليه الموسى منهم ومن لم ينبت ألحق بالذرية فحفر لهم خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناقهم وكانوا ما بين الستائة

إلى السبعمائة ولم يقتل من النساء أحد سوى امرأة واحدة كانت طرحت على رأس
سويد بن الصامت رحي، فقتلته وجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالا أرسالا، فقالوا
لرئيسهم كعب بن أسد: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ فقال أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما
ترون الداعي لا ينزع والذاهب منكم لا يرجع هو والله القتل. قال مالك في رواية ابن
القاسم: قال عبد الله بن أبي لسعد بن معاذ في أمرهم إنهم أحد جناحي وهم ثلاثمائة
دارع وستمائة حاسر فقال قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ولما جيء بحبي بن
أخطب إلى بين يديه ووقع بصره عليه قال أما والله ما ملت نفسي في معاداتك، ولكن من
يغالب الله يغلب ثم قال يا أيها الناس لا بأس قدر الله وملحمة كتبت على بني إسرائيل
ثم حبس فضربت عنقه. واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله من
رسول الله فوهبهم له فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك لي رسول الله ﷺ ووهب لي
مالك وأهلك، فهم لك. فقال سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحبة فضرب
عنقه وألحقه بالأحبة من اليهود، فهذا كله في يهود المدينة، وكانت غزوة كل طائفة منهم
عقب كل غزوة من الغزوات الكبار. فغزوة بني قينقاع عقب بدر، وغزوة بني النضير
عقب غزوة أحد، وغزوة بني قريظة عقب الخندق. وأما يهود خيبر، فسيأتي ذكر قصتهم
إن شاء الله تعالى[١.أ.هـ].

غزوة بني لحيان: قال ابن القيم في (زاد المعاد): [ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني
لحيان بعد قريظة بستة أشهر ليغزوهم فخرج رسول الله ﷺ في مائتي رجل وأظهر أنه
يريد الشام واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن
گران واد من أودية بلادهم وهو بين أمج وعسفان حيث كان مصاب أصحابه فترحم

عليهم ودعا لهم وسمعت بنو لحيان فهربوا في رءوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد فأقام يومين بأرضهم وبعث السرايا فلم يقدرُوا عليهم فسار إلى عسفان فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش ثم رجع إلى المدينة وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة [١٠هـ].

غزوة الغابة وتسمى بـ (ذي قُرد): قال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل في غزوة الغابة: ثم أغار عيينة بن حصن الفزاري في بني عبد الله بن غطفان على لقاح النبي ﷺ التي بالغابة فاستاقها وقتل راعيها وهو رجل من عسفان واحتملوا امرأته قال عبد المؤمن بن خلف وهو ابن أبي ذر وهو غريب جدا فجاء الصريخ ونودي يا خيل الله اركبي وكان أول ما نودي بها وركب رسول الله ﷺ مقنعا في الحديد فكان أول من قدم إليه المقداد بن عمرو في الدرع والمغفر فعقد له رسول الله ﷺ اللواء في رمحهِ وقال " امض حتى تلحقك الخيول إنا على أثرك " واستخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم وأدرك سلمة بن الأكوع القوم وهو على رجليه فجعل يرميهم بالنبل ويقول:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

حتى انتهى إلى ذي قرد وقد استنقذ منهم جميع اللقاح وثلاثين بردة قال سلمة فلحقنا رسول الله ﷺ والخيل عشاء فقلت يا رسول الله إن القوم عطاش فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما في أيديهم من السرح وأخذت فقال رسول الله ﷺ: "ملككت فأسجح" ثم قال "إنهم الآن ليقرون في غطفان". وذهب الصريخ بالمدينة إلى بني عمرو بن عوف فجاءت الأمداد ولم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ بذي قرد. قال عبد المؤمن بن خلف فاستنقذوا عشر لقاح

وأفلت القوم بما بقي وهو عشر. قلت: وهذا غلط بين والذي في "الصحيحين": أنهم استنقذوا اللقاح كلها، ولفظ مسلم في "صحيحه" عن سلمة: حتى ما خلق الله من شيء من لقاح رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهره واستلبت منهم ثلاثين بردة [١٠هـ].

فصل: قال المباركفوري في كتابه (الرحيق المختوم): [ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعوث والسرايا، وهاك صورة مصغرة منها:

١ - سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ. خرج عكاشة في أربعين رجلاً إلى الغمر، ماء لبني أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة.

٢ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ. خرج ابن مسلمة في عشرة رجال إلى ذي القصة في ديار بني ثعلبة، فكمن القوم لهم - وهم مائة - فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحاً.

٣ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة في ربيع الآخر سنة ٦هـ، وقد بعثه النبي ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة، فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا بني ثعلبة مع الصبح فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم، وغنموا نَعْمًا وشاء .

٤ - سرية زيد بن حارثة إلى الجُمُوم في ربيع الآخر سنة ٦هـ - والجموم ماء لبني سليم في مَرِّ الظَّهْرَانِ - خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مُزَيْنَةَ يقال لها : حليمة، فدلّتهم على محلة من بني سليم أصابوا فيها نَعْمًا وشاء وأسري، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله ﷺ للمزينة نفسها وزوجها.

٥ - سرية زيد إلى العيص في جمادي الأولى سنة ٦ هـ في سبعين ومائة راكب، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص خَتَنَ رسول الله ﷺ . وأفلت أبو العاص، فأتي زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف، كما ثبت في الحديث الصحيح ردها بالنكاح الأول ؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد، أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معني، كما أنه ليس بصحيح سنداً . والعجب ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف فإنهم يقولون: إن أبا العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح. ثم يناقضون أنفسهم، فيقولون: إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان، وقد بسطنا الكلام شيئاً في تعليقنا على بلوغ المرام. وجنح موسى بن عقبة إلى أن هذا الحادث وقع في سنة ٧ هـ من قبل أبي بصير وأصحابه، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف .

٦ - سرية زيد أيضاً إلى الطَّرَفِ أو الطَّرِيقِ في جمادي الآخر سنة ٦ هـ . خرج زيد في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم، فأصاب من نَعَوْهم عشرين بعيراً، وغاب أربع ليال.

٧ - سرية زيد أيضاً إلى وادي القرى في رجب سنة ٦ هـ . خرج زيد في اثني عشر رجلاً إلى وادي القرى؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادي القرى؛ فقتلوا تسعة، وأفلتت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة.

٨ - سرية الحَبْط - تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨ هـ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية - قال جابر: بعثنا النبي ﷺ في ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقي إلينا البحر دابة يقال لها: العَنْبَرُ، فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهَنَّا منه حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك، فقال: "هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا" فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه.

وإنما قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنها كانت قبل الحديبية؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية [١.١.هـ].

غزوة الحديبية: ولم يقع فيها قتال، بل وقع فيها الصلح المشهور بين النبي ﷺ وكافر قريش، الذي سماه الله تعالى فتحاً ونزلت فيها سورة الفتح، {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح: ١]، وجرى فيها ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي وإيل قَالَ قَامَ سَهْلُ بْنُ حَنْفٍ يَوْمَ صِفِّينَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَفَاتَلْنَا وَذَلِكَ فِي الصُّلْحِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ قَالَ: "بَلَى". قَالَ أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ قَالَ: "بَلَى". قَالَ فَفِيمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَخْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَقَالَ: "يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا". قَالَ فَاذْهَبْ عُمَرُ فَلَمْ يَصْبِرْ مُتَغَيِّظًا فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ قَالَ بَلَى. قَالَ أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ قَالَ بَلَى. قَالَ فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَخْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا. قَالَ فَتَزَلِ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْفَتْحِ فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْفَتْحْ هُوَ قَالَ: "نَعَمْ". فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ.

وجاء في صحيح البخاري: باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ قَالَ أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَحْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخَذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْجَيْشِ فَاذْهَبُوا يَرْكُضُونَ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتٌ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ فَالْحَتَّ فَقَالُوا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ قَالَ فَعَدَلَ

عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلٍ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا فَلَمْ يَلْبِثْهُ
النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشَكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ فَانْتَرَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ
أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَحْيِشُ لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ
بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيِّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةٍ وَكَانُوا عَيْبَةً نُصَحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ
أَهْلِ تِهَامَةٍ فَقَالَ إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ
وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ وَهُمْ مُقَاتِلُونَكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّا لَمْ نَجِئْ
لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتُهُمُ الْحَرْبُ وَأَصْرَتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاءُوا
مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيَحْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرُوا فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ
النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا قَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا
حَتَّى تَنْفِرَ سَالِفَتِي وَلَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ فَقَالَ بُدَيْلٌ سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ قَالَ فَاَنْطَلَقَ حَتَّى أَتَى
قُرَيْشًا قَالَ إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ
عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا فَقَالَ سَفَهَاؤُهُمْ لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ نُخْبِرَنَّا عَنْهُ بِشَيْءٍ وَقَالَ ذُو الرَّاْيِ مِنْهُمْ
هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَامَ عُرْوَةُ
بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَيُّ قَوْمٍ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ قَالُوا بَلَى قَالَ أَوَلَسْتُمْ بِالْوَلَدِ قَالُوا بَلَى قَالَ فَهَلْ
تَتَّهَمُونِي قَالُوا لَا قَالَ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّ اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَازٍ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ
بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ أَقْبَلُوهَا
وَدَعُونِي آتِيهِ قَالُوا آتِيهِ فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ
فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ أَيُّ مُحَمَّدٌ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ
الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرَى وَجُوهًا وَإِنِّي لَا أَرَى أَوْشَابًا

مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدْعُوكَ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ امْضُصْ بِظُرِّ اللَّاتِ أَنْحُرْ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدَعُهُ فَقَالَ مَنْ ذَا قَالُوا أَبُو بَكْرٍ قَالَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدُكَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبَتِكَ قَالَ وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَلَّمَا تَكَلَّمَ أَحَدٌ بِلِحْيَتِهِ وَالْمُغِيرَةُ بِنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السِّيفُ وَعَلَيْهِ الْمَغْفَرُ فَكَلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدُهُ بِنَعْلِ السِّيفِ وَقَالَ لَهُ أَخَّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ مَنْ هَذَا قَالُوا الْمُغِيرَةُ بِنُ شُعْبَةَ فَقَالَ أَيُّ غَدْرٍ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحْبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا تَنْحَمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَيُّ قَوْمٍ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَاللَّهِ إِنْ تَنْحَمُ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَأَقْبِلُوهَا فَقَالَ رَجُلٌ مِّنْ بَنِي كِنَانَةَ دَعُونِي آتِيهِ فَقَالُوا ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبُذْنَ فَابْعَثُوها لَهُ فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي هَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى

أَصْحَابِهِ قَالَ رَأَيْتُ الْبُذْنَ قَدْ قُلِدَتْ وَأُشْعِرَتْ فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مَكْرُزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ دَعُونِي آتِيهِ فَقَالُوا اتَّبِعْهُ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا مَكْرُزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ مَعْمَرُ فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ قَالَ مَعْمَرُ قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا هُوَ وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قَالَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفَ بِهِ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أَخَذْنَا ضُغْطَةً وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا قَالَ الْمُسْلِمُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ سُهَيْلٌ هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ قَالَ فَوَاللَّهِ إِذَا لَمْ أَصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَجَزَهُ لِي قَالَ مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ قَالَ بَلَى فافْعَلْ قَالَ

مَا أَنَا بِفَاعِلٍ قَالَ مَكْرَزُ بَلْ قَدْ أَجَزْنَاكَ لَكَ قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ أَيُّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرِدُّ إِلَى الْمَشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ تُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا قَالَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي قُلْتُ أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَتَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ قَالَ فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ تُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِعَرْزِهِ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قُلْتُ أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ قَالَ عُمَرُ فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا قَالَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا قَالَ فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ حَتَّى بَلَغَ بَعْضُ الْكُوفَرِ} فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ

وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ۚ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ فَقَالُوا الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَتَزَلُّوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمَرٍ هُمْ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فَلَانُ جَيِّدًا فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ فَقَالَ أَجَلُ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ فَضْرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ۚ حِينَ رَأَاهُ لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ۚ قَالَ قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمُقْتُولٌ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهِ ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ قَالَ النَّبِيُّ ۚ وَيْلُ أُمِّهِ مَسْعَرٌ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُّدُهُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ قَالَ وَيَنْفَلْتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سُهَيْلٍ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةُ فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَفَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ۚ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ۚ إِلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَلَغَ الْحِمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} وَكَانَتْ حِمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ {مَعَرَّةٌ} الْعُرُّ الْجَرْبُ {تَزَيَّلُوا} تَمَيَّزُوا وَحَمَيْتُ الْقَوْمَ مَنَعْتُهُمْ حِمَايَةً وَأَحْمَيْتُ الْحِمَى جَعَلْتُهُ حِمًى لَا يُدْخَلُ وَأَحْمَيْتُ الْحَدِيدَ وَأَحْمَيْتُ الرَّجُلَ إِذَا أَغْصَبَتْهُ إِحْمَاءٌ.

غزوة خيبر: قال موسى بن عقبة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة أو قريبا منها ثم خرج غازيا إلى خيبر وكان الله عز وجل وعده إياها وهو بالحديبية. وقال مالك: كان فتح خيبر في السنة السادسة والجمهورية على أنها في السابعة، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة فلما تصاف القوم خرج مرحب يخطر بسيفه وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب إذا الحروب أقبلت تلهب.
فتزل إليه عامر بن الأكوع وهو يقول قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل
مغامر، فاختلفا ضربتين فوق سيف مرحب في ترس عامر فذهب عامر يسفل له وكان
سيف عامر فيه قصر فرجع عليه ذباب سيفه فأصاب عين ركبتة فمات منه فقال سلمة
للنبي ﷺ زعموا أن عامرا حبط عمله فقال: "كذب من قاله إن له أجرين" وجمع بين
أصبعيه: "إنه لجاهد مجاهد قل عربي مشى بها مثله".

ولما قدم رسول الله ﷺ خيبر صلى بها الصبح وركب المسلمون فخرج أهل خيبر
بمساحيهم ومكاتلهم ولا يشعرون بل خرجوا لأرضهم فلما رأوا الجيش قالوا: محمد
والله محمد والخميس ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم فقال النبي ﷺ: "الله أكبر خربت
خيبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين" ولما دنا النبي
ﷺ وأشرف عليها قال "قفوا" فوقف الجيش فقال: "اللهم رب السماوات السبع وما
أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن فإننا نسألك خير
هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما
فيها أقدموا بسم الله"، ولما كانت ليلة الدخول قال لأعطين هذه الراية غدا رجلا يحب

الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم"، فخرج مرحب وهو يقول

أنا الذي سمتني أمي مرحب شاكى السلاح بطل مجرب إذا الحروب أقبلت تلهب.
فبرز إليه علي وهو يقول: أنا الذي سمتني أمي حيدر كليل غابات كرية المنظره
أوفيههم بالصاع كيل السندره.

فضرب مرحبا ففلق هامته وكان الفتح. قال موسى بن عقبة: ثم دخل اليهود حصنا لهم منيعا يقال له القموص فحاصروهم رسول الله ﷺ قريبا من عشرين ليلة وكانت أرضا وخمة شديدة الحر فجهد المسلمون جهدا شديدا فذبخوا الحمر فنهاهم رسول الله ﷺ عن أكلها وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر كان في غنم لسيده فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي فوق في نفسه ذكر النبي ﷺ فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال ماذا تقول وما تدعو إليه؟ قال أدعو إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن لا تعبد إلا الله. قال العبد فما لي إن شهدت وآمنت بالله عز وجل؟ قال لك الجنة إن مت على ذلك فأسلم ثم قال يا نبي الله إن هذه الغنم عندي أمانة فقال له رسول الله ﷺ

أخرجها من عندك وارمها بالحصباء فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم فقام رسول الله ﷺ في الناس فوعظهم وحضهم على الجهاد فلما التقى المسلمون واليهود قتل فيمن قتل العبد الأسود فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط ثم أقبل على أصحابه وقال لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ولم يصل الله سجدة قط.

قال الواقدي: وتحولت اليهود إلى قلعة الزبير: حصن منيع في رأس قلة فأقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام فجاء رجل من اليهود يقال له عزال فقال يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرا ما بالوا إن لهم شرابا وعيونا تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعته فيمتنعون منك فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك فساد رسول الله ﷺ إلى مائهم فقطعه عليهم فلما قطع عليهم خرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين نفر وأصيب نحو العشرة من اليهود وافتتحه رسول الله ﷺ ثم تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلام حصن ابن أبي الحقيق فتحصن أهله أشد التحصن وجاءهم كل فل كان انهزم من النطة والشق فإن خير كانت جانين الأول الشق والنطة وهو الذي افتتحه أولا والجانب الثاني: الكتيبة والوطيح والسلام فجعلوا لا يخرجون من حصونهم حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوما سألوا رسول الله ﷺ الصلح وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ انزل فأكلمك؟ فقال رسول الله ﷺ "نعم" فنزل ابن أبي الحقيق فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة

وترك الذرية لهم ويخرجون من خير وأرضها بذرايرهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة إلا ثوبا على ظهر إنسان فقال رسول الله ﷺ "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتموني شيئا" فصالحوه على ذلك قال حماد بن سلمة: أنبأنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خير حتى ألجأهم إلى قصرهم فغلب على الزرع والنخل والأرض فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد فغيبوا مسكا فيه مال وحلي لحبي بن أخطب كان احتمله معه إلى خير حين أجليت النضير فقال رسول الله ﷺ لعم حبي بن أخطب: "ما فعل مسك حبي الذي جاء به من النضير". قال أذهبت النفقات والحروب، فقال: "العهد قريب والمال أكثر من ذلك"، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال: "قد رأيت حيا يطوف في خربة ها هنا"، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حبي بن أخطب وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذرايرهم وقسم أموالهم بالنكت الذي نكتوا وأراد أن يجليلهم منها فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها وكانوا لا يفرغون يقومون عليها فأعطاهم خير على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم. وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم كما تقدم. ولم يقتل رسول الله ﷺ بعد الصلح إلا ابني أبي الحقيق للنكت الذي نكتوا فإنهم شرطوا إن غيبوا أو كتموا فقد

برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله فغيبوا فقال لهم أين المال الذي خرجتم به من المدينة حين أجليناكم؟ قالوا: ذهب فحلفوا على ذلك فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير يعذبه فدفع رسول الله ﷺ كنانة إلى محمد بن مسلمة فقتله ويقال إن كنانة هو كان قتل أخاه محمود بن مسلمة خبير على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم كما تقدم. ولم يقتل رسول الله ﷺ بعد الصلح إلا ابني أبي الحقيق للنكت الذي نكثوا فإنهم شرطوا إن غيبوا أو كتموا فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله فغيبوا فقال لهم أين المال الذي خرجتم به من المدينة حين أجليناكم؟ قالوا: ذهب فحلفوا على ذلك فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير يعذبه فدفع رسول الله ﷺ كنانة إلى محمد بن مسلمة فقتله ويقال إن كنانة هو كان قتل أخاه محمود بن مسلمة. وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب وابنة عمتها وكانت صفية تحت كنانة بن أبي الحقيق وكانت عروسا حديثة عهد بالدخول فأمر بلال أن يذهب بها إلى رحله فمر بها بلال وسط القتلى فكره ذلك رسول الله ﷺ وقال أذهب الرحمة منك يا بلال وعرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام فأسلمت فاصطفأها لنفسه وأعتقها وجعل عتقها صداقها وبنى بها في الطريق وأولم عليها ورأى بوجهها خضرة فقال ما هذا؟ قالت يا رسول الله أريت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه فسقط في حجري ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا فقصصتها على زوجي فلطم وجهي وقال تمنين هذا الملك الذي بالمدينة وشك الصحابة هل اتخذها سرية أو زوجة؟ فقالوا: انظروا إن حجبها فهي إحدى نسائه وإلا فهي مما ملكت يمينه فلما ركب جعل ثوبه الذي ارتدى

به على ظهرها ووجهها ثم شد طرفه تحته فتأخروا عنه في المسير وعلموا أنها إحدى نسائه. ١. هـ. انتهى مختصراً من كلام ابن القيم (في زاد المعاد).

غزوة عمرة القضاء: قال الماركةفوري في كتابه (الرحيق المختوم): [عمرة القضاء: قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه ٢ لما هَلَكَ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وألا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوي النساء والصبيان. ١. هـ.

واستخلف على المدينة عُوَيْفُ بْنُ الْأَضْبَطِ الدَّيْلِيُّ، أو أَبَا رُحْمَ الغفاري، وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جُنْدُبِ الْأَسْلَمِيِّ، وأحرم للعمرة من ذي الحُلَيْفَةِ، ولبي، ولبي المسلمون معه، وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة، خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يَأْجُجَ وضع الأداة كلها: الْحَجَفَ وَالْمِجَانَ وَالنَّبْلَ وَالرَّمَاخَ، وخلف عليها أوس بن خُوَلِيٍّ الأنصاري في مائتي رجل، ودخل بسلاح الراكب: السيوف في القُرْبِ.

وكان رسول الله ٢ عند الدخول راكباً على ناقته القَصُوءِ، والمسلمون متوشحون السيوف، محدقون برسول الله ٢ يلبون. وخرج المشركون إلى جبل قُعَيْقَعَانَ - الجبل الذي في شمال الكعبة - ليروا المسلمين، وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمي يثرب، فأمر النبي ٢ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنتين. ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، وإنما أمرهم بذلك ليري المشركين قوته كما أمرهم بالاضطباع، أي أن يكشفوا المناكب اليمنى، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الشّية التي تطلعه على الحُجُون - وقد صف المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بِمَحْجَنِهِ، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحاً بالسيف :

وفي حديث أنس فقال عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: "خَلَّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل".
وَرَمَلَ رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

ولما فرغ من الطواف سعي بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعي، وقد وقف الهدي عند المروة، قال: "هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر"، فنحر عند المروة، وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناساً إلى يَأْجُج، ليقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ، ونزل بِسَرَفٍ فأقام بها.
ولما أراد الخروج من مكة تبعته ابنة حمزة، تنادى، يا عم يا عم، فتناولها علي، واختصم فيها على وجعفر وزيد، فقضي النبي ﷺ لجعفر؛ لأن خالتها كانت تحته.

وفي هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي، فبني بها بسرف.

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحُدَيْبِيَّةِ، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة - أي المصالحة - التي وقعت في الحديبية، والوجه الثاني رجحه المحققون، وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقَضِيَّة، والقصاص، والصُّلح.

وقد أرسل رسول الله ﷺ بعد الرجوع من هذه العمرة عدة سرايا، وهي كما يلي:

- ١ - سرية ابن أبي العوجاء، في ذي الحجة سنة ٧ هـ في خمسين رجلاً. بعثه رسول الله ﷺ إلى بني سُليَم؛ ليدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالاً شديداً. جرح فيه أبو العوجاء، وأسر رجلان من العدو.
- ٢ - سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك، في صفر سنة ٨ هـ. بعث في مائتي رجل، فأصابوا من العدو نعيماً، وقتلوا منهم قتلي.
- ٣ - سرية ذات أطلح في ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو قُصَاعَةَ قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلاً، فلقوا العدو، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهد كلهم إلا رجل واحد، فقد أُرْتُثَّ من بين القتلى.
- ٤ - سرية ذات عِرْق إلى بني هوازن، في ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى فأرسل إليها شُجَاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلاً، فاستاقوا نعيماً من العدو، ولم يلقوا كيداً.

معركة مؤتة: قال المباركفوري في (الرحيق المختوم): [وهذه المعركة أكبر لقاء مُثْنِ، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ، وهي مقدمة

وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت في جمادي الأولى سنة ٨ هـ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٩٢٦ م. و(مؤتة) بالضم فالسكون هي قرية بأدنى بقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بُصْرِي. فعرض له شُرْحِيل بن عمرو الغساني - وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطاً، ثم قدمه، فضرب عنقه.

وكان قتل السفراء والرسول من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب.

أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم: أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: "إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة"، وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: "اغزوا بسم الله، في سبيل الله، مَنْ كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، ولا تهدموا بناء".

توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبد الله بن رواحة: ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس، وودعوا أمراء رسول الله ﷺ، وسلموا عليهم، وحينئذ بكى أحد

أمراء الجيش - عبد الله بن رواحة - فقالوا: ما يبيكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صباة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: {وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا}، فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن معفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رشدا
ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودّعهم.

تحرك الجيش الإسلامي، ومباغتته حالة رهيبة: وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل مَعَان، من أرض الشام، مما يلي الحجاز الشمالي، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَحْمٍ وَجُذَامٍ وَبَلَقَيْنَ وَبِهْرَاءٍ وَبَلِي مائة ألف.

المجلس الاستشاري بمَعَان: لم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم - الذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة - وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب، على جيش كبير عرمرم مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون، وأقاموا في مَعَان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون

ويتشاورون، ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بعدد عدونا، فإذا أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وشجع الناس، قائلاً: يا قوم، والله إن التي تكروهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيراً استقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو: وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليلتين في معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها: (شَارِف) ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبؤوا للقتال، فجعلوا على ميمتهم قُطْبَةَ بن قتادة العُذْرِي، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري.

بداية القتال، وتناوب القواد: وهناك في مؤتة التقي الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل. معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيذان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة - حِبُّ رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاوم حتى شاط في رماح القوم، وخر صريعاً.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظر، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعفرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية

بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعصديه، فلم يزل رافعاً إياها حتى قتل. يقال: إن رومياً ضربه ضربةً قطعتة نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء؛ ولذلك سمي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين.

روى البخاري عن نافع؛ أن ابن عمر أخبره: أنه وقف على جعفر يؤمئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره، يعني ظهره.

وفي رواية أخرى قال ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية. وفي رواية العمري عن نافع زيادة: (فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده).

ولما قتل جعفر بعد أن قاتل بمثل هذه الضراوة والبسالة، أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، حتى حاد حيدة ثم قال:

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألماه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

الراية إلى سيف من سيوف الله: وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان - اسمه ثابت بن أقرم - فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريراً، فقد روي البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة

تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية. وفي لفظ آخر: لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية.

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مخبراً بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال: "أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم".

نهاية المعركة: ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضرارة الميريتين، كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أما تيارات ذلك البحر الغظم من جيوش الروم. ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه.

واختلفت الروايات كثيراً فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيراً. ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال. وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقي الرعب في قلوب الرومان حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة. فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من برائتهم صعب جداً لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقه، وميمينته ميسرة، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد - بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة - يتأخر بالمسلمين قليلاً

قليلاً، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدمونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء. وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة. قتلى الفريقين: واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، أما الرومان، فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم [١٠هـ].

سرية ذات السلاسل: قال المباركفوري في (الرحيق المختوم): [ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية - التي تقطن مشارف الشام - في معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان، وتكون سبباً للاتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من يلي. فبعثه إليهم في جمادي الآخرة سنة ٨ هـ على إثر معركة مؤتة؛ ليستألفهم، ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعاً من قُضَاعَةَ قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليه، ويمكن أن يكون السببان اجتماعاً معاً.

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن مر به من يلي وعُدْرَةَ وَبُلْقَيْنَ. فسار الليل وَكَمَنَ النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مَكِيثٍ الْجُهَنِيَّ إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة

بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمر، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا . فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت على مددا، وأنا الأمير، فأطاعه أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس.

وسار حتى وطئ بلاد قُصَاعَةَ، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعاً، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا . وبعث عوف بن مالك الأشجعي بربداً إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم، وما كان في غزاتهم.

وذات السلاسل بضم السين الأولى وفتحها: لغتان، بقعة وراء وادي القُرى، بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جُدَامَ يقال له: السلسل، فسمي ذات السلاسل.

سرية أبي قتادة إلى خضرة: كانت هذه السرية في شعبان سنة ٨ هـ ؛ وذلك لأن بني غَطَفَانَ كانوا يتحشدون في خَضِرَةَ - وهي أرض مُحَارِبَ بَنَجْدَ - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً، فقتل منهم، وسبى وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة [١.هـ].

غزوة الفتح فتح مكة: وفيها جاء ما في صحيح مسلم حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ قُرُوحَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا ثَابِتُ الْبُنَائِي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَاحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ وَفَدَتْ وَفُودٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ فَكَانَ يَصْنَعُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ الطَّعَامَ فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُونَا إِلَى رَحْلِهِ فَقُلْتُ أَلَا أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوهُمْ إِلَى رَحْلِي فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ

يُصْنَعُ ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ الْعَشِيِّ فَقُلْتُ الدَّعْوَةُ عِنْدِي اللَّيْلَةَ فَقَالَ سَبَقْتَنِي. قُلْتُ نَعَمْ. فَدَعَوْتُهُمْ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَلَا أَعْلِمُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ثُمَّ ذَكَرَ فَتَحَ مَكَّةَ فَقَالَ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنَّبَتَيْنِ وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنَّبَةِ الْأُخْرَى وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسْرِ فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كَتِيبَةٍ - قَالَ - فَنَظَرَ فَرَأَانِي فَقَالَ «أَبُو هُرَيْرَةَ». قُلْتُ لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِي». زَادَ غَيْرُ شَيْئَانِ فَقَالَ: «اهْتَفِ لِي بِالْأَنْصَارِ». قَالَ فَأَطَاعُوا بِهِ وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا وَاتَّبَاعًا. فَقَالُوا نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ. وَإِنْ أَصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سَأَلْنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَاتَّبَاعِهِمْ». ثُمَّ قَالَ يَبْدِيهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ثُمَّ قَالَ: «حَتَّى تُؤَافُونِي بِالصَّفَا». قَالَ فَاَنْطَلَقْنَا فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا - قَالَ - فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُبَيِّحَتْ خَضِرَاءُ قُرَيْشٍ لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ. ثُمَّ قَالَ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ». فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرِيَّتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَنْقُضِيَ الْوَحْيُ فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ». قَالُوا لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرِيَّتِهِ». قَالُوا قَدْ كَانَ ذَاكَ. قَالَ: «كَلَّا إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ». فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ وَاللَّهِ مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضَّنَّ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانَكُمْ وَيَعِذُّرَانَكُمْ». قَالَ فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَغْلَقَ النَّاسُ

أَبْوَابُهُمْ - قَالَ - وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ - قَالَ - فَأَتَى عَلَى صَنْمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ - قَالَ - وَفِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْسٌ وَهُوَ آخِذٌ بِسِيَةِ الْقَوْسِ فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَمِ جَعَلَ يَطْعُمُهُ فِي عَيْنِهِ وَيَقُولُ: "جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ". فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَتَى الصَّفَا فَعَلَا عَلَيْهِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيَدْعُو بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُو.

وقال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل في الفتح الأعظم: الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس به في دين الله أفواجا وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجا خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضيئ من رمضان واستعمل على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري. وقال ابن سعد: بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم.

(سببه هو إعانة قريش بني بكر على خزاعة الداخلة في عهده ﷺ): وكان السبب الذي جر إليه وحدا إليه فيما ذكر إمام أهل السير والمغازي والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار أن بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة عدت على خزاعة وهم على ماء يقال له الوثير: فبيتوهم وقتلوا منهم وكان الذي هاج ذلك أن رجلا من بني الحضرمي يقال له مالك بن عباد خرج تاجرا فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله فعدت بنو بكر على رجل من بني خزاعة فقتلوه فعدت خزاعة على بني الأسود وهم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم هذا كله قبل المبعث فلما بعث

رسول الله ﷺ وجاء الإسلام حجاز بينهم وتشاغل الناس بشأنه فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش وقع الشرط أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده فلما استمرت الهدنة اغتنمها بنو بكر من خزاعة وأرادوا أن يصيبوا منهم الثأر القديم.

(خروج عمرو الخزاعي لطلب النصرة منه ﷺ): فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر فبيت خزاعة وهم على الوتير فأصابوا منهم رجالا وتناوشوا واقتتلوا وأعانت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيا ليلا ذكر ابن سعد منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص حتى حازوا خزاعة إلى الحرم فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة لا إله له اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيرون ثأركم فيه؟، فلما دخلت خزاعة مكة لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له رافع ويخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراي أصحابه فقال:

يا رب إني ناشدا محمدا ... حَلَفَ أَيْبِنَا وَأَيْبِهِ الْأَتْلَدَا

قد كنتم وكُنا وَالِدَا ... ثَمَّتَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا

فانصر هداك الله نصرا أَبَدَا ... وادع عباد الله يأتوا مَدَدَا

فيهم رسولُ الله قَدْ تَجَرَّدَا ... أَيْبُضَ مِثْلَ الْبَدْرِ يَسْمُو صُغْدَا

إِنْ سِيَمَ خَسُفَا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا ... فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبَدَا

إِنْ قَرِيشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا ... وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءِ رَصْدَا ... وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ تَدْعُو أَحَدَا
وَهُمْ أَذُلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا ... هُمْ بَيِّتُونَا بِالْوَتِيرِ هَجْدَا
وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا.

فقال رسول الله ﷺ: "نصرت يا عمرو بن سالم" ثم عرضت سحابة لرسول الله ﷺ فقال إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم رجعوا إلى مكة فقال رسول الله ﷺ للناس كأنكم بأبي سفيان وقد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة. ومضى بديل بن ورقاء في أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان وقد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليشد العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا الذي صنعوا فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء قال من أين أقبلت يا بديل؟ فظن أنه أتى النبي ﷺ فقال سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي قال أوما جئت محمدا؟ قال لا فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيها النوى فقال أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا.

(خروج أبي سفيان إلى المدينة ليشد العقد ورجوعه بالحبيبة): خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فقال والله لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج

حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال ما أنا بفاعل ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة وحسن غلام يدب بين يديهما فقال يا علي إنك أمس القوم بي رحما وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا اشفع لي إلى محمد فقال ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه فالتفت إلى فاطمة فقال "هل لك أن تأمرني ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله ﷺ قال يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحنى قال والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا قال لا والله ما أظنه ولكني ما أجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد علي شيئا ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أعدى العدو ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم قد أشار علي بشيء صنعتته فوالله ما أدري هل يغني عني شيئا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال أمرني أن أجير بين الناس ففعلت فقالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال لا. قالوا: ويلك زاد الرجل على أن لعب بك قال لا والله ما وجدت غير ذلك.

(تجهيز الجيش): وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال أي بنية

أمركن رسول الله ﷺ بتجهيزه؟ قالت نعم فتجهز قال فأين تريه يريد قالت لا والله ما أدري. ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة فأمرهم بالجد والتجهيز وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها فتجهز الناس.

(كتابة حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش بمسيره ﷺ إليهم): وإخبار الوحي له ﷺ بذلك فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشا فجعلته في قرون في رأسها ثم خرجت به وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليا والزبير . وغير ابن إسحاق يقول بعث عليا والمقداد والزبير فقال انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش فانطلقا تعادى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان فاستنزلاها وقالوا: معك كتاب؟ فقالت ما معي كتاب ففتشنا رحلها فلم يجدا شيئا فقال لها علي ؑ أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك فلما رأت الجرد منه قالت أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليهما فأتيا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم فدعا رسول الله ﷺ حاطبا فقال ما هذا يا حاطب؟ فقال لا تعجل علي يا رسول الله والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ولا بدلت ولكني كنت امرأة ملصقا قريش لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد وليس لي فيهم قرابة يحمونهم وكان من معك لهم قرابات يحمونهم فأحببت إذ فاتني ذلك أن أأخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق فقال رسول الله ﷺ إنه قد شهد بدرا

وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فذرفت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم. ثم مضى رسول الله ﷺ وهو صائم والناس صيام حتى إذا كانوا بالكديد - وهو الذي تسميه الناس اليوم قديدا - أفطر وأفطر الناس معه.

(لِقَاؤُهُ ﷺ العباس وأبا سفيان بن الحارث ابن عمه وعبد الله ابن أبي أمية ابن عمته): ثم مضى حتى نزل مر الظهران وهو بطن مر ومعه عشرة آلاف وعمى الله الأخبار عن قريش فهم على وجل وارتقاب وكان أبو سفيان يخرج يتحسس الأخبار فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلما مهاجرا فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة وقيل فوق ذلك وكان ممن لقيه في الطريق ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية لقيه بالأبواء وهما ابن عمه وابن عمته فأعرض عنهما لما كان يلقيه منهما من شدة الأذى والهجو فقالت له أم سلمة لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك وقال علي لأبي سفيان فيما حكاه أبو عمر أئت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: {تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين} يكون أحد أحسن منه قولا ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله ﷺ: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} فأنشده أبو سفيان أبياتا منها:

لعمرك إني حين أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا المدلج الحيران أظلم ليله... فهذا أواني حين أهدي فأهتدي
هداني هاد غير نفسي ودلني... على الله من طردت كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: "أنت طردتني كل مطرد" وحسن إسلامه بعد ذلك. ويقال إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه وكان رسول الله ﷺ يحبه وشهد له بالجنة وقال أرجو أن يكون خلفا من حمزة ولما حضرته الوفاة قال لا تبكوا علي فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت.

(إيقاد النيران بمر الظهران): فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران نزله عشاء فأمر الجيش فأوقدوا النيران فأوقدت عشرة آلاف نار وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب t .

(لقاء العباس أبا سفيان وركوبه معه إليه ﷺ): وركب العباس بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وخرج يلتمس لعله يجد بعض الخطابة أو أحدا يخبر قريشا ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها عنوة قال والله إني لأسير عليها إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكريا قال يقول بديل هذه والله خزاعة حمشتها الحرب فيقول أبو سفيان خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها قال فعرفت صوته فقلت: أبا حنظلة فعرف صوتي فقال أبا الفضل؟ قلت نعم قال ما لك فداك أبي وأمي؟ قال قلت هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله قال فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك فركب خلفي ورجع صاحبه قال فجئت به فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين قالوا: "من هذا" فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال من هذا؟ وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على

عجز الدابة قال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقت فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر فقال يا رسول الله هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه قال قلت يا رسول الله ﷺ إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت والله لا ينجيه الليلة أحد دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت مهلا يا عمر فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا قال مهلا يا عباس فوالله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب فقال رسول الله ﷺ اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به فذهبت فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: "ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله" قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ﷺ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا فقال له العباس ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك فأسلم وشهد شهادة الحق العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا قال نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن وأمر العباس أن يجلس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها ففعل فمرت القبائل على راياتها كلما مرت به قبيلة قال يا عباس من هذه؟ فأقول سليم قال فيقول ما لي وسليم ثم تمر

به القبيلة فيقول يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة فيقول ما لي ولمزينة حتى نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته بهم قال ما لي ولبني فلان حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال قلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ثم قال والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً قال قلت يا أبا سفيان إنها النبوة قال فنعمة إذا قال قلت النجاء إلى قومك . وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشا . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال وما قال فقال كذا وكذا فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال رسول الله ﷺ بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة اليوم يوم أعز الله فيه قريشا . ثم أرسل رسول الله ﷺ سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى قيس ابنه ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه قال أبو عمر وروي أن النبي ﷺ لما نزع منه الراية دفعها إلى الزبير .

(رجوع أبي سفيان إلى قريش): ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشا صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم الأحمش الساقين قبح من طليعة قوم قال ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن

قالوا : قاتلك الله وما تغني عنا دارك قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن فافترق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

(دخوله ٢ مكة): وسار رسول الله ٢ فدخل مكة من أعلاها وضربت له هنالك قبة وأمر رسول الله ٢ خالد بن الوليد أن يدخلها من أسفلها وكان على المجنبة اليمنى وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر وهم الذين لا سلاح معهم وقال لخالد ومن معه إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا حتى توافوني على الصفا فما عرض لهم أحد إلا أناموه .

(مقاتلة المسلمين بعض سفهاء قريش): وتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يعد سلاحا قبل دخول رسول الله ٢ فقالت له امرأته لماذا تعد ما أرى؟ قال لمحمد وأصحابه، قالت والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي عله... هذا سلاح كامل وأله

وذو غرارين سريع السله الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو فلما لقيهم المسلمون ناوشوهم شيئا من قتال فقتل كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة من المسلمين وكانا في خيل خالد بن الوليد فشذا عنه فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعا وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلا ثم انهزموا وانهزم حماس صاحب السلاح حتى دخل بيته فقال لامرأته أغلقي علي بابي فقالت وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمه... إذ فر صفوان وفر عكرمه
 واستقبلتنا بالسيوف المسلمه... يقطعن كل ساعد وجمجمه
 ضربا فلا نسمع إلا غمغمه... لهم نهيت حولنا وهمهمه
 لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه.

وقال أبو هريرة: أقبل رسول الله ﷺ فدخل مكة فبعث الزبير على إحدى المجنبتين
 وبعث خالد بن الوليد على المجنبة الأخرى وبعث أبا عبيدة بن الجراح على الحسر
 وأخذوا بطن الوادي ورسول الله ﷺ في كتيبه قال وقد وبشت قريش أوباشا لها فقالوا:
 نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا فقال رسول
 الله ﷺ: "يا أبا هريرة" فقلت لبيك رسول الله وسعديك فقال: "اهتف لي بالأنصار ولا
 يأتيني إلا أنصاري" فهتف بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله ﷺ فقال: "أترون إلى أوباش
 قريش وأتباعهم" ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى: "احصدوهم حصدا حتى
 توافوني بالصفاء"، فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم إلا شاء، وما أحد منهم وجه
 إلينا شيئا ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح. (دخول المسجد): ثم نهض رسول الله ﷺ
 والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر
 الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون
 صنما فجعل يطعنهما بالقوس ويقول: {جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا}
 {جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد} والأصنام تتساقط على وجوهها[١] هـ.

غزوة حنين: قال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل في غزوة حنين: وتسمى غزوة
 أوطاس وهما موضعان بين مكة والطائف، فسميت الغزوة باسم مكانها، وتسمى غزوة

هوازن، لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النصري، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت إليه مضر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال، وهم قليل ولم يشهدوا من قيس عيلان إلا هؤلاء ولم يحضرها من هوازن كعب ولا دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه إلا رأيته ومعرفته بالحرب وكان شجاعا مجربا، وفي ثقيف سيدان لهم وفي الأحلاف قارب بن الأسود، وفي بني مالك سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري، فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة، فلما نزل قال بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال نعم مجال الخيل لا حزن ضرر ولا سهل دهس ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصبي ويعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم. قال أين مالك؟ قيل هذا مالك ودُعِيَ له. قال يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟ قال سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال ولم؟ قال أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. فقال راعي ضأن والله وهل يرد المنهزم شيء إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ثم قال ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدوا أحد منهم. قال غاب الحد والجد لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب فمن شهدا

منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر؟ قال ذانك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران. يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن كانت لك، لحق بك من وراءك، إن كانت عليك، ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال والله لا أفعل إنك قد كبرت وكبر عقلك والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأي فقالوا: أطعنك، فقال دريد هذا يوم لم أشهده ولم يفتني. يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع أقود وطفاء الزمعة كأنها شاة صدع، ثم قال مالك للناس إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد وبعث عيوننا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم قال ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجلا بيضا على خيل بلق والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد. ولما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حذرر الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن أبي حذرر فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر. فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا وسلاحا، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غدا، فقال صفوان أغصبا يا محمد؟ قال: "بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك"، فقال ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها، ففعل خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة،

وكانوا اثني عشر ألفاً، واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً، ثم مضى يريد لقاء هوازن. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً. قال وفي عماية الصبح وكان القوم سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه قد أجمعوا، وتهيئوا، وأعدوا فوالله ما راعنا - ونحن منحطون - إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال إلى أين أيها الناس؟ هلم إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله وبقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن ابن أم أيمن، وقتل يومئذ. قال ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام هوازن، وهوازن خلفه إذا أدرك طعن برمح وإذا فاته الناس رفع رمحاً لمن وراءه فاتبعوه فبينما هو كذلك أهوى عليه علي بن أبي طالب، ورجل من الأنصار يريدانه قال فأتى علي من خلفه فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رحله قال فاجتلد الناس. قال فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفأة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن

الأزلام لمعه في كنانته وصرخ جبلة بن الحنبل - وقال ابن هشام: صوابه كلدة - ألا بطل السحر اليوم فقال له صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركا: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يريني رجل من قريش، أحب إلي من أن يريني رجل من هوازن. وذكر ابن سعد عن شيبه بن عثمان الحنبي، قال لما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأتأثر منه فأكون أنا الذي قمت بئثر قريش كلها، وأقول لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا، ما تبعته أبدا، وكنت مرصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته فأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفا عليه فالتفت إلي رسول الله ﷺ فناداني: "يا شَيْبُ ادن مني" فدنوت منه فمسح صدري، ثم قال: "اللهم أعذه من الشيطان" قال فوالله هو كان ساعته أحب إلي من سمعي، وبصري، ونفسي، وأذهب الله ما كان في نفسي، ثم قال: ادن فقاتل بنفسي كل شيء ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيا لأوقعت به السيف فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون فكروا كرة رجل واحد وقربت بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها، وخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه ورجع إلى معسكره فدخل خباءه فدخلت عليه ما دخل عليه أحد غيري حبا لرؤية وجهه وسرورا به فقال: "يا شيب الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك"، ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط قال فقلت فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله ﷺ ثم قلت: استغفر لي. فقال: "غفر الله لك"، وقال ابن

إسحاق: وحدثني الزهري، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب، قال
 إني لمع رسول الله ﷺ أخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، وكنت امرءاً جسيماً
 شديد الصوت قال رسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: "إلى أين أيها
 الناس" قال فلم أر الناس يلوون على شيء فقال: "يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار، يا
 معشر أصحاب السمرة"، فأجابوا: لبيك لبيك قال فيذهب الرجل ليشي بعيره فلا
 يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه وترسه ويقتحم عن
 بعيره ويخلي سبيله ويؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم
 مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا فكانت الدعوة أول ما كانت يا للأنصار ثم خلصت آخراً:
 يا للخزرج وكانوا صبراً عند الحرب فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد
 القوم وهم يجتلدون فقال الآن حمي الوطيس وزاد غيره: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد
 المطلب"، وفي "صحيح مسلم": ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بها. في وجوه
 الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد فما هو إلا أن رماهم فما زلت أرى حدهم كليلاً،
 وأمرهم مدبراً. وفي لفظ له إنه نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم
 استقبل بها وجوههم وقال شأهت الوجوه فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً
 بتلك القبضة فولوا مدبرين. وذكر ابن إسحاق عن جبير بن مطعم، قال لقد رأيت -
 قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون يوم حنين - مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى
 سقط بيننا وبين القوم فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادي فلم يكن إلا هزيمة
 القوم فلم أشك أنها الملائكة. قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون أتوا الطائف،
 ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة، وبعث

رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال فرمي بسهم فقتل فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن أخيه فقاتلهم ففتح الله عليه فهزمهم الله وقتل قاتل أبي عامر فقال رسول الله ﷺ: "اللهم اغفر لعبيد أبي عامر وأهله واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك" واستغفر لأبي موسى. ثقيف، وأمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن تجمع فجمع ذلك كله ووجهوه إلى الجعرانة، وكان السبي ستة آلاف رأس والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة.

(أعطى ﷺ المؤلفَةَ قلوبهم أول الناس منهم أبو سفيان وحكيم بن حزام): ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفَةَ قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل فقال ابني يزيد؟ فقال: "أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل"، فقال ابني معاوية؟ قال: "أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل"، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ثم سأله مائة أخرى فأعطاه وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين وذكر أصحاب المائة - وأصحاب الخمسين - وأعطى العباس بن مرداس أربعين فقال في ذلك شعراً، فكمل له المائة. ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس ثم فضها على الناس فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة. فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة.

(إرضاءه ۲ الأنصار): قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال لما أعطى رسول الله ۲ ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم لقي والله رسول الله ۲ قومه فدخل عليه سعد بن عباد، فقال يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال فأين أنت من ذلك يا سعد قال يا رسول الله ما أنا إلا من قومي. قال فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟ قال فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعوا، أتى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ۲ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم ألم أتكم ضلالا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم" قالوا: الله ورسوله أمّن وأفضل. ثم قال: "ألا تحبوني يا معشر الأنصار" قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، الله ورسوله المن والفضل. قال: "أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فأويناك وعائلا فأسيناك أوجدتم علي يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ولولا الهجرة لكنت امراء من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وواديا، وسلكت الأنصار

شعبا وواديا لسلكت شعب الأنصار وواديهما، الأنصار شعار والناس دثار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار" قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

(قدوم أخته ﷺ من الرضاعة): وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من فقالت يا رسول الله إني أختك من الرضاعة قال وما علامة ذلك؟ قالت عضه عضضتنيها في ظهري، وأنا متوركتك. قال فعرف رسول الله ﷺ العلامة فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها، فقال: "إن أحببت الإقامة فعندي محبة مكرمة وإن أحببت أن أمتعك فترجعي إلى قومك" قالت بل تمتعني وتردني إلى قومي، ففعل فزعمت بنو سعد أنه أعطاهم غلاما يقال له مكحول وجارية فزوجت إحداهما من الآخر فلم يزل فيهم من نسلها بقية. وقال أبو عمر فأسلمت فأعطاهم رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعما، وشاء وسماها حذافة. وقال والشيء لقب [١٠.١.هـ].

غزوة الطائف: قال ابن القيم في (زاد المعاد): [فصل في غزوة الطائف: في شوال سنة ثمان قال ابن سعد: قالوا: ولما أراد رسول الله ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حممة الدوسي، يهدمه وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف فخرج سريعا إلى قومه فهدم ذا الكفين وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادك.. ميلادنا أقدم من ميلادك.. إني حششت النار في فؤادك وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعا، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدم بدبابة ومنجنيق. قال ابن سعد: ولما خرج رسول الله ﷺ من حنين يريد

الطائف، قدم خالد بن الوليد على مقدمته وكانت ثقيف قد رُمُوا حصنهم وأدخلوا فيه ما يَصْلُحُ لهم لسنة فلما انهزموا من أوطاس، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيئوا للقتال وسار رسول الله ﷺ فنزل قريبا من حصن الطائف، وعسكر هناك فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا، كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلا، فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب ف ضرب لهما قبتين وكان يصلي بين القبتين مدة حصار الطائف، فحاصرهم ثمانية عشر يوما، وقال ابن إسحاق: بضعا وعشرين ليلة.

(أول منجنيق رمي به في الإسلام): ونصب عليهم المنجنيق وهو أول ما رمي به في الإسلام. وقال ابن سعد: حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان عن ثور بن يزيد، عن مكحول أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوما.

(قطع أعناب ثقيف): قال ابن إسحاق: حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجلا، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون. قال ابن سعد: فسألوه أن يدعها لله وللرحم فقال رسول الله ﷺ: "فإني أدعها لله وللرحم" فنادى منادي رسول الله ﷺ أيها عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر فخرج منهم بضعة عشر رجلا، منهم أبو بكر، فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

(رحيله ﷺ من الطائف دون فتحها): ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، واستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: "ما ترى" فقال: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك. فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فأذن في الناس بالرحيل فضج الناس من ذلك وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: "إنا قافلون غدا إن شاء الله" فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك فلما ارتحلوا واستقلوا، قال قولوا: "آيئون تائبون، عابدون لربنا حامدون"، وقيل يا رسول الله ادع الله على ثقيف. فقال اللهم اهد ثقيفا وائت بهم [١٠.هـ].

غزوة تبوك: وهي آخر الغزوات الكبرى التي غزاها النبي ﷺ بنفسه، قال ابن القيم (في زاد المعاد): [فصل في غزوة تبوك]: وكانت في شهر رجب سنة تسع قال ابن إسحاق: وكانت في زمن عُسْرَةٍ وجذب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون شخوصهم على تلك الحال وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وَوَرَّى بغيرها إلا ما كان من غزوة تبوك لبعد الشقة وشدة الزمان. فقال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أحد بني سلمة: "يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر" فقال يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال قد أذنت لك ففيه نزلت الآية: {ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني}. وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر فأنزل الله فيهم: {وقالوا لا تنفروا في الحر} الآية. ثم إن رسول الله ﷺ جَدَّ

في سفره وأمر الناس بالجهاز وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها. قلت: كانت ثلاثمائة بغير بأحلاسها وأقتابها وعدتها وألف دينار عينا. (استحمال البكائين النبي ﷺ): وذكر ابن سعد قال بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لحم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى اللقاء وجاء البكاؤون وهم سبعة يستحملون رسول الله ﷺ فقال لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون. وهم سالم بن عمير وعلبة بن زيد وأبو ليلى المازني وعمرو بن عنمة وسلمة بن صخر والعرباض بن سارية. وفي بعض الروايات وعبد الله بن مغفل: ومعقل بن يسار وبعضهم يقول البكاؤون بنو مقرن السبعة وهم من مزينة وابن إسحاق: يعد فيهم عمرو بن الحمام بن الجموح. وأرسل أبا موسى أصحابه إلى رسول الله ﷺ ليحملهم فوافاه غضبان فقال والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه ثم أتاه إبل فأرسل إليهم ثم قال ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير.

(فصل: قصة علبة بن زيد): وقام علبة بن زيد فصلي من الليل وبكى وقال اللهم إنك قد أمرت وما عندي ما أتقوى به مع رسولك ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض ثم أصبح مع الناس فقال النبي ﷺ أين المتصدق هذه الليلة. فلم يبق إليه أحد ثم قال

أين المتصدق فليقم فقام إليه فأخبره فقال النبي ﷺ أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة.

(المعذرون من الأعراب): وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فلم يعذرهم. قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلا وكان عبد الله بن أبي ابن سلول قد عسكر على ثنية الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين فكان يقال ليس عسكره بأقل العسكرين. واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. وقال ابن هشام: سباع بن عرفة والأول أثبت.

(تخلف جمع ابن أبي وبعض الصحابة): فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عبد الله بن أبي ومن كان معه وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة السلمي وأبو ذر ثم لحقه أبو خيثمة وأبو ذر وشهدها رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفا من الناس والخييل عشرة آلاف فرس وأقام بها عشرين ليلة يقصر الصلاة وهرقل يومئذ بحمص.

(استخلاف علي على المدينة): قال ابن إسحاق: ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج خلف علي بن أبي طالب على أهله فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقلا وتخففا منه فأخذ علي ؑ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فقال يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني فقال: "كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي"، فرجع علي إلى المدينة.

(لحاق أبي خيثمة به ۲): ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ۲ أياماً إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له ماء وهيأت له فيه طعاماً فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأته وما صنعتا له فقال رسول الله ۲ في الضح والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف ثم قال والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ۲ فهيئاً لي زاداً ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ۲ حتى أدركه حين نزل تبوك وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ۲ فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب إن لي ذنباً فلا عليك أن تتخلف عني حتى آتي رسول الله ۲ ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ۲ وهو نازل بتبوك قال الناس هذا راكب على الطريق مقبل فقال رسول الله ۲: "كن أبا خيثمة" قالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ۲ فقال له رسول الله ۲: "أولى لك يا أبا خيثمة" فأخبر رسول الله ۲ خبره فقال له رسول الله ۲ خيراً ودعا له بخير.

(المرور بديار ثمود والنهي عن شرب مائه واستعماله للوضوء والأكل): وقد كان رسول الله ۲ حين مر بالحجر بديار ثمود قال لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضؤوا منه للصلاة وما كان من عجين عجمتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له ففعل الناس إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعيه فأما الذي خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه وأما الذي خرج في طلب بعيه فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ فأخبر

بذلك رسول الله ﷺ فقال: "ألم أنكم أن لا يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه" ثم دعا للذي خنق على مذهبه فشنفي وأما الآخر فأهدته طيئ لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة قلت: والذي في "صحيح مسلم" من حديث أبي حميد: انطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: "ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقيم منكم أحد فمن كان له بغير فليشد عقله"، فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقت به بجبل طيئ قال ابن هشام: بلغني عن الزهري أنه قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر سجد ثوبه على وجهه واستحث راحلته ثم قال: "لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم" قلت: في "الصحيحين" من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذنين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم مثل ما أصابهم". صحيح البخاري: أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه وفي "صحيح مسلم": أنه أمرهم أن يعلفوا الإبل العجين وأن يهريقوا الماء ويستقوا من البئر التي كانت تردّها الناقة، وقد رواه البخاري أيضا وقد حفظ راويه ما لم يحفظه من روى الطرح. وذكر البيهقي أنه نادى فيهم الصلاة جامعة فلما اجتمعوا قال: "علام تدخلون على قوم غضب الله عليهم" فناداه رجل فقال نعجب منهم يا رسول الله فقال ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم استقيموا وسددوا فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئا وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا.

فصل: (استسقاؤه ۲) قال ابن إسحاق: وأصبح الناس ولا ماء معهم فشكوا ذلك إلى رسول الله ۲ فدعا رسول الله ۲ فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء.

(إخبار الله نبيه ۲ بمكان ناقلته ۲) سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقلته فقال زيد بن اللصيت وكان منافقا: أليس يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقلته؟ فقال رسول الله ۲ إن رجلا يقول وذكر مقالته وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في الوادي في شعب كذا وكذا وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها فذهبوا فأتوه بها وفي طريقه تلك خرص حديقة المرأة بعشرة أوسق.

(تخلف بعضهم في الطريق): ثم مضى رسول الله ۲ فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون تخلف فلان. فيقول دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

(إبطاء بعير أبي ذر): وتلوم على أبي ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ۲ ماشيا ونزل رسول الله ۲ في بعض منازلهم فنظر ناظر من المسلمين فقال يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده فقال رسول الله ۲: "كن أبا ذر" فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله والله هو أبو ذر. فقال رسول الله ۲: "رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده".....(قصة رهط من المنافقين): رجعنا إلى قصة تبوك وقد كان رهط من المنافقين منهم ودیعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي

بن حمير قال بعضهم لبعض أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال إرجافا وترهيبا للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: "أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بل قلت كذا وكذا" فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت: كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم: {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب}، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي عفي عنه في هذه الآية وتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليامة فلم يوجد له أثر.

وذكر ابن عائذ في "مغازيه" أن رسول الله ﷺ نزل تبوك في زمان قل مأوها فيه فاغترف رسول الله ﷺ غرفة بيده من ماء فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت فهي كذلك حتى الساعة.

(نبيه ﷺ عن مس عین تبوك حتى يأتي): قلت: في "صحيح مسلم" إنه قال قبل وصوله إليها: "إنكم ستأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي" قال فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فسألها رسول الله ﷺ: "هل مسستما من مائها شيئا" قالا: نعم فسبها النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم عرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء وغسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ثم أعاده

فيها فجرت العين بماء منهمر حتى استقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ: "يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانا".

(فصل: الصلح مع صاحب أيلة): ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جربا وأذرح فأعطوه الجزية وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا فهو عندهم وكتب لصاحب أيلة: بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يردونه من بحر أو بر[١٠١]هـ.

قصة الثلاثة الذين خلفوا:

قلت: وفي هذه الغزوة كانت قصة الصحابة الثلاثة الذين خُلفوا **Y**، كما في الصحيحين وهذا سياق مسلم مطولا، من طريق يونس عن ابن شهاب قال ثم غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك وهو يريد الروم ونصارى العرب بالشام. قال ابن شهاب فأخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب كان قائداً كعب من بني حنيفة حين عمي قال سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال كعب بن مالك لم ألتفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أنني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلف عنه إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم

عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاقَعْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدٌ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرُ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَكَانَ مِنْ خَبْرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَاللَّهُ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرُهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيَّانَ - قَالَ كَعْبٌ فَقُلْ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحَيٌّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَطَفِئْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا. وَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ. فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَّادِي بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَّادِي بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْحَلَ فَأُذِرْكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ثُمَّ لَمْ يَقْدَرْ ذَلِكَ لِي فَطَفِئْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أَسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ أَوْ رَجُلًا يَمُنُّ عَذَرَ اللَّهِ مِنَ الضُّعْفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ يَتَبُوكُ: "مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ". قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ. فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بئسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا

مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ". فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ
الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ. فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَلَمَّا
بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَنِي فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ
وَأَقُولُ بِمِ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ لِي
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَطْلَلَ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُو مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا
فَاجْتَمَعْتُ صِدْقَهُ وَصَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ
رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَخْلِفُونَ
لَهُ وَكَانُوا بِضِعَّةٍ وَتَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ
وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: "تَعَالَى".
فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي: "مَا خَلَفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتِغَتْ ظَهْرَكَ". قَالَ
قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ
سَخَطِهِ بَعْدَ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ
كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ نَجِدُ
عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ
مَنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ
فَيْكَ". فَقُمْتُ وَنَارَ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا
قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ
الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ. قَالَ فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي
حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي - قَالَ - ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا

مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ قَالُوا نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ -
 قَالَ - قُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ - قَالَ -
 فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسُوءَ - قَالَ - فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا
 لِي. قَالَ وَهِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَتَيْنَا الثَّلَاثَةَ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ - قَالَ
 - فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ - وَقَالَ - تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ
 بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي
 بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ
 وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ
 بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ
 وَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا التَّمْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا
 طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ
 عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا قَتَادَةَ
 أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ قَالَ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ فَسَكَتَ
 فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ فَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ
 فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا بَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مَعْنٍ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ
 يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - قَالَ - فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي
 فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ
 صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةً فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ. قَالَ فَقُلْتُ
 حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ. فَتَيَأَمْتُ بِهَا التَّنُورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ

أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلَبَتْ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. قَالَ فَقُلْتُ أُطْلِقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبْنَهَا - قَالَ - فَأَرْسَلْ إِلَى صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ - قَالَ - فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِيقِي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ - قَالَ - فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ: "لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكَ". فَقَالَتْ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. قَالَ فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لَامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ - قَالَ - فَقُلْتُ لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ - قَالَ - فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ مِئِي عَنْ كَلَامِنَا - قَالَ - ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ - قَالَ - فَخَرَزْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ. - قَالَ - فَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتُوبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قَيْلِي وَأَوْفَى الْجَبَلِ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَتَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرُهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ. فَلَبِسْتُهُمَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَلَقَانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَيِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِئَكَ تَوْبَةُ اللَّهِ

عَلَيْكَ. حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يُهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي وَاللَّهُ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ. قَالَ فَكَانَ كَعَبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعَبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَهْرُقُ وَجْهَهُ مِنَ الشُّرُورِ وَيَقُولُ: "أَبَشِّرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمُّكَ". قَالَ فَقُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَقَالَ: "لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ". وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَتَارَ وَجْهَهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةٌ قَمَرٍ - قَالَ - وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ - قَالَ - فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أُمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ". قَالَ فَقُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ - قَالَ - وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصَّدَقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحْدِثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ - قَالَ - فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنْ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي بِهِ وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ. قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ} حَتَّى بَلَغَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) قَالَ كَعَبٌ وَاللَّهُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ وَقَالَ

الله: {سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}. قَالَ كَعْبٌ كُنَّا خُلَفْنَا أَيْهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ قَبْلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّىٰ قَضَىٰ اللَّهُ فِيهِ فَبَدَّلَكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا}، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِفْنَا تَخْلُفْنَا عَنِ الْغَزْوِ وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرًا عَمَّنْ خَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه: (زاد المعاد في هدي خير العباد): [فصل: بهيئته] ﷺ عَنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ لِتَأْدِيبِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِمْ: وَفِي نَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِمْ وَكَذِبِ الْبَاقِينَ فَأَرَادَ هَجْرَ الصَّادِقِينَ وَتَأْدِيبَهُمْ عَلَى هَذَا الذَّنْبِ وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَجُرْمُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُقَابَلَ بِالْهَجْرِ فَدَوَاءُ هَذَا الْمَرَضِ لَا يُعْمَلُ فِي مَرَضِ النِّفَاقِ وَلَا فَايِدَةً فِيهِ وَهَكَذَا يَفْعَلُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِعِبَادِهِ فِي عُقُوبَاتِ جَرَائِمِهِمْ فَيُؤَدِّبُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُحِبُّهُ وَهُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ بِأَدْنَى رَلَّةٍ وَهَفْوَةٍ فَلَا يَزَالُ مُسْتَقِظًا حَذَرًا وَأَمَّا مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ وَهَانَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ وَكُلَّمَا أَحْدَثَ ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُ نِعْمَةً وَالْمَغْرُورُ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ الْإِهَانَةِ وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ وَالْعُقُوبَةَ الَّتِي لَا عَاقِبَةَ لَهَا]. هـ.

قوله: (وَعَبَّرَ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتَوَفَّى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ): هذا إعلام بضرورة القيام بشعائر الإسلام وإظهارها، وأن النبي ﷺ ما زال قائماً بذلك مجاهداً بنفسه وماله وعلمه، لإقامة الدين كله، حتى يدخل الناس في السلم كافة، وحتى لا تبقى شعيرة من شعائر الإسلام، إلا ظاهرة ممكنة في الأرض، فإن هذا من صميم التوحيد، ومن صميم دعوة النبي ﷺ، وأنه ﷺ مكث على هذا عشر سنين، ولازم ذلك حتى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تبارك وتعالى، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، ولكن دينه باق، إذ هو دين الحي الذي لا يموت تبارك وتعالى.

والأمة مأمورة أن تسير على الدرب، متأسية بمقتدية برسولها، وحييها وسيدها، وقائد مسيرتها، محمداً ﷺ.

كما أن في ذلك إشارة إلى الاستمرارية في فعل الخيرات، وتنوع القربات، وهكذا ينبغي أن يكون المسلمون، كما قال تعالى: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} أي الموت.

وجوب مقابلة الطوائف الممتنعة إن كان ثمة شوكة:

واعلم رحمك الله: أن الأمة مجمعة، على وجوب مقابلة الفئة الممتنعة عن العمل بشيء من شعائر الإسلام الظاهرة، حتى تقام تلك الشعيرة، ولكن لا بد من استصحاب شرط توفر الشوكة القادرة على ذلك، كما فعل الصحابة **y**، عندما قاتلوا ما نعي الزكاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥٥٦/٢٨-٥٥٨): [نَعَمْ، يَجُوزُ؛ بَلْ يَجِبُ بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ قِتَالُ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ مُتَنِعَةٍ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ

الإِسْلَامُ الظَّاهِرَةُ الْمُتَوَاتِرَةُ؛ مِثْلُ الطَّائِفَةِ الْمُتَمَنِّعَةِ عَنِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، أَوْ عَنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ الْمُفْرُوضَةِ إِلَى الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ، الَّتِي سَمَّاها اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَنْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَوْ الَّذِينَ لَا يَمْتَنِعُونَ عَنْ سَفْكِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، أَوْ لَا يَتَحَاكَمُونَ بَيْنَهُمْ بِالْشَّرْعِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ، كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ وَكَمَا قَاتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ **e** الْخَوَارِجَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ **e**: "يُحْتَفَرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتُهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامُهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتُهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنْ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}.

وَالرِّبَا آخِرُ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا. وَيُدْعَوْنَ قَبْلَ الْقِتَالِ إِلَى التَّرَامِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ فَإِنْ التَّزَمُوهَا اسْتَوْثَقَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِمُجَرَّدِ الْكَلَامِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ بِمَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَذْهَبَهُمْ، وَقَالَ: "اخْتَارُوا؛ إِمَّا الْحَرْبَ الْمُجَلِّيَّةَ وَإِمَّا السَّلْمَ الْمُخْزِيَّةَ، وَقَالَ: "أَنَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ **e**".

فَقَالُوا: هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجَلِّيَّةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا السَّلْمُ الْمُخْزِيَّةُ؟، قَالَ: "تَشْهَدُونَ أَنْ قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلْنَاكُمْ فِي النَّارِ وَنَنْزِعُ مِنْكُمْ الْكُرَاعَ - يَعْنِي الْخَيْلَ وَالسَّلَاحَ - حَتَّى يَرَى خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ **e** وَالْمُؤْمِنُونَ أَمْرًا بَعْدُ".

فَهَكَذَا الْوَاجِبُ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ إِذَا أَظْهَرُوا الطَّاعَةَ يُرْسَلُ إِلَيْهِمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ وَيُقِيمُ بِهِمُ الصَّلَوَاتِ وَمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ. وَإِمَّا أَنْ يَسْتَخْدِمَ بَعْضُ الْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ فِي جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ وَيَجْعَلُهُمْ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَإِمَّا أَنْ يَنْزِعَ مِنْهُمْ السِّلَاحَ الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ وَيُمْنَعُونَ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ. وَإِمَّا أَنْ يَضَعُوهُ حَتَّى يَسْتَقِيمُوا؛ وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ الْمُتَمَنِّعُ مِنْهُمْ مِنَ التَّزَامِ الشَّرِيعَةِ. وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ[١]..هـ.

إقامة الدين ودولة الإسلام مسؤولية الجميع إن قدروا على ذلك:

فصل: واعلم أرشدك الله: أن الجهاد لإبراز شريعة الله تعالى، وإعلائها، وتنزيلها في الواقع - إذا لم توجد دولة تقوم بذلك - واجب على عموم المسلمين، إذا كانت لديهم الشوكة، والقدرة على القيام بهذا الواجب المتعين، وعلى الأمة وجوبا أن تسعى في إيجاد هذه الشوكة إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا، كما فعل النبي ﷺ. ففي أول دعوته لم يقاتل، ولكنه سعى ﷺ في تكثير السواد، حتى جاءت بيعة الرضوان، أما اشتراط أنه لا يقوم بذلك إلا الدول، فهذا قول خاطئ، لاسيما عندما لا تكون هناك دولة تحكم بشرع الله تعالى، أو لا توجد دولة تقاتل لأجل ذلك، كما هو واقعنا اليوم، وتأمل أن النبي ﷺ لم يشترط الدولة لذلك، كما في الصحيحين واللفظ للبخاري من طريق جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض قلنا أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي ﷺ قال دعانا النبي ﷺ فبايعناه فقال فيما أخذ علينا: "أن

بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان".

وفي صحيح مسلم من طريق ابن عم عوف بن مالك الأشجعي يقول سمعت عوف بن مالك الأشجعي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم". قالوا قلنا: يا رسول الله أفلا نناذبهم عند ذلك؟ قال: "لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولى عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزع يدا من طاعة". فعلمنا أنهم إذا أتوا كفرا بواحا أو امتنعوا عن إظهار شعائر الإسلام وجب على المسلمين قتالهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا بالشوكة الظاهرة.

مراحل البيعة العامة:

فصل: وقد مر النبي ﷺ بثلاث مراحل حتى انتهى الأمر إلى البيعة العامة:

أما المرحلة الأولى: فقد كان ﷺ في أول دعوته لا يبايع أحدا على القتال والتناصر، وإنما كان يسعى في بذل الدعوة لنشر الإسلام وتوسيع القاعدة الدعوية ويبايع على ذلك؛ ولهذا كان يقول لأحدهم: "ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي"، كما قاله لعمر بن عبسة ؓ، إذ يروي لقاءه مع نبي الهدى والمحمية ﷺ، حيث قال: فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ. قَالَ: "إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي". قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي وَقَدِمَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَكُنْتُ فِي أَهْلِهَا فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَقُلْتُ مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَقَالُوا النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ. فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنِي قَالَ: "نَعَمْ أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ". قَالَ فَقُلْتُ بَلَى. فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ..... الحديث " أخرجه مسلم.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الإعداد والتحريض على ذلك، وفي هذه المرحلة كانت بيعة العقبة الثالثة، وفيها تعاهدوا وتعاهدوا على النصر والقتال **y**، وأن يمنعوهم **z** مما يمنعون منه أنفسهم وأهلهم، وذلك لما لقي الوفد من الأوس والخزرج **y**، فكانت نواة للانتقال إلى مرحلة القتال والمجاهدة للأعداء بالسنان، وهذه التي تسمى ببيعة القتال، ومثلها ما جرى مع أبي بصير ومن معه **y**.

المرحلة الثالثة: البيعة العامة، وهي التي كانت بعد الهجرة وحصول التمكين، وهو الظهور الذي ذكره النبي ﷺ لعمر بن عبد العسة **t** في الحديث السابق.

ومن هنا نعلم الفرق بين بيعة القتال، والبيعة العامة، مع استصحاب أن هذا هو نبي الهدى والرحمة والملاحمة **z**، فتجب طاعته **z** أصالة، ولكنني أتحدث عن من يأتي بعده، فليس لأحد أن يطالب بالبيعة العامة وهو لم يتحقق له الظهور والامتناع والغلبة، بتكوين الدولة القائمة الظاهرة، ذات الشوكة والنكاية، بمعطيات الدول الماثلة في ذلك الزمان أو غيره، فَمُسَمَّى الدولة يخضع لمعطيات الواقع كذلك؛ ولهذا قال النبي ﷺ

لعمر بن عبسة: "إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ"،
فاعتبر ٢ بالواقع.

ثم إن هذه البيعة العامة إنما تكون أصالة بالشورى بين أهل الحل والعقد، لا بفرض النفس على الغير، وإن كنا نؤكد على أنه إن حصل شيء من ذلك واستتب الأمر لصاحبه؛ وجبت الطاعة والدخول في السلم.

أما ما جرى في مبايعة الصديق t، فقد كان بمشورة جمع من أهل الحل والعقد، وكانت قد دلت الأدلة على أحقيته بذلك وأسبقيته t.

ومع هذا كله يقول الفاروق عمر t كما في صحيح البخاري: [إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ وَاللَّهِ لَوْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فَلَانًا فَلَا يَغْتَرَّنَ أَمْرُؤُا أَنْ يَقُولَ إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ أَلَا وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ وَفَى شَرَّهَا وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقَطَّعُ الْأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايِعُ هُوَ، وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ تَغَرَّةً أَنْ يُقْتَلَ..... الحديث بطوله.

أما بيعة مع عدم تمكن واستتباب أمر، وتوفر معطيات الدولة زمانا ومكانا، وبدون مشورة لأهل الحل والعقد، فهذه ليست ببيعة شرعية، ولا يصح وصفها إلا ببيعة قتال، لا ببيعة عامة.

حقيقة الشورى في الإسلام:

مسألة: الشورى في الإسلام، هدي نبوة، وسنة ماضية، ولكن تحديد عدد من يُسْتَشَار، لم يرد به نص صريح، وإنما ورد ما يدل على تحديد طبيعة من يُسْتَشَار، وهم أهل الحل والعقد، أما العدد فلم يرد.

وعليه، فهل إذا وقعت المشورة لعدد محدود، من أهل الحل والعقد، هل يصدق على ذلك مسمى الشورى أم لا؟، الظاهر من عُمُومَات الأدلة أنه يصدق عليها، إن كانوا رؤوسا في أهل الحل والعقد، فلا يلزم الاستقصاء، في ذلك، وعليه فدعوى أن خلافة أبي بكر الصديق **t**، كانت بغير شورى، أو أنها استبداد، هو قول خاطيء، بل قد وقعت الشورى، ولا يلزم الاستقصاء، إذ كان أهل الشورى، رؤوس الناس في ذلك، والناس لهم تبع، ولهذا بادر جمهور الصحابة إلى المبايعة **y**. قال ابن حزم في (الفصل في الملل والأهواء والنحل): [أما من قال أن الإمامة لا تصح إلا بعقد فضلاء الأمة في أقطار البلاد، فباطل؛ لأنه تكليف ما لا يطاق، وما ليس في الوسع وما هو أعظم الحرج] اهـ. ونقل النووي في مسلم الاتفاق عليه؛ وبهذا التصور لواقع الحال، يزول الإشكال، فيما يتعلق بطريقة تولي أبي بكر الصديق الخلافة **t**، مع استصحاب خاصية أبي بكر الصديق **t**، فيما تقدم من الأدلة، وفي الباب غير ذلك، فمن كأي بكر الصديق **t**.

مسألة: ما هي البيعة التي اعتبرها الشارع؟.

الجواب: إن المتأمل في هدي النبي **r** وأصحابه **y**؛ يجد أن المعتبر من ذلك، ما يلي:

- ١ - بيعة تتم بمشورة رؤوس أهل الحل والعقد، في وضع مُستقر، لا تتعدد فيه الشؤكات، كما جرى في طريقة استخلاف أبي بكر الصديق **t**.

٢- بيعة تتم بمشورة عامة أهل الحل والعقد، في وَضْعٍ مُسْتَقَرٍّ، لا تتعدد فيه الشُّوَكَات، كما جرى في طريقة استخلاف ذي النورين **t** .

٣- وَصِيَّةٌ مَنْ تَوَلَّى الْأَمْرَ، واستتب له الوضع واستقر، - إما بمشورة أهل الحل والعقد، أو بظهور وغلبة شوكة، بلا منازع - كما جرى في طريقة استخلاف عمر الفاروق **t** .

أما مشورة البعض، ثم عقد بيعة عامة، في وضع غير مستقر، مع تعدد الشُّوَكَات، ووجود النزاع، فهذا لا يجوز؛ لأنه سبب لاقتتال المسلمين؛ ولأنها صورة لم يُجَرِّ عليها العمل، في القَطْعِ بالبيعة العامة، لِفَصِيلِ دُونِ آخَرٍ، وهو سبب لقلّة التوفيق. والله أعلم.

تلخيص ضوابط البيعة العامة:

ويمكن تلخيص ضوابط البيعة العامة فيما يلي:

١ - أن تكون لقرشي مسلم صالح الأهلية، وأهم ذلك أن يكون معروفًا بالعلم، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **t** ، أَنَّ النَّبِيَّ **e** قَالَ: "النَّاسُ تَبِعُوا لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ مُسْلِمُهُمْ تَبِعُوا لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ تَبِعُوا لِكَافِرِهِمْ". والأحاديث في هذا كثيرة متواترة. وأما دليل العلم فما جاء في صحيح مسلم عَنْ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ فَقَالَ مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي فَقَالَ ابْنُ أَبِزَى. قَالَ وَمَنْ ابْنُ أَبِزَى قَالَ مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى قَالَ إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ أَمَا إِنْ نَبِئْتُمْ **e** قَدْ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ". قلت: فأقره على ذلك.

- ٢ - أن تكون في وضع مستقر.
- ٣ - ألا تكون الغلبة للطاغوت، قوة وعددا.
- ٤ - وجود امتداد وعمق إسلامي تكون فيه منعة وعصابة موحدة ناصرة مؤيدة. وهو ما يسمى اليوم بأرض المنعة، والعمق الشعبي، أو العشائري.
- وهذه الشروط: (الثاني والثالث والرابع)، مأخوذة من واقع دعوة النبي ﷺ وحاله، إذ كان يقبل إسلام من يأتيه، ويأمره أن يلحق بقومه، حتى يسمع بظهور النبي ﷺ، وهذا الظهور متمثل في ما حصل له ﷺ في المدينة، حيث أرض المنعة والعمق العشائري القبلي من العصابة المؤمنة الموحدة الصابرة، والغلبة الظاهرة لأهل التوحيد. ولتذكر قول النبي ﷺ لعمر بن عبسة ؓ، لما قال له: إني متبعك. قال: "إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ". وهو في صحيح مسلم كما تقدم.
- ٥ - أن يكون ممكنا أمرا ونهيا، مضطلعا بأمور المسلمين وشؤونهم، ساع في حماية بيضة الإسلام وأهله، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ e قال: "إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيَتَّقَى بِهِ فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ وَإِنْ يَأْمُرُ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ".
- جاء في: (إكمال المعلم شرح صحيح مسلم) للقاضي عياض: [وقوله: "إنما الإمام جنة، يقاتل من ورائه ويتقى به" الحديث: أي أنه كالسائر وكالترس لمنعه وحمايته بيضة المسلمين، واتقائهم بمكانه ونظره عدوهم، وهو معنى قوله: "يقاتل من ورائه" a.هـ.
- وجاء في شرح النووي على مسلم [قوله ﷺ: "الإمام جنة"، أي: كالسائر؛ لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين، ويمنع الناس بعضهم من بعض، ويحمي بيضة الإسلام،

وَيَتَّقِيهِ النَّاسُ وَيَخَافُونَ سَطَوَتَهُ، وَمَعْنَى: "يُقَاتِلُ مِنْ وَرَائِهِ"، أَيُّ: يُقَاتِلُ مَعَهُ الْكُفَّارَ وَالْبُعَاةَ وَالْخَوَارِجَ وَسَائِرَ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ مُطْلَقًا [١.هـ].

وجاء في: (فتح الباري) لابن حجر: [وقوله: "إنما الإمام جنة"، بضم الجيم أي ستر؛ لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين، ويكف أذى بعضهم عن بعض، والمراد بالإمام كل قائم بأمور الناس والله أعلم] ١.هـ.

وجاء في: (معالم السنن) للخطابي: [قلت: معناه أن الإمام هو الذي يعقد العهد والهدنة بين المسلمين وبين أهل الشرك، فإذا رأى ذلك صلاحاً وهدانهم؛ فقد وجب على المسلمين أن يُحِيزُوا أَمَانَتَهُ، وَأَنْ لَا يَعْرِضُوا لِمَنْ عَقَدَ لَهُمْ فِي نَفْسٍ أَوْ مَالٍ، وَمَعْنَى الْجُنَّةِ الْعَصْمَةُ وَالْوَقَايَةُ، وَلَيْسَ لِغَيْرِ الْإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ الْأُمَّةَ بِأَسْرِهَا مِنَ الْكُفَّارِ أَمَانًا، وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِهِ **e**: "يسعى بذمتهم أدناهم"، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الْأَفْرَادِ وَالْآحَادِ أَوْ فِي أَهْلِ حَصْنٍ أَوْ قَلْعَةٍ وَنَحْوِهَا. فَأَمَّا أَنْ يَجُوزَ ذَلِكَ فِي جِيلٍ وَأُمَّةٍ مِنْهُمْ فَلَا يَجُوزُ] ١.هـ.

وجاء في: (النهاية في غريب الأثر) لابن الأثير: [ومنه الحديث الآخر: "إنما الإمام جُنَّةٌ يَتَّقَى بِهِ وَيُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ"، أَيُّ يُدْفَعُ بِهِ الْعَدُوُّ وَيَتَّقَى بِقُوَّتِهِ] ١.هـ.

وجاء في حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي: [:"إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ"، أَيُّ كَالْتُرُسِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيُّ يُقْتَدَى بِرَأْيِهِ وَنَظَرِهِ فِي الْأُمُورِ الْعِظَامِ وَالْوَقَائِعِ الْخَطِرَةِ وَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَى رَأْيِهِ وَلَا يَنْفَرِدُ دُونَهُ بِأَمْرِ مِنْهُمْ، "يُقَاتِلُ مِنْ وَرَائِهِ"، قَالَ النَّوَوِيُّ: أَيُّ يُقَاتِلُ مَعَهُ الْكُفَّارَ وَالْبُعَاةَ وَسَائِرَ أَهْلِ الْفَسَادِ وَيُنْصِرُ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيُّ أَمَامِهِ وَوَرَاءَهُ، مِنَ الْأَضْدَادِ، يُقَالُ: بِمَعْنَى خَلْفٍ، وَبِمَعْنَى أَمَامٍ، وَهَذَا خَبَرٌ عَنِ الْمُشْرُوعِيَّةِ، أَيُّ يَجِبُ أَنْ يُقَاتَلَ أَمَامَ الْإِمَامِ، وَلَا يُتْرَكُ يُبَاشِرُ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَعَرُّضِهِ لِلْهَلَاكِ؛

فَيَهْلِكُ كُلُّ مَنْ مَعَهُ، قَالَ: وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى إِجْزَاةِ أَمْرَيْنِ: أَنَّ الْإِمَامَ يُقْتَدَى بِرَأْيِهِ، وَيُقَاتَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهُمَا خَبْرَانِ عَنْ أَمْرَيْنِ مُتَعَايِرَيْنِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، عَلَى أَنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّهُ يَكُونُ إِمَامًا لِلنَّاسِ فِي الْقِتَالِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بَلْ كَمَا بَيَّنَّاهُ: "وَيُتَّقَى بِهِ"، أَيْ شَرُّ الْعَدُوِّ وَأَهْلُ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ، "فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا"، قَالَ الْفَرُطِيُّ أَيْ أَجْرًا عَظِيمًا فَسَكَتَ عَنْ الصِّفَةِ لِلْعِلْمِ بِهَا قُلْتُ فَالْتَّنَكِيرُ فِيهِ لِلتَّعْظِيمِ [١] هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في: (منهاج السنة النبوية): [فصل وأما قول الرافضي إنهم يقولون إن الإمام بعد رسول الله ﷺ أبو بكر بمبايعة عمر برضا أربعة. فيقال له ليس هذا قول أئمة أهل السنة وإن كان بعض أهل الكلام يقولون إن الإمامة تنعقد ببيعة أربعة كما قال بعضهم تنعقد ببيعة اثنين وقال بعضهم تنعقد ببيعة واحد. فليست هذه أقوال أئمة السنة بل الإمامة عندهم تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها ولا يصير الرجل إماما حتى يوافقه أهل الشوكة عليها الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان فإذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان صار إماما ولهذا قال أئمة السلف من صار له قدرة وسلطان يفعل بهما مقصود الولاية فهو من أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ما لم يأمرُوا بمعصية الله فالإمامة ملك وسلطان والملك لا يصير ملكا بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير ملكا بذلك وهكذا كل أمر يفتقر إلى المعاونة عليه لا يحصل إلا بحصول من يمكنهم التعاون عليه ولهذا لما بويع علي رضي الله عنه وصار معه شوكة صار إماما ولو كان جماعة في

سفر فالسنة أن يؤمروا أحدهم كما قال النبي **e**: "لا يحل لثلاثة يكونون في سفر إلا أن يؤمروا واحدا منهم"، فإذا أمره أهل القدرة منهم صار أميرا فكون الرجل أميرا وقاضيا وواليا وغير ذلك من الأمور التي مبنها على القدرة والسلطان متى حصل ما يحصل به من القدرة والسلطان حصلت وإلا فلا إذ المقصود بها عمل أعمال لا تحصل إلا بقدرة فمتى حصلت القدرة التي بها يمكن تلك الأعمال كانت حاصلة وإلا فلا وهذا مثل كون الرجل راعيا للماشية متى سلمت إليه بحيث يقدر أن يرعاها كان راعيا لها وإلا فلا، فلا عمل إلا بقدرة عليه فمن لم يحصل له القدرة على العمل لم يكن عاملا والقدرة على سياسة الناس إما بطاعتهم له وإما بجهره لهم فمتى صار قادرا على سياستهم بطاعتهم أو بجهره فهو ذو سلطان مطاع إذا أمر بطاعة الله ولهذا قال أحمد في رسالة عبدوس بن مالك العطار أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله **e** إلى أن قال ومن ولي الخلافة فأجمع عليه الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين فدفعت الصدقات إليه جائز برا كان أو فاجرا وقال في رواية إسحاق بن منصور وقد سئل عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية ما معناه فقال تدري ما الإمام؟، الإمام الذي يجمع عليه المسلمون كلهم يقول هذا إمام فهذا معناه والكلام هنا في مقامين أحدهما في كون أبي بكر كان هو المستحق للإمامة وأن مبايعتهم له مما يحبه الله ورسوله فهذا ثابت بالنصوص والإجماع والثاني أنه متى صار إماما فذلك بمبايعة أهل القدرة له وكذلك عمر لما عهد إليه أبو بكر إنما صار إماما لما بايعوه وأطاعوه ولو قدر أنهم لم ينفذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه لم يصير إماما سواء كان ذلك جائزا أو غير جائز فالحل

والحرمة متعلق بالأفعال وأما نفس الولاية والسلطان فهو عبارة عن القدرة الحاصلة ثم قد تحصل على وجه يحبه الله ورسوله كسلطان الخلفاء الراشدين وقد تحصل على وجه فيه معصية كسلطان الظالمين ولو قدر أن عمر وطائفة معه بايعوه وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصير إماما بذلك وإنما صار إماما بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة ولهذا لم يضر تخلف سعد بن عباد لأن ذلك لا يقدر في مقصود الولاية فإن المقصود حصول القدرة والسلطان اللذين بهما تحصل مصالح الإمامة وذلك قد حصل بموافقة الجمهور على ذلك فمن قال إنه يصير إماما بموافقة واحد أو اثنين أو أربعة وليسوا هم ذوي القدرة والشوكة فقد غلط كما أن من ظن أن تخلف الواحد أو الاثنين والعشرة يضره فقد غلط وأبو بكر بايعه المهاجرون والأنصار الذين هم بطانة رسول الله ﷺ والذين بهم صار للإسلام قوة وعزة وبهم قهر المشركون وبهم فتحت جزيرة العرب فجمهور الذين بايعوا رسول الله ﷺ هم الذين بايعوا أبا بكر وأما كون عمر أو غيره سبق إلى البيعة فلا بد في كل بيعة من سابق ولو قدر أن بعض الناس كان كارها للبيعة لم يقدر ذلك في مقصودها فإن نفس الاستحقاق لها ثابت بالأدلة الشرعية الدالة على أنه أحقهم بها ومع قيام الأدلة الشرعية لا يضر من خالفها ونفس حصولها ووجودها ثابت بحصول القدرة والسلطان بمطاوعة ذوي الشوكة فالذين الحق لا بد فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب}، فالكتاب يبين ما أمر الله به وما نهى عنه والسيف ينصر ذلك ويؤيده وأبو بكر ثبت بالكتاب والسنة إن الله أمر

بمبايعته والذين بايعوه كانوا أهل السيف المطيعين لله في ذلك فانعقدت خلافة النبوة في حقه بالكتاب والحديد وأما عمر فإن أبا بكر عهد إليه وبايعه المسلمون بعد موت أبي بكر فصار إماما لما حصلت له القدرة والسلطان بمبايعتهم له وأما قوله ثم عثمان بن عفان بنص عمر على ستة هو أحدهم فاختره بعضهم فيقال أيضا عثمان لم يصير إماما باختيار بعضهم بل بمبايعة الناس له وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفان ولم يتخلف عن بيعته أحد قال الإمام أحمد في رواية حمدان بن علي ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان كانت بإجماعهم فلما بايعه ذوو الشوكة والقدرة صار إماما وإلا فلو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علي ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصير إماما ولكن عمر لما جعلها شورى في ستة عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف ثم إنه خرج طلحة والزبير وسعد باختيارهم وبقي عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف واتفق الثلاثة باختيارهم على أن عبد الرحمن بن عوف لا يتولى ويولى أحد الرجلين وأقام عبد الرحمن ثلاثا حلف أنه لم يغمض فيها بكبير نوم يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمراء الأنصار وكانوا قد حجوا مع عمر ذلك العام فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان فبايعوه لا عن رغبة أعطاهم إياها ولا عن رهبة أخافهم بها ولهذا قال غير واحد من السلف والأئمة كأيوب السخيتاني وأحمد ابن حنبل والدارقطني وغيرهم من لم يقدم عثمان على علي فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضل لأنهم قدموه باختيارهم واشتوارهم وأما قوله ثم علي بمبايعة الخلق له فتخصيصه عليا بمبايعة الخلق له دون أبي بكر وعمر وعثمان كلام ظاهر البطلان وذلك أنه من المعلوم لكل من

عرف سيرة القوم أن اتفاق الخلق ومبايعتهم لأبي بكر وعمر وعثمان أعظم من اتفاقهم على بيعته علي رضي الله عنه وعنهم أجمعين وكل أحد يعلم أنهم اتفقوا على بيعته عثمان أعظم مما اتفقوا على بيعته علي والذين بايعوا عثمان في أول الأمر أفضل من الذين بايعوا عليا فإنه بايعه علي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وعبد الله بن مسعود والعباس بن عبد المطلب وأبي بن كعب وأمثالهم مع سكينه وطمأنينة بعد مشاورة المسلمين ثلاثة أيام وأما علي ؑ فإنه بويح عقيب قتل عثمان ؑ والقلوب مضطربة مختلفة وأكابر الصحابة متفرقون وأحضر طلحة إحضارا حتى قال من قال إنهم جاءوا به مكرها وأنه قال بايعت واللعج أي السيف على قفى وكان لأهل الفتنة بالمدينة شوكه لما قتلوا عثمان وماج الناس لقتله موجا عظيما وكثير من الصحابة لم يبايع عليا كعبدالله بن عمر وأمثاله وكان الناس معه ثلاثة أصناف صنف قاتلوه معه وصنف قاتلوه وصنف لم يقاتلوه ولم يقاتلوه معه فكيف يجوز أن يقال في علي بمبايعة الخلق له ولا يقال مثل ذلك في مبايعة الثلاثة ولم يختلف عليهم أحد بل بايعهم الناس كلهم لا سيما عثمان. وأما أبو بكر فتخلف عن بيعته سعد لأنهم كانوا قد عينوه للإمارة فبقي في نفسه ما يبقى في نفوس البشر ولكن هو مع هذا رضي الله عنه لم يعارض ولم يدفع حقا ولا أعان على باطل بل قد روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسند الصديق عن عفان عن أبي عوانه عن داود بن عبد الله الأودي عن حميد بن عبد الرحمن هو الحميري فذكر حديث السقيفة وفيه أن الصديق قال ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: "قريش ولالة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم"، قال فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء، وأنتم الأمراء، فهذا مرسل حسن، ولعل حميدا أخذه

عن بعض الصحابة الذين شهدوا ذلك وفيه فائدة جلية جدا، وهي أن سعد بن عبادَةَ نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة، وأذعن للصدِّيق بالإمارة؛ فرضى الله عنهم أجمعين[١.هـ].

قال الحافظ ابن كثير في كتابه: (الفصول في سيرة الرسول ﷺ): [فصل - بيعة العقبة الأولى والثانية - ثم إن رسول الله ﷺ لقي عند العقبة في الموسم نفراً من الأنصار، كلهم من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارَةَ بن عدس، وعوف بن الحارث بن رفاعَةَ، وهو ابن عفراء ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فأسلموا مبادرة إلى الخير، ثم رجعوا إلى المدينة فدعوا إلى الإسلام، ففشى الإسلام فيها، حتى لم تبق دار إلا وقد دخلها الإسلام.

فلما كان العام المقبل، جاء منهم اثنا عشر رجلاً: الستة الأوائل خلا جابر بن عبد الله بن رئاب، ومعهم: معاذ بن الحارث بن رفاعَةَ، أخو عوف المتقدم، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة - وقد أقام ذكوان هذا بمكة حتى هاجر إلى المدينة فيقال: إنه مهاجري أنصاري - وعبادة بن صامت بن قيس، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، فهؤلاء عشرة من الخزرج، واثنتان من الأوس، وهما: أبو الهيثم مالك بن التيهان، وعويم بن ساعدة، فبايعوا رسول الله ﷺ كبيعة النساء، ولم يكن أمر بالقتال بعد.

فلما انصرفوا إلى المدينة، بعث معهم رسول الله ﷺ عمرو بن أم مكتوم، ومصعب بن عمير، يعلمان من أسلم منهم القرآن، ويدعوان إلى الله عز وجل، فنزلا على أبي أمامة

أسعد بن زرارة، و كان مصعب بن عمير يؤمهم وقد جمع بهم يوماً بالأربعين نفساً، فأسلم على يديهما بَشَرٌ كثير منهم: (أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وأسلم بإسلامهما يومئذ جميع بني عبد الأشهل، الرجال والنساء، إلا الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم يومئذ، وقاتل فقتل قبل أن يسجد لله سجدة، فأخبر عنه النبي ﷺ فقال: "عمل قليلاً وأجر كثيراً".

و كثر الإسلام بالمدينة وظهر، ثم رجع مصعب إلى مكة، ووافى الموسم ذلك العام خلق كثير من الأنصار من المسلمين والمشركين، وزعيم القوم البراء بن معرور t . فلما كانت ليلة العقبة - الثالث الأول منها - تسلل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فبايعوا رسول الله ﷺ خفية من قومهم ومن كفار مكة، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأزهرهم، و كان أول من بايعه ليلتئذ البراء بن معرور، و كانت له اليد البيضاء، إذ أكد العقد وبادر إليه، وحضر العباس عم رسول الله ﷺ موثقاً مؤكداً للبيعة مع أنه كان بعد على دين قومه.

واختار رسول الله ﷺ منهم تلك الليلة اثني عشر نقيباً، وهم: أسعد بن زرارة بن عدس، وسعد بن ربيع بن عمرو، وعبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وهو والد جابر، وكان قد أسلم تلك الليلة t ، وسعد بن عبادة بن دليم، والمنذر بن عمرو بن خنيس، وعبادة بن الصامت، فهؤلاء تسعة من الخزرج، ومن الأوس ثلاثة، وهم: أسيد بن الحضير بن سمالك، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير، وقيل: بل أبو الهيثم بن التيهان مكانه، ثم الناس بعدهم .

والمرأتان هما: أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو، التي قتل مسيلمة ابنها حبيب بن زيد بن عاصم بن كعب، وأسما بنت عمرو بن عدي بن نابي، فلما تمت هذه البيعة استأذنوا رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل العقبة، فلم يأذن لهم في ذلك، بل أذن للمسلمين بعدها من أهل مكة في الهجرة إلى المدينة، فبادر الناس إلى ذلك، فكان أول من خرج إلى المدينة من أهل مكة أبو سلمة بن عبد الأسد، هو و امرأته أم سلمة فاحتبست دونه ومنعت سنة من اللحاق به، و حيل بينها وبين ولدها، ثم خرجت بعد السنة بولدها إلى المدينة، و شيعها عثمان بن طلحة، و يقال: إن أبا سلمة هاجر قبل العقبة الأخيرة، فالله أعلم، ثم خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً^[١٥٠].

فصل: في بيان معنى القُعود، وَمَنْ هُوَ الْعَبْدُ الْقَاعِدُ:

إن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة؛ يجد أن الذم منصب على الذين لا يقدمون شيئاً لدين الله تعالى، فلا هم ممن يجاهد بعلمه ودعوته، ولا بنفسه، ولا بماله، وكذلك على الذين تعين القتال في حقهم ولم يقوموا به، أما تسمية المجاهد بماله أو بعلمه قاعدا باعتبار أنه لم ينفر إلى القتال، فهذا قول لا أصل له، فقد سمي الله تعالى العالم القائم بعلمه المدافع عن دين الله تعالى، الساعي في دحض الباطل، وَتَفْقِيهِ الْأُمَّةِ، سباه الله تعالى نافرا، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢]، بل منع الله تعالى الأمة أن تنفر كلها إلى القتال، حتى ينفر منها جماعة إلى جهاد العلم،

فتأمل الآية المتقدمة، لتعلم عظيم الظلم الذي يقع فيه من يسمي أهل العلم القائمين بعلمهم في الأمة قولاً وعملاً، فيسميهم قاعدين، لاشك أن هذا من الجهل والخطأ.

وكذلك سمى النبي ﷺ المجhez للغازي بماله، غازيا، فكيف نسميه قاعداً، إن هذا لظلم وجهل، كما في الصحيحين عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا".

وقد فصل الله تعالى في ذلك، وبينه في قوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ٩٥-٩٦]، فبينت الآيات أنواع الجهاد، ودلت على أن من كان في أحد هذه الأنواع؛ فلا يكون، ولا يسمى قاعداً بحال، فذكر الله تعالى جهاد المال، وجهاد النفس وهو ينقسم إلى جهاد العلم بالبيان والحجة والبرهان، وجهاد القتال بالبدن في سبيل الله تعالى، ومن عدا هؤلاء فهم القاعدون، فتأمل؛ حتى لا تجور في الأحكام، وحتى لا تتصور المسائل الشرعية على غير وجهها.

فصل: عداوة مفتعلة ومكيدة مدبرة:

ولنعلم أن هناك من يحاول جاهداً أن يوجد عداوة مفتعلة بين أنواع الجهاد الثلاثة، العلم والنفس والمال، وهذا باطل قطعاً والتجاري مع هذا الطرح، والتجاوب معه خذلان للأمة، وتضييع لجهودها، ولعل الغرب الكافر بقيادة أمريكا، لما فطن لخطورة

تظافر العلم والمال مع القتال بالنفس في الحرب على الاتحاد السوفيتي؛ عملت على إيجاد هذه العداوة، حتى لا تجتمع مقدرات الأمة على جهادها، والنصر حليفهم إن فعلوا، فبدأنا نسمع الطعن واللمز في العلماء، من بعض المنتسبين إلى الجهاد بالنفس، ونعتهم بالقعود، وبكذا وكذا، وكذلك يرمون بعض من يجاهد بهالة، ثم تجاوب بعض العلماء مع ذلك، فصاروا يطعنون في المجاهدين بأنفسهم، ويرمونهم بكذا وكذا، وبدل أن يصبر هؤلاء العلماء على جهل هؤلاء؛ ليعلموهم ويرشدوهم، ويأخذوا بأيديهم، اتخذوهم خصوما لهم، وكذلك بدلا من أن ينهض عقلاء المجاهدين بأنفسهم؛ ليأخذوا زمام المبادرة، لتأليف قلوب العلماء عليهم، لمناصرتهم، ولو بالكلمة الطيبة، ناهيك عن السلاح الأعظم، ألا وهو الدعاء، أقول بدلا من التألف والتراحم حصلت الوحشة والفرقة، والشقاق، وهذا ما يريده الأعداء؛ فتشتت الجهود، وصارت الأمة تحارب عزها وشرفها، من خلال محاربة الجهاد في سبيل الله، ومطاردة أهله، حتى امتلأت السجون بأنواع المجاهدين الثلاثة، وتَفَقَّدَ السجون والمعتقلات، واسأل؛ لتعلم أن الذين في السجون السياسية، هم بين عالم وطالب علم ومجاهد بنفسه وآخر بهالة، والله المستعان.

والله تبارك وتعالى يقول: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]، وقد كان النبي ﷺ يستعمل جميع من حوله في طاعة الله، فهذا حسان بلسانه، وهناك خالد بسيفه، وها هو أبو هريرة بعلمه، وكل بحسبه، المهم ألا تكون قاعدا عن نصره هذا الدين، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولا يعني هذا ألا يكون صاحب حُسام اللسان بشعره، مقاتلاً، ولا صاحب الجهاد بعلمه مجاهداً بنفسه، كما أنه لا يعني أن يكون صاحب الجهاد بالنفس معرضاً عن العلم والتعلم، بل مهما استطاع العبد أن يجمع ذلك فليفعل، ولتكن همته مصروفة إلى ما هو الأنفع لدين الله تعالى، فلا تكن منطلقاته عاطفية، بل ينظر بميزان الشرع غير عابئ بكلام الناس وأحكامهم.

وإن كثيراً من الناس ربما يحسن الضرب بالسيف، ولكنه لا يحسن معرفة العلم ومعانيه وحقائقه، وتفتقده الأمة في نوازله، ومشاكلها، وشبه الأعداء التي يتسلطون بها عليها، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر، والعكس كذلك، فليعمل الكل لدين الله تعالى، إخوة متحابين بجلال الله جل جلاله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: [فَمَنْ عَجَزَ عَنِ الْجِهَادِ بِالْبَدَنِ لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ الْجِهَادُ بِأَلْمَالِ كَمَا أَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْجِهَادِ بِأَلْمَالِ لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ الْجِهَادُ بِالْبَدَنِ] اهـ.

تنبيه مهم

وإنه لمن الرزايا والبلايا، ألا يَجِدَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ - القادر على طلب العلم - سبيلاً إلى النفير إلى أرض الجهاد بالنفس، فيقعد عاطلاً عن العلم الشرعي، منشغلاً ببنيات الطريق، وهذه ثُلْمَةٌ في الإسلام لا يَتَفَقَّنُ لها الكثير، وهي أحد المشاكل الكبار التي تعاني منها أمة الإسلام، أثناء إعدادها لملاقاة أعداء الله، بل الواجب على القادر على طلب العلم أن ينفر إلى العلم، وَيَجِدَّ وَيَجْتَهِدَ في ذلك، حتى إذا ذهب إلى أرض الجهاد كان

النفع به أعظم، إذ أن جهادا بلا علم صحيح راسخ؛ لا يتحقق به النصر المنشود لأمة الإسلام، وإنَّ عبدا وفقه الله تعالى فانكسر عنده حاجز الخوف من الموت والأعداء، وملاقاة الشدائد والصعاب، والتعلق بهذه الحياة الدنيا، لا يليق به أبدا أن يقعد عن طلب العلم والاجتهاد فيه، مع قدرته على ذلك، حتى ينفع الله تعالى به ويدفع، فلنتنبه إلى هذا المقام الجليل العظيم، فإنه مَزَلَّةٌ أَقْدَامَ، ومظنة غفلة، والله المستعان.

وفاة سيد الناس ٢ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

قوله: (وتوفي عليه الصلاة والسلام ودينه باق)، فقد مرض النبي ٢ في شهر صفر، وتوفي في شهر ربيع عن ثلاث وستين عاماً، كما جاء ذلك مصرحاً به في البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي هذا إثبات بشريته عليه الصلاة والسلام، وأنه مات كما يموت الناس، إلا أن الأنبياء والمرسلين يخبرون قبل الموت بين البقاء في الدنيا، أو الانتقال إلى جوار الرحمن تبارك وتعالى، وما كان لِنَبِيِّ عَلِمَ ما ادخره الله جل وعلا له من الخير العظيم والرحمة والإكرام أن يختار البقاء في دار الهم والغم والنصب والتعب والأمراض والألوى، ولهذا اختار الأنبياء كلهم الانتقال إلى الرفيق الأعلى، وذلك لعظيم علمهم بالله جل وعلا، وبحقيقة هذه الحياة الدنيا.

توفي النبي ٢ حين اشتد الضحى من يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة في يوم لم ير الصحابة أظلم منه، كما في مصنف ابن أبي شيبة ومسند أحمد وسنن الدارمي بسند جيد عن أَنَسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ٢ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَخْتَلِفُ إِلَى الشَّامِ وَكَانَ يُعْرِفُ وَكَانَ النَّبِيُّ ٢ لَا يُعْرِفُ

فَكَانُوا يَقُولُونَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا هَذَا الْغُلَامُ بَيْنَ يَدَيْكَ قَالَ هَذَا يَهْدِينِي السَّبِيلَ فَلَمَّا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ نَزَلَا الْحَرَّةَ وَبَعَثْنَا إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَاءُوا فَقَالُوا قُومًا آمِنِينَ مُطَاعِينَ قَالَ فَشَهِدْتُهُ يَوْمَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ كَانَ أَحْسَنَ وَلَا أَضْوَأَ مِنْ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْنَا فِيهِ وَشَهِدْتُهُ يَوْمَ مَاتَ فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا كَانَ أَفْبَحَ وَلَا أَظْلَمَ مِنْ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي الصحيحين من طريق عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ فِي أَنْ يُمَرِّضَ فِي بَيْتِي فَأُذِنَ لَهُ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ تَحْتَ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ عَبَّاسٍ وَرَجُلٍ آخَرَ قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ فَأَخْبَرْتُ، عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ أَتَدْرِي مَنْ الرَّجُلُ الْآخَرُ قُلْتُ لَا قَالَ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؑ وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُحَدِّثُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ بَعْدَمَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَاشْتَدَّ وَجَعُهُ: "هَرَبُوكُمَا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قَرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْ كَيْتُهُنَّ لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ" وَأَجْلَسَ فِي مَخْضَبٍ لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ تِلْكَ حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا أَنْ قَدْ فَعَلْتُمْ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ.

وفي لفظ لمسلم عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ لَهَا أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ بَلَى ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "أَصَلَّى النَّاسُ". قُلْنَا لَا وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ". فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْوُءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: "أَصَلَّى النَّاسُ". قُلْنَا لَا وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: "ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ". فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْوُءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: "أَصَلَّى لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ". فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْوُءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: "أَصَلَّى

النَّاسُ". فَقُلْنَا لَا وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَتْ وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللَّهِ r لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ قَالَتْ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ r إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ r يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَ فَقَالَ عُمَرُ أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ.

قَالَتْ فَصَلَّى بِهِمْ أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الْأَيَّامَ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ r وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَةً فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ r أَنْ لَا يَتَأَخَّرَ وَقَالَ لَهُمَا: "أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ". فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّيَ وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ r وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ وَالنَّبِيِّ r قَاعِدٌ.

وفي الصحيحين عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّيَ لَهُمْ فِي وَجَعِ رَسُولِ اللَّهِ r الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْإِثْنَيْنِ - وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ - كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ r سِتْرَ الْحُجْرَةِ فَنَظَرَ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَانَ وَجْهُهُ وَرَقَةً مُصْحَفٍ. ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ r ضَاحِكًا - قَالَ - فَبَهْتْنَا وَنَحْنُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ فَرَحٍ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ r - وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقْبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ r خَارِجٌ لِلصَّلَاةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ r بِيَدِهِ أَنْ أَمُّوا صَلَاتَكُمْ - قَالَ - ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ r فَأَرْخَى السِّتْرَ - قَالَ - فَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ r مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ r جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: "إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَيَبْنَ مَا عِنْدَهُ فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَهُ"، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ فَدَيْنَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجَبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ، انْظُرُوا إِلَى

هَذَا الشَّيْخُ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدِ خَيْرِهِ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ فَدَيْنَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمُنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مِنْ أَمْنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَّا خَلَّةَ الْإِسْلَامِ لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ؓ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُمَرَ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا. فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتُ فَقَالَتْ لَهَا مَا يُبْكِيكِ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ. فَقَالَتْ مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ.

ففي موته ﷺ عزاء لكل من يفقد حبيباً، فاللهم أوردنا حوضه، واسقنا من يده الشريفة، شربة هنيئة مريئة، لا نظماً بعدها أبداً، واجمعنا به في جناتك جنات النعيم، إنك ولي ذلك والقار عليه، يا ربنا.

قوله: (ودينه باق): كما تقدم لأن الذي شرعه حي لا يموت، ألا وهو الله رب العالمين، فالدين دين الله، وهو الذي أمر به، وأنزل الكتب لأجله، وأرسل الرسل لبيانه، وهو باق إلى أن يأتي الوقت المعلوم، كما في صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ **r** يَقُولُ: "لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى". فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَا أَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}، أَنْ ذَلِكَ تَأَمَّا، قَالَ: "إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفِّي كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خُرْدٍ مِنْ إِبْرَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ". ومثله في صحيح مسلم في الحديث الطويل الذي يرويه النواس بن سمعان **t** عن النبي **r**، وفيه قال النبي **r**: "فَيَبْنِيهِمْ هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارَجَ الْحُمْرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ".

ولهذا قام أبو بكر في الصحابة خطيباً، فقال مقولته المشهورة: (من كان يعبد محمداً فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

كما في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ **t** عَلَى فَرَسِهِ مِنْ مَسْكِنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَتَيَمَّمِ النَّبِيَّ **r** وَهُوَ مُسَجَّى بِبُرْدٍ جَبَرَةٍ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ ثُمَّ بَكَى فَقَالَ يَا أَبَايَ أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مَتَّهَا قَالَ أَبُو سَلَمَةَ فَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ **t** خَرَجَ وَعُمَرُ **t** يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ اجْلِسْ فَأَبَى فَقَالَ اجْلِسْ فَأَبَى فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ **t** فَمَالَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَتَرَكُوا عُمَرَ فَقَالَ: (أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا **r** فَإِنَّ مُحَمَّدًا **r** قَدْ مَاتَ

وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى الشَّاكِرِينَ}، وَاللَّهُ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ ؓ فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا.

فأراد الصديق ؓ في هذه الحادثة العظيمة، والموقف الجليل منه ؓ، أن يبين للناس والأمة من بعدهم، أن هذا الدين ليس مربوطاً ببقاء أحد أو موته، بل هو دين الله جل وعلا، يحيا من يحيا، ويموت من يموت، ولكن الإسلام باق، والله الحي الذي لا يموت قد تكفل بنصره، وحفظه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١-١٧٣]،

وقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]، فما بقي علينا سوى العمل والجد والاجتهاد في نصره دين الله جل وعلا، والمعنى لئن كان رسول الله ﷺ قد مات، فاعملوا على أن تموتوا على ما مات عليه، وترككم عليه، من القيام بالدين قولاً وعملاً، دعوة وجهاداً.

أنت بحاجة لهذا الدين العظيم والله هو الغني الحميد:

واعلم رحمك الله، أن الله تعالى هو الغني الحميد، وأنا عندما نسعى، في نصره هذا الدين، فإننا ننفع أنفسنا، كما قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ} [الروم: ٤٤].

ولنحذر من أن تُسَوَّلَ لنا أنفسنا، أو يُمْلَى علينا شياطين الإنس أو الجن، أن نُضَرَّ هذا الدين مرهون بنا، وأنا إن تخلفنا عن ذلك؛ فَسَيَذْهَبَ دين الله تعالى، هيهات هيهات،

قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨].

جاء في كتاب طبقات الحنابلة في بيان خصال الإمام أحمد بن حنبل قال: [محمد بن زهير أبو جعفر نقل عن إمامنا أشياء: منها قال: أتيت أبا عبد الله في شيء أسأله عنه، فأتاه رجل فسأله عن شيء أو كلمه في شيء، فقال: له جزاك الله عن الإسلام خيراً، فغضب أبو عبد الله، وقال له: من أنا حتى يجزييني الله عن الإسلام خيراً، بل جزى الله الإسلام عني خيراً] اهـ.

المتن

وَهَذَا دِينُهُ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَرَهَا مِنْهُ،
وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ
الَّذِي حَذَرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ. بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى
النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ؛
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]. وَكَمَّلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:
{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]. وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّكَ
مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ {
[الزمر: ٣٠-٣١]. وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {مِنْهَا
خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: ٥٥]. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا { [نوح: ١٧-١٨]. وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسِبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ،
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [النجم: ٣١].

الشرح

قوله: (وهذا دينه): إشارة إلى الإسلام فهو دينه عليه الصلاة والسلام، ودين جميع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: {إن الدين عند الله الإسلام}.

قوله: (لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرهما منه): أراد المؤلف رحمه الله تعالى أن يبين كمال نصيح النبي ﷺ لأُمَّته، وعظيم حرصه على نجاة أتباعه، وهذا هو شأن جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم نبينا وحبينا عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، كما في صحيح مسلم من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو وَابْنُ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَتَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشْرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ وَيُنْذِرُهُمْ شَرٍّ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ وَإِنْ أُمَّتْكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكَرُ وَهِيَ وَتَحْيِيءُ فِتْنَةً فَيُرْفَقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَحْيِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَحْيِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً فَلَيْطَعُهُ إِنْ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخِرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عَنْقَ الْآخِرِ".

وفي صحيح البخاري من طريق طارق بن شهابٍ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ ؓ يَقُولُ: (قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَ مَنْ نَسِيَ).

وفي صحيح مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَ مَنْ نَسِيَ قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيْتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ).

وفي صحيح مسلم عَنْ سَلْمَانَ قَالَ قِيلَ لَهُ قَدْ عَلِمَكُمُ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةِ. قَالَ فَقَالَ: (أَجَلٌ لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ).

وإذا كانت هذه حالة النبي ﷺ وهذا عظيم حرصه، فلنا أن نعجب ممن يتردد في طاعته ﷺ الطاعة العمياء؟!، كيف لا وأوامره ﷺ خيرٌ محض، ونواهيه ﷺ شرٌ محض، وإننا أمرنا بطاعته ﷺ ؛ وإلا فجهنم وبئس المصير، ولكن الله المستعان.

ألا فلنعلم، أنه لا يسع عبداً يؤمن بالله واليوم الآخر، إلا أن يحب النبي ﷺ، ويجب دينه، وشريعته وسنته، وأن يسعى جاهداً في العمل بذلك، وأنه لا خيار للمؤمنين إلا ذلك، ولتذكر قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ

الرُّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ {البقرة: ١٤٣}.

فمحبتة من أكد مقامات الإيمان، كما أن بغضه، أو بغض ما جاء به، من أظهر نواقض الإسلام، ومن أعظم ما يورث الهلاك والبوار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَاهُمْ} (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَاهُمْ {محمد: ٨-٩}، وقال سبحانه: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣].

واعلم أن الله تعالى يدافع عن نبيه ٢، كما قال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ {الحجر: ٩٤-٩٩}، وقال: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧]، وقال: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: ٣٦].

قوله: (والخير الذي دلها عليه التوحيد، وجميع ما يحبه الله ويرضاه): أي هذا أعظم ما دعا إليه وبينه، ألا وهو التوحيد، إذ هو مفتاح قبول الأعمال، وهكذا كانت دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، أنهم يقولون لأقوامهم جميعاً: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٦٥]، فإذا صح التوحيد جاءت باقي الأعمال تبعاً لذلك، ولهذا كان أعظم ما عني به الرسول ٢، ترسيخ قضية التوحيد، ثم بعد ذلك أمرهم بباقي شرائع الدين،

ولهذا عطف المؤلف بقوله: (وجميع ما يحبه الله ويرضاه)، فالتوحيد مفتاح قبول الأعمال وهو مفتاح دخول الجنة.

فصل: في ذكر الأعمال الجبلية من النبي ﷺ :

وأما الأعمال الجبلية، وهي التي فعلها النبي ﷺ بمقتضى خَلْقَتِهِ، أو لكونها في طريقه، ولم يقصدها لذاتها، فهذه لا تدخل في هذا الباب، وهذا مذهب جمهور الصحابة ومن بعدهم، وأما ما ثبت قصد النبي ﷺ إياها، فهذا داخل في عموم هديه عليه الصلاة والسلام.

ولهذا كان الصحابة لا يقلدون صوت النبي في قراءته ولكن في هيئة القراءة، وكان جمهورهم لا يتتبع منزله الذي ينزله ﷺ في سفره، سواء للغزو أو لحج أو عمرة، إذا كان ﷺ لم يقصده لذاته.

ولنحذر من التكلف فإننا قد نهينا عنه، ولم يكن من هديه عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦].
وفي صحيح البخاري عن أنسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ نُهِينَا، عَنِ التَّكَلُّفِ.

وقوله: (والشر الذي حذرنا منه الشرك): أي هذا أعظم ما بُعث به النبي ﷺ، وهو كذلك أعظم ما بعث به الرسل من التحذيرات، أن يحذروا أهمهم من الشرك بالله تعالى، بكل أنواعه، بلا تبعض، ولا عِصِينَ، غير عابئين بأحد من الخلائق، ولا ملتفتين لحق أحد من الخلائق، قبل حق الله جل وعلا، لا سلطانا ولا ملكا، ولا دستورا ولا نظاما،

ولا فتنة ولا ضغط واقع، ولا مُرَادُ الأكثر، لأنه متعلق بحق الله تعالى، فيجب تقديمه، وبذل التضحيات لأجله، ولأجل إقامته، ولأنه يحبط سائر الأعمال.

كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور: ٣٩]؛ ولأنه يورث الخلود في النيران، والحجاب عن رؤية الرحمن، ولأنه هو سبب كل شر وبلاء ومحنة ونكبة وفتنة، وهو السبب الأعظم الذي به يقع الفساد العريض في الأرض، ولكن أهل النفاق لا يعقلون، فيحاربون التوحيد، ويحمون الشرك وأهله، بدعوى درء الفتنة، والإصلاح، ولكن الله تعالى شهد عليهم بأنهم وأمثالهم، مهما ارتفعوا عند الناس، ومهما كانت لهم من المنزلة والمكانة، ومهما انخدع الناس بهم، وخدعوا الناس بمعسول كلامهم، ومكرهم واحتياهم، إلا أنهم يبقون أبداً، في الميزان الرباني، هم المفسدون.

كما قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠-١٣]، فانتبه وإياك أن تغتر، فهذا هي دعوة النبي ﷺ واضحة المعالم، ظاهرة الدلائل، وإياك أن تفتن عنها، أو يلتبس عليك الحال.

الغلو في الصالحين والتعصب للآباء سبب هلاك الأمم:

واعلم عافانا والله وإياك، أن من أعظم ما يوقع في الشرك بالله تعالى هو الغلو في الصالحين؛ ولهذا جاءت التحذيرات من ذلك متكاثرة في الكتاب والسنة.

أما من الكتاب العزيز فقول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٠، ٣١]، وقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النساء: ١٧١ - ١٧٥]، وقوله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٧٧]، وقوله: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ { [التوبة: ١٧ - ٢٠]، وقوله: { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا
أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا
هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ
مُتَسَمِّكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)
وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أُولَئِذٍ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ {
[الزخرف: ١٩ - ٢٥]، وقوله: { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَا صُطِفَىٰ لِمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى
النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ
الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ { [الزمر: ٣ - ٥]، وقوله: { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مُحَذُّورًا} [الإسراء: ٥٦ - ٥٧]، وقوله: {أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبُ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٣ - ٤٧]، وقوله: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٣١ - ٣٦]، وقوله: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثُّ عَلَيْنَا أَنْ أَجْعَلَ إِلَهًُا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهِذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقُ (٧) أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ { [ص: ١ - ٨]، وقوله: { يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ { [فاطر: ١٣ - ١٤]، وقوله: { وَآتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ { [الشعراء: ٦٩ - ٨٣]، وقوله: { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ

تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ
هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ { [النمل: ٥٩ - ٦٦] . والآيات بهذا المعنى كثيرة
جدا في الكتاب العزيز، فهي من أعظم القضايا حضورا في كتاب الله جل وعلا.

أما من السنة: فمن ذلك ما جاء في صحيح مسلم من طريق عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ
النَّجْرَانِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ
يَقُولُ: "إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ
قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ
إِنِّي أَنهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ".

وفي الصحيحين من طريق عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَائِشَةَ وَابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا قَالَا لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ حَمِيصَةً عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ
وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: "لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ
يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا".

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ لَمَّا اشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ ذَكَرْتُ بَعْضَ
نِسَائِهِ كَنِيْسَةً رَأَيْتُهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا مَارِيَّةٌ وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ حَبِيبَةَ، رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا أَتَتْ أَرْضَ الْحَبَشَةِ فَذَكَرْنَا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرِ فِيهَا فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: "أُولَئِكَ إِذَا

مَاتَ مِنْهُمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ثُمَّ صَوَّروا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ أَوْلَيْكَ
شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ".

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعَ عُمَرَ **t** ، يَقُولُ عَلَى الْمُنْبَرِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ
e يَقُولُ: "لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ
وَرَسُولُهُ".

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **e**: "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ". قَالَهَا
ثَلَاثًا.

وفي مصنف ابن أبي شيبة وسنن ابن ماجه ومسنند أحمد وهذا لفظه وإسناده عنده
حَدَّثَنَا يَحْيَى، وَإِسْمَاعِيلُ الْمُعْنَى، قَالَا: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، حَدَّثَنِي زِيَادُ بْنُ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي
الْعَالِيَةِ الرَّيَّاحِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - قَالَ: يَحْيَى لَا يَدْرِي عَوْفٌ عَبْدُ اللَّهِ أَوِ الْفَضْلُ؟ -
قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ **r** غَدَاةَ الْعَقَبَةِ، وَهُوَ وَقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ: "هَاتِ الْقُطْلِي"،
فَلَقَطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ هُنَّ حَصَى الْحَذَفِ، فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِهِ، فَقَالَ: "بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ" مَرَّتَيْنِ،
وَقَالَ بِيَدِهِ - فَأَشَارَ يَحْيَى أَنَّهُ رَفَعَهَا - وَقَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ". قلت: وسنده صحيح.

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح عَنْ أَنَسٍ **t** ، أَنَّ
رَجُلًا، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَيَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: "قُولُوا بِقَوْلِكُمْ
وَلَا يَسْتَجِرُّكُمْ الشَّيْطَانُ" - أَوْ: "الشَّيَاطِينُ"، إِحْدَى الْكَلِمَتَيْنِ - : "أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ
وَرَسُولُهُ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ". وفي رواية: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ،

قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللَّهُ".

وفي رواية: "يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا تَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَمَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللَّهُ".

وفي مسند أحمد والأدب المفرد للبخاري والتوحيد لابن مندة وفي السنن الكبرى للنسائي وعند أبي داود من طريق مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: أَنْتَ وَالِدُنَا، وَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَأَنْتَ أَفْضَلُنَا عَلَيْنَا فَضْلاً، وَأَنْتَ أَطْوَلُنَا عَلَيْنَا طَوْلاً، فَقَالَ: "قُولُوا بِقَوْلِكُمْ لَا تَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ".

وفي رواية، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَنْتَ سَيِّدُ فُرَيْشٍ، فَقَالَ: "السَّيِّدُ اللَّهُ"، قَالَ: أَنْتَ أَفْضَلُنَا قَوْلاً، وَأَعْظَمُنَا فِيهَا طَوْلاً، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَيَقُلَّ أَحَدُكُمْ بِقَوْلِهِ وَلَا يَسْتَجِرَّهُ الشَّيْطَانُ، أَوْ الشَّيَاطِينُ"، قلت: وإسناده جيد^١.

البراءة والعداوة يوم القيامة:

١ - قلت: ولم يبلغ هذا الخبر الإمام مالك رحمه الله، فلم يعرفه، كما قال الباجي في المنتقى: [وَلَا بَأْسَ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ لِسَيِّدِهِ يَا سَيِّدِي، قَالَ مَالِكٌ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَأَلْفَيْنَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ}، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَسَيِّدًا وَحْصُورًا}، وَقِيلَ لَهُ: يَقُولُونَ السَّيِّدُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، قَالَ مَالِكٌ: أَئِنَّ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّمَا فِي الْقُرْآنِ رَبُّنَا رَبُّنَا] ١.هـ.

واعلم رحمك الله، أن المشركين سيتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، السادة والأتباع، على حد سواء، وتأمل في هذه النصوص.

قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٥-١٦٧]، وقوله: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ} [العنكبوت: ٢٥]، وقوله: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ إِلَهُهَا (٥٦) هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِلَيْهِمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّمُّوهُ لَنَا فَيَنْسِفُ الْفَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) اتَّخَذْنَاَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} [ص: ٥٥-٦٨]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا

إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلُّوْنَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا { [الأحزاب: ٦٤ - ٦٨]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} (٢٦) فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ { [فصلت: ٢٦ - ٢٩]، وقوله: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ { [الأعراف: ٣٨ - ٣٩]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ { [سبا: ٣١ - ٣٣]، وقوله: {وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ

وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ
الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ
لَا تَتَّصِرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ
(٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا
كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ
(٣١) فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَلِإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا
كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)
وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)
إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ { [الصفات: ١٣ -
٣٩]، وقوله: { وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ
دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَبَّيُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
(٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ
(١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ { [الشعراء: ٩١ -
١٠٤]، وقوله: { إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ
الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا
السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَبْخُوضُوا وَيَبْعَثُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ {الزخرف: ٦٤ - ٨٤}.

وقوله: (وجميع ما يكرهه الله ويأباه): في هذا السياق بيان لعقيدة المؤلف الصافية، في باب الأسماء والصفات، بل وفي غيرها، حيث أنه يثبت لله تعالى ما أثبتته لنفسه، فالنصوص متظافرة ظاهرة، في إثبات صفة، الكره والأبىان لله تعالى، فلم يجد المؤلف حرجاً من نسبتها إلى الله تعالى، فالأمر كما قال تعالى: {قل أنتم أعلم أم الله}، وفي كلامه إشارة إلى أن أصل كل شر هو الشرك بالله تعالى، وأن كل شر دون الشرك هو أهون منه، وهذا يؤكد التدرج في الدعوة إلى الله تعالى، من الأهم إلى المهم، كما أن المؤلف أراد

أن يعيد التأكيد، على أن هناك أموراً أخرى يجب اجتنابها؛ ليرتفع العباد في مراتب التوحيد وتحقيقه؛ ولينجوا من عذاب الله ووعيده.

واعلم أن في كلام المؤلف رحمه الله تقريراً لعقيدة أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات، فالله جل وعلا موصوف بالمحبة، فهو يُحِبُّ ويُحِبُّ، وفيه إثبات لصفة الكره والبغض، فالله جل وعلا يكره ويبغض، وأنه سبحانه وتعالى يأبى، كما قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: ٣٢]، وقوله: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٤٦]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤].

وأما الأحاديث فكثيرة جداً، وأكتفي بهذا الخبر المتفق على صحته من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبَهُ قَالَ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبُوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ قَالَ فَيَبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ". نسأل الله محبته، ونعوذ به من غضبه، وبغضه وسخطه.

فائدة: جاء عن الإمام أحمد كما كتاب: (الرد على الزنادقة والجهمية): [وذلك أن الله جل ثناؤه إذا سمى الشيء الواحد باسمين أو ثلاثة أسامي فهو مرسل غير منفصل، وإذا سمى شيئين مختلفين لا يدعهما مرسلين حتى يفصل بينهما، من ذلك قوله: {يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا}، فهذا شيء واحد سماه بثلاثة أسامي وهو مرسل ولم يقل إن له أبا وشيخا وكبيرا، وقال: {عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات}، ثم قال: {ثيبات وأبكارا}، فلما كانت البكر غير الثيب لم يدعه مرسلا حتى فصل بينهما، فذلك قوله: {وأبكارا}، وقال: {وما يستوي الأعمى}، ثم قال: {والبصير}، فلما كان البصير غير الأعمى فصل بينهما، ثم قال: {ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور}، فلما كان كل واحد من هذا الشيء غير الشيء الآخر فصل بينهما، ثم قال: {الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور}، فهذا كله شيء واحد فهو مرسل ليس بمفصل؛ فلذلك إذا قال الله: {ألا له الخلق والأمر}؛ لأن الخلق غير الأمر فهو منفصل). ١٠هـ.

وهذا الجهد العظيم المبارك يفعله النبي عليه الصلاة والسلام، وهو صابر لله تعالى ومحتسب؛ يرجو نجات أمته، حريص على خلاصهم، وجلب الخير إليهم، مع أنه قد أؤذي في الله وابتلي ۞، ولكنه لعظيم رحمته وإشفافه عليهم؛ صبر واحتسب، فكان حاله كحال النخلة -وقد ضربها النبي ۞ مثلا للمؤمن- يرميها الناس بالحجارة، وهي ترميهم بأطياب الثمر.

كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ۞ أنها قالت للنبي ۞ هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُدٍ قال: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا

لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَاَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَتْنِي فَانْظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِرْيَلٌ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ"، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".

وفي مسند ابن أبي شيبة بسند جيد عن طارق المحاربي قال: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مرتين: مرة بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي أبيعها، ومرَّ عليه جُبَّةٌ له حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: "أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا"، قال: ورجل يتبعه بالحجارة، وقد أذمى كَعْبِيَّهَ وَعُرْقُوبِيَّهَ، ويقول: يا أيها الناس لا تُطيعوه، فإنه كَذَّابٌ، قلت: من هذا؟، قالوا: هذا غلام بني عبد المطلب. قلت: فمن هذا الذي يتبعه يَرْمِيهِ؟، قالوا: عمُّه عبد العزَّى، وهو أبو هُب).

وبنحوه في مسند أحمد عن ربيعة بن عبادٍ قال: (رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِذِي الْمَجَازِ يَدْعُو النَّاسَ وَخَلْفَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ يَقُولُ لَا يُصَدِّقُكُمْ هَذَا عَنْ دِينِ آلِهَتِكُمْ قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا عَمُّهُ أَبُو هُب).

قوله: (بعثه الله إلى الناس كافة): أي من زمان بعثته، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالكل مخاطبون بهذا الدين أصوله وفروعه، على الراجح، بما في ذلك الكفار، والذين أشركوا.

قوله: (كافة): أي لا فرق في ذلك بين حر وعبد، وغني وفقير، وأسود وأبيض، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨]، وبعثته عليه الصلاة والسلام جاءت البينة قال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمُرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} [البينة: ١ - ٥]، وصار العباد كلهم ملزمين بها، وعليهم أن يسعوا في تعلمها، وفهمها والعمل بها، فمن أعرض أو عاند، لم يضر إلا نفسه، وله نار جهنم خالدا فيها: {وكان ذلك على الله يسيرا}، وتأمل سورة (البينة)؛ لترى كيف بين الله تبارك وتعالى، افتراق الناس بناء على هذه البينة، فـ {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى: ٧]، جعلني الله وإياكم، ووالدينا، وأهلينا، وذرائنا، وأقاربنا، من أصحاب الجنة، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وهذه السورة أعني سورة البينة، دلت دلالة واضحة على أن أهل الكتاب، وكذلك المشركون، مخاطبون بأصول هذا الدين وفروعه، وأن عبدا يزعم أنه يوحد الله تعالى، ولكن لا يريد أن يصلي صلاة رسول الله ﷺ، ولا زكاته، بل بدين آبائه وأجداده، أو على

شريعة موسى أو عيسى عليهما السلام، فليعلم أن عمله حابط، ولا توحيد له، بل هو كافر بالله العظيم، وهو من حطب جهنم خالدين فيها أبداً، نسأل الله العافية والسلامة.

وكونه **٢** بعث إلى الناس كافة، هذا من خصائصه، ومن عظيم فضله ومنزله، وعظيم كرامته على الله تبارك وتعالى، كما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن النبي **٢** قَالَ: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً".

قوله: (وَأَفْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ؛ وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا})، والمعنى أن الجن مخاطبون بأصول الدين وفروعه، وأنهم مكلفون كالإنس تماماً، إلا ما خص الدليل هذا عن هذا، فهم مأمورون بالصلاة وسائر فرائض الدين، واحتج المؤلف على ذلك بقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}: أي إن هذا الدين لا يؤخذ بأقوال الرجال، ولا بأهوائهم، ولا آرائهم، بل الكتاب والسنة، وما يتبعهما من الإجماع والقياس المعبر، مع استصحاب فهم الصحابة **٧**.

قوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ}: هذا أمر بالتبليغ، ويتضمن الإكرام والتشريف للناس، حيث خصهم الله بالخطاب، وشرفهم بالتكليف، وكلمة الناس تطلق ويراد بها بنو آدم، ولكن قد يراد بها كذلك الجن والإنس أيضاً، كما قال تعالى: {الَّذِي يُوَسُّوْهُ فِي صُدُورِ

الناس من الجنة والناس}، وفي هذه الآية دخل في الخطاب الجن أصالة، ثم الناس إما أن يستجيبوا؛ فيحافظوا على هذا التشريف، وتلك الكرامة، وإلا فإن أبوا؛ فلهم الذل والمهانة، في الدنيا والآخرة.

قوله: {إني رسول الله إليكم جميعاً}: تأكيد على مبدأ الرسالة، وصدق الرسول، وأمانته، وضرورة اتباعه، أي إنما بُعثت إليكم من قبل المالك المتصرف الخالق، الله رب العالمين، وفي الآية إثبات صفة الكلام لله جل وعلا وأن القرآن كلام الله لا من كلام البشر ولا من الخلق، وقد تقدم هذا المعنى من قبل.

وفي هذا السياق تذكير بمقام الشهادة على الأمم، فإنه سيؤتى من كل أمة بشهيد، وأما نحن فسيشهد علينا محمد ﷺ، فلنكن على حذر، ولنبحث عن طريق السلامة والنجاة، ولا سبيل إليهما إلا بالإخلاص للمعبود جل جلاله، ومتابعة الرسول ﷺ، وتذكر قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤١-٤٢].

جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: "اقْرَأْ عَلَيَّ" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ، قَالَ: "نَعَمْ"، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}، قَالَ: "حَسْبُكَ الْآنَ" فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ.

قوله: (وأكمل الله به الدين، والدليل قَوْلُهُ تَعَالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}): أي ما قبضه الله تعالى إليه، إلا بعد أن كملت شرائع الدين، واستبانت وظهرت، وتمت نعمته تبارك وتعالى على عباده، قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١١٥]، وهذه من أعظم النعم، بل هي أعظم النعم على العباد في هذه الدنيا، ولهذا امتن الله جل وعلا بها عليهم، وذلك في قول المؤلف: (والدليل، قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ... الآية})، وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة والنبي ﷺ يخطب الناس، وهي من آخر ما أوحى إليه عليه الصلاة والسلام، من القرآن، فبين نزولها وموته عليه الصلاة والسلام نحواً من ثمانين يوماً، فقد كان الخطاب يوم التاسع من ذي الحجة، وقُبِضَ النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى في أول ربيع الأول.

كما في الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَأُوهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَا نَتَّخِذُكَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا قَالَ: (أَيُّ آيَةٍ)، قَالَ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}، قَالَ عُمَرُ: (قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ).

الرد على الزنادقة المستدركين على الشرع، والزاعمين نقصه أو تعارضه:

وفي الآية رد على المبتدعة، وعلى الزنادقة من العلمانيين، والعقلانيين، وأشباههم من المنافقين، فالدين قد اكتمل والنعمة قد تمت، وقال النبي ﷺ، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ود"، وفي رواية لمسلم: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد".

فأكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، فله وحده الحمد والفضل والمنة، فقد بُعث عليه الصلاة والسلام، في زمان نَظَرَ الله جل وعلا فيه إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، فلما أراد الله جل وعلا أن يرحم العباد، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم بإذنه، إلى صراط مستقيم، أَذِنَ ببعثة هذا السيد العظيم النبي ﷺ، الذي غير وجه التاريخ، وقلب موازين عصره الجاهلي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، كما دل على ذلك حديث عياض المجاشعي في صحيح مسلم، وقد تقدم.

فهذا الدين جاء من لدن حكيم حميد، محفوظ لا سبيل إليه، سالم من كل عيب ونقص وتعارض، كما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]، وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢].

وقوله: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: ٦٨ - ٧١].

وقوله: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصفات: ١٨٠-١٨٢].

وهنا نعود ونذكر أنفسنا بضرورة شكر هذه النعمة العظمى، وهذه الرحمة المهداة، وضرورة القيام بحق الله جل وعلا، وحق رسوله ﷺ، كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح: ٧-٩].

فريضة الذب عن رسول الله ﷺ، وبيان حكم سابه أو متقصه:

واعلم سددك الله، أن من أعظم الواجبات على المسلمين، الذب عن عرض نبيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، والسعي في القضاء المبرم على المستهزئين به، والقادحين فيه، قتالا باللسان، وبيانا باللسان.

قال العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي (٥٤٤ هـ) في كتابه: (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى): [الباب الأول في بيان ما هو في حقه ﷺ سب أو نقص من تعريض أو نص:

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع من سب النبي ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلته من خصاله أو عرّض به أو شَبَّهه بشيء على طريق السب له أو الإضرار عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه والعيب له؛ فهو سَابٌّ له، والحكم فيه حكم السَّاب، يقتل، كما نبينه ولا نستثني فصلا من فصول هذا الباب على هذا المقصد

ولا يمتري فيه تصرّيحاً كان أو تلويحاً وكذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور أو عيّره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو غمّصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلم جرا[١] هـ.

وفي صحيح البخاري عن أنسٍ **١** قَالَ: (كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ **٢** فَعَادَ نَصْرَانِيًّا فَكَانَ يَقُولُ مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ فَدَفَنُوهُ فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلٌ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَالْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلٌ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَالْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَالْقَوْهُ).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: (الصارم المسلول على شاتم الرسول): [ومن سنة الله أن من لم يمكن المؤمنون أن يعذبوه من الذين يؤذون الله ورسوله، فإن الله سبحانه ينتقم منه لرسوله، ويكفيه إياه، كما قدمنا بعض ذلك في قصة الكاتب المفترى، وكما قال سبحانه: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ].

والقصة في إهلاك الله واحدا واحدا من هؤلاء المستهزين معروفه قد ذكرها أهل السير والتفسير وهم على ما قيل نفر من رؤوس قريش منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسودان ابن المطلب وابن عبد يغوث والحارث بن قيس.

وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم لكن قيصر أكرم كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وأكرم رسوله فثبت ملكه فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم وكسرى مزق كتاب رسول الله ﷺ واستهزأ برسول الله ﷺ فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للأكاسرة ملك

فكل من شَنَّاهُ أو أَبْغَضَهُ وَعَادَاهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْطَعُ دَابِرَهُ وَيَمْحَقُ عَيْنَهُ وَأَثَرَهُ، وقد قيل: إنها نزلت في العاص بن وائل أو في عقبة بن أبي معيط أو في كعب بن الأشرف وقد رأيت صنيع الله بهم.

ومن الكلام السائر "لحوم العلماء مسمومة" فكيف بلحوم الأنبياء عليهم السلام؟.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: "يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة" فكيف بمن عادى الأنبياء؟، ومن حارب الله تعالى حرب وإذا استقصيت قصص الأنبياء المذكورة في القرآن؛ تجد أمهم إنما أهلكوا حين آذوا الأنبياء، وقابلوهم بقبيح القول أو العمل، وهكذا بنو إسرائيل إنما ضربت عليهم الذلة وباءوا بغضب من الله ولم يكن لهم نصير؛ لقتلهم الأنبياء بغير حق، مضموما إلى كفرهم، كما ذكر الله ذلك في كتابه، ولعلك لا تجد أحدا آذى نبيا من الأنبياء، ثم لم يُتَّبَ، إلا ولا بد أن تصيبه قارعة، وقد ذكرنا ما جر به المسلمون من تعجيل الانتقام من الكفار إذا تعرضوا لِلسَّبِّ رسول الله ﷺ، وبلغنا مثل ذلك في وقائع متعددة، وهذا باب واسع لا يحاط به [أ.هـ].

قلت: والمذكور في كتب أهل العلم سلفا وخلفا من هذا كثيرا جدا، كله دال على ما قرره القاضي عياض هنا.

قوله: (وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ۚ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، فبعد أن اكتمل الدين وتمت النعمة، حُيِّرَ النبي ۚ بين البقاء في الدنيا، أو الانتقال إلى الرفيق الأعلى فقال عليه الصلاة والسلام: "في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى"، كما جاء الخبر في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها، وجاء تخييره في صحيح مسلم وكل ذلك قد تقدم، فمات عليه الصلاة والسلام، ودفن وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، كما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها، وكان دفنه بعد أن تولى أبو بكر الصديق ؓ الخلافة، ودفن فيما ذكر في يوم الأربعاء عليه الصلاة والسلام، في بيت عائشة رضي الله عنها، وهذا الذي اجتمع عليه أمر الصحابة ۚ، وقد ورد في أحاديث لا تخلوا من الضعف أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، وصلى الناس عليه ۚ، أرسالاً، وفرادى، الرجل وحده، والرجلين والثلاثة، فنشهد الله تعالى على حبه ۚ، ونسأل الله سبحانه وتعالى الثبات على سُنَّتِهِ، والْوَرُودَ عَلَى حَوْضِهِ شَارِبِينَ مِنْهُ، مُحْشُورِينَ فِي زَمْرَتِهِ، إِنَّكَ وَلِي ذَلِكَ والقادر عليه.

وفي سنن النسائي الكبرى ومسنند عبد بن حميد وابن ماجه بسند جيد من طريق سلمة بن نبيط عن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد قال وكان من أصحاب الصفة قال: أغمي على النبي ۚ في مرضه فأفاق فقال: "أحضرت الصلاة" قالوا نعم قال: "مروا

بلال فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس " ثم أغمي عليه فأفاق فقال: "أحضرت الصلاة" فقلن نعم فقال: "مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس" قالت عائشة إن أبي رجل أسيف فقال: "إنكن صواحبات يوسف مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس".

فأمرن بلالا أن يؤذن وأمرن أبا بكر أن يصلي بالناس فلما أقيمت الصلاة قال النبي ﷺ: "أقيمت الصلاة" قلن نعم قال: "ادعوا لي إنسانا أعتمد عليه" فجاءت بريرة وآخر معها فاعتمد عليها فجاء أبو بكر فصلى فجلس إلى جنبه فذهب أبو بكر يتأخر فحبسه حتى فرغ من الصلاة فلما توفي النبي ﷺ قال عمر لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا فسكتوا وكانوا قوما أميين لم يكن فيهم نبي قبله قالوا يا سالم اذهب إلى صاحب النبي ﷺ فادعه قال فخرجت فوجدت أبا بكر قائما في المسجد قال أبو بكر مات رسول الله ﷺ قلت إن عمر يقول لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا فوضع يده على ساعدي ثم أقبل يمشي حتى دخل قال فوسعوا له حتى أتى النبي ﷺ فأكب عليه حتى كاد أن يمسه وجهه وجه النبي ﷺ حتى استبان له أنه قد مات فقال أبو بكر إنك ميت وإنهم ميتون قالوا يا صاحب رسول الله ﷺ أمات رسول الله ﷺ قال نعم قال فعلموا أنه كما قال قالوا يا صاحب النبي ﷺ هل يصلى على النبي ﷺ قال نعم قالوا وكيف يصلى عليه قال يدخل قوم فيكبرون ويدعون ويحيي آخرون قالوا يا صاحب النبي ﷺ هل يدفن النبي ﷺ قال نعم قالوا وأين يدفن قال في المكان التي قبض الله فيها روحه فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيبة قال فعلموا أنه كما قال ثم قال أبو بكر عندكم صاحبكم وخرج أبو بكر واجتمع المهاجرون فجعلوا يتشاورون بينهم ثم قالوا انطلقوا إلى

إخواننا من الأنصار فإن لهم من هذا الحق نصيباً فأتوا الأنصار فقال الأنصار منا أمير ومنكم أمير فقال عمر سفيان في غمد واحد إذا لا يصلحان ثم أخذ بيد أبي بكر فقال من له هذه الثلاث إذ يقول لصاحبه من صاحبه إذ هما في الغار من هما لا تحزن إن الله معنا مع من ثم بايعه ثم قال بايعوا فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها".

ونحن نُشهد الله تعالى على أنه قد مات ۞ ، وأنه لا كرب عليه بعده، عليه الصلاة والسلام، وأن جثمانه مدفون في الأرض، خلافاً لما يقوله المبتدعة والزنادقة، فموته حقيقي، إلا أننا ندين الله جل وعلا، بأنه ۞ في حياة البرزخية على أكمل ما تكون حياة في البرزخ، فهي أعلى من الصديقين، ومن حياة الشهداء، الذين قال الله تعالى فيهم: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} (١٦٩) فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ { [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وأن الأرض لا تأكل جسده الطاهر ۞ ، لما جاء في مصنف ابن أبي شيبة حدثنا حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن أنس أنهم لما فتحوا تستر قال: فوجد رجلاً أنفه ذراع في التابوت، كانوا يستظهرون ويستمطرون به، فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب عمر: (إن هذا نبي من الأنبياء، والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء)، فكتب: (أن انظر أنت وأصحابك - يعني أصحاب أبي موسى -

فادفنه في مكان لا يعلمه أحد غيركما)، قال: (فذهبت أنا وأبو موسى فدفناه). وقد روي هذا المعنى مرفوعا ولا يصح^١.

وبين المؤلف الدليل على موته بقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ { [الزمر: ٣٠-٣١]، وفي ذكر الموت بصيغة الماضي تقرير على أن الأمر واقع لا محالة، كما قال تعالى: {كل نفس ذائقة الموت}، ومن جميل ما نقل عن الشافعي رحمه الله تعالى:

إني معزيك لا أني على ثقة... مِنَ الْخُلُودِ، وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ
فَمَا الْمَعْزَى بَاقٍ بَعْدَ صَاحِبِهِ... وَلَا الْمَعْزَى وَإِنْ عَاشَا إِلَى حَيْنٍ

وقال رحمه الله:

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا... طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحْيٍ وَطْنَا
جَعَلُوهَا لِحَّةً وَاتَّخَذُوا... صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُنَّةً

كما أن في ذكر الموت وحقيقته، تذكيرا بكمال الله، وكمال حياته تعالى، وغناه جل جلاله، وقهره وعظمته، وقوته وقدرته، وتذكيرا بضعف المخلوق وقلة حيلته.

١ - تقدم تخريجه من حديث أوس بن أوس t وبيان ضعفه.

ولما توفي عليه الصلاة والسلام نزل بالصحابة **٧** خطب عظيم، كيف لا وأطهر روح تفارق الدنيا، وأطهر جسد يدفن في الأرض، عليه الصلاة والسلام، فأخذ الناس بكاء شديداً، وارتجت المدينة، وأخذ بعض الصحابة ذهول عظيم، وحقَّ لهم، فالخطب جسيم، ففقدانه **٨** لا كسائر الفقدان، لا سيما إذا عرفنا عظيم حبه لهم عليه الصلاة والسلام، وشدة تعلقهم به عليه الصلاة والسلام، حتى بلغ الحال بعمر **٩** أن سل سيفه، وقال مقالته المشهورة: (من زعم أن محمداً قد مات لأضربن عنقه)، كما ذكر أهل السير، وهذا من شدة ما نزل به من هَوْلِ الخبر، وقد تقدم ذكر الأدلة على ذلك.

قوله: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، بعد أن أثبت الله جل وعلا أن الموت لجميع الناس حاصل، وأن ذلك واقع تقديراً كونياً قدرياً، أثبت الله جل وعلا في هذه الآية، وقوع الخصومة في يوم القيامة، وحصول القصاص بين الظالمين والمظلومين، كما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧]، وقال سبحانه: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَادِلٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [النحل: ١١١]، وكما أن هذه الآية تضمنت التهديد والوعيد، فقد تضمنت التبشير بالفرج القريب، فأوشك أن يُرفع الظلم عن المظلومين، ويحيق المكر السيئ بأهله، كما أن في هذه الآية معنى قوله تعالى: {وهو أسرع الحاسبين}، وقوله: {والله سريع الحساب}، فإن الله تبارك وتعالى يفصل بين الأولين والآخرين في يوم واحد، بل ويقيّل أهل الجنة في الجنة في ذلك اليوم، والقيلولة هي الوقت ما قبل الزوال، كما قال عن أهل الجنة: {خيرٌ مستقراً وأحسن مقيلاً}، فلا يأتي وقت القيلولة إلا وهم في الجنة في الغرفات آمنون،

نسأل الله من فضله العظيم، كما أن هذه الآية تضمنت إبطال الحجج الواهية، والأقاويل المفتعلة، والأكاذيب، وأنها لن تغني عن أصحابها شيئاً؛ لأن العرض سيكون على الرب جل وعلا، الذي خلق وأوجد من العدم، ورَبَّى بالنعم وأحصى سبحانه كل شيء في كتاب مبين، فهو جل وعلا العليم الخبير، كما قال تبارك وتعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة: ١٨-١٩]، ولهذا خص ذكر اسم الرب دون سائر الأسماء، فلم يقل: (عند الله تختصمون)، وإنما قال: {عند ربكم تختصمون}، أي العليم الذي لا تخفى عليه خافية، فهو خلقكم وإليه ترجعون.

ومن جميل ما وقفت عليه، ولم أجد له مرجعاً، قول أحدهم: وَرَدَّتْ فِي الْقُرْآنِ كَلِمَةٌ (ثَقِيلاً) مَرَّتَيْنِ فَقَطْ، {يَوْمًا ثَقِيلًا} والمقصود به يوم القيامة. و{قَوْلًا ثَقِيلًا}. والمقصود به القرآن. فمن أراد أن ينجو من اليوم الثقيل فليتمسك بالقول الثقيل.

والأمر كما قال الناظم وينسب إلى أبي علي بن أبي طالب t :
ولو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حيٍّ
ولكننا إذا متنا بُعِثْنَا ... ونُسأل بعد ذا عن كل شيء

أَقْوَامُ مَوْتِهِمْ نِعْمَةٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعِبَادِ وَالْأَرْضِ وَالْبِلَادِ:

واعلم رحمك الله، أن من الناس من موته راحة للعباد؛ لعظيم شره وخبث فعاله، كما الصحيحين عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رَبِيعٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ

بِجَنَازَةٍ فَقَالَ: "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ، قَالَ: "الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مَنْ نَصَبَ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ".

بل ومن الناس من يحب الله لقاءه، ومنهم من يكره الله لقاءه، كما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"، قَالَتْ عَائِشَةُ، أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: "لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ".

بل ويفرح المؤمنون بموت أمثال هؤلاء الفجار الذين حياتهم أذية للعباد والبلاد والدواب، كما في صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ الْمَدِينَةِ هَاجَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ تَكَادُ أَنْ تَدْفِنَ الرَّائِبَ فَرَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "بُعِثْتُ هَذِهِ الرِّيحُ لِمَوْتِ مُنَافِقٍ". فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَإِذَا مُنَافِقٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ مَاتَ.

وإليك هذه النقول الدالة على فرح السلف بموت الطاغية أو الداعية إلى البدعة أو الكفر أو الزندقة والضلال:

ففي سير أعلام النبلاء للذهبي: [قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ عَنْ حَمَّادٍ، قَالَ: بَشَّرْتُ إِبْرَاهِيمَ بِمَوْتِ الْحَجَّاجِ، فَسَجَدَ، وَرَأَيْتُهُ يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ] ١. هـ.

وقال ابن كثير في ترجمة ابن النقيب في كتابه (البداية والنهاية): [عبيد الله بن عبد الله بن الحسين أبو القاسم الخفاف المعروف بابن النقيب، كان من أئمة السنة، وحين بلغه موت ابن المعلم، فقيه الشيعة، سجد لله شكراً، وجلس للتهنئة، وقال ما أبالي أي وقت مت بعد أن شاهدت موت ابن المعلم] ١.هـ.

وفي كتاب الذهبي (العبر في خبر من غبر) في أحداث سنة إحدى وخمسين ومائتين قال: [وفيها قتل أبو عبد الله البريدي أخاه لكونه عامل عليه ابن بويه ونسبه إلى الظلم ولم يحجج الركب لموت القرمطي الطاغية أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي في رمضان بهجر من جدري أهلكه فلا رحم الله فيه مغرز إبرة] ١.هـ.

وفي تاريخ بغداد: [قال سمعت بشر بن الحارث يقول جاء موت هذا الذي يقال له المريسبي وأنا في السوق فلولا أنه كان موضع شهرة لكان موضع شكر وسجود والحمد لله الذي أماته] ١.هـ.

وفي كتاب (السنة لأبي بكر بن الخلال) ذَكَرَ الْجُهْمِيَّةَ وَمَقَالَاتِهِمْ: [سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الْمُرُوزِيَّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، وَذَكَرَ الْجُهْمِيَّةَ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ يُرَادُّ بِهِمُ الْمَطَابِقُ، تَدْرِي أَيَّ شَيْءٍ عَمِلُوا هَؤُلَاءِ فِي الْإِسْلَامِ؟، قِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: الرَّجُلُ يَفْرَحُ بِمَا يَنْزِلُ بِأَصْحَابِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ، عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ إِثْمٌ؟، قَالَ: وَمَنْ لَا يَفْرَحُ بِهَذَا؟] ١.هـ.

وجاء في سير أعلام النبلاء للذهبي في ترجمة عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وكان رأساً في الإرجاء: [قَالَ سَلَمَةُ بْنُ شَيْبٍ: كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، فَجَاءَنَا مَوْتُ عَبْدِ الْمَجِيدِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَمِائَتَيْنِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرَّاحَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مِنْ عَبْدِ الْمَجِيدِ] ١.هـ.

ولما مات وهب بن وهب بن كثير - وكان ضالاً مضلاً - حمد الله تعالى بعض الأئمة، كما جاء في (لسان الميزان لابن حجر) قال: [ولما بلغ ابن المهدي موته، قال: الحمد لله الذي أراح المسلمين منه] ١.هـ.

وقال الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية) عن أحد رؤوس أهل البدع: [قال أبو شامة وفي هذه السنة توفي ملك الرافضة والنحاة الحسن بن بزدن التركي، كان من أكابر أمراء بغداد المتحكمين في الدولة، ولكنه كان رافضياً خبيثاً متعصباً للروافض، وكانوا في خفارتهم وجاههم، حتى أراح الله المسلمين منه في هذه السنة في ذي الحجة منها ودفن بداره ثم نقل إلى مقابر قريش فله الحمد والمنة وحين مات فرح أهل السنة بموته فرحاً شديداً وأظهروا الشكر لله فلا تجد أحداً منهم إلا يحمد الله فغضب الشيعة من ذلك ونشأت بينهم فتنة بسبب ذلك] ١.هـ.

واليوم نرى مفارقة عجيبة في أمة الإسلام، أنها باتت تحزن على موت الكفار، من يهود ونصارى وأشباههم، بل ربما ترحمت عليهم واستغفرت لهم، بل بعضهم يصلي عليهم، وهذا ما تراه بجلاء ووضوح عندما يموت أحد الكفرة من لاعبي كرة القدم المشاهير، أو أحد مشاهير الفن، بل حتى بابا الفاتيكان الذي يمثل رأس الكفر في العالم، عندما مات وجدنا من يترحم عليه من المسلمين، حتى على مستوى بعض من ترفع إليهم الأبصار، وهم أشبه ما يكونون بالمنافقين.

والله تعالى يقول: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)} وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٨٤-٨٥].

وقال جل من قائل عليهما: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)} وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٣-١١٤].

بل أصبح المسلم عياذ بالله، يهني الكافر بعيد التثليث والشرك والكفر، نسأل الله العافية والسلامة، وكثير من المسلمين يحتفلون بذلك، أسأل الله العافية والسلامة.

قال ابن القيم في: (أحكام أهل الذمة): [وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم فيقول عيد مبارك عليك أو تهنأ بهذا العيد ونحوه فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب بل ذلك أعظم إثما عند الله وأشد مقتا من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس وارتكاب الفرج الحرام ونحوه. وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك ولا يدري قبح ما فعل فمن هنا عبدا بمعصية أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه وقد. كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهنئة الظلمة بالولايات وتهنئة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والإفتاء تجنباً لمقت الله وسقوطهم من عينه] اهـ.

ولكنها غُرْبَةٌ عقيدة الولاء والبراء، بين المسلمين نسأل الله العافية والسلامة.

وقال ابن القيم في (الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه): [ومن أراد هذا السفر فعليه بِمُرَافَقَةِ الأَمْوَاتِ، الذين هم في العالم أحياء، فإنه يَبْلُغُ بِمُرَافَقَتِهِمْ إِلَى مَقْصِدِهِ، وَلِيَحْذَرَ من مُرَافَقَةِ الأَحْيَاءِ الذين هم في الناس أَمْوَاتٌ، فإنهم يَقْطَعُونَ عليه طَرِيقَهُ، فليس لهذا السَّالِكِ أَنْفَعُ من تلك المُرَافَقَةِ، وَأَوْفَقُ له من هذه المَفَارَقَةِ، فقد قال بعض السلف: شَتَانِ بَيْنَ أَقْوَامٍ مَوْتَى، تَحْيَا الْقُلُوبُ بِذِكْرِهِمْ، وَبَيْنَ أَقْوَامٍ أَحْيَاءٍ تَمُوتُ الْقُلُوبُ بِمُخَالَطَتِهِمْ] ١٠هـ.

ومن جميل ما قيل:

دَقَّاتُ قَلْبِ المرءِ قَائِلَةٌ لَهُ ... إِنَّ الحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانِي

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا ... فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِي

قال بعض الشعراء:

وما من كاتب إلا سَتَبَقَى ... كِتَابَتُهُ وَإِنْ فَنِيَتْ يَدَاهُ

فلا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

قوله: (وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ؛ وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}): هذا القدر تقدم الكلام عنه، والإشارة إليه، والتفصيل في البعث، عند الكلام عن الركن الخامس من أركان الإيمان، ولعل المؤلف رحمه الله أفرد ههنا؛ حتى لا تخلو هذه الأصول من الموعظة والتخويف والترهيب، أو لكي يقرر عقيدة أهل السنة الجماعة، في حصول البعث للأبدان والأرواح بأعيانها التي كانت في

الدنيا، ولهذا قال رحمه الله تعالى: (والدليل قوله تعالى: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى}).

قوله: {منها خلقناكم}: هذا لبيان أصل خلق الإنسان، وهو بيان لخلق آدم عليه السلام، ثم أجرى الله تعالى النسل بعد ذلك من الماء المهيّن، الذي يصير فيه الإنسان إلى أطوار الخلق، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، وهذا مذهب الجمهور، بينما قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية عامة في جميع الإنسان، فالكل خلق من الأرض، كما هو مروي عن خالد بن معدان وغيره، والأظهر القول الأول، وأن الخلق من الطين والماء، إنما وقع على آدم عليه السلام أبي البشر خاصة.

قوله: {وفيها نعيدكم}: أي ولو كنتم في أي مكان من السماء أو الأرض، فمصيركم إلى الأرض، وهذا عيسى عليه السلام، وقد رفعه الله تعالى إليه، إلا أنه سينزل إلى الأرض ويدفن فيها.

قوله: {ومنها نخرجكم تارة أخرى}: هذا هو دليل البعث، والأدلة على البعث كثيرة، وقد اختار المؤلف رحمه الله قوله تعالى: {والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً}، وذلك لأن العباد ينبتون يوم القيامة من هذه الأرض، إذا

أمطرت السماء ماء، قال عنه أهل العلم كمني الرجال، ونفخ في الصور نفخة البعث، ليقوم العباد لرب العالمين، كما قال تعالى: {يوم يقوم الناس لرب العالمين}.

جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، **٢** قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **٣**: "مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا قَالَ أَبَيْتُ قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْرًا قَالَ أَبَيْتُ قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ أَبَيْتُ قَالَ ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

قوله: {ويخرجكم إخراجاً}: تأكيد لقضية البعث وأنها واقعة لا محالة، وفي صحيح مسلم في حديث عبد الله بن عمرو الطويل وقد تقدم بطوله، وفيه قال النبي **٣**: "ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيَتَّأَوَّلَ لِيَتَّأَوَّلَ لِيَتَّأَوَّلَ - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ - قَالَ - فَيَضَعُ وَيَضَعُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّائِكُ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ - قَالَ - ثُمَّ يُقَالُ أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ فَيَقَالُ مَنْ كَمْ فَيَقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ - قَالَ - فَذَاكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا وَذَلِكَ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ".

وقد جاء ذكر البعث في الكتاب في مواضع، فمنها قوله تعالى: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا

صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ { [يس: ٤٩ - ٥٤].

وقوله: {فَلَا أُفْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [المعارج: ٤٠ - ٤٤].

وقوله: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} [ق: ٤١ - ٤٤].

وقوله: {يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٠ - ١٤].

قوله: (وَبَعْدَ الْبُعْثِ مُحَاسِبُونَ وَمُجْزِئُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}).

قوله: (وبعد البعث محاسبون ومجزئون بأعمالهم): دلالة على أن من أعظم حكم البعث وقوع الجزاء والحساب.

أنواع الحساب: والحساب في ذلك اليوم ينقسم إلى قسمين:

- ١ - الحساب اليسير. ٢ - الحساب العسير.

أما الحساب اليسير: فهو العرض، دون نقاش، فيعرض الله جل علا الأعمال على عباده الذين اصطفى، ثم مآلهم إلى الجنة ولا بد، فمنهم من يدخل الجنة ابتداء، ومنهم من يناقش ويدخل الجنة وهم الظالمون لأنفسهم، ولكن مآلهم إلى الجنة، وأهل الجنة ثلاثة أصناف ذكرهم الله جل وعلا في قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر: ٣٢-٣٥]، فهم إذاً المقربون وهم السابقون، والأبرار وهم المقتصدون، والظالمون لأنفسهم وهؤلاء معرضون للوعيد، ومنهم من يقع عليه العذاب، ومنهم من سيعفو الله عنهم.

وأما الحساب العسير: فكل من نوقش الحساب، فهذا معذب والعياذ بالله، فأما عصاة الموحدين فينجيهم ربهم برحمته تبارك وتعالى بإيمانهم بعد العذاب، وأما أصحاب الحساب العسير الذي لا تخفيف معه ولا كفارة، فهم أهل الإشراك والكفر الأكبر، وهؤلاء جزاؤهم بأربعة أمور:

١ - سخط الرب جل وعلا . ٢ - الفضيحة على رؤوس الأولين والآخرين مع الذل والصغار والهوان، والخوف والهلع العظيم. ٣ - دخول جهنم خالدين فيها أبداً. ٤ - وأعظم من ذلك كله حجابهم عن رؤية الله تبارك وتعالى.

أما المنافقون فيرون الله تعالى في العرصات مع المؤمنين، ثم لا يستطيعون السجود، يوم يكشف عن ساق، فيحشرون إلى الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله.

جاء في الصحيحين من طريق ابن أبي مُليكة أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مَنْ حُوسِبَ عُدْبَ قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ أَوْ لَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} قَالَتْ فَقَالَ إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ".

قوله: (والدليل قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا مَا عَمِلُوا}، هذه الآية تقرر أن كل ما في السماوات وما في الأرض، هو ملك لله الواحد القهار، وأنه وحده المتصرف في ذلك كله، لا يشركه في ذلك أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي صالح، كما قال تعالى: {بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا}.

وقوله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا}: هذا كقوله تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء: ١٢٣]، وهذا الجزاء قد يدخر للعبد يوم القيامة، وقد يناله بعض ذلك في الحياة

الدنيا، كما قال تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة: ٢١].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال لما نزلت: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوْ الشُّوْكَةَ يُشَاكُّهَا".

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشُّوْكَةَ يُشَاكُّهَا".

أعظم أنواع الإساءة:

واعلم أن أعظم أنواع الإساءة على الإطلاق مع الرب تبارك وتعالى، التلاعب بحقه جل وعلا على عباده، ألا وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، فمن العباد من بلغ في الإساءة الحد الأعظم، وذلك بالوقوع في الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر، كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ"، قُلْتُ: إِنْ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ، قَالَ: "وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ"، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ، قَالَ: "أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ".

ومن العباد من هم دون ذلك، ومن ذلك إساءة الأدب مع الله جل وعلا، إذ يخلق ويرزق ويعافي، ثم يستعين العبد بنعم الله على معصيته، وبين الأول والثاني مراتب، فليتأمل كل واحد منا نفسه، ومن رحمة الله بعباده أن الجزاء يكون على أنواع، فمنه ما يعجل في الدنيا من البلايا والمصائب، كما تقدم، وكما قال تعالى: {لَتُبْلَوْنَ فِي أُمُورِكُمُ

وَأَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٨٦]، ونحو ذلك من الأدلة، الدالة على أن اللأوى والمصائب والآلام، هي من الجزاء المعجل في الدنيا رحمة من الله بعباده المؤمنين.

حَشْرُ الْعِبَادِ:

وأما حَشْرُ الْعِبَادِ فإليك طرفا من ذلك، ففي الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَا وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّامِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي. فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، قَالَ فَيُقَالُ لِي إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ".

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تُحْشَرُونَ حُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا، قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟، فَقَالَ: "الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهْمَّهُمْ ذَلِكَ".

وفي صحيح البخاري من طريق قتادة عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: "أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، قَالَ قَتَادَةُ بَلَى وَعِزَّةَ رَبَّنَا.

وفي سنن الترمذي من طريق عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَعْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَيَسْأَفُونَ إِلَى سَجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْحَبَالِ". قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وفي الباب آيات متكاثرة، منها: قوله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَةً (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} [مريم: ٨٥-٨٧]، وقال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بَايَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَّمَا أَفْكُم مَقَالَدَةً لِغُلَامِكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ كَذِبًا (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ} [النمل: ٨٣-٨٥]، وقوله: {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ} [يونس: ٤٥]، وقوله: {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} [الفرقان: ١٧-١٩]، وقوله: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَصْلُ سَبِيلًا} [الفرقان: ٣٤]، وقوله: {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَِا

تُكَذِّبُونَ} [سبأ: ٤٠-٤٢]، وقوله: {وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: ١٩-٢٣].

الْحَشْرُ بَيْنَ حَالَتِي الْفَرَاشِ الْمُبْثُوثِ وَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ:

وهنا آيتان: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمُبْثُوثِ} [القارعة: ٤]، {خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ} [القمر: ٧-٨].

فقليل إنهم عند الخروج من القبور يكونون كالفراش المبثوث لا يَلُوتُونَ على شيء، ثم إذا تطايرت الصحف صاروا كالجراد المنتشر، فالجراد يعرف وجهته.

قوله: {ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى}: أي بالجنة، ويزيدهم الله من فضله، بالمزيد وهو رؤيتهم لله رب العالمين، تبارك وتعالى، ذي الجلال والإكرام.

إحسان لا ينجي:

وأما إحسان المشركين في الدنيا فلا ينفعهم في الآخرة؛ لأنه إحسان ناقص غير مقبول؛ لأن شرطي قبول الإحسان الإخلاص والمتابعة، ولكن لكمال عدل الله تعالى

الذي لا يظلم الناس شيئاً، فإن ما وقع منهم من عمل في ظاهره أنه طيب، فإن الله تعالى يجزيهم به في الدنيا، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠].

وبعضهم ربما يلحقه شيء من التخفيف المؤقت، كما في صحيح البخاري موقوفاً: قَالَ عُرْوَةُ: وَثَوْبَةُ مَوْلَاةٌ لِأَبِي هَبٍ كَانَ أَبُو هَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو هَبٍ أَرَاهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بَشَرٌ حَيَّةٌ قَالَ لَهُ مَاذَا لَقِيتَ قَالَ أَبُو هَبٍ لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَنِّي سَقِيتُ فِي هَذِهِ بَعَثَاتِي ثَوْبَةَ.

أهون أهل النار عذاباً:

ويخفف عن أبي طالب خاصة العذاب، وهو أهون أهل النار عذاباً، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؓ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ عِنْدَهُ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: "لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحَضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمَّ دِمَاعِهِ".

وفي هذه المكاشفة في هذه الآية، التي تبين حقائق الأمور والمآلات، تهيب على العمل بالصالحات، والبعد عن معصية الله جل وعلا، ومثل هذا كثير في كتاب الله تعالى، يذكر ثواب الطائعين، وعقوبة العاصين، إغذاراً ورحمة للعباد، لعلهم أن يهتدوا إلى سواء السبيل، وهذا أحب الأمرين إلى الله تعالى، أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، بل حتى لربما ضرب الله عباده بألوان من العقوبات الدنيوية؛ إما تخيفاً لهم عن حظ

الآخرة، وإما ليرجعوا إليه من قريب، وهذا كثير في الذكر الحكيم، كقوله تعالى: {ظَهَرَ
الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١]، ويعظ عباده لعلهم يهتدون، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأحقاف: ٢٧]، حتى قال
سبحانه وتعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}
[النساء: ١٤٧]، فاللهم اهد قلوبنا، ووفقنا إلى العمل برضاك، وأعنا على ذكرك
وشكرك وحسن عبادتك، يا كريم.

المتن

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {رَزَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن: ٧]. وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥]. وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٥]. وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]. وَافْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ.

الشرح

قوله: (ومن كذب بالبعث كفر): وهذا الحكم بالكفر قطعي بدلالات الكتاب والسنة وبالإجماع، وذلك لأمر:

١ - لأنه تكذيب بالخبر. ٢ - تكذيب بالرسول. ٣ - قدح في القدرة. ٤ - قدح في الحكمة. وكل واحدة من هذه الأمور كفر مستقل، كيف والمكذب بالبعث جمعها كلها.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن.. الآية﴾، هذا تأكيد من المؤلف على عقيدة أهل السنة والجماعة، أنهم لا يكفرون إلا بمكفر ثابت بالشرع، لا بالهوى، والتخرص كما فعلت الخوارج، كما أن فيه إثباتا للتكفير المنضبط كما تقدم؛ ولهذا أردف بذكر الدليل الدال على كفر المكذب بالبعث.

قوله: ﴿زعم﴾، هو القول المحتاج إلى برهان، والمعنى في الآية، أي ليس عندكم أدنى برهان ولا أثارة من علم على ما ذكرتم، بل إن شاهد الشرع، وشاهد العقل، والفطرة، يكذبكم في ما ذهبتم إليه، في هذا الإدعاء المأفون، الدال على سفه العقول وطيشها، فإن إماتتكم ثم بعثكم، ليس بأشد ولا أشق من إعادتكم، وقد أوجدكم من العدم، والكل عند الله هين، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿[يس: ٨١-٨٢]، وقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٍ وَاحِدَةً إِنَّ

اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [لقمان: ٢٨]، ولهذا ختم الآية بقوله تعالى: {قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ}، فأقسم سبحانه وتعالى أن ذلك عليه يسير.

وتأمل في هذه الآيات: {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٤٩ - ٥٢].

وفي الآية تذكير بما وقع من الانحراف والشرك والضلال من قبل المشركين في كل أبواب التوحيد، وقد تقدم الكلام عن هذا فيما مضى.

وكما تقدم فالزعم هو القول الذي يحتاج إلى بينة وإلا فهو باطل، وعليه فليحذر الإنسان من الزعم بلا بينة؛ لأن هذا من خصال أهل الضلال، فيئس مطية الرجل زعموا، وما أكثر الزعم والدعاوى اليوم، فكثير من الناس يتناقلون الأخبار من هنا وهناك، فإذا سألت من أين هذا، قيل لك: (قالوا، أو يقال، أو حدثني من لا أتهم، أو سمعت من قناة كذا)، فأكثر الأخبار لا زمام لها، ولا خطام، ويزداد الأمر شناعة وفضاعة، إذا كان ذلك فيما يتعلق بالصالحين، وأشد من ذلك إذا تعلق بالأنبياء والمرسلين، وما جاءوا به من الدين القويم، وأشنع أنواع الزعم ما كان في حق الله تبارك وتعالى، وهذا ما وقع فيه الكفار، والمعنى في هذه الآية أنهم يزعمون ويفترون على الله الكذب، ولهذا خصصهم بقوله: {الذين كفروا}، وعليه فالزعم مراتب متفاوتة،

فأقبحها وأشدها ما كان افتراءً على الله جل وعلا، وهذا كفر بإجماع المسلمين، كما دلت على ذلك النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، وصدرت الآية بذكر الكافرين؛ تشنيعاً عليهم، وتنفيراً للعباد عن مثل قولهم، فإذا علم العبد أن هذا هو قول المشركين؛ ارتدع وانزجر وكف، عن الغي والضلال.

الأدلة النقلية والحسية والعقلية على إثبات البعث:

وهذا الزعم الباطل، والذي مستنده الظن والخرص والهوى، قد قامت البيّنات على إثبات ضده، وتحقق حصول البعث ووقوعه، فنذكر من هذه البيّنات:

أولاً: الأدلة النقلية، وهي متكاثرة بحمد الله جل وعلا في الكتاب والسنة تقريراً لحصول البعث وتحقق وقوعه، وقد تقدم بعضها.

ثانياً: الأدلة العقلية، فما من مخلوق إلا ويعلم أنه لم يخلق نفسه، وأنه خُلق بأمر خالق عظيم، فالعقل يقتضي أن من أوجد من العدم، أهون عليه أن يعيد ما أوجده من العدم، الكل عند الله هين.

ثالثاً: الأدلة الحسية، وهذا ما أحال الله تعالى عليه عباده في مواضع من الذكر الحكيم، فعظمة هذه المخلوقات، من السموات والأرضين، دليل على قدرة وعظمة خالقها وموجدتها من العدم، فليس إعادتكم أيها الإنسان الضعيف بشيء مقارنةً بخلق السماوات والأرض، وهذا هو النبات يكون لا شيء فإذا أنزل الله عليه الماء تحركت الحبة، وانبثت أشجاراً وثماراً، مختلفة وطُغُوماً وأشكالاً متباينة، وقد قص الله جل وعلا علينا جملة من الآيات الدالة على إحياء الموتى، فمنها ما في سورة البقرة، وكما في سورة

الكهف، وكما هي معجزة عيسى عليه السلام، والأمر أظهر من أن ينكر، أو يتوقف في قبوله.

قوله: (وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين): أراد المؤلف رحمه الله تعالى أن يبين الحكمة من إرسال الرسل، وأنهم إنما يبعثون ليبشروا العباد بالتوحيد، وليأمرهم به، وليبشروهم بما وعدهم الله جل وعلا به من النصر والتمكين، والعز والرفعة في الدنيا، والأمن والنعيم العظيم في الدار الآخرة، فهذا أعظم ما بشرت به الرسل أقوامها، وأعظم ما جاءت الرسل لبيانها، وهو دعوة سائر الأنبياء والمرسلين، كما قرر ذلك المؤلف رحمه الله.

وقوله: (ومنذرين): أي من الشرك الأكبر، وكل ما يوصل إليه من شرك أصغر، أو تطاول في المحرمات، فإن المعاصي بريد الكفر، وينذرونهم وخيم العاقبة، وسوء المنقلب، فأعظم ما حذرت منه الرسل الشرك بالله جل وعلا.

قوله: (والدليل قوله تعالى: {رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل}): وهذا من كمال عدل الله وفضله، ورحمته وإحسانه تبارك وتعالى، فلم يكتف بعلمه السابق الذي وسع كل شيء، ولا بالعهد الأول، ولا بالفطرة، حتى أرسل رسلاً وأنزل كتباً.

قوله: {لئلا يكون}: أي حتى لا تبقى لهم حجة يدلون بها على الله جل وعلا، وذلك بانقطاع الحجة، واستبانة المحجة، على أيدي الأنبياء والمرسلين، ولهذا حذر النبي ﷺ،

أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَبْلَغَهُمُ الْبَلَاغَ الْمُبِينِ، مَنْ أَنْ يَلْقَى أَحَدَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَهُ التَّبْدِيلُ الْمَفْضِيُّ إِلَى دُخُولِ النَّارِ، أَوْ مَا يَكُونُ سَبَباً لَذَلِكَ.

حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادَةِ الَّتِي يَأْخُذُهُمْ بِهَا لَا تَقُومُ إِلَّا بِالرَّسْلِ:

وَالْمَعْنَى فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعَذَرَ إِلَى الْعِبَادِ، حَتَّى لَا يَقُولَ قَائِلٌ، رَبِّ قَدْ خَلَقْتَنِي، وَرَزَقْتَنِي، وَأَوْجَدْتَنِي مِنَ الْعَدَمِ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ مَا هُوَ الْمُرَادُ مِنِّي، فَمَا جَاءَنِي مِنْكَ بِشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، يَا مُرْنِي وَيَنْهَانِي، وَيَدْلِنِي عَلَى مُرَادِكَ مِنِّي إِذْ خَلَقْتَنِي، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَلَ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى} [طه: ١٣٣-١٣٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [القصص: ٤٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} [الأنعام: ١٥٥-١٥٧].

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ يَرْفَعُهُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: "لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ إِلَّا الشُّرْكَ".

والمعنى: أي كنت قد أخذت عليك العهد والميثاق، وأنت في عالم الذر، ثم حتى لا تحتج بالنسيان، وعدم الذكرى، أرسلت إليك الرسل، وأنزلت الكتب، فأبیت وعصيت، ومضيت في شركك، معرضا عن الحق، أو معاندا له، أو مستكبرا عنه.

لا يأخذ الله تعالى عباده بالفطرة ولا بالعهد حتى يبعث رسولا:

والآية دليل واضح صريح، بأن الله تعالى لا يأخذ العباد، لا بالعهد الأول، ولا بشاهد الفطرة والكون، ولكن بإرسال الرسل؛ أي بعد إعلام العباد مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُمْ؛ ولهذا كان من أعظم نعم الله تعالى علينا، قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، فما كنا لنعلم ما يريد الله تعالى منا، إلا بعد بيانه ذلك لنا في كتابه، وأرسل به رسوله.

إذ أن شاهد الكون والفطرة، يدلان قطعا العبد على وجود الخالق العظيم، ولكن هذا الشاهد لم ولن يخبرنا أبدا، بما يريد الله تعالى منا، لا على وجه الإجمال، ولا على وجه التفصيل، لا في باب الأصول، ولا في باب الفروع، والشرع كله لاسيما العقائد والعبادات مبناه، على التحريم والتوقف، فلا يحل لعبد أبدا، أن يعتقد في الله تعالى شيئا، إلا إذا جاء بذلك الدليل الصحيح الصريح من الكتاب والسنة، كما أنه لا يحل له قطعا، أن يعبد الله تعالى بأي عبادة، مهما استحسناها، حتى يدل عليها الدليل الصحيح الصريح

من الكتاب والسنة ، بل من أين نعلم أن هذا الفعل عبادة أصلاً، إلا من جهة الرسل والكتب، بل حتى الشرك بالله تعالى، نعم هو قبيح وشنيع، وتستقبحه العقول السوية، والفطر المستقيمة، ولكن من أين لهذه العقول، وتلك الفطر، أن تعلم أن الله تعالى حرم هذا؟!، وأنه ذنب لا يغفره البتة، إلا بالتوبة النصوح؟!، ومن أين لها أن تعلم أن الله تعالى، رَتَّبَ على ذلك، دخول النار، والخلود فيها، بل وفوق ذلك الحجاب عن رؤية الله جل جلاله، قطعاً لا سبيل إلا ذلك، إلا بالوحي النازل من السماء، فإن العبد، مهما بلغ من كمال العقل، وتوقد الذهن، وصفاء النفس، فإنه لم ولن يهتدي إلى هذه الحقائق، إلا بوحي من الله جل وعلا، ولا وحي إلا للرسل، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ} [الشورى: ٥١]، وقال: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا} (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [الجن: ٢٦-٢٨]، وقال: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٧٩].

ولهذا كانوا هم الحجة من الله تعالى على خلقه، فهم نَقْلَةُ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ عَنْ اللَّهِ تعالى، الْمُبَلِّغُونَ الْعِبَادَ مُرَادَ اللَّهِ جل وعلا، عندها تأتي البينة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

ولهذا كان من الضلال المبين، ومن السَّفه العظيم، اعتقاد أن الرسل إنما بعثوا فضلة، وأن الحجة قد قامت على العباد بشاهد الفطر والكون، والعهد والميثاق الأول، لأن العهد منسي، والله تعالى لا يؤاخذ بالنسيان، والراجع أنه كان عهدا بالربوبية على وجه العموم، أما الألوهية وتفاصيل الربوبية والأسماء والصفات فهو العلم الذي جاءت به الرسل، وعلى القول الثاني، فالعهد منسي كما تقدم، والله تعالى قطع على نفسه أنه لا يؤاخذ عباده بالنسيان، كما هو صريح القرآن في خواتيم سورة البقرة، وجاء ذلك مقررا في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال لما نزلت على رسول الله ﷺ: " {لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكْبِ فَقَالُوا أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ كُلفنا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نَطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ". قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا }، قَالَ نَعَمْ: {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا } قَالَ: {نَعَمْ } {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } قَالَ:

{نَعَمْ} {وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} قَالَ: {نَعَمْ}."

وفي صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية: {وإن تبادوا من أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله} قال دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي ﷺ: "قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا". قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} قال: {قد فعلت}، {ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا}، قال: {قد فعلت}، {وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا}، قال: {قد فعلت}."

قوله: (وأولهم نوح عليه السلام): وما جزم به المؤلف هنا من أن أول الرسل هو نوح عليه السلام، هو الصواب، والمقصود أنه أول الرسل إلى أهل الأرض، خلافا للذين قالوا بأن أولهم هو إدريس عليه السلام، ودليل ما جزم به المؤلف، ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ قال كنا مع النبي ﷺ في دعوة فرجع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة وقال: "أنا سيد القوم يوم القيامة هل تدرون بـم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنون منهم الشمس فيقول بعض الناس ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس أبوكم آدم فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة

أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَّغْنَا فَيَقُولُ رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَمَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَّغْنَا أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ نَفْسِي نَفْسِي ائْتُوا النَّبِيَّ ۚ فَيَأْتُونِي فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيَقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تَشْفَعْ وَسَلِّ تُعْطَهُ". وهذا لفظ البخاري وهو في الصحيحين بأطول من هذا.

بل وذهب بعض أهل العلم إلى أن إدريس عليه السلام، كان بعد نوح بزمان طويل، وأنه من أنبياء بني إسرائيل، وعلى كل فالحديث صريح في الدلالة.

وكان سبب بعث الله تعالى نوحاً عليه السلام، إلى أهل الأرض، هو ما دب به الشيطان من الشرك بالله تعالى، وتزيينه عبادة غير الله تعالى، لأهل ذلك الجيل، بعد أن كانت الأرض عامرة بالتوحيد عشرة قرون، فلطخها الشيطان الرجيم بالشرك بالله تعالى، وانطلق يدعو إلى ذلك منذ ذلك الزمان، وإلى يومنا هذا، بل وإلى آخر الدنيا، فهو داعية الشرك الأول، وهو الرأس في هذا الذنب الأعظم، أعاذنا الله وإياكم من الشك والشرك، ومن الرجس النجس الشيطان الرجيم.

كما في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (صَارَتِ الْأَوْتَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ أَمَّا وَدَّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوعٌ كَانَتْ هُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثٌ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَاٍ وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لَهُمْدَانُ

وَأَمَّا نَسْرُ فَكَانَتْ لِحَمِيرٍ لَّالِ ذِي الْكَالَاعِ أَشْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا
أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ النَّبِيَّ كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوَهَا
بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ).

وهذا من رحمة الله تعالى لعباده، أنه ما زال يبعث الرسل للعباد يدعونهم إلى عبادة
الله جل وعلا، كما في من طريق أبي حازمٍ قَالَ قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ فَسَمِعْتُهُ
يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ
وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ قَالُوا فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ فُوا بِيَعَةِ الْأَوَّلِ فَأَلَّوْا
أَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ".

قوله: (وآخرهم محمد ﷺ): وهذا الذي قرره هنا أيضا هو ما دلت عليه نصوص
الكتاب والسنة، وعليه إجماع سلف الأمة، كما قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ
رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب: ٤٠]،
وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ
هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي". والدلائل متكاثرة على ذلك، فمن شك في
ذلك، أو تردد، أو توقف؛ فقد كفر بالله جل وعلا، وخلع ربقة الإسلام من عنقه،
فكيف بمن يزعم أنه نبي؟، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام، بأن هناك من
سيدعي النبوة من بعده، وحذر منهم، وأخبر أن جملتهم، نحواً من الثلاثين من
الدجاجلة، الذين سيدعون النبوة والرسالة، وقد ظهر في زمانه بعضهم، ككذاب اليمامة
(مسيلمة الكذاب لعنه الله) (الأسود العنسي)، بل حتى النساء ادَّعَيْنَ النبوة (كسجاح)،

وما زال الأمر إلى يومنا هذا، ففي زمان قريب ادعى رجل في الفلبين النبوة، وآخر كذلك في أمريكا، وهذا علم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، وهنا في السودان ادعى رجل أنه المسيح عيسى بن مريم، وهذه حذقة منه، لأنه لما علم أنه لا سبيل له إلى ادعاء أنه نبي بعد النبي ﷺ؛ ادعى أنه عيسى بن مريم ﷺ، وكل هذا كفر وردة وزندقة، والعياذ بالله.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **t** عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقْتَتِلَ فِتْنَتَانِ فَيَكُونَنَّ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعَاؤُهُمَا وَاحِدَةٌ وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ".

قوله: (والدليل على أن أولهم نوح قوله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده})؛ هذا استنباط بديع، قرره العلماء من هذه الآية، وذلك من قوله: {والنبين من بعده}، فلو كان قبله أنبياء لذكروا، ولقال {والنبين من بعده ومن قبله}، وحيث خص بالذكر بـ {من بعده}؛ دل على انتفاء ما قبله، وهذا من القول باللازم، وهو المتعين هنا وهو ما دل عليه الحديث المتقدم.

ومن الأدلة كذلك: قوله تعالى: {وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ}.

قال المؤلف: (وكل أمة بعث إليها رسولا يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت): أي من كمال رحمة الله جل وعلا بعباده إرسال الرسل إليهم، فما أخلى الله جل وعلا أمة من نذير، بيّد أن كل هؤلاء النذّر، دعواهم واحدة، فهم يدعون إلى شيء واحد؛ لأن الذي أرسلهم واحد وهو الله رب العالمين، وهو الأمر لهم وحده لا شريك له، وقد أعلم تبارك وتعالى أنه يرسلهم لشيء واحد، ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ ليعلم العباد أهمية الأمر وخطورته، وأن الإيمان ليس بالتمني، ولا بالتحلي، بل هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فأمر هذا شأنه يُخلق العباد لأجله، وتنزل الكتب، وترسل الرسل لبيانها، لعمرى إنه لأمر جسيم، فكيف يظن ظان، أن العبادة تنحصر في النطق بالشهادتين، أو في لون من ألوان العبادات، أو شعيرة من الشعائر، كلا والله بل إن العبادة حقيقتها، صرف الحياة كلها لله الواحد القهار، والدخول في السلم كافة، وهذا هو معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإنها هي منهج متكامل للحياة، فهي معك تؤدبك، على سرير نومك، ووقت جلوسك مع أهلك، وفي بيعك وشرائك، كما أنها جاءت لتقومك في صلاتك وصيامك، وزكاتك وحجك، كما أنها معنا في بيوتنا وطرقنا، وفي كل أحوال حياتنا، إنه الأمر والنهي، الذي هو حقيقة العبادة، فمن قام بهذا كله، واتخذ من هذه الكلمة منهجاً، متكاملًا للحياة، فهذا صاحب الإيمان الكامل، ومن انتقص منها، بأن ارتكب ما يخالفها من المعاصي والمنكرات، وترك العمل

بالمأمورات، التي لا تنافي في أصل هذه الشاهدة؛ فهذا معه إيمان ناقص، وأما من ارتكب من الأعمال ما ينافي أصل هذه الكلمة؛ فهذا لم يبق معه شيء يتنفع به من هذه الكلمة، ولو تكلم بها الليل والنهار، وإن من سوء الظن بالله جل وعلا، أن يظن العبد أنه بأدائه الصلوات الخمس مثلاً فقط، قد حقق العبودية، وأتى بالمطلوب منه، وأدى ما عليه!!، فإن الصلوات الخمس إذا اجتمعت لا تتجاوز ساعة من اليوم، فهل يقول من عرف حقيقة التوحيد أن الله خلق خلقه ليعبدوه ويتبعوا أمره ساعة من النهار؟!، ثم لهم باقي الوقت يُصَرِّفُونَهُ ويتصرفون فيه كما شاءوا بما شاءوا؟!، ولكنهم لا يعلمون.

ولهذا نزه الله جل وعلا نفسه عن هذا العبث، الذي لا يليق بالله رب العالمين، والله المثل الأعلى، كما قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ { [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه الله نفسه جل وعلا عن مثل هذا الفعل.

قوله: (وينهاهم عن عبادة الطاغوت): هما أمران متلازمان أبدا الإيذان بالله مع الكفر بالطاغوت، لئلا يظن العباد أن حقيقة التوحيد ليس لها علاقة بما يضاده؛ وليعلم العباد أن الأمر بالشيء هو نهي عن ضده في مثل هذه المقامات، وفي كثير من مواقع الشريعة، فالأمر بعبادة الله يتضمن النهي عن عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، والأمر بمحبة الله ورسله وأوليائه، والنهي عن محبة أعداء الله وأعداء رسله وأوليائه، وهذه هي عقيدة الولاء والبراء، ولكثرة الغفلة عن هذا، وعظيم الجهل به، لدى أكثر الناس، تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في ذلك، وقد تقدم شرح ذلك من قبل.

ففي صحيح مسلم من طريق أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ طَارِقِ بْنِ أَشِيمٍ ؓ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ".

قوله: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}، أي بمثل هذا، ولأجل هذا بعث الله جل وعلا الرسل، وأن من لم يع ذلك، فلما يعرف حقيقة دعوة الرسل، بل وما عرف حقيقة الإيمان أصلا، وانتبه فإن الله تعالى أخبر أن أكثر الناس يكونون كذلك، والعياذ بالله. {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٠٢].

قوله: {في كل أمة رسولا}، أي على الحد الأدنى، وإلا فقد بين الله تبارك وتعالى، أنه ربما بعث أكثر من رسول في الأمة الواحدة، أو تكون الآية المراد بها الجنس، أي جنس الرسل.

قوله: {واجتنبوا}: أَمْرٌ بِمُجَانَبَةِ الطَّاغُوتِ؛ سداً لكل طريق يوصل إليه، ولو بعد حين، فكل ما هو من شأن الطاغوت أو سبيله؛ فإنه يجب اجتنابه، وهذا فرض حتميٌّ على كل العباد، فلا يسع أحدا ترك ذلك إلا مع تركه للإسلام، بمعنى أن من لم يكفر بالطاغوت، فليس بمسلم أصلا، والكفر به يستلزم البراءة منه، وبغضه، ومجاهدته، والسعي في إزالته، واعتزاله، واعتزال مؤسساته، وأعماله، فمن داخله فقد نقص من توحيده بقدر مداخلته له، حتى ربما تكون ذاهبة بأصل التوحيد بالكلية، كالذين يتولون حمايته، والدفاع عنه، وتُدشِّين شركه في الأمة، والترويج لذلك، والمجادلة عنه،

ويدخل في ذلك أصالة الذين يضعون له الدساتير والقوانين الطاغوتية، ويحكمون بها العباد والبلاد، فهذا من أعظم المنكرات على الإطلاق، فنحن مأمورون بهجر الطاغوت واعتزاله، لا الانخراط معه ومداخلته، والأمر كما في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"، وفي صحيح مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ"؛ ولهذا قال المؤلف رحمه الله: (وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله).

لا خيار في الكفر بالطاغوت:

فنحن إنما أمرنا في الطاغوت أن نكفر به كله، لا أن نختار منه، فإنه لا خيار في ذلك بين كفر وكفرين وثلاثة، بل الخيار الوحيد الكفر به جملة وتفصيلاً، والاعتزال التام له، كما قال تعالى: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً}.

فإن التوحيد لا يقبل الترقيع وأنصاف الحلول. وإن مداخلة الطاغوت في مثل هذه الأحوال، التي يتظاهر فيها الطاغوت بلباس الدين؛ يحدث تلبيساً ولبساً عظيماً في الدين. وهو من العمل على سربلة الطاغوت بسر بال الإيوان، وهذا من أخبث الأمور، وهو من العمل على الجمع بين المتناقضين.

فإن التوحيد لا يقبل التبعض ولا المقابلة، فمهما عمل العبد بشرائع الإسلام، وهو مرتكب للكفر أو الشرك أو النفاق الأكبر؛ لم ينفعه عمله طرفة عين، مهما كثر، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}.

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُتْمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ" زاد مسلم: "وإن صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ".

فإنما أمرنا في الطاغوت أن ننازله، وأن نجتنبه، بأن نتركه ونبتعد عنه، كما بين ذلك ابن جرير وغيره، وأن نسعى في محاربته، حتى يفىء إلى أمر الله، كما في حديث عبادة رضي الله عنه في الصحيحين، وحديث عوف بن مالك في صحيح مسلم، بل جاء التحذير الواضح البين من النبي ﷺ في شأن من تابع الطاغوت وداخله، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: "ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع" قالوا أفلا نقاتلهم؟ قال: "لا ما صلوا". أخرجه مسلم.

دين الأنبياء واحد وهو التوحيد وإن اختلفت شرائعهم:

واعلم رحمك الله، أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قاطبة أصل دينهم الإسلام، وهو المتمثل في تحقيق التوحيد العام لله رب العالمين، إيماناً بالله وكفراً بالطاغوت، واجتناباً له، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَنَا أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتِ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ".

قوله: (وَأَفْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ)، الطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد إما بإفراط أو تفريط، كما قال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة: ١١]، أي لما تجاوز حده المعلوم، حملناكم في السفينة، وأعظم الطغيان الاستغناء عن عبادة الله جل وعلا، بعبادة غيره، كما قال تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} في موضعين من الذكر الحكيم، وقال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ}، ثم بين متى يقع ذلك فقال: {أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى}.

واعلم أن لفظة الطاغوت، حيث وردت في الكتاب والسنة، إنما تأتي مرادفة للكفر والشرك بالله تعالى، فإنه مسمى لما ينتقض به الإسلام، عياذاً بالله تعالى، كما قال تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٦٠].

فليس في الطاغوت شيء اسمه طاغوت أصغر وآخر أكبر، فهذا التفصيل لا محل له من الأدلة الشرعية، بل الطاغوت كله من قبيل الشرك والكفر الأكبر.

المتن

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (مَعْنَى الطَّاعُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتَّبِعٍ أَوْ مُطَاعٍ). وَالطَّوَاعِيَةُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: "رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح

قوله: (قال ابن القيم): هو الإمام المعروف شيخ الإسلام، وتلميذ العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية عليهما رحمة الله، وسمي بذلك؛ لأن أباه كان قِيَّاً على مدرسة، اسمها الجوزية، أي ناظراً ورئيساً لها، وتذكر تماماً أن بين تلك المدارس، ومدارس اليوم، من الفُرُوق، أبعد ما بين السماء والأرض، والمشرق والمغرب، كحال الثَّرى والثُّريا، والليب بالإشارة يفهم، وإنما انتقى المؤلف كلام ابن القيم؛ لأنه من المحققين المتعمقين، في فهم الكتاب والسنة، وقد تلقت الأمة علمه بالقبول، وشهدت له بالفضل والإمامة والتقدم في ذلك، فكان هذا أحرى للعباد وأهدى.

وهذه ترجمة مختصرة له من كتاب (البداية والنهاية) للحافظ العماد ابن كثير رحمه الله تعالى قال: [ترجمة الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية: وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء توفي صاحبنا الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية وابن قيمها وصلى عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله، ولد في سنة إحدى وتسعين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصول ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمة إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علما جما مع ما سلف له من الاشتغال فصار فريدا في بابيه في فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلا ونهارا وكثرة الابتهاال وكان حسن القراءة والخلق كثير التودد لا يحسد أحدا ولا يؤذيه ولا يستعيبه

ولا يحقد على أحد وكنت من أصحاب الناس له وأحب الناس إليه ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا ويمد ركوعها وسجودها ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير وكتب بخطه الحسن شيئا كثيرا واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره وقد كانت جنازته حافلة رحمه الله شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة وتزاحم الناس على حمل نعشه، وكمل له من العمر ستون سنة رحمه الله، وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر شعبان ذكر الدرس بالصدرية شرف الدين عبد الله بن الشيخ الإمام العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية عوضا عن أبيه رحمه الله فأفاد وأجاد وسرد طرفا صالحا في فضل العلم وأهله. وانتهى. والله تعالى أعلم[أ.هـ].

قوله: (معنى الطاغوت، ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع): والمعنى أن للعبد حداً يجب أن يكون في داخله وإطاره فهو لا يصح له أن يكون كالأنعام؛ لأنه إنسان مكرم، كما أنه لا يصلح له أن يتجاوز كونه عبداً، فيدعي الألوهية أو الربوبية أو شيئا من ذلك، فالرَّبُّ رَبُّ، والعَبْدُ عَبْدٌ، والأصل في كل عبد أن يعبد الله، وأن يطيع الله، وأن يتبع الله، وعليه فكل شيء يخرج عن هذا الحد؛ ليكون به عبداً لغير الله، أو مطيعاً لغير الله، في معصية الله، أو متبعاً لغير الله في مخالفة شرع الله، فذلك هو الطاغوت، فمقل ومستكثر، فبعض العباد تتمثل فيه حقيقة الطاغوت وعبادته، ومنهم من يكون فيه شيء من ذلك، فليحذر العبد ولينتبه.

جاء في تفسير الطبري: [وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي فِي الطَّاعُوتِ أَنَّهُ كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللَّهِ فَعَبْدٌ مِنْ دُونِهِ، إِمَّا بِقَهْرٍ مِنْهُ لِمَنْ عَبَدَهُ، وَإِمَّا بِطَاعَةٍ مِمَّنْ عَبَدَهُ لَهُ، وَإِنْسَانًا كَانَ ذَلِكَ الْمُعْبُودُ، أَوْ شَيْطَانًا، أَوْ وَثْنًا، أَوْ صَنْعًا، أَوْ كَائِنًا مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ] هـ.

وهذا النقل الذي ذكره المؤلف عن الإمام ابن القيم، موجود في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) وسأنقله كاملاً لعظيم النفع والفائدة: [ومنها: أن قوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ} نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله جلّيه وخفيه ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

ومنها: أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه وتعالى هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.

انتفاء الإيمان بانتفاء الرد: ومنها: أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا

يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم إذا تأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله، إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله، وإلى الرسول، إلى التحاكم إلى الطاغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معاً ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا عن ذلك ولم يستجيبوا للداعي ورضوا بحكم غيره ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأمواهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره والتحاكم إليه، كما قال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ} {اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق أي بفعل ما يرضي الفريقين ويوفق بينهما كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه ويزعم بذلك أنه محسن قاصد الإصلاح والتوفيق والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه من طريقة وحقيقة وعقيدة وسياسة ورأي فمحض الإيمان في هذا الحرب لا في التوفيق وبالله التوفيق} [أ.هـ].

قوله: (من معبود أو متبوع أو مطاع): يقيد بمن كان راضياً بذلك؛ ليخرج بذلك من لم يرض، كالملائكة والأنبياء والأولياء الذين هم أولياء بحق وحقيقة، لا أهل التصنع والشحاذة والسحر والشعوذة والدجل، وكذلك تخرج الشمس والقمر، ونحو ذلك.

نواقض الإسلام كثيرة فتعلمها واحذرهما:

قوله: (رؤوسهم خمسة): في هذا بيان أن الطواغيت يتفاوتون، وأن الطغيان دركات، والذي يتكلم عنه المؤلف هو الطغيان الذي يناقض الإسلام، ونواقض الإسلام كثيرة؛ ولعلنا أن نذكرها إجمالاً لتمام الفائدة: كالشرك والكفر والنفاق الأكبر، وترك الصلاة، وتعاطي السحر بالاستعانة بالجن، والتقرب إليهم ذبحاً ونذراً وتركاً للصلوات بعضها أو كلا، والكهانة، والعرافة، بادعاء علم الغيب، وكالاستهزاء بالدين، ولو بشيء يسير منه، سواء كان ذلك على مستوى الفرائض والواجبات، أو المستحبات، فلو استهزأ بالسواك لكفر، وكذلك الاستهزاء بالصالحين لدينهم، كالاستهزاء بلحاهم أو بقصر ثيابهم، أو لامثالهم لسنة نبيهم ﷺ، ومن النواقض القطعية، سب الله، وسب رسوله، وسب الدين، ومن النواقض أيضاً الرضى بالكفر، وكذلك السعي في نشره وحمايته، والترويج له، والإذن بالدعوة إليه، والتبشير به بين عباد الله المسلمين، أو الشك في كفر الكافرين والمشركين، من يهود ونصارى وبوذيين ومجوس وهندوس، وغيرهم من الكفار الأصليين، وكذلك التوقف في أفعال الكافرين، التي تقع من بعض المنتسبين إلى الإسلام، فإن التوقف في القطع بأن ما أتوه هو كفر بالله تعالى، هو كفر بالله تعالى، بخلاف الحكم على الأعيان، فإن هذا يتوقف على توفر الشروط وانتفاء الموانع في حق المنتسب إلى الإسلام، فنقول الطواف بالقبور كفر وشرك، وننزل هذا الحكم على من توفرت فيه الشروط، وانتفت في حقه الموانع، شأنه شأن من أتى من المكفرات من المسلمين، وقد تقدم تقرير هذا من قبل.

ومنه أيضاً الحكم بغير ما أنزل الله تشريعاً عاماً، على ما سيأتي بيانه، ومنه اعتقاد أن أحداً يسعه الخروج على شريعة محمد ﷺ، ومنه مظاهره ومعاونة المشركين على المسلمين، ومنها أيضاً إدعاء علم الغيب ومعرفة ما في غد، ومنه ادعاء الرزق والخلق وإحياء الموتى.

واعلم أن هذه النواقض، قد تزداد بحسب ما يستحدثه الشيطان وأعوانه، من الكفر والشرك والزندقه، وضابط ذلك ومحل بيانه، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على سبيل المؤمنين ٧.

وقد كتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، صاحب هذه الأصول، رسالة بيّن فيها نواقض الإسلام، ولشيخنا العلامة المحدث الفقيه الأصولي سليمان بن ناصر العلوان، كتاب نفيس، ومفيد في هذا الباب، اسمه (التيان شرح نواقض الإسلام)، فَلْيُقَرَأْ بَتَمَعْنٍ، فإن الفتنة في هذا الباب في هذا الزمان كبيرة، وكثيرة.

احذر خصال أهل الجاهلية:

واعلم رحمك الله تعالى، أنه يتعين على العبد في الجملة، أن يحذر من جميع خصال أهل الجاهلية، وأن يسأل عنها ليتقيها، فمن ذلك ما أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "اِئْتَنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرُ الطَّعْنِ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ".

وفي الصحيحين عن عبد الله ﷺ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ".

وجاء في صحيح البخاري: باب قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}. وَقَوْلُهُ: {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}. وَمَا يُنْهَى عَنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ الشُّعُوبُ النَّسَبُ الْبَعِيدُ وَالْقَبَائِلُ دُونَ ذَلِكَ. ١. هـ.

وفي صحيح مسلم عن أبي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُوهُنَّ الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ". وَقَالَ: "النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ".

وفي صحيح مسلم في حديث طويل عن جابر بن عبد الله في قصة حجة النبي ﷺ وفيه: حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمْرَةٍ فَتَزَلَّ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ فَرُجِلَتْ لَهُ فَأَتَى بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ: "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلْتَهُ هَذَا وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رَبٍّ أَضَعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ..... الحديث".

وفي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَمُطَلَبٌ دَمٍ أَمْرِيٍّ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهْرَيْقَ دَمُهُ".

مشروعة العزاء والاجتماع ومواياة لأهل الميت:

فائدة: ذهب جماعات من أهل العلم إلى النهي عن الاجتماع للعزاء في بيت الميت، ويذكرون أن ذلك من النياحة، والراجح أن الاجتماع لتعزية أهل الميت ومواساتهم، جائزة لا حرج فيها بل هي من السنة، ولم يرد في النهي عن ذلك حديث صحيح، أما حديث جرير **١**، فهو حديث منكر أعله إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد، وكذلك أعله الدارقطني ^١، فلا يلتفت إلى تصحيح الخلف له، كالنووي والبوصيري وغيرهما

^١ - أما حديث قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: (كُنَّا نَرَى الْاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ الْمَيْتِ، وَصَنَعَةَ الطَّعَامِ، مِنَ النَّيَاحَةِ). وفي رواية: (كُنَّا نَعُدُّ الْاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ الْمَيْتِ، وَصَنَعَةَ الطَّعَامِ بَعْدَ دَفْنِهِ، مِنَ النَّيَاحَةِ). أخرجه أحمد قال: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ بَابٍ. و"ابن ماجة" قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ (ح) وَحَدَّثَنَا شُجَاعُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَبُو الْفَضْلِ، قَالَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، كِلَاهُمَا (نَصْرٌ، وَهُشَيْمٌ) عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، فَذَكَرَهُ.

فهو حديث معلول، وقد أعله أحمد والدارقطني، كما في سؤالات أبي داود: قال أبو داود: ذكرت لأحمد حديث هُشَيْمٍ عن إسماعيل عن قيس عن جرير: (كنا نعد الاجتماع عند أهل الميت، وصنعة الطعام من أمر الجاهلية)، قال: زعموا أنه سمعه من شريك، قال أحمد: ولا أرى لهذا الحديث أصلاً. ١.١.هـ.

وجاء في العلل للدارقطني: [وُسِّئِلَ عَنْ حَدِيثِ قَيْسٍ، عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: (كَانُوا يَرُونَ الْاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ الْمَيْتِ وَصَنَعَةَ الطَّعَامِ مِنَ النَّيَاحَةِ)].

فقال: يرويه هشيم بن بشير، واختُلِفَ عنه، فرواه سريج بن يونس، والحسن بن عرفة، عن هشيم، عن إسماعيل، عن قيس، عن جرير.

ورواه خالد بن القاسم المدائني قيل: ثقة؟، قال: لا أضمن لك هذا، جرحوه، عن هشيم، عن شريك، عن إسماعيل. ورواه أيضا عباد بن العوام، عن إسماعيل كذلك [ا.هـ].

وجاء في المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: [(١٦٦٠) مَسْأَلَةٌ؛ قَالَ: (وَلَا بَأْسَ أَنْ يُصْلِحَ لِأَهْلِ الْمَيْتِ طَعَامًا، يَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُصْلِحُونَ هُمْ طَعَامًا يُطْعَمُونَ النَّاسَ) وَجُمِلَتْهُ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ إِصْلَاحُ طَعَامِ أَهْلِ الْمَيْتِ، يَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِمْ، إِعَانَةً لَهُمْ، وَجَبْرًا لِقُلُوبِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ رَبَّمَا اسْتَغْلَوْا بِمُصِيبَتِهِمْ وَبِمَنْ يَأْتِي إِلَيْهِمْ عَنْ إِصْلَاحِ طَعَامِ لَا نَفْسِهِمْ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، فِي "سُنَنِهِ"، بِإِسْنَادِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ جَعْفَرٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اصْنَعُوا لِأَلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ".

وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّهُ قَالَ: فَمَازَالَتْ السُّنَّةُ فِينَا، حَتَّى تَرَكَهَا مَنْ تَرَكَهَا.

فَأَمَّا صُنْعُ أَهْلِ الْمَيْتِ طَعَامًا لِلنَّاسِ، فَمَكْرُوهٌ؛ لِأَنَّ فِيهِ زِيَادَةً عَلَى مُصِيبَتِهِمْ، وَشُغْلًا لَهُمْ إِلَى شُغْلِهِمْ، وَتَشْبِيهًُا بِصُنْعِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَرَوَى أَنْ جَرِيرًا وَقَدْ عَلَى عُمَرَ، فَقَالَ: هَلْ يُنَاحُ عَلَى مَيِّتِكُمْ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَ أَهْلِ الْمَيْتِ، وَيَجْعَلُونَ الطَّعَامَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ذَلِكَ النَّوْحُ.

وَأِنْ دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ جَارَ؛ فَإِنَّهُ رَبَّمَا جَاءَهُمْ مَنْ يَحْضُرُ مَيِّتَهُمْ مِنَ الْقُرَى وَالْأَمَاكِينِ الْبَعِيدَةِ، وَيَبِيتُ عِنْدَهُمْ، وَلَا يُمَكِّنُهُمْ إِلَّا أَنْ يُضَيِّقُوهُ [ا.هـ].

وقال الحافظ ابن حجر في: (تغليق التعليق): [باب مَا يَكْرَهُ مِنَ النَّيَاحَةِ عَلَى الْمَيْتِ وَقَالَ عُمَرُ t: (دَعْنَنَّ يَبْكِينَ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ مَا لَمْ يَكُنْ نَقَعَ أَوْ لَقْلَقَةً)، وَالنَّقْعُ التُّرَابُ عَلَى الرَّأْسِ وَاللَّقْلَقَةُ الصَّوْتُ، قُلْتُ التَّفْسِيرُ مِنْ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ وَقَدْ وَافَقَهُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ.

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي السَّنَنِ الْكَبِيرِ أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ يُونُسَ الْأَصْبَهَانِيُّ أَنَا أَبُو سَعِيدٍ بْنُ الْأَعْرَابِيِّ ثَنَا سَعْدَانُ بْنُ نَصْرٍ ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ شَقِيقٍ قَالَ لَمَّا مَاتَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ اجْتَمَعَ نِسْوَةُ بَنِي الْمُغِيرَةِ يَبْكِينَ عَلَيْهِ فَقِيلَ لِعُمَرَ أَرْسِلْ إِلَيْهِنَّ فَإِنَّهُنَّ لَا يَبْلَغُكَ عَنْهُنَّ شَيْءٌ تَكْرَهُ فَقَالَ عُمَرُ: (مَا عَلَيْهِنَّ أَنْ

من المتأخرين والمعاصرين، ويعتذر لهم رحمهم الله بعدم بلوغ ذلك إليهم، أو اجتهدوا فأخطؤوا، فالقول قول السلف وأئمة هذا الشأن من المتقدمين، بل قد جاءت في ذلك أخبار صحاح دالة على حصول الاجتماع في بيت الميت، فمنها ما جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري عن عائشة زوج النبي **r**: **أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ مِنْ أَهْلِهَا فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ النِّسَاءُ، ثُمَّ تَفَرَّقْنَ إِلَّا أَهْلَهَا وَخَاصَّتَهَا، أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصُبَّتِ التَّلْبِينَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ كُلْنَ مِنْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ **e** يَقُولُ: "التَّلْبِينَةُ مَجْمَعٌ لِفُرَادِ الْمَرِيضِ تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ".**

وجاء في الصحيحين واللفظ للبخاري عائشة رضي الله عنها قالت: **لَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ **e** قَتْلُ ابْنِ حَارِثَةَ وَجَعْفَرٍ وَابْنِ رَوَاحَةَ جَلَسَ يُعْرِفُ فِيهِ الْحُزْنَ وَأَنَا أَنْظُرُ مِنْ صَائِرِ الْبَابِ -**

يُزَيِّنُ دُمُوعَهُنَّ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ مَا لَمْ يَكُنْ نَقَعَ أَوْ لَقَلَقَهُ)، وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّارِيخِ الْأَوْسَطِ وَفِي الصَّغِيرِ عَنْ عُمَرَ بْنِ حَفْصٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ الْأَعْمَشِ وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ هَشِيمٍ عَنْ مُغِيرَةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ مُنْقَطِعًا بِنَحْوِهِ قَالَ فَقُلْتُ لِإِبْرَاهِيمَ مَا النَّقْعُ وَاللَّقْلَقَةُ قَالَ النَّقْعُ الشَّقُّ وَاللَّقْلَقَةُ الرَنَةُ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ نَحْوَهُ وَقَالَ قَالَ الْكَسَائِيُّ النَّقْعُ صَنَعَهُ الطَّعَامَ لِلْمَاتِمِ وَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَبُو عُبَيْدٍ وَقَالَ الَّذِي رَأَيْتُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ رَفَعَ الصَّوْتِ قَالَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ وَضَعَ التُّرَابَ عَلَى الرَّأْسِ قَالَ وَقِيلَ هُوَ شَقُّ الْجُيُوبِ قَالَ وَأَمَّا اللَّقْلَقَةُ فَشِدَّةُ الصَّوْتِ لَمْ أَسْمَعْ فِيهِ اخْتِلَافًا، وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ أَنَا وَكَيْعُ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ الصَّرِيرُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَمِيرٍ قَالُوا ثَنَا الْأَعْمَشُ نَحْوَهُ، قَالَ وَقَالَ وَكَيْعُ النَّقْعُ الشَّقُّ وَاللَّقْلَقَةُ الصَّوْتُ، وَعَنْ هِشَامِ الطَّيَالِسِيِّ عَنْ شَرِيكَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ لَمَّا مَاتَ خَالِدُ ابْنُ الْوَلِيدِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَا عَلَى نِسَاءِ بَنِي الْمُغِيرَةِ أَنْ يَسْفَحْنَ مِنْ دُمُوعَهُنَّ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ مَا لَمْ يَكُنْ نَقَعًا أَوْ لَقَلَقَةً وَالنَّقْعُ الشَّقُّ وَاللَّقْلَقَةُ الصَّوْتُ [١.١.هـ].

شَقَّ الْبَابِ - فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُنَّ، فَذَهَبَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَّةَ، لَمْ يُطِيعْنَهُ، فَقَالَ: "انْهَيْهِنَّ"، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، قَالَ وَاللَّهِ غَلَبَنَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَزَعَمَتْ أَنَّهُ قَالَ: "فَاخْضُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ"، فَقُلْتُ: أَرَغِمَ اللَّهُ أَنْفَكَ، لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ تَتْرُكْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَنَاءِ.

إذاً مقصود المؤلف من قوله: (ورؤوسهم خمسة) بيان أشهر هؤلاء الطواغيت، وأكثرهم شيوعاً، وإلا فإن ضررهم على الدين واحد، فإن الكفر وإن تفاوت، إلا أن جميعه مخرج من الملة، وأصحابه كلهم من أصحاب النار.

قوله: (إبليس): وهو اسم للشيطان الأكبر، أعادنا الله وإياكم منه، فهو رأس الطغيان، وإمام الطواغيت، وخطيبهم في جهنم، وإنما سمي بإبليس لأنه أبلس من رحمة الله، أي أيس منها، نسأل الله العافية والسلامة، وإنما سمي شيطانياً، لأنه شَطَنَ عن طاعة الله، فأبى وأعرض، وأدبر واستكبر، وله ذرية، وأتباع، وأنصار، يعبدونه من دون الله تعالى.

واعلم أن عبادته إنما تكون بامثال أوامره واجتناب نواهيه، وليس على كل حال عبادته تستلزم السجود والركوع له، إلا أن بعض الطواغيت، تجاوزوا مع إبليس هذه المرحلة، حتى عمدوا إلى الذبح له، والسجود والركوع بين يديه، كحال السحرة والكهان، الذين لا يخدمهم إبليس وأعوانه إلا إذا صرفوا إليهم شيئاً من العبادات، كما هو معروف من حالهم لعنهم الله، وبعضهم يأخذ عليه عهداً ألا يصلي، لا سيما صلاتي الفجر والعصر.

واعلم أرشد الله إلى توحيده الخالص، أن كثيرا من العباد في هذه الأزمنة المتأخرة، صار إلى تعاطي السحر وطلبه، بنوعيه صرفا وعطفا، عياذا بالله من الردة عن الإسلام، وقد كثر ذلك لا سيما في صفوف النساء، فاستطار شر السحر والسحرة، حتى اتخذهم كثير من الناس مُرتادا يرتادونه لشفاء مرضاهم، وقضاء حوائجهم، وتفريج كرباتهم، ورد ضالتهم وغائبهم، والعياذ بالله، وأصحاب السلطان تعلقوا بهم؛ لتثبيت عروشهم، وكشف مخططات أعدائهم، وكفايتهم منهم، وإنما هو التعلق بما هو أوهى من بيت العنكبوت، والأمر كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلَحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾، وعما قليل سيعلمون، والناس اليوم على هؤلاء السحرة أفواجا أفواجا، يسعون في التفريق بين الزوج وزوجته، وتفريق الأحبة، ونشر الشقاق والفرقة، وربما سموهم بالأولياء، والفُكَي، ونحو ذلك، نعوذ بالله من الخذلان.

سلاح قوي لمداغة السحر:

فائدة: واعلم أن من أعظم الأسلحة التي يواجه بها المؤمن السحر والسحرة، أن يطرد الخوف عنه منهم، متوكلا على الله تعالى، ذلك أن الجن يستعملون طريقة التخويف؛ لإرهاب العبد المسحور، وكلما كان أشد خوفا منهم؛ كانوا أشد تأثيرا عليه، وكلما توكل على الله تعالى ولم يخف منهم؛ اندحر كيدهم، واضمحل مكرهم بإذن الله تعالى وتوفيقه، وإليك شواهد ذلك من الذكر الحكيم.

قال تعالى: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣)
 قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ
 الْمُلْكَيْنِ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ
 عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلِقْ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)
 فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩)
 وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ { [الأعراف: ١١٣ - ١٢٠]، وقوله: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ
 تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ
 مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
 أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ
 السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى {
 [طه: ٦٥ - ٧٠]. انتهى.

فإذا انضاف إلى ذلك قراءة سورة البقرة والإكثار من ذلك - بعد التوكل على
 الله وحسن الظن به والدعاء -؛ كانت القاضية على السحر والساحر وأعوانه،
 بحول الله تعالى وقوته.

ففي صحيح مسلم من طريق معاوية - يعني ابن سلام - عن زيد أنه سمع أبا سلام
 يقول حدثني أبو أمامة الباهلي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "اقرأوا القرآن فإنه يأتي
 يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم
 القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن

أَصْحَابُهَا أَقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ".
قَالَ مُعَاوِيَةُ بَلَّغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ.

قلت: وقد قال الله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [يس: ٦٠-٦٤] ، وقد بين الله جل وعلا لعباده المخرج من هذا العدو اللدود، وذلك بأن كشف حاله، وجلى مراده ومآربه، في مثل قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٨]، وقوله: {وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا} [النساء: ٢٧]، كما بين سبحانه وتعالى، أن الشيطان يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، كما قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرََاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٢٧]، وبين النبي ﷺ أنه يجري منا مجرى الدم وأنه يصل إلينا من حيث لا نشعر، كما في الصحيحين من حديث أم المؤمنين صفية رضي الله عنها قال النبي ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِّ".

كيد الشيطان ضعيف:

إلا أنه من رحمة الله جل وعلا، أن جعل كيده ضعيفاً، وأمر الله تعالى بمواجهته ومقاتلته استعانة بالله عليه، كما قال تعالى: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ

ضَعِيفًا { [النساء: ٧٦]، ورد الله كيده إلى الوسوسة، كما قال تعالى: {مَنْ شَرَّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [الناس: ٤-٦]، وبين تبارك وتعالى المخرج منه، وذلك بالاستعاذة بالله منه، وهذا ما أوصى به الله عباده في مواضع من الذكر الحكيم، ومن أعظم ذلك سورتان متمحضتان في هذا الشأن، كما في صحيح مسلم عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلُهُنَّ قَطُّ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} وَ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}".

وقال النسائي في السنن الكبرى: والصحيح ما رواه عبد الرحمن أخبرنا عمرو بن علي قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا سفيان عن منصور والأعمش عن زر عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس أن رجلا قال: يا رسول الله، إني لأجد في نفسي شيئا، لأن أكون حممة أحب إلى من أن أتكلم به، فقال في حديث منصور: "الله أكبر" وقال جميعا: "الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة". قلت: وأخرجه أحمد وأبو داود من طريق منصور عن زر به. قلت: وسنده جيد.

فائدة واستنباط: وأنت إذا تأملت قول الله تعالى: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ}؛ هالك ذلك وأفزعك، فإذا تذكرت قوله تعالى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠]، وقوله تبارك وتعالى: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]، ظهر لك أن الشيطان الذي يراك من حيث لا تراه، إذا فرغت منه إلى الذي يرانا جميعا ولا نراه في دنيانا؛ علمت أنك إن التجأت إليه كفاك، وإن اعتصمت به وقلك، ألا وهو الله

رب العالمين، فلا يَهْوَلَنَّكَ كَوْنُ عَدُوِّنَا يَرَانَا وَلَا نَرَاهُ، طالما أن معنا الذي لا تخفى عليه خافية، وقد أحاط بكل شيء سمعاً وبصراً وعلماً، ولكن الورطة إن غفلت عن الرقيب جل الله في علاه؛ خُذِلْتَ ووكلت إلى نفسك، فبادر إليه حتى لا تكون الهلكة.

اللهم إن عَدُوَّنَا يَرَانَا وَلَا نَرَاهُ، وَأَنْتَ تَرَانَا وَتَرَاهُ؛ اللهم فاكفنا به شئت، يا أرحم الراحمين.

وقال تعالى: {وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠]، وقال: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: ٩٨-١٠٠]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [غافر: ٥٦]، وقوله: {وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: ٣٦].

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتِهِ".

وبين النبي ﷺ أن الشيطان أضعف ما يكون مع ذكر الله تعالى والاعتصام به، كما في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّائِذِينَ فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قَضَى التَّوْبَةَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظُلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى". وفي لفظ لمسلم: "إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ أَحَالَ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ صَوْتَهُ فَإِذَا سَكَتَ رَجَعَ فَوْسَوْسَ فَلِإِذَا سَمِعَ الْإِقَامَةَ ذَهَبَ حَتَّى لَا يَسْمَعَ صَوْتَهُ فَإِذَا سَكَتَ رَجَعَ فَوْسَوْسَ".

ومن ضعفه مع ذكر الله تعالى والاعتصام به أنه لا يستطيع أن يفتح باباً مغلقاً، كما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ: "إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صَبِيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَحُلُّوهُمْ فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا وَأَوْكُوا قَرَبَكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَحَمُّوْا آيَاتَكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرِضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ".

إذن سبيل النجاة من الشيطان، هو بالاستعانة بالله عليه، والاستعاذة بالله منه، والعمل على مخالفته، في كل شيء، وقد كتب الله جل وعلا النجاة لمن اعتصم به والتجأ إليه، وهذه أعظم فضائل الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، وقال تعالى: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ} في

موضعين من الذكر الحكيم، فأعظم سلاح نتصدى به لهذا الطاغوت، الإخلاص لله رب العالمين واتباع شرع سيد المرسلين ٢ .

فائدة: جسد الإنسان كما تراه يتركب من جزء علوي فيه الرأس والعقل والقلب، وجزء متوسط فيه البطن والفرج، وجزء سفلي فيه القدمان، تحملان الجزئين العلوي والأوسط، والقدمان تنطلقان بالجسد إلى أيهما غلب، واليدان تخدمان وتساعدان، والله المستعان.

العبد عبد النفس في شهواتها ... والحر يشبع تارة ويمجوع

فاللهم خذ بناصيتنا إلى البر والتقوى، وجنبنا ما تكره وتأبي، يا أرحم الراحمين.

فالناصية محلُّ الفِكرَةِ والتَّدبِيرِ، والجوارح تابعة للتنفيذ، والله المستعان، ومنه قوله تعالى: {كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} [العلق: ١٥-١٦].

قوله: (لعنه الله): هذا قد يكون من باب الخبر، وقد يكون من باب الدعاء، والأولى في حق إبليس أن نقول: (نعوذ بالله منه)؛ لأن الله قد لعنه، وأمرنا أن نستعيذ به منه؛ ولأن شتمه وذمه مما يفرحه؛ لأنه يرى بذلك أنه قد نال من ابن آدم بغيته وآذاه، فهو يفرح بذلك، ولهذا ورد في الحديث: "لَا تَقُلْ تَعَسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولَ بِقُوَّتِي وَلَكِنْ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ

حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ ١"؛ ولهذا أُمِرْنَا بالاستعاذة منه، فهي العلاج الأنجع والأُنفع، مع هذا العدو اللدود، أعاذنا الله وإياكم منه، وبما أن ذلك يفرحه كان الواجب علينا

١ - هذا الخبر أخرجه عبد الرزاق وأحمد وأبو داود وسكت عنه - فهو صالح عنده - والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في الشعب، وإليك ملخص طرق هذا الخبر: فقد رواه معمر وشعبة في رواية عن عاصم الأحول عن أبي تيممة عن رديف النبي ٢ فذكره. ورواه يزيد بن زريع ثنا خالد الحذاء عن أبي تيممة: عن رديف النبي ٢ فذكره. ورواه خالد الواسطي عن خالد الحذاء عن أبي تيممة عن أبي المليح عن رجلٍ قال كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ٢ فذكره.

ورواه عبد الله بن المبارك عن خالد الحذاء بإثبات الواسطة كما عند النسائي في الكبرى. قَالَ شُعْبَةُ قَالَ عَاصِمٌ عَنْ أَبِي تَمِيمَةَ عَنْ رَجُلٍ عَنْ رَدِيفِ ٢ فذكره. فنخلص من هذا أن الذين رووا الخبر بدون إثبات واسطة بين أبي تيممة والصحابي رديف النبي ٢ هم أكثر وأوثق، وهو شعبة في رواية، ومعمر، ويزيد بن زريع، وقد تابع خالد الحذاء عاصم الأحول في هذه الرواية بدون واسطة في إحدى الروايتين عنه، بينما رواه بإثبات الواسطة خالد الواسطي وشعبة في الرواية الثانية عنه. وعليه فالراجح إثبات الواسطة، وهذا أصح. والله أعلم. وجاء في سنن النسائي الكبرى: ما يقول إذا عثرت به دابته: أخبرنا محمد بن حاتم أخبرنا سويد أخبرنا عبد الله عن خالد الحذاء عن أبي تيممة عن أبي المليح عن ردف رسول الله ٢ نحو أن رسول الله ٢ قال: "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فإنه يتعاضم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي صنعته ولكن قل باسم الله فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب"، أخبرنا محمد بن حاتم أخبرنا سويد أخبرنا عبد الله عن خالد الحذاء عن أبي تيممة عن أبي المليح عن ردف رسول الله ٢ نحو أن رسول الله ٢ قال: "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فإنه يتعاضم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي صنعته ولكن قل باسم الله فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب"، أخبرني عثمان بن عبد

إدخال الحزن على قلبه والسعي فيما يسوؤه، وهذا لا يكون إلا بالاستعاذة بالله منه، وذكر الله تعالى والاعتصام به، فإنه عند ذلك يتضاءل، ويتصاغر، ويخنس، ويولي وله ضراط.

قال شيخ الإسلام الإمام ابن القيم في: (بدائع الفوائد): [فصل: الخناس وبيان اشتقاقه، وأما الخناس فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى ومنه قول أبي هريرة لقيني النبي في بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور فليست لمجرد الاختفاء؛ ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: {فلا أقسم بالخنس}، قال قتادة هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار فتختفي ولا ترى وكذلك قال علي ؑ هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى وقالت طائفة الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق وهي السبعة السيارة.

قالوا وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء والخناس مأخوذ من هذين المعنيين فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان وانبط على وبذر فيه أنواع الوسوس التي هي أصل الذنوب كلها فإذا ذكر العبد ربه

الله حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا محمد بن حمران القيسي حدثنا خالد الخذاء عن أبي تيمية الهجيمي عن أبي المليح عن أبيه قال : كنت ردف رسول الله ﷺ فعثر بعيرنا فقلت تعس الشيطان فقال النبي ﷺ : "لا تقل تعس الشيطان فإنه يعظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي ولكن قل باسم الله فإنه يصغر حتى يصير مثل الذباب" قال أبو عبد الرحمن الصواب عندنا حديث عبد الله بن المبارك وهذا عندي خطأ، أخبرنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد عن أبي تيمية عن أبي المليح قال : كان رجل رديف النبي ﷺ على دابته فعثرت به ذاته فقال الرجل تعس الشيطان نحوه مرسل. ١.هـ.

واستعاذ به انخنس وانقبض كما ينخنس الشيء ليتوارى وذلك الانخناس والانقباض هو أيضا تجمع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج فهو تأخر ورجوع معه اختفاء، وخنس وانخنس يدل على الأمرين معا قال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس، ويقال رأسه كرأس الحية وهو واضح رأسه على ثمرة القلب يمينه ويحدثه فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه، وجيء من هذا الفعل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخناس والمنخنس إيدانا بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله وأن ذلك دأبه ودينه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانا بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر فإن ذَكَرَ الله هو مَقْمَعَتُهُ التي يُقْمَعُ بها كما يُقْمَعُ المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها، فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلا ضئيلا مَضْنِي مما يعذبه ويقمعه به من ذكر الله وطاعته، وفي أثر عن بعض السلف، أن المؤمن يندي شيطانه، كما يندي الرجل بعيره في السفر^١، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط المذكر والتوجه والاستغفار والطاعة فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة ولهذا يكون قويا عاتيا شديدا.

١ - قلت: وقد جاء هذا الخبر مرفوعا إلى النبي ﷺ، كما في مسند الإمام أحمد حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لُحْيَةَ عَنْ مُوسَى بْنِ وَرْدَانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيْطَانَهُ، كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ". ولكن إسناده ضعيف لحال ابن لُحْيَةَ.

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررا لتكريه الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبد وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل لأنه كلما ذكر الله انخنس ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنيهما. فصل: الصفة الثالثة للشيطان، وقوله: {الذي يوسوس في صدور الناس}، صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولا، ثم ذكر محلها ثانيا، وأنها في صدور الناس، وقد جعل الله للشيطان دخولا في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وُكل بالعبد؛ فلا يفارقه إلى الممات [أ.هـ].

ومع شدة عداوة الشيطان لبني آدم وعظمتها، إلا أنك تجد كثيرا من العباد، قد تولاه من دون الله عياذاً بالله من الخذلان، ومن الصفة الخاسرة، والقسمة الضيعة، كما قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، فسحقا لمن استبدل ولاية الرحمن، بولاية الشيطان.

فيا الله كم له من قتيل، وسَلِيبٍ وجَرِيح، ويا الله كم سيخذلهم ويتبرؤ منهم، فبادر أيها العبد إلى التبرء منه، قبل أن يغدر بك، ويمكر بك، ثم يتبرأ منك، واعتبر بهذه الآيات: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلُومُوا

أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: ٢٢]، وقوله: {وَإِذْ زَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٤٨]، وقوله: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر: ١٦-١٧].

واعلم أن أكثر العباد يوافقون الشيطان ويميلون معه، ولهذا قال تعالى: {تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٠١-١٠٢]، وقال: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [سبأ: ٢٠-٢١].

مَعَارِكُ الشَّيْطَانِ تَدْوُرُ مِنْ حَوْلِكَ:

واعلم وفقك الله ودافع عنك، أن هناك معارك قائمة، تدور من حولنا، في كل يوم، من قبل الشيطان وأجناده، ونحن أهدافه وأعداؤه، وتأمل هذا الحديث الجليل، ففي صحيح مسلم عن جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً".

لطفك اللهم بنا، سرايا، وأجناد، وعرش على البحر، فاللهم أعذنا منه، وأهلينا
وذرارينا، وأشياخنا وأحبابنا وطلابنا، يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.

ولنعلم أنه لا خلاص إلا للمُخْلِصِينَ الْمُخْلِصِينَ، الذين يعتصمون بحبل الله المتين،
ويتولون الله تبارك وتعالى، ويستعيذون به ويفزعون إليه، {فنعم المولى ونعم النصير}.

قال تبارك وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}
[الحج: ٣٨].

قوله: (ومن عُبد وهو راض): هذا قيد معتبر؛ ليخرج بذلك من عُبد وهو غير راض،
واعلم أنه ليس شرطاً أن يتكلم بالرضى بذلك، بل مجرد سكوته، وهو يرى الناس
يصرفون له، ما هو حق محض لله جل وعلا، فهو طاغوت، فإذا سكت العبد عمن
يحلف به تعظيماً له، أو ينحني بين يديه ذلاً وافتقار إليه، أو يخافه خوف السر، أو يذبح
لطلعته تعظيماً له، أو يخلق رأسه بين يديه ذلاً وإذعاناً وتوبة بين يديه، أو غير ذلك من
أنواع القرب، فالساكت عن هذا شيطان أخرس، وهو طاغوت أكبر.

ومما يجب التنبه له أن بعض الناس يقرر التوحيد، وينهى عن الشرك، لكنه إذا فعل
به شيء من ذلك؛ سكت، وهذا طغيان عظيم. فهذا كذلك طاغوت، وكما قيل:

وَعَالِمٌ بَعْلَمَهُ لَمْ يَعْمَلَنَّ ... مَعْدَبٌ مِنْ قَبْلِ عِبَادِ الْوَثْنِ

وبهذا الاعتبار من عُبد من الأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين، الذين لم يرتضوا
ذلك، ولكن غلا الناس فيهم؛ فصيروهم أوثاناً، يعبدونهم من دون الله، فهؤلاء لا شيء

عليهم، وسيبين الله جل وعلا للخلائق ذلك، يوم القيامة، يوم يتبرأ هؤلاء ممن عبدوهم، دون رضاهم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهذا هو الفهم الصحيح لقوله: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله... الآية}، أي الراضين بذلك، وقد تقدم هذا المعنى من قبل.

قوله: (ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه): والفرق بين هذا والذي قبله، أن هذا يأمر الناس، ويدعوهم إلى عبادته، بينما الأول رضي وسكت، عندما رأى الناس يعبدونه، من دون الله تعالى، وكلهم في جهنم وبئس المهاد، إلا أن النار دركات، كما أن الجنة درجات.

المدعون للألوهية:

وَالْمَدْعُونَ لِلْأُلُوهِيَّةِ، كَثُرَ عَلَيْهِمْ لِعَائِنِ اللَّهِ، فَمِنْهُمْ (النمرود) في زمان إبراهيم عليه السلام، ومنهم (فرعون) في زمان موسى عليه السلام، وجُرم هؤلاء أنهم ادعوا شيئاً ليس لهم منه حظٌ ولا قسطٌ ولا نصيب، فهم يعلمون أنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا السموات والأرضين، وهذا من أشنع أنواع الطغيان وأقبحه، حيث يصل العبد إلى درجة منازعة الرب تبارك وتعالى، في أخص خصائصه، وأظهر صفاته تبارك وتعالى، فالله هو المألوه المعبود، وهؤلاء نازعوا الله جل وعلا في كونه هو المعبود الحق، فويل لهم من مشهد يوم عظيم.

الغيب وأنواعه وأحوال الناس معه:

قوله: (ومن ادعى شيئاً من علم الغيب): أي ولو يسيراً، كالكهان والعرافين، والسحرة والمشعوذين، فإن مجرد إدعاء علم الغيب، كفر بالله تعالى، فعل أو لم يفعل، والغيب ينقسم إلى قسمين:

- ١ - غيب نسبي. ٢ - غيب مطلق.

أما الغيب المطلق، فلا يعلمه إلا الله الواحد القهار، فلا يطلع عليه لا ملكٌ مقرب، ولا نبي مرسل.

جاء في تفسير الطبري في معرض حديثه عن قول الله تعالى: {إني جاعل في الأرض خليفة} وكلام الله تعالى مع الملائكة في ذلك: [وَقَالَ هُمْ: {أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ} يَقُولُ: أَخْبِرُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَمْ أَجْعَلْ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالَ: فَلَمَّا عَلِمَتِ الْمَلَائِكَةُ مُوَاخَذَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، قَالُوا: سُبْحَانَكَ. تَنْزِيهاً لِلَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ، تُبْنَى إِلَيْكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا. تَبَرَّيَا مِنْهُمْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا كَمَا عَلَّمْتَ آدَمَ. فَقَالَ: {يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ} يَقُولُ: أَخْبِرْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ {فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ} أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ خَاصَّةً {إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} وَلَا يَعْلَمُهُ غَيْرِي {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ} يَقُولُ: مَا تُظْهِرُونَ {وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} يَقُولُ: أَعْلَمُ السِّرَّ كَمَا أَعْلَمُ الْعَلَانِيَةَ] هـ.

وقال فيه أيضا: [وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}، فَهُوَ كَمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِي رَوْقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالُوا: {سُبْحَانَكَ} تَنْزِيهَاً لِلَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ، ثُبْنَا إِلَيْكَ، لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا: تَبَرَّءُوا مِنْهُمْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا كَمَا عَلَّمْتَ آدَمَ] ١.٥هـ.

وقال أيضا: [وَأَمَّا قَوْلُهُ: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} فَإِنَّهُ أَمَرَ مِنَ اللَّهِ نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ^٢ بِأَنْ يُجِيبَ سَائِلِيهِ عَنِ السَّاعَةِ بِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ وَقْتَ قِيَامِهَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَأَنَّهُ لَا يُظْهِرُهَا لِوَقْتِهَا وَلَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ] ١.٥هـ.

وفيه أيضا: [الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ}.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ يَقُولُ: عِلْمٌ وَدَلِيلٌ نَعْلَمُ بِهِ أَنَّ مُحَمَّدًا مُحَقَّقٌ فِيمَا يَقُولُ. قَالَ اللَّهُ لَهُ: فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، أَيْ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ بِفِعْلِ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ جَلَّ تَنَاوُهُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَهُوَ السِّرُّ وَالْخَفِيُّ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا اللَّهُ، فَانْتَظِرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ قَضَاءَ اللَّهِ بَيْنَنَا بِتَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِ لِلْمُبْطِلِ مِنَّا وَإِظْهَارِهِ الْمَحَقِّ عَلَيْهِ، إِنِّي مَعَكُمْ مِمَّنْ يَنْتَظِرُ ذَلِكَ] ١.٥هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير: [وقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} هذه كقوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} وهكذا قال هاهنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه

إِلَّا مِمَّا أَطَّلَعَهُ تَعَالَى عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} وهذا يعم الرسول الملكي والبشري [١٠٠هـ].

أما الغيب النسبي، فهو ما يعلمه بعض العباد، دون بعض، فيكون في حق بعضهم غيب، وفي حق الآخرين شهادة، وهذا ينقسم إلى قسمين:

١- ما هو من خبر السماء، مما تكلم الله تعالى به من الوحي والأمر والنهي، وهو بهذا الاعتبار خرج عن كونه غيباً مطلقاً فصار نسبياً: وهذا الغيب أخبر الله تعالى ورسوله ﷺ أنه ربما وقع فيه استراق للسمع من الجن، فتنة من الله تعالى، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، إلا أن الله تعالى سلط عليهم الشهب، فربما خلصوا إلى شيء من ذلك أولاً، وقد ضَيَّقَ على الجن في ذلك أشد التضيق بعد بعثة النبي ﷺ، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: (انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا مَا لَكُمْ فَقَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ قَالُوا مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَّثَ فَاضْرَبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَحْلَةِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَهَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: {قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ} وَإِنَّمَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجَنِّ).

وفي صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُفَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ".

وفي الصحيحين قَالَتْ عَائِشَةُ سَأَلَ أَنَسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْكُفَّانِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَيْسُوا بِشَيْءٍ". قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجَنِّ يَخْطِفُهَا الْجَنِّي فَيَقْرُأُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ فَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلُطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ".

وفي صحيح مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا". قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وَلَدَ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ - قَالَ - فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَتَخْطِفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُزَمُّونَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرَفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ".

وهذا النوع من الغيب، لا سبيل لبني آدم إليه، إلا إما عن طريق الأنبياء والمرسلين، فهؤلاء هم المؤمنون، وإما عن طريق الجن والشياطين، فهؤلاء هم إخوان الكهان، المارقون الدجالون.

فالأنبياء والمرسلون، ورسّل الله جل وعلا من الملائكة، يُطْلَعُهُمُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْغَيْبِ، إما لتبليغه للعباد، أو لتنفيذ أمر من أوامر الله جل وعلا، كما قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [الجن: ٢٦-٢٨].

وقال: {مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهُ يُجْتَنِبُ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٧٩].

أما من ادعى هذا الغيب النسبي، من بني آدم فهذا قطعا من إخوان الكهان، فليس هناك إلا سوى هاتين الصفتين، فإما أن يدعي أنه نبي أو ملك، وإما أن يكون من إخوان الجن والكهان، أصحاب الدجل والشعوذة.

أما الولي فمهما بلغ من الصلاح والتقوى والورع، فلا سبيل له إلى معرفة شيء من خبر السماء، إلا إما بعلم يحفظه عن شرع الله تعالى مما ثبت وصح، وإما أنه كذاب أشر، ودجال مراوغ منافق، وليس له من ولاية الله تعالى حظ ولا نصيب، ولكن ولاية الشيطان الرجيم، وأعوانه. فتنبه.

شبهة:

واعلم أرشدك الله تعالى، أن هناك من يدعى الغيب النسبي من غير هؤلاء الكرام البررة؛ ليوهم الناس أنه يعلم الغيب المطلق؛ فهذا طاغوت أكبر (كالكهان والعرافين والسحرة والمشعوذين)، ومن يدعون أنهم، من الأولياء والصالحين، ممن يحاولون إيهام العباد، بأن لهم خصيصة في علم الغيب، ويسمونهم برجال الغيب، والأقطاب والأغواث، والله تعالى يقول: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النمل: ٦٥].

فليس لعبد مهما بلغ، أن يدعي علم الغيب؛ لأن الأصل في الغيب هو المطلق، وأما ما يعلمه البعض ويجهله الآخرون، فهذا لا يسمى غيباً إلا بقيد، وعلم الغيب الذي وصف الله تبارك وتعالى به نفسه، لا يعلمه أحد لا بواسطة ولا بمخبر، ولا بأي سبيل؛ ولهذا بين تبارك وتعالى أن الرسل لا يدعون الغيب، بل ينفون عنه أنفسهم، كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام وهو أول الرسل بعد آدم عليه السلام: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [هود: ٣١]، وقال عن خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}، [الأنعام: ٥٠]، وقال: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٨]، فهذا أول نبي وآخر نبي يقرران هذا الأصل العظيم، والأنبياء إخوة لعلات ودينهم واحد وهو توحيد الله عز وجل، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ".

وهذا الغيب هو الذي نازع فيه إخوان الكهان والشياطين، فادعوهم لأوليائهم، من الأحياء والأموات، عيادا بالله من الشرك الأكبر والذنوب الذي لا يغفر.

يقول البرعي في قصيدة: قومًا نَزور:

قومًا نَزور الأوليا الأقطاب ليهم نَشَاوِر... إلى أن قال: مِنْهُمْ خَفِيَ الْحَالُ مِنْهُمْ مُجَاهِرٌ * * مِنْهُمْ عَلِيمٌ بِالْغَيْبِ بَاطِنٌ وَظَاهِرٌ ١. هـ.

اللهم إنا نبرأ إليك من الطواغيت كلهم، ونشهدك على بُغْضِهِمْ وَلَعْنِهِمْ.

٢- ما ليس من خبر السماء، وهذا يستوي فيه جميع العباد، وبعضهم يستعين فيه بالجان، والقرين ونحو ذلك، فمثلا ما في جيبك بالنسبة لي غيب لا أعلمه، ولكنه بالنسبة لك شهادة، فأنت تعلم ذلك وأنا لا أعلمه، وكذلك مجريات الأحداث الماضية، من حياتك أو حياة الآخرين، يجهلها أقوام، ويعلمها آخرون؛ ولهذا الدجاجة يلبسون على الناس بذلك، فيجمعون المعلومات عن شخص ما، إما ببث العيون يسألون عنه، وإما باستعمال الجن والقرين، حتى إذا ما دخل عليه هذا الشخص، قال له أنت اسمك كذا، واسم أمك وأبيك كذا وكذا، وقد جرى عليك وأنت صغير كذا وكذا، وقد فقدت قبل فترة كذا وكذا، وهكذا يأخذ يعدد له بعض الوقائع عن حياته الماضية؛

ليوهمه أنه يعلم الغيب؛ فيتعلق به قلب هذا الشخص، فيأخذ عليه الطريقة - طريقة الشيطان الرجيم - ثم يدعو من دون الله، ويستغيث به، ويأتيه ليوجد له ضائعا، أو ليرد عليه غائب، ويأتي إلى هذا الدجال بالهدايا والعطايا والهبات، ويصرف إليه ألوانا من طقوس التعظيم والولاء، ويتخذة عُدَّةً له من دون الله، عياذا بالله من هذا الشرك الأكبر، وما أكثر الهلكى في هذا الباب. والله المستعان. فانتبه.

قال تبارك وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة **t** في قصة سؤال جبريل عليه السلام للنبي **r**: "قَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمُسْتَوَلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأُمَّةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهِمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ **r**: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} الْآيَةَ".

وفي الصحيحين من طريق مسروق قال قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَا أُمَّتَاهُ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ **r** رَبَّهُ فَقَالَتْ: (لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي بِمَا قُلْتَ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَ هُنَّ فَقَدْ كَذَبَ مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا **r** رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأْتُ: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} {وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأْتُ: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا} وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأْتُ: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} الْآيَةَ وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ).

وفي رواية في صحيح مسلم قالت: (وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}).

رؤوس المتصوفة وادعاء علم الغيب:

واعلم أن كثيرا من رؤوس الصوفية وخواصهم، - في الحاضر والماضي، وهو في الحاضر أكثر -، يزعمون لأنفسهم علم هذه الخمس، التي اختص الله تعالى بها، كما تقدم: "في خمس لا يعلمهن إلا الله"، وهذا كفر لا أظن أن فوّه كفر.

وفي صحيح مسلم عَنْ صَفِيَّةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً" ١، فإذا كان هذا حال من أتى

١ - وروي بأسانيد لا تخلو من مقال حديث: "من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد". وهو عند أحمد والطيالسي وابن أبي شيبة وعبد الرزاق والنسائي والدارمي وابن ماجة والطحاوي وأبي يعلى وابن الجعد والمستدرک والبيهقي والطبراني في الأوسط والكبير وغيرهم، من مسند ابن مسعود **t** وفيه سعيد بن عامر، ومن مسند أبي هريرة **t** وفيه انقطاع بين خلاص بن عمرو وأبي هريرة، وهذان أمثل الطرق لهذا الخبر، وفيه ما قلت لك، وكأن المحفوظ فيه هو السياق الذي رواه مسلم، وإن كان الحاكم قد روى حديث أبي هريرة من طريق خلاص ومحمد بن سيرين عن أبي هريرة به، ولكنه وهم من الحاكم فقد رواه من هو أوثق منه وهو من السلف ألا وهو الإمام أحمد بدون ذكر لابن سيرين، وهذا هو المحفوظ، ولا يبعد أن يكون الخبر أصلا غير محفوظ من مسند أبي هريرة لاضطرابه فقد رواه أحمد عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا، ورواه أحمد والترمذي وغيرهما بلفظ مقارب عن أبي تيممة عن أبي هريرة، وهذه الطريق أعلاها الترمذي. والله أعلم.

العرافين، ولم يصدقهم، ولم يركن إلى قولهم، فكيف بمن صدقهم وركن إليهم؟، بل فكيف بمن طلب منهم وادعى فيهم ما لا يحل طلبه ولا اعتقاده إلا في الله الواحد القهار؟؛ لا شك أن هذا من الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، وقد دلت النصوص على كفر من صدق مدعي علم الغيب من السحرة والكهان والعرافين ونحوهم، فكيف بهم أنفسهم، لا شك في كفرهم.

التحذير من الكهان والعرافين والرمّالين:

أما الاحتجاج بسلسلة البخاري في صحيحه (خلاص عن أبي هريرة)، فليس بخاف ما للصحيحين من خصوصية في التبع والاعتبار؛ ولهذا حيث ذكر خلاصا يذكره مقرونا بالحسن ومحمد أو بمحمد أحيانا وحده؛ لبيان أن الخبر محفوظ، والقاعدة الصائبة في هذا المقام: أنه ليس كل منقطع ضعيف وإن كان الأصل فيه الضعف، والله أعلم.

وقد روى البزار عن ابن مسعود موقوفا بنحو حديث أبي هريرة. وجاء في (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم: [حدثنا عبد الرحمن نا صالح بن أحمد ابن حنبل نا علي - يعني ابن المديني - قال سمعت يحيى قال قال لي شعبة في أحاديث عوف عن خلاص عن أبي هريرة ومحمد [يعني] ابن سيرين عن أبي هريرة إذا جمعهم قال لي شعبة: ترى لفظهم واحدا؟ قال أبو محمد كالمكرر على عوف]، هـ. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: [وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رفعه "من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد" وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين أخرجهما البزار بسندين جيدين ولفظهما "من أتى كاهنا"] انتهى.

وقد حذر النبي ﷺ من الخطوط، في الكهانة ونحوها، إلا ما كان على هدي الأنبياء، ومن المعلوم شرعا، أن الأنبياء لا يخطون إلا حقا، ومن ظن فيهم غير ذلك فقد كفر بالله تعالى، فمن خط شعوذة وطلاسما وحروفا مقطعة ورموزا وأشكلا؛ فهذا من إخوان الكهان، كما في مصنف عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عباس قال: (إن قوما يحسبون أبا جاد، وينظرون في النجوم، ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق).

وفي صحيح مسلم عن مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ قُلْتُ وَمِنَّا رَجَالٌ يُخَطُّونَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يُخَطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ".

جاء في تفسير القرطبي: [الثانية: قوله تعالى: {أو أثارة من علم}. قراءة العامة: {أو أثارة} بألف بعد الثاء. قال ابن عباس عن النبي ﷺ: "هو خط كانت تخطه العرب في الأرض"، ذكره المهدوي والثعلبي، وقال ابن العربي: ولم يصح، وفي مشهور الحديث عن النبي ﷺ قال: "كان نبي من الأنبياء يخط فمَنْ وافق خطه فذاك" ولم يصح أيضا.

قلت: هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمي، خرجه مسلم. وأسند النحاس: حدثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرايجي) قال حدثنا محمد بن بNDAR قال حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله عز وجل: {أو أثارة من علم} قال الخط وهذا صحيح أيضا.

قال ابن العربي: واختلفوا في تأويله، فمنهم من قال: جاء لإباحة الضرب، لأن بعض الأنبياء كان يفعل.

ومنهم من قال جاء للنهي عنه، لأنه ٢ قال: "فمن وافق خطه فذاك"، ولا سبيل إلى معرفة طريق النبي المتقدم فيه، فإذا لا سبيل إلى العمل به.

قال: لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا... ولا زاجرات الطير ما الله صانع وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحل بهم، فصار ظنا مبنيا على ظن، وتعلقا بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه، وقد نهت الشريعة عنه، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به، وقطعه عن الخلق، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها في درك الأشياء المغيبة، فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب، فلا يجوز مزاحمته في ذلك، ولا يحل لأحد دعواه.

وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهي، فإذا وقد ورد النهي فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب.

قلت: ما اختاره هو قول الخطابي. قال الخطابي: قوله عليه السلام: "فمن وافق خطه فذاك" هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علماً لنبوته وقد انقطعت، فنهينا عن التعاطي لذلك.

قال القاضي عياض: الأظهر من اللفظ خلاف هذا، وتصويب خط من يوافق خطه، لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرص وادعاء الغيب جملة، فإنها معناه أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته، لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم.

وحكى مكي في تفسير قوله: "كان نبي من الأنبياء يخط" أنه كان يخط بأصبعه السبابة والوسطى في الرمل ثم يزجر.

وقال ابن عباس في تفسير قوله: "ومنا رجال يخطون": هو الخط الذي يخطه الحازي فيعطى حلوانا فيقول: اقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام معه ميل ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط الأستاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين، فإن بقي خطان فهو علامة النجاح، وإن بقي خط فهو علامة الخيبة. والعرب تسميه السحم وهو مشثوم عندهم [أ.هـ].

وفي الصحيحين عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: "هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ".

وفي صحيح البخاري قال: [باب في النُّجُومِ وَقَالَ قَتَادَةُ: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ}، خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بَغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ] [أ.هـ].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: [وَصِنَاعَةُ "التَّنْجِيمِ" الَّتِي مَضْمُونُهَا الْأَحْكَامُ وَالتَّأْيِيرُ وَهُوَ الْإِسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكَيَّةِ وَالتَّمْزِيجِ بَيْنَ الْقُوَى الْفَلَكَيَّةِ وَالْقَوَابِلِ الْأَرْضِيَّةِ: صِنَاعَةٌ مُحَرَّمَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ؛ بَلْ هِيَ مُحَرَّمَةٌ، عَلَى لِسَانِ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، فِي جَمِيعِ الْمَلَلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ

حَيْثُ أَتَى}، وَقَالَ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ}، قَالَ عُمَرُ وَغَيْرُهُ: الْجِبْتُ السَّحَرُ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ بِإِسْنَادٍ حَسَنِ
عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مَخَارِقَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "الْعِيَافَةُ وَالطَّرْقُ وَالطَّيْرَةُ مِنَ الْجِبْتِ"، قَالَ
عَوْفٌ رَأَوِيَ الْحَدِيثَ: الْعِيَافَةُ زَجَرُ الطَّيْرِ؛ وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ. وَقِيلَ
بِالْعَكْسِ. فَإِذَا كَانَ الْخَطُّ وَنَحْوُهُ الَّذِي هُوَ مِنْ فُرُوعِ النَّجَّامَةِ مِنَ الْجِبْتِ؛ فَكَيْفَ
بِالنَّجَّامَةِ؟ "وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤَلِّدُونَ الْأَشْكَالَ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَوَلِّدٌ مِنْ أَشْكَالِ
الْفَلَكَ. وَرَوَى أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ وَغَيْرُهُمْ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحَرِ؛ زَادَ مَا زَادَ"
فَقَدْ صَرَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ مِنَ السَّحَرِ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا يَفْلَحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} وَهَكَذَا الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ الْإِسْتِقْرَاءَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ النُّجُومِ لَا
يُفْلِحُونَ؛ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. وَرَوَى أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ؛ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ
عُبَيْدٍ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ أَتَى عَرَافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ
تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا" وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْعَرَّافِ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ. وَعِنْدَ
بَعْضِهِمْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالُ السَّائِلِ فَكَيْفَ بِالسُّؤُولِ. وَرَوَى أَيْضًا فِي
صَحِيحِهِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قَوْمًا مِنَّا يَأْتُونَ
الْكُهَّانَ. قَالَ: "فَلَا تَأْتُوهُمْ" فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِيْتَانِ الْكُهَّانِ وَالْمُنَجِّمِ يَدْخُلُ فِي اسْمِ
الْكَاهِنِ عِنْدَ الْخَطَّابِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنِ الْعَرَبِ. وَعِنْدَ آخَرِينَ هُوَ مِنْ
جِنْسِ الْكَاهِنِ وَأَسْوَأُ حَالًا مِنْهُ فَلَحَقَ بِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ
قَالَ: "تَمَنُّ الْكَلْبِ خَبِيثٌ وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ وَحُلُوانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ" وَحُلُوانُهُ الَّذِي

تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ "حَلَاوَتُهُ" وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يُعْطِيهِ الْمُنْجَمُ وَصَاحِبُ الْأَزْلامِ الَّتِي يَسْتَفْسِمُ بِهَا مِثْلَ الْحَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا أ ب ج د وَالضَّارِبِ بِالْحَصَى وَنَحْوِهِمْ فَمَا يُعْطَى هُوَ لَا حَرَامٌ. وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: كَالْبُغْوِيِّ وَالْقَاضِي عِيَّاضٍ؛ وَغَيْرَهُمَا. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: "أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ" قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَمَنْ قَالَ مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوَاعِبِ" وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ؛ يُنَزِّلُ اللَّهُ الْغَيْثَ وَيَقُولُونَ بِكُوكَبٍ كَذَا وَكَذَا".

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالنِّيَاحَةُ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ" وَفِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ}"، قَالَ: "هُوَ الْإِسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ"، أَوْ كَمَا قَالَ. وَالنُّصُوصُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَسَائِرِ الْأَئِمَّةِ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَتَّسِعَ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهَا [١]. هـ.

التنجيم والأبراج الشيطانية والسيرك وما يعرف بالحاوي:

تنبيه مهم: ويدخل في قوله: (وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ)، أصحاب الأبراج من المنجمين الذين يرمجون بالغيب، ولقد عمت بهم البلوى، ووقع بعض الناس في كثير من خرافاتهم وضلالهم، فما أكثر المنطلقين بالأبراج اليوم، والمتحركين بها، فلا

يكادون يقطعون أمرا إلا بالرجوع إليها، عبر المجلات والجرائد وغيرها، فيبحث عن ما يُتَوَقَّعُ له في الغيب، والمستقبل؛ فيستسلم لذلك ويرضى، فإذا قرأ في برجه أنه سيقع كذا وكذا؛ يصدق ويقبل ويثق بذلك، مالا يجده من نفسه من التصديق بالكتاب والسنة، وهؤلاء أشبهوا المشركين الأوائل، الذين كانوا يُدِيرُونَ الْأَقْدَاحَ؛ للإقبال على فعل الشيء أو تركه، وهذا كفر بالإجماع إذ لا يخالف في ذلك مسلم.

ولاشك أن هذا المدعي، كذاب أشر، ودجال مشعوذ، كما تقدم، وفي الحديث الذي في الصحيحين عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسُ ثَوْبِي زُورٍ". وهو كذلك في مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

واعلم أرشدك الله لسبيل النجاة، أنه يدخل في إتيان الكهان والسحرة، ما يعرف اليوم بالسِّيرِك، فإنه يتضمن فقرات تتضمن السحر والكهانة. فتنبه، لا تحبط أجر صلاة أربعين ليلة، أو قد تكون بهذا إن صدقت به من الكافرين، فيحبط العمل بِرُمَّتِهِ، وتذكر قول الله تعالى: {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥].

تنبيه مهم: على شبهة الفِرَاسَةِ والإلهام والإلقاء في الروع، وعلاقتها بعلم الغيب

عند المبطلين

اعلم رحمك الله تعالى، أن هناك فرقا ظاهرا وبَوْنًا شاسعا بين الفراسة، وعلم الغيب، وذلك أن الفراسة والإلهام وما يلقاه العبد في روعه، إنما هو من قبيل الحدس والظن، قد

يقع وقد لا يقع، ولهذا لا يجوز القطع به، بخلاف علم الغيب فإن حق ويقين، ولتتضح المسألة، قارن بين إخبار الرسل عن ربهم، وفراصة المتفرسين؛ لتجد أن ما أخبرت به الرسل هو غيب أطلعهم الله عليه، وهو يقين حتمي، لا شك ولا تردد ولا مرية فيه، بخلاف الفراسة.

وأما ما يحكى عن بعض العلماء أنه كان يقول الشيء ويحلف عليه، أنه يكون كذا وكذا، فهذا محمول إما على أنه يقسم على ربه أن يكون كذلك، أو أنه رأى رؤيا تأولها على ذلك فقطع بها قال، أو من خلال استقراء السنن الشرعية التي رتب الشارع عليها تحقق نتائجها، أما أن يحلف هكذا بدون شيء من ذلك؛ فهذا باطل قطعاً، وفعله رجم بالغيب، وإن وافق تحققا وحصولا.

وربما يكون متكهنا عياذا بالله، إذ ليس كل من انتسب إلى العلم كان من أهله، وأهلا له، فلا بد من الاعتبار بحال العالم مع السنة وإقامة الشرع، كما تقدم.

وعليه فما يذكر في هذا الباب من أقوال لبعض الصحابة **ؓ**، والتابعين رحمهم الله، ومن عداهم من أهل العلم، كله يدور في هذا المضمار، وأنه لا يعدو أن يكون توقعا للشيء، ثم قد يصدق، وقد لا يصدق.

وبهذا تعلم يقينا أنه لا يمكن، أن تكون الفراسة علم غيب، كما أنها لا يمكن أن تكون مصدرا من مصادر التشريع، فضلا أن يُتَّخَذَ أصحابها، أربابا من دون الله، فيعتقد فيهم علم الغيب، وقراءة ما في اللوح المحفوظ، فإن هذا من الزندقة، والشرك الأكبر، والعياذ بالله. والله أعلم.

ولاشك أنه هناك علاقة وطيدة بين صدق الفراسة وقوة الإيمان والتقوى، وإن كان ذلك ليس بلازم^١، ولكنه الغالب، فكلما كان العبد أكثر صدقا وصلاحا كانت فراسته أصدق، حتى إنها ربما لا تكاد تخطئ.

قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: [وكان الصديق **t** أعظم الأمة فراسة، وبعده عمر بن الخطاب **t**، ووقائع فراسته مشهورة، فإنه ما قال لشيء: أظنه كذا إلا كان كما قال، ويكفي في فراسته: موافقته ربه في المواضع المعروفة.

ومرَّ به سوادُ بن قارب، ولم يكن يعرفه، فقال: لقد أخطأ ظني، أو أن هذا كاهن، أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية، فلما جلس بين يديه، قال له ذلك عمر فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به، فقال له عمر

١ - فمن ذلك تفرس عزيز مصر وكان كافرا في يوسف عليه السلام، كما قال تعالى: {أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: [وقال ابن مسعود **t**: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: {أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا}، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى: {استأجره}، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه، وفي رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت: {قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا} ١٠هـ.

† : ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك، ولكن أخبرني عما سألتك عنه، فقال: صدقت يا أمير المؤمنين كنت كاهنا في الجاهلية، ثم ذكر القصة.

وكذلك عثمان بن عفان † صادق الفراسة، وقال أنس ابن مالك † : دخلت على عثمان بن عفان † وكنت رأيت امرأة في الطريق تأملت محاسنها، فقال عثمان † : يدخل عليّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه، فقلت: أوحى بعد رسول الله؟، فقال: ولكن تبصرة وبرهان، وفراسة صادقة.

وفراسة الصحابة † أصدق الفراسة، وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده؛ فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطيء.

قال الله: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، كان ميتا بالكفر والجهل فأحياه الله بالإيمان والعلم، وجعل له بالقرآن والإيمان نورا يستضيء به في الناس على قصد السبيل ويمشي به في الظلم، والله أعلم[أ.هـ].

فصل: فائدة في بيان ضعف قصة مشهورة عن عمر وذلك في قوله † : (يا سارية الجبل).

اعلم رحمك الله، أن لهذه القصة طرقا كثيرة لم يخل منها طريق من كذاب أو متروك أو ضعيف أو صدوق لا يحتمل تفرد به مثل هذه القصة التي لها مدخل في الأصول العقديّة.

واعلم أرشدك الله، أن هذا الخبر لا يوجد له ذكر في دواوين الإسلام المشهورة كالموطأ والكتب التسعة والمصنفين. ومثل هذا دال على غرابة الخبر وجهالته ونكارتة. واعلم رحمك الله، أن أمثل طرقها هي طريق يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر به.

وهذا إسناد لا يقبل فيه أمثال محمد بن عجلان، فأين أصحاب نافع الكبار الثقة؟!.

أما الطرق الأخرى فأحداها فيها: أيوب بن خواط، متروك. والأخرى فيها: سيف بن عمر، كذاب. وثالثة فيها: الواقدي، كذاب. وأخرى فيها: فرات بن السائب، وضاع، وفي أخرى عمرو بن أزهر قال عنه البخاري في التاريخ الكبير: [عمرو بن أزهر، يقال العتكي، نزل بغداد، يرمى بالكذب، رماه أبو سعيد الحداد بالكوفة] اهـ.

وعلى كل فحتى على فرض ثبوتها فإنها محمولة على ما تقدم تقريره، وقد أشار الشاطبي في (الموافقات) إلى عدم ثبوتها، حيث قال: [وقد تعاضدت الآيات والأخبار وتكررت في أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وهو يفيد صحة العموم من تلك الظواهر، حسبا مر في باب العموم من هذا الكتاب، فإذا كان كذلك؛ خرج من سوى الأنبياء من أن يشتركوا مع الأنبياء - صلوات الله عليهم - في العلم بالمغيبات.

وما ذكر قبل عن الصحابة أو ما يذكر عنهم بسند صحيح؛ فمما لا ينبغي عليه حكم، إذ لم يشهد له رسول الله ﷺ ووقوعه على حسب ما أخبروه هو مما يظن بهم، ولكنهم لا يعاملون أنفسهم إلا بأمر مشترك؛ لجميع الأمة، وهو جواز الخطأ، لذلك قال أبو بكر:

"أراها جارية"؛ فأتى بعبارة الظن التي لا تفيد حكماً، وعبارة "يا سارية الجبل" - مع أنها إن صحت لا تفيد حكماً شرعياً - هي أيضاً لا تفيد أن كل ما سواها مثلها، وإن سلم؛ فلخاصية أن الشيطان كان يفر منه؛ فلا يطور حول حمى أحواله التي أكرمه الله بها، بخلاف غيره، فإذا لاح لأحد من أولياء الله شيء من أحوال الغيب؛ فلا يكون على علم منها محقق لا شك فيه، بل على الحال التي يقال فيها: "أرى" و"أظن"، فإذا وقع مطابقاً في الوجود وفرض تحققه بجهة المطابقة أولاً، والاطراد ثانياً؛ فلا يبقى للإخبار به بعد ذلك حكم لأنه قد صار من باب الحكم على الواقع؛ فاستوت الخارقة وغيرها، نعم تفيد الكرامات والخوارق لأصحابها يقيناً وعلماً بالله تعالى، وقوة فيما هم عليه، وهو غير ما نحن فيه.

ولا يقال: إن الظن أيضاً معتبر شرعاً في الأحكام الشرعية؛ كالمستفاد من أخبار الآحاد والقياس وغيرهما، وما نحن فيه إن سلم أنه لا يفيد علماً مع الاطراد والمطابقة؛ فإنه يفيد ظناً، فيكون معتبراً. لأننا نقول: ما كان من الظنون معتبراً شرعاً؛ فلاستناده إلى أصل شرعي[١]. هـ. قلت: وأثر الصديق t رواه مالك في الموطأ بسند جيد.

الدين لا يعرف بالمنامات والرؤى:

واعلم رحمك الله تعالى، أن هذا الدين لا يعرف بالرؤى والمنامات، وإنما يعرف بالكتاب والسنة على سبيل المؤمنين y، خلافاً لما تفعله المتصوفة وبعض الفرق الضالة، من بناء العقائد وتحديد المبادئ، بناء على ما يراه أولياؤهم في المنام، بل وحتى تلك

المنامات إن وجدت، فإنها تُعبرُ ممن لا يفهم، ولا يعلم أن المنامات لا يمكن أن يؤخذ منها تشريع، ولا في أدنى باب من أبواب الأمر والنهي.

فما كان من الأحلام فيه مخالفة للشرع، كانت من رؤيا السوء، وهي من وساوس الشياطين، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ وَالرُّؤْيَا السَّوْءُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَمَنْ رَأَى رُؤْيَا فَكَّرَ مِنْهَا شَيْئًا فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ لَا تَضُرُّهُ وَلَا يُخْبِرُ بِهَا أَحَدًا فَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً فَلْيُبَشِّرْ وَلَا يُخْبِرْ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكْذُرُؤِيَا الْمُسْلِمَ تَكْذُوبٌ وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبَوَةِ وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ وَرُؤْيَا تَحْزِينٍ مِنَ الشَّيْطَانِ وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ".

وقد جاء عن محمد بن واسع أنه قال: [الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره]، ونسبه بعضهم للإمام أحمد.

وهذا ضابط دقيق وبلغ، فلنحذر من ذلك، فإن رأينا ما يسرنا؛ استبشرنا، ولكن علينا ألا نغتر بها.

وهنا نقول: تَسْرُهُ وَلَا تُغْرُهُ حَتَّى لَا تَضُرَّهُ.

ولنا أن نعلم أن هناك من أقحم نفسه في تعبير الرؤى، بل وجعل تعبيره لا يخطيء أبدا عياذا بالله من الفتنة والخذلان، فإذا كان النبي ﷺ قال للصدِّيق **٢**: "أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا" كما في الصحيحين من حديث ابن عباس.

فكيف الشأن بمن هو دون الصدِّيق، بل كيف الحال بمن يتعاطى الشراكيات، ويروج لها بالمنامات والرؤى والأحلام؟!..

جاء في تفسير القرطبي ونقله ابن عبد البر في التمهيد: [وقيل لملك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟، فقال: أِبَالنَّبْوَةِ يُلْعَبُ؟] اهـ.

الحاكم بغير ما أنزل الله تشريعا عاما:

قوله: (ومن حكم بغير ما أنزل الله)، أي هذا أحد الطواغيت، التي بها يخرج العبد من الإسلام، ووجه كونه طاغوتاً، أنه نازع الرب تبارك وتعالى، في أحد أخص صفاته جل وعلا، فقد قال النبي ﷺ: "إن الله هو الحكم وإليه الحُكْم" أخرجه أبو داود والنسائي والبخاري في الأدب المفرد بسند جيد من حديث شريح بن هانئ.

وهذا هو الذي يقتضيه أيضاً، العقل السليم والفطر المستقيمة، فإن الذي يخلق ويرزق ويملك، لا بد أن يكون هو المتصرف في ذلك كله، وهو الأمر الناهي، ألا وهو الله رب العالمين، فإن الأمر والنهي للخلائق، من خصائص الخالق تبارك وتعالى، ولا تتحقق العبودية في المخلوق، إلا بامثال الأمر والنهي، كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، أي إلا لأمرهم وأنهم، فإذا كانت العبودية هي امثال الأوامر

واجتناب النواهي؛ فإن هذا لا يليق إلا بالله جل وعلا، وقد تقدم بيان ذلك عند الكلام على سورة الناس.

وإذا كان مجرد القول بالحل والحرمة، والإفتاء بدون علم جريمة، من أعظم الجرائم، وقول على الله بغير علم؛ فكيف بمن نصب نفسه مشرعاً للعباد، يَنْقُضُ مَا أَمَرَ الشَّارِعَ، ويعقد ما أطلقه الشارع، فلا شك أن هذا مناهض للرب جل وعلا، محارب لله ورسوله، ولهذا نفى الله جل وعلا الإيذان عن هذا الصنف، وبين أن ليس معهم سوى الزعم، الذي لا مستند له ولا حقيقة، ونعتهم بالنفاق، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا [النساء: ٦٠-٦١]، فانظر كيف بين الله جل وعلا في هذه الآية، أنه ليس لهم من الإيمان إلا مجرد الدعوى والزعم، وأنه لن تقوم للإيمان في قلوبهم قائمة، حتى يوحدها الله جل وعلا في الحكم، ويتعبده تبارك وتعالى بتطبيق الشرع المنزل، وقد بين الله جل وعلا في كتابه، أن الحكم من أخص صفاته جل وعلا، وأنه يجب تعبد الله جل وعلا بذلك، ومعلوم بالاضطرار من دين الرسل، أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله جل وعلا؛ فقد وقع في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، قال تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٤٠].

فلما ذكر الحكم وخص به نفسه تبارك وتعالى، ثم أمر بعد ذلك بعبادته؛ علم أن من أعظم ما أمرنا به، أن نتعبد الله به بتطبيق شرعه بامثال أمره واجتناب نهيه، وصرف الحكم إليه جل وعلا؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٤-٦٥]، فنفى الله جل وعلا في هذه الآية، الإيمان عن هذا الصنف من العباد، حتى يأتوا بهذه الشروط الثقال:

١- تحكيم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فهو المشرع بأمر الله جل وعلا.

٢- انتفاء الحرج ولو كان يسيراً.

٣- التسليم التام لقضائه عليه الصلاة والسلام، وألا يكون ذلك على التشهي والهوى، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [النور: ٤٧-٥٠].

والمبدل لشرع الله جل وعلا والمشرع من دون الله تعالى، ليس فيه شيء من هذه الشروط الثقال، وعليه فهو ليس من المؤمنين، بل هو من الكافرين حقاً، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ

الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء: ١٥٠-١٥١]؛ ولهذا قال تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، وهذا الآية نزلت في أهل الكتاب لما بدلوا شريعة الله، وكل من فعل مثل فعلهم؛ فله نفس الحكم، سواء بسواء، لا فرق البتة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى): [وَهَذَا لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمُ النَّزَاعَ إِلَّا كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ وَإِذَا رَدُّوا إِلَى عُقُولِهِمْ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَقْلٌ . وَمِنْ هُنَا يُعْرَفُ ضَلَالُ مَنْ ابْتَدَعَ طَرِيقًا أَوْ اعْتَقَادًا زَعَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَذْكُرْهُ وَمَا خَالَفَ النُّصُوصَ فَهُوَ بِدْعَةٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ]. ١.هـ.

وقال أيضا في (مجموع الفتاوى): [فَإِنَّ الْقَوْمَ كُلَّمَا بَعُدُوا عَنْ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَالْكِتَابِ كَانَ أَعْظَمَ فِي تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ أَضَلَّ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجِدَلَ. ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} " إِذْ لَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَّا كِتَابٌ مُنَزَّلٌ وَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} الْآيَةُ، وَقَالَ: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، وَقَالَ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} الْآيَةُ]. ١.هـ.

المؤلف يشهد على المشرعين من دون الله بالكفر الأكبر:

وتلاحظ أن المؤلف رحمه الله تعالى، قد ذكر هذا الحاكم في رؤوس الطواغيت؛ ليعلم القارئ أن المقصود بذلك وقوعه في الشرك والكفر الأكبر، بما تعاطاه من التشريع العام، تحليلاً للحرام والعكس، وهذا ما يسمى اليوم بالدساتير الجاهلية، والقوانين الوضعية، وليس كما يقول المرجفون في المدينة.

واعلم أن المرجئة ومن وافقهم من المنتسبين للسنة - ممن أخطئوا في هذه القضية الكبيرة - قد أرجفوا بالناس في هذه المسألة الخطيرة، حتى تطاول بهم الأمر، فلم يروا أن التشريع من دون الله كفر أكبر؛ فَجَرَّؤُوا الطواغيت على تنحية شرع الله، ووضع حثالات الأذهان وزبالاتها، حاكمةً بين العباد -القوانين الوضعية الجاهلية - فساموا الناس سوء العذاب، وكثرت في الأمة الآصار والأغلال؛ من جراء ذلك، وحملوا الناس على ذلك بالحديد والنار، فالويل كل الويل عندهم لمن تسول له نفسه، أن يخالف تشريعاتهم الجاهلية، وأنظمتهم الإلحادية، وقوانينهم الوضعية، حتى ظهر الفساد في البر والبحر، والله لا يحب الفساد، وقد قال تعالى: {وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}، أي قد أصلحها الله بحكمه وشرعه، الذي أنزل به الكتب وأرسل لبيانه الرسل، فلا تعطلوا هذه الشرائع، ولا تبدلوها؛ فتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

ومن هنا نعلم أن الفساد العريض، إنما يقع في الأرض من جراء الحكم بغير ما أنزل الله، وإن زعم من زعم أنه يريد الإصلاح، فإن هذه الخصلة هي من أبرز خصال المنافقين، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ { [البقرة: ١١-١٢].

والمقصود بالحكم هنا أي المستقر العام، وهو نفسه التشريع العام، قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص:٢٦].

قال ابن كثير في تفسيره: [وقوله تعالى: {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح "المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهلهم وما ولوا" وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدّهم عذابا إمام جائر" ورواه الترمذي من حديث فضيل وهو ابن مرزوق الأغر عن عطية به، وقال لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله تعالى: {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} قال يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول وكيف وقد سلبته؟ فيقول الله عز وجل إني أردت عليك اليوم قال فيرفع داود عليه الصلاة والسلام بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان. {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع

الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب}، هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد حدثنا مروان بن جناح حدثني إبراهيم أبو زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت فقلت يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان الله، قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعد في كتابه فقال تعالى: {يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله} الآية وقال عكرمة {لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب} هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، وقال السدي لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب وهذا القول أمشى على ظاهر الآية والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب [ا.هـ].

فصل: واعلم أن الحاكم له مع الظلم والمظالم حالتان: أحدهما: أن يكون هذا الظلم في خاصة نفسه، أو في ظلمه لبعض أفراد الرعية، مع عدم المساس بمسلمات الشريعة، وعدم التلاعب بشرع الله تعالى، فالمهيمن على دولته حكم الكتاب والسنة، ولا مرَدَّ عند التنازع إلا إلى الكتاب والسنة على فهم الصحابة الكرام **y**، فهذا الراجح عدم منابذته، مع السعي في مناصحته والإنكار عليه، مع عدم نزع يد من طاعة في المعروف، فنكْرُهُ

مُنْكَرَاتِهِ وَنُكْرُهَا، وَنَنَاصِحِهِ فِيهَا، وَنَعْتَزِلُهُ عِنْدَهَا، وَلَا نَطِيعُهُ فِيهَا إِنْ أَمَرَ بِهَا، وَهَذَا الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ كَمَا سَيَأْتِي، وَعَلَى هَذَا جَاهِيرُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمُهْدِيِّينَ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ قَدْ اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَيْهِ آخِرًا.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ ظَلَمَهُ بِإِتْيَانِهِ الْكُفْرَ الْأَكْبَرَ الْبَوَاحَ الَّذِي عِنْدَنَا فِيهِ مِنَ اللَّهِ بَرَهَانٌ، كَتَعَاطِي السَّحَرِ وَالشَّعْوَذَةِ، أَوْ تَرْكُ الصَّلَاةِ، أَوْ مَنَعَ النَّاسَ مِنْهَا أَوْ تَضْيِيقُهَا عَلَيْهِمْ، وَالسَّعْيَ فِي مَنَعَ إِقَامَتِهَا بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ، أَوْ تَحْكِيمِ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ وَشَرْعِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ قَدِيمًا أَوْ حَدِيثًا، أَوْ مَظَاهِرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَتَوَلِيهِمْ، أَوْ حِمَايَةِ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَالْمُرْتَدِّينَ عَنِ شَرْعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِعْطَائِهِمْ الْحَقَّ فِي مِمَارَسَةِ الْكُفْرِ الصَّرَاحِ، وَالشَّرْكِ الْبَوَاحِ، وَالِدَّعْوَةَ إِلَى ذَلِكَ، أَوْ دَعْمَهُمْ مَالِيًا أَوْ مَعْنَوِيًا فِي رَفْعِ عَقِيرَتِهِمْ بِالشَّرْكِ وَالِدَّعْوَةَ إِلَى الْكُفْرِ، وَتَوْفِيرِ الْحِمَايَةِ؛ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ حَقٌّ كَفَلَهُ لَهُمُ الدَّسْتُورُ الْجَاهِلِيُّ، أَوْ تَجْوِيزِ الْمَحْرَمَاتِ بِاسْتِصْدَارِ الْقَوَانِينِ الَّتِي تُرْتَبِهَا وَتَحْمِيهَا، وَإِقَامَةِ الْمَحَاكِمِ الَّتِي تَفْضُ النِّزَاعَاتِ بَيْنَ أَصْحَابِهَا، أَوْ الْإِنْصَوَاءِ تَحْتَ لُؤَاءِ الْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ، وَقَرَارَاتِ مَجْلِسِ الْأَمْنِ، أَوْ مَا يَعْرِفُ بِحَقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَقَوَانِينِ الْعَمَلِ وَالْعَمَالِ الْمُنَاضِةَ لِشَرْعِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ، فَمِثْلُ هَذَا الْحَاكِمِ تَجِبُ مُنَابَذَتُهُ، وَالسَّعْيُ فِي إِزَالَتِهِ، إِنْ كَانَ ثِمَّةَ شَوْكَةٍ ظَاهِرَةٍ، كَمَا أَذِنَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ **e**، وَإِلَّا سَعَى الْمُسْلِمُونَ فِي اعْتِزَالِهِ، وَالْعَمَلُ عَلَى فَضْحِهِ، وَالِدَّعْوَةُ إِلَى مُنَابَذَتِهِ، وَإِنْ مِنْ الْمَقْطُوعِ بِهِ أَنَّ الصَّحَابَةَ **t** لَمَّا سَأَلُوهُ **e** عَنْ مُنَابَذَةِ مِثْلِ هَذَا الْحَاكِمِ الَّذِي أَتَى الْكُفْرَ الْبَوَاحَ، الَّذِي عِنْدَنَا فِيهِ مِنَ اللَّهِ بَرَهَانٌ، كَانَ **r** يَعْلَمُ يَقِينًا مَخَاطِرَ هَذِهِ الْمُنَابَذَةِ، وَالْآلَامَ الَّتِي تَفْضِي

إليها، ولكن لما كان الأمر متعلقا بحق الله تعالى؛ هان كل شيء في سبيل تحقيق القيام لله تعالى بالتوحيد الخالص، إذ لأجل ذلك خلق الله الناس جميعا، كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، وإن أعظم سبب شرع لأجله الجهاد في سبيل الله هو إقامة حق الله تبارك وتعالى، كما أن النبي **e** اكتفى من أصحابه **t** أن يعرفوا هم هذا الكفر البواح، وهم يمثلون أهل العلم والبصيرة، بغض النظر عن اقتناع ذلك الحاكم بذلك أو لا؛ فالكفر البواح ليس محلا للمساومة والأخذ والعطاء، فنصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة دال عليه، وهذا القدر كاف في توفر أسباب هذه المناظرة لمثل هذا الحاكم، مع تذكر شرط وجود الشوكة والقدرة على ذلك، وإنما اشترط أهل العلم ذلك؛ لأن النبي **e** لما كان في أول دعوته في حالة ليس معه فيها الشوكة، اكتفى بالدعوة مع السعي في تكثير السواد؛ لتوفير الشوكة، فإنها ينتصر هذا الدين ويقوم بالكتاب الهادي والسيف الناصر، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ثم كانت بيعة الرضوان، ثم الهجرة المباركة، ثم انطلق الجهاد في سبيل الله، وقامت دولة الإسلام الممكنة في الأرض، وبقيت ما شاء الله لها أن تبقى، وهكذا ستعود قريبا بإذن الله تعالى في آخر الزمان، خلافة على منهاج النبوة، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزنا يعز الله به الإسلام وأهله، وذلا يذل الله به الكفر وأهله.

بهذا جاءت النصوص المتواترة عن الصادق المصدوق **e**، كما في الصحيحين من طريق جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا: حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله **e** فقال: دعانا رسول الله **e** فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا، أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا

وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله قال: "إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان". وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم"، قالوا: قلنا: يا رسول الله أفلا ننازلك عند ذلك؟ قال: "لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولى عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله؛ فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة". ومعنى "وتصلون عليهم ويصلون عليكم: أي الدعاء.

فهذان خبران يُبَيِّنَانِ أن الخليفة متى ما ضيع الدين فلا حرمة له، وضياع الدين يكون بمحاربة الإيمان ونشر ضده، ويكون بتعطيل شرائعه، والتي من أعلاها وأبرزها التشريع والصلاة.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة: عن النبي ﷺ أنه قال: "إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع"، قالوا يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: "لا ما صلوا". أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه. قلت: قوله ﷺ: "ومن أنكر فقد سلم" أي فقد آمن من أن تعمه العقوبة إذا نزلت. والله أعلم.

وفي الصحيحين من طريق أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في الجاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من

شر؟ قال: "نعم". قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟، قال: "نعم وفيه دخن". قلت: وما دخنه؟، قال: "قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر". قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟، قال: "نعم دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها". قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ فقال: "هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا". قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟، قال: "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم"، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟، قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك".

فهذان خبران يدلان على وجوب اعتزال المنكر، حتى إذا كان الكفر البواح فإن أمكن إزالته تَعَيَّنَ ذلك، وإلا فيستمر العبد على الاعتزال بكل معانيه، حتى وإن بلغ الحال به إلى إن يخرج عن بلده فليفعل، عندما يخشى على دينه الفتن، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري **t** قال: قال رسول الله **e**: "يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: [نعم يجوز بل يجب بإجماع المسلمين قتال هؤلاء وأمثالهم من كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، مثل الطائفة الممتنعة عن الصلوات الخمس أو عن أداء الزكاة المفروضة إلى الأصناف الثمانية التي سماها الله تعالى في كتابه، وعن صيام شهر رمضان، أو الذين لا يمتنعون عن سفك دماء المسلمين، وأخذ أموالهم، أو لا يتحاكمون بينهم بالشرع الذي بعث الله به رسوله كما قال أبو بكر الصديق وسائر الصحابة **y** في مانع الزكاة وكما قاتل علي ابن أبي طالب وأصحاب النبي **r** الخوارج....] **ا.هـ**.

الصِّدِّيقُ t يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْعِ ابْنِ جَمِيلٍ، وَمَنْعِ الْمُرْتَدِّينَ فِي زَمَانِهِ:

وتأمل كيف فرق الصديق t بين حال ابن جميل الذي منع الزكاة في زمان النبي r ، وبين الذين منعوا الزكاة في زمانه؛ لتعلم عميق فهمه لدين الله تعالى.

ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، t ، قَالَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالصَّدَقَةِ فَقِيلَ مَنْعَ ابْنِ جَمِيلٍ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَا يَنْقُمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا قَدْ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَدَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَمَّا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَعَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهِيَ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ وَمِثْلُهَا مَعَهَا".

أما في زمان الصديق t ، فقد كان المنع من لون وشكل آخر، حيث أرادوا تبديل الدين، وتغيير الشرائع، فقالوا: قد كنا نؤدي الزكاة لمن كانت صلاته لنا سَكَنًا، يَعْشُونَ رسول الله r ، أما وقد مات r فلا زكاة.

هنا هب الصديق t ، غَيْرَةً عَلَى شَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى، أَنْ يَنْتَقِصَ أَوْ يُتْلَاعَبَ بِهِ وَهُوَ حَيٌّ يَرْزُقُ، فَقَالَ قَوْلُهُ الْمَشْهُورَةُ: [وَاللَّهُ لَا أَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ].

كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ".

فَقَالَ وَاللَّهِ لَا قَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَقْلًا كَانُوا يُؤْذُونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ، فَقَالَ: عُمَرُ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

فهذا الصديق **t** ، يغضب لحق الله تعالى، ويبين أن الزكاة إنما كانت تدفع لرسول الله **r** ؛ لينفقها في وجوهها المشروعة، ولكنها في نفس الوقت دفعها عبادة لله تعالى، وهي شعيرة من شعائر الإسلام الظاهرة، وأحد مبانيه العظام، والعبادة لا تسقط بموت النبي **r** ، والشرعية لا تُنْقَضُ ولا تتغير بموت المصطفى **r** .

ولهذا قال البخاري في صحيحه: [فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ لَا قَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ تَابَعَهُ بَعْدَ عُمَرُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَشُورَةٍ، إِذْ كَانَ عِنْدَهُ حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَأَرَادُوا تَبْدِيلَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ] اهـ.

الصَّديقُ **t** يَفْضَحُ حُكَّامَ زَمَانِنَا:

هذا وقد فضح الصديق **t** حكام زماننا، الذين لا أقول لا يطبقون شرع الله فحسب، بل وعمدوا إلى محاربة من يطالب بذلك، بل طَبَّقُوا ضده (قوانين الطاغوت، القوانين الوضعية)، في رقاب العباد والبلاد، فأَي رِدَّةٍ أعظم وأقبح وأشنع من ذلك؟!، فتَبَّأ للمرجئة وأذئابهم، الذين لا يعقلون.

أما علم هؤلاء الذين يتصدرون للفتوى في مثل هذه المقامات الكبيرة، أن الواجب عليهم أن ينظروا في حق الله تبارك وتعالى قبل كل شيء، كما هي دعوة الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين، الذين من المفترض أن يكونوا هم ورثتهم وأتباعا لهم.

أما علم هؤلاء أن الأرض أصبحت لا تحكم بشرع الله تبارك وتعالى، بل بشرعية الطاغوت التي هي شريعة إبليس اللعين، فليس هناك دولة اليوم تقوم لله تعالى بهذا الحق، ولا فرق بين شرك العباد وشرك الطاعة والتشريع، فالكل من الشرك والكفر الأكبر البواح، كما قال تعالى في شرك العباد: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}، وقال سبحانه وتعالى في شرك الطاعة والتشريع: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}، وقال: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}، فسمى الجميع أولياء من دونه، وقال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}، وقال: {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}، وقال: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وجمع بينهما في مواضع من الذكر الحكيم فمن ذلك قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وقوله: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ قُلُوبِهِمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}.

على أن بعض الحكماء اليوم أتى كل ذلك، فتراه حاميا لشرك الطاعة والتشريع، بل وعاملا به وربما داعيا إليه، بل قد يكون رأسا في ذلك، عياذا بالله من ظلمات الكفر والشرك بالله تعالى.

تقرير ابن تيمية لشرك الأتباع في التحليل والتحريم:

جاء في مجموع الفتاوى: [وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَفَقِّهَةِ وَأَجْنَادِ الْمُلُوكِ وَأَتْبَاعِ الْقُضَاةِ وَالْعَامَّةِ الْمُتَّبِعَةِ لَهُوَلَاءِ يُشْرِكُونَ شُرَكَاءَ الطَّاعَةِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ لَمَّا قَرَأَ: {اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَبْدُوهُمْ، فَقَالَ: "مَا عَبْدُوهُمْ وَلَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَأَطَاعُوهُمْ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَأَطَاعُوهُمْ".

فَتَجِدُ أَحَدَ الْمُتَحَرِّفِينَ يَجْعَلُ الْوَاجِبَ مَا أَوْجَبَهُ مَتَّبِعُوهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ وَالْحَلَالَ مَا حَلَّلَهُ وَالِدِينَ مَا شَرَعَهُ إِمَّا دِينًا وَإِمَّا دُنْيَا وَإِمَّا دُنْيَا وَدِينًا. ثُمَّ يُخَوِّفُ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ هَذَا الشُّرْكَ وَهُوَ لَا يَخَافُ أَنَّهُ أَشْرَكَ بِهِ شَيْئًا فِي طَاعَتِهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ مِنَ اللَّهِ [١]. هـ.

قلت: فويل للقضاة والمحامين، والبرلمانيين والدستوريين، وجميع

المشاركين في هذا الشرك الأكبر، سيتبرأ بعضهم من بعض.

وهنا سؤال كبير نظرحه على هؤلاء المرجفين، أَلَسْتُمْ تُقَرَّرُونَ وَتُقَرَّرُونَ، أن من أحل ما حرم الله، أو حرم ما أحل الله، أنه كافر الكفر الأكبر، فما قولكم في القوانين الوضعية إذا تضمنت تحريماً للحلال، أو تحليلاً للحرام؟! أ فلا يكون كذلك؟! وهل هناك قانون وضعي لا يتضمن تحريماً للحلال، أو تحليلاً للحرام.

إعلام ونداء لأهل الإرجاء.... بعنوان.... يا أهل الإرجاء كفوا عنا سفهاءكم.

إن الحاكم إنما نال واجب الطاعة له، وحققت البيعة له بتحقيق إيمانه بالله تعالى وطاعته له، فإذا عصى الله تعالى؛ فلا طاعة له فيما عصى الله فيه، وأما إن أظهر الكفر البواح؛ فلا بيعة له ولا طاعة، بل وجب الخروج عليه، إن لم يُراجع دينه، وكان ثمة شوكة.

فيا أهل الإرجاء كفوا عنا سفهاءكم.

وإنما قررت هذه الحقيقة، التي هي من واضحات ومهمات الإسلام؛ لأن هناك من علماء السلاطين وعلماء السوء، من يأمر الناس بطاعة السلطان، ونسوا أو تناسوا هذه الحقيقة البارزة في نصوص الكتاب والسنة، أنه لا طاعة إلا في المعروف، وأن الحاكم الذي له البيعة وتجب له الطاعة، هو الذي قام بكتاب الله تعالى، وطبق شرع الله تبارك

وتعالى، وسعى في حماية الدين وثغور الإسلام، فهذا هو الإمام الذي تصح بيعته، وتجب طاعته في طاعة الله تعالى.

أما الطواغيت المعطلين للشرعية، والمحاربين للجهاد في سبيل الله، الذين تولوا الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، فهؤلاء إنما أمرنا بخلعهم ومنابتهم، لا بطاعتهم والوفاء ببيعتهم التي لم تنعقد أصلاً.

فنقول لهؤلاء العلماء المقولة المشهورة: ثبت العرش ثم انقش.

فأوجدوا لنا الحاكم الذي انطبقت عليه شروط الإمامة، التي تجب بها بيعته، والدخول في طاعته في طاعة الله تعالى، {فَهَٰلِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨].

وتأمل في هذا الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من طريق يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ جَدِّهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ قَالَ سَمِعْتُهَا تَقُولُ حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَجَّةَ الْوُدَّاعِ فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَأَنْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُهُ بِرَاحِلَتِهِ وَالْآخَرُ رَافِعٌ تَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّمْسِ - قَالَتْ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: "إِنْ أُمِرَّ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدِّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ - أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا".

وفي الصحيحين عن ابنِ عمرَ، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قَالَ: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ، وَلَا طَاعَةَ".

وفي مصنف ابن أبي شيبة حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مُضْعَبَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: كَلِمَاتٌ أَصَابَ فِيهِنَّ: حَقٌّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَنْ يُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا وَيُجِيبُوا إِذَا دُعُوا.

قلت: والمعنى أنه لا سمع له ولا طاعة ولا إجابة إذا لم يحكم بما أنزل الله، وهذا واقعنا المر الذي نعيشه.

فصل: علماء تَاهَت عقولهم، في غمرة الأحداث، أو إغراء السلاطين:

ونحن نسأل هؤلاء العلماء، أرايتم إذا كان الحاكم يحكم بطاغوت القوانين الوضعية، والدساتير الجاهلية، والمراسيم الملكية، والسُّلُوم العشائرية، وما يمليه الملاء المفسدين في الأرض، فأبي طاعة لهم؟!..

أم أنكم تأمرون بما لا تفقهون حقيقته؟!، إنكم عندما تأمرون بطاعة السلطان، وهو مبدل لشرع الله تعالى، إنما تأمرون الناس بطاعتهم في معصية الله، أفلا تعقلون؟!.. وإذا كان الواجب على الأمة ألا تقبل من الأمراء والسلاطين، حكماً مخالفاً لشرع الله تعالى، بل ويحرم عليهم طاعتهم في ذلك، فكيف تقولون بوجوب طاعة السلاطين المبدلين لشرع الله تعالى.

ونحن نقول فأبي طاعة بقيت لهم، وهو يحكمون بحكم الجاهلية، وكيف تُجرِّمُون من لا يطيعهم، ويسعى في تخليص الأمة منهم؟!.. أفلا تعقلون.

وأخيرا السؤال الذي يطرح نفسه، يا أيها العلماء، فيم نطيع هؤلاء السلاطين؟، فإن قلتم في طاعة الله، قلنا لكم: هم لا يطيعون الله، بل يطيعون أهواءهم ويتبعونها، ويأمرون الناس بحكم الطاغوت، فَلِمَ تأمرون الناس بما تعلمون أنه مخالف لما تعلمونه من كتاب الله تعالى؟!!.

ولنعلم أن الشارع الحكيم إنما سمي أمثال هؤلاء الحكام - الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا - مؤمنين بالجبّات والطاغوت، وسماهم منافقين، وسماهم كفارا، {أَفَ لَكُمْ وَلِيًّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: ٦٧].

وبهذا يتضح لنا جليا، أن الإسلام بين صفات الأمير الذي تجب طاعته، ويقاقل من ورائه.

الطاغوت لا يغني عنه عمله الصالح شيئا حتى ينزع:

وترى هؤلاء التائهين من علماء السلاطين، يُجَبِّلُونَ ويعظمون الطاغوت الحاكم بأمر الشيطان، مخادعين الأمة بأنهم حماة الدين وحراس العقيدة، ثم يذكرون طباعته للمصاحف، وبنائهم المساجد، ونشرهم لكتب السنة، وعدم منهم الناس الصلاة، والله تعالى يقول في شأن هؤلاء، وردا على أمثالهم: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ { [التوبة: ١٧ - ٢٠].

فَبَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ الْمَشْرُكِينَ، وَالطَّوَاعِثَ، رَبِّمَا بَنُوا الْمَسَاجِدَ، وَسَقَوْا الْحَجِيجَ وَأَطْعَمُوهُمْ، وَوَسَّعُوا الْحَرَمِينَ وَزَيْنُوهُمَا، وَلَكِنَّهُ يَبْقَى هُوَ الطَّاعُوتِ، إِذْ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ إِنَّهَا لِحَقُّهُ مِنْ جَرَاءِ تَلَاْعِبِهِ بِالْشَّرْعِ، وَحَامِيَتِهِ لِلْكَفْرِ وَالشَّرْكِ، وَمَوَالَاتِهِ لِلْكَفَارِ وَالْمَشْرُكِينَ، وَمُظَاهَرَتِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَمَسْخِ عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ، لَا بِسَبَبٍ أَنَّهُ لَمْ يَطْبَعِ الْمَصَاحِفَ، وَلَمْ يُوَسِّعِ الْحَرَمَ، وَلَمْ يَخْدَمْ الْحَجِيجَ. فَتَأَمَّلْ، حَتَّى لَا يَتَلَاْعَبَ بِكَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ، الْمَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ.

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: ١٩].

إِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانًا شَافِيًا وَاضِحًا، حَيْثُ أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ سَيَعْمَلُ مَا هُوَ سَعْيُ الْآخِرَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ هَذَا السَّعْيُ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْهُ شَرْطُ الْإِيمَانِ؛ لَمْ يَنْتَفِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠].

فَاحْذَرِ يَا مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ بِالْعِلْمِ، مَنْ أَنْ تَجْعَلَهُ عُرْضَةً لَدُنْيَاكَ، كَلِمَا عَنْ لَكَ طَمَعٌ؛ جَعَلْتَ دِينَكَ ثَمَنًا لَهُ، وَتَذَكَّرَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا

يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ { [البقرة: ٧٩ - ٨٠] . ومثل هذا كثير في كتاب الله تعالى، يحذر الله تعالى، من جعل الدين ثمنًا لتحصيل الدنيا.

وفي صحيح مسلم من طريق الأحنف بن قيس قال كنت في نفرٍ من فرّيشٍ فمرَّ أبو ذرٍّ وهو يقول بشر الكافرين بكِّي في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكِّي من قبل أفئدتهم يخرج من جباههم. - قال - ثم تنحى فقعد. - قال - قلت من هذا قالوا هذا أبو ذرٍّ. قال فقممت إليه فقلت ما شيء سمعتك تقول قبيل قال ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيهم **ر**. قال قلت ما تقول في هذا العطاء، قال: خذهُ فإن فيه اليومَ معونةً، فإذا كان ثمنًا لدينك فدعه.

مسألة: لا يجوز جهاد الطلب إلا بإذن الإمام، الذي صحّت بيعته شرعاً، وعلى هذا كان سبيل المؤمنين، - النبي **ر** أصحابه **y** -، إذ ما كان ينبعث أحد، أو جمع وحدهم للقتال دون إذن الإمام مطلقاً، وأما الاحتجاج بحادثة أبي بصير **t**، فلا يصح هذا الاستدلال؛ لأنه لم يكن داخلاً تحت النبي **ر**، بل لم يقبله لما جاء إليه؛ للعهد الذي كان في الحديبية، حتى قال النبي **ر**: "وَيْلُ أُمَّهِ مِسْعَرٍ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ" فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ. أخرجه البخاري في صحيحه.

ومن الأدلة الدالة على هذا الأصل العام، ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة **t** أن النبي **ر** قال: "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ

الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ".

فالخروج بدون إذنه افتئات عليه، ونشر للفوضى، وسبب للحرَج في الدين، وربما جر إلى اعتداء على حق الآخرين، فإن الإمام لربما أبرم عهودا مشروعة لم يطلع عليها هؤلاء، فيقاتلوا أهل عهد وميثاق؛ فيكون ذلك سُبَّةً على المسلمين، وسببا للتنفير عن الدين.

بل وكذلك جهاد الدفع، فإنه وإن كان في أول وهلة نزول العدو بساحة المسلمين لا يلزم إذن الإمام، بل يدفع العدو بمن حضر، حتى إذا حضر السلطان المسلم، وتمكن وجب رد الأمر إليه، واتباع أمره في تدبير أمور الحرب، ودفع الصائل، بما هو الأنفع لدين الله تعالى، والحفاظ عليه، وعلى بيضة الإسلام وأهله. والله أعلم.

وأعود لأنبه، على أن هذا كله في حق الحكام، الذي يَرْجُونَ اللَّهَ وَقَارًا، الْمُعْظَمِينَ لِحَقِّهِ، الدَّاعِينَ إِلَيْهِ، أَمَا الْحُكَّامُ الْخَوَنَةُ، وَالْمُرْتَدُّونَ، فَهُمْ مُحَلُّونَ أَنْ يُقَاتِلُوا وَيُخْرَجَ عَلَيْهِمْ، - إن كانت بالمسلمين قُوَّةً وَقُدْرَةً -، إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيُقِيمُوا شَرْعَهُ، وَيُعْلِنُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ، حَتَّى تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَكَلِمَةُ أَعْدَاءِ اللَّهِ هِيَ السُّفْلَى.

الديمقراطية ورطة العالم:

فصل في بيان ورطة المسلمين مع الديمقراطية الكافرة الجائرة: أما أولئك الذين ينادون بخلق الخليفة لدكتاتوريته؛ لِيُنْصَبُوا خليفة ديمقراطيا فهو لاء إنما مثلهم كحال المستجير من الرمضاء بالنار.

بل إن الأمر في حقهم مع هذه الدعوة الخبيثة صار أشد وأخطر، إذ أنهم كانوا بالأمس يرزحون تحت نير الطاغوت المتسلط المتجبر: {لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا، وكانت لهم مندوحة ومخرج - إن كانوا مكرهين - في قول الله تبارك وتعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، أما مع هذه الدعوة إلى الديمقراطية فإنهم يأتون الكفر اختيارا ويُقْبِلُونَ عليه عمدا.

أما علموا أنه لا فرق بين الدكتاتورية والديمقراطية من جهة كون أن الجميع كفر بالله العظيم، إذ أن المشرع في حالة الدكتاتورية هو طاغوت متسلط - حزبا أو فردا - بدستور جاهلي كلا أو بعضا، وإن كفرا ببعض الكتاب ككفر بالكتاب كله.

والديمقراطية هي أن يختار الشعب - أحزابا أو تجمعات - تشريعا من عند نفسه ليحكم به الشعب، وفي كل من الحالتين فالحاكم ليس هو الله رب العالمين، وهذا هو الشرك الصُّراح والكفر البواح، عياذا بالله من الخذلان.

وما الدكتاتورية والديمقراطية أو العلمانية أو الوطنية أو الدولة المدنية، ونحوها إلا أسماء وأوجه، من صنع البشر، يضاهئون بها قول الذين كفروا من قبل، كما قال

تعالى: {اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وقد قص الله تبارك وتعالى علينا قصة أزمة أهل مصر في زمان يوسف **e**، وأن ورطتهم العظمى كانت في التشريعات الجاهلية، وتأليه البشر - فردا كان أو جماعة - فقال تعالى: {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} {٣٧} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} {٣٨} يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} {٣٩} مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

الظلم الذي سيملا الأرض:

وتلك هي ورطة العالم في آخر الزمان، حينما يخيم الطاغوت بتشريعاته الجاهلية على الأرض، فلا تبقى دولة في الأرض تقوم بشرع الله تعالى وتحمل لواءه ليكون الحكم كله، والدين كله لله رب العالمين.

وذلك هو الظلم الذي أخبر عنه النبي **e** أنه يملأ الأرض في آخر الزمان، ونحن فيه الآن، إذ أن من المقطوع به أن النبي **e** لا يقصد أنه لا يوجد عدل في الأرض البتة، وإنما أراد امتلاء الأرض بهذا الشرك الأكبر والظلم العظيم: {إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}.

كما في سنن الترمذي وأبي داود وغيرهما واللفظ لأبي داود من طريق عاصم عن زر عن عبد الله: عن النبي **e** قال: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لَطَوَّلَ الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني " أو "من أهل بيتي يُوَاطِئُ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلِئَتْ ظلماً وجوراً". قال الترمذي عقبه: هذا حديث حسن صحيح.

ولنعلم أنه ما عُبِدَ الشيطان في هذا الزمان بشيء، هو أشد وأفظع وأصرخ من هذا التواطؤ العالمي على صرف حق التشريع من الإله الحق العظيم الحكيم العليم الخبير إلى المخلوقين، والله تعالى يقول في محكم التنزيل: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ {١} مَلِكِ النَّاسِ {٢} إِلَهِ النَّاسِ}، فالإله الذي يُسْتَعَاذُ به هو الرب الحق المبین الذي يحیی ويمیت ويرزق ويخلق، وهو نفسه سبحانه وتعالى الذي يملك الناس وإليه حُكْمُهُمْ، كما أنه إليه خلقهم ومصيرهم وعنده رزقهم، هذا هو الإله الذي لا إله سواه، ولا معبود بحق إلا إياه {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

لا خيار، فإما الكفر أو الإسلام:

فعلينا جميعاً أن نعلم علم اليقين أنه لا خيار للمؤمنين سوى أن يخلعوا الكافر والمشرک - شخصاً كان أو نظاماً ودستوراً - ليقیموا حکم الله تبارک وتعالی وشرعه، وينشروا توحيد الله تعالى في أرضه وبين خلقه، كما قال تعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وقوله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا، وَإِنْ لَمْ نَفْعَلْ وَنَحْنُ قَادِرُونَ فَقَدْ هَدَدَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: {قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {٤٦} وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} {٤٧} وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ} {٤٨} وَإِنْ يَكُنْ هُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} {٤٩} أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

ثم بين الله تبارك وتعالى بعد ذلك الخيار المطروح للمؤمنين، وبين من هم المؤمنون حقاً، فقال سبحانه: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {٥١} وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} {٥٢} وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {٥٣} قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} {٥٤} وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} {٥٥} وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

وعلينا أن نعلم جميعاً، أن مجرد الدخول في العملية الانتخابية، وقبول الديمقراطية، هو تسويغ لأن يكون الاختيار للعباد فيما يحكمون به، وهذا في حد

ذاته كفر أكبر ناقل عن ملة الإسلام، وهو من تأليه الشعوب لبعضهم البعض،
فلتنبه لهذا المقام الخطير.

نداء إلى علماء المسلمين الصادقين الربانيين:

فيا علماء المسلمين ودعاتهم، بَصُرُوا شعوب المسلمين بخطرورة ما يتعاطونه
ويطالبون به من الأسماء والمسميات الجاهلية، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأمرؤهم
وَوَجَّهُوهُمْ إلى المطالبة بشرع الله تعالى لا ييغون عنه حولا، ولا يقبلون بسواه بديلا، مهما
كانت التكاليف والتبعات، فإن هذا من أوجب الواجب عليكم اليوم، فإن كثيرا منهم
غافلون عن هذه الحقائق الحساسة الخطيرة، بدليل ما سمعناه من مطالبة صريحة بعدم
تطبيق الأصولية الإسلامية!! ويا عجبا لهؤلاء!! أما علموا أن الأصولية تعني الرجوع
إلى الأصول، وهل للمسلمين أصول غير الكتاب والسنة على فهم الصحابة الكرام
؟!y

وعلى أمة الإسلام أن تحذر من الانجراف وراء الأهواء والآراء الشخصية، التي ربما
يتبنّاها إسلاميون، وربما كانوا منتسبين إلى السلف، يحاولون إقناع الأمة بأنه لا طريق إلى
تغيير هذا الواقع المر، إلا بالتداول السلمي للسلطة، حتى يصل الأمر إلى الإسلاميين،
فَيَدْكُشُّنُونُ مشروع الانتخابات، وَيُقْلِقُونُ الأمة إليها، بالدخول في العملية الديمقراطية
والانتخابات الشعبية، عبر مؤسسات التشريعات الجاهلية، والقوانين الوضعية، التي
ترعاها البرلمانات الكفرية، وكل هذا من الدخول في الكفر الصراح والشرك البواح.

الجامعات والتشريعات الجاهلية:

فصل: واعلم أرشدك الله، أن من الصور الصارخة، التي يمارس فيها، تطبيق طاغوت التشريعات الجاهلية، ما يسمى اليوم بالجامعات، فإن من المعلوم لدى الصغير والكبير أن هذه الجامعات دساتيرها الخاصة بها، والتي يضعها مجموعة من البشر، بمشارب وأهواء مختلفة، وتكون هذه الدساتير ملزمة لكل من انضم وانخرط تحت لواء هذه الجامعة أو تلك، فالكل خاضع للدستور، والدستور هو المهيمن على الجميع، وليس لأحد أن يقحم من عنده شيئاً فيه، إذ له الحصانة والصيانة العامة التامة، وكل من أتى ليلتحق بهذه الجامعات، معلماً كان أو متعلماً، ليس له خيار في هذا الدستور، بل عليه الانقياد والإذعان التام له، والويل لمن تسول له نفسه مخالفة الدستور أو الخروج عليه، شأنه في ذلك شأن الدساتير الأخرى التي يخضع لها الناس ويذلون وينقادون، ثم الكل محكوم مربوب بالدستور العام الذي يحكم البلاد.

نعم، هكذا هي طاغوت الدستور، له من الجلالة والمهابة، ما ليس لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، بل ليس لشرع الله تبارك وتعالى أي سيطرة أو تحكم أو حكم على هذه الدساتير الجامعية، بل هي تَحْكُمُ الشَّرْعَ وَتَقْنَنُهُ، وَتَقْبَلُ مِنْهُ وَتَرْفُضُ، وَتَخْتَارُ مِنْهُ وَتَعْزِلُ، فَالْحُكْمُ لَهَا، لَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

ومن الإجرام والمكر الكبار، تلك التسمية الطاغوتية التي أطلقوها على هذه الجامعات، ألا وهي (الحرم الجامعي)، وهذه التسمية إن أريد بها أنها حرم بمعنى الحرم الشرعي كالذي لمكة والمدينة؛ فهذا كفر صراح بَوَاحٍ، لأنه من التشريع الجاهلي، وهذا

ليس ببعيد عليهم أن يقصدوا ذلك، فالتشريع من دون الله تعالى هو شعار تلك المستنقعات.

وإن أريد بها أنه لا أحد يملك أن يحكمها بالشرع، بل الحلال الجائز ما أحله الدستور، والحرام الممنوع ما حرمه الدستور، فهذا هو التشريع الجاهلي الكفري الذي اتفق الصحابة والأئمة على أنه شرك أكبر مخرج من الملة، عياذا بالله من الخذلان، وهو من الكفر البواح الصراح.

وليس سرا أنه مهما بلغ العبد من الصلاح والتقوى والورع، إذا التحق بهذه الجامعات دارسا أو مدرسا، لا خيار له إلا أن يذل وينقاد لهذا الدستور العلماني الجاهلي، مهما رأى من المنكرات والكفريات والضلالات، وإن غاية ما يملكه أن يلتمس وبكل لطف من صاحب المنكر أن يترك منكروه، وصاحب المنكر له مطلق الحرية والخيار في أن يقبل هذا التوسل والالتماس أو يرفضه، وليس لهذا المنكر عليه أدنى أدنى سلطة، لأن الكل محكوم بالدستور الجامعي الجاهلي، القائم أصالة على كفالة الحريات، للجميع، بكل ما تحمله كلمة الحرية من معنى، بل المقصود الأول والأعظم من كفالة الحريات، نزع كل هيمنة أو هيبة للدين الإسلامي على العباد، وأنه ليس هناك شيء من الشرع ملزم لأحد في هذا الـ (الحرم الجامعي)، وكما تقدم فالشرع محكوم لا حاكم. فتأمل!!

حتى إنه يملك كل صاحب فكر أن ينشر فكره، وأن يدعو إليه، فالشيوعي، والعلماني، والنصراني، والشيطان الرجيم، الكل له الحق المكفول تماما في الدعوة إلى

كفره وضلاله، والترويج لتوابع ذلك من الخبائث، ولا يملك أحد أن يمنعه من هذه الزندقة، إلا أن يبادلها المناظرات.

ولنعلم جميعاً أن حصر قضية تحريم الجامعات في مسألة الاختلاط، وجوداً وعدماً، هو من اختزال القضايا، والتلاعب بعقول البسطاء والسذج، فإن الاختلاط وإن كان منكراً عظيماً، إلا أنه لا يقارن أبداً بالفساد الجاهلية، التي تحميم على الجامعات كلها، المختلطة منها وغير المختلطة.

فمن العبث ما نسمعه من الفتاوى هنا أو هناك، أنه إذا كانت الجامعة مختلطة فالالتحاق بها حرام، وإلا كانت جائزة، في تعامٍ واضح عن الشرك الصراح الذي يدار في تلك المستنقعات الآسنة، وتغافل عن قضية اجتناب الطاغوت واعتزاله، بل والسعي في إزالته.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، كيف التحق هؤلاء الصالحون، من دعاة وعلماء وطلبة علم بهذا الخبث، مع هذا الزخم العظيم، والركام الهائل، من الزندقة في هذه الدساتير الجاهلية؟!!!

ومن العجائب، والعجائب جمة في زمن التخبط والضياح، أن تسمع الفتاوى القوية، في تحريم الالتحاق بالأمم المتحدة، ولو في وظيفة إغاثية، وإن كان المتقدم لهذه الوظيفة ممن عنده حصانة علمية، وقدر مُقدر معتبر من الفقه والحكمة، بل ويهددون بأن هذا الالتحاق قد يصل بالعبد إلى حد الكفر بالله تعالى، وهذه فتوى صائبة موفقة.

ولكن وفي نفس الوقت تجد نفس هذا المفتي أو ذاك، إذا سئل عن الالتحاق بالجامعات ذات الدساتير الجاهلية، بادر وبلا أدنى تردد أنه لا حرج في ذلك، بل هو بنفسه يلتحق بها معلماً، بل ويتولى فيها المناصب؟!!! أما علم هؤلاء أن التشريع من دون الله تعالى هو المهيمن على دساتير الأمم المتحدة ودساتير الجامعات، وليس هناك فرق إلا من جهة كثرة المواد التشريعية وقيلتها، وهذا أمر طبيعي، فدستور الأمم المتحدة يحكم جمهور بلدان العالم، وأما دستور الجامعة فيحكم جامعة معينة، إلا أن الكل يُحكَّمُ فيه شريعة الطاغوت.

والطاغوت العام يسعى جاهداً في دفع الناس نحو هذه المدارس والجامعات بدعوى محاربة الأمية ومحوها، وكذبوا، بل مراده حمل الناس على الاعتداد بآرائهم وعقولهم بما يسمى بالثقافة والتعلم المدني والحضاري؛ لينزعوا منهم تعظيم أمر الله ورسوله، حتى أصبح البعض يستدرك على شرع الله تعالى، ويقدح وينتقد السلف الصالح وفهمهم وعلومهم، حتى قال بعضهم: هم رجال ونحن رجال، وكذبوا، بل نقول لهم: بل هم رجال وأنتم من الذُّكْرَانِ.

فمراد الشارع تبارك وتعالى أن نحارب الجهل بدينه جل وعلا، وأن نحارب الاعتراض على شرعه جل جلاله، وأما الطاغوت فمراده محاربة الأمية، لا ليتعلم الناس الكتابة والقراءة كما يزعم، وإنما ليجعلهم معتدين بآرائهم وعقولهم في مقابلة الكتاب والسنة، وانخدع المسلمون بذلك؛ فصاروا إلى ما ترون من التخبط والضياع، فالكل يقرأ ما يريد وينظر ما يشتهي، في تعام وتغافل عن شرع الله تبارك وتعالى، فالمعظم هو العقل والرأي، عياذاً بالله من الخذلان. ولنعلم أن الأمية ليست وصفاً ذمياً، بل على

العكس تماما، فإن في أصحابها من الطوعية والانقياد لشرع الله تبارك وتعالى ما ليس عند غيرهم، وقد قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الجمعة: ٢].

والطاغوت إذ يفعل ذلك، يعلم يقينا أنه إن بقي المجتمع متطهرا؛ فستكشف نجاسة الطاغوت؛ وعليه فلا بد أن يتلطح الجميع أسوة به، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ} [الأعراف: ٨٢].

نعم، هكذا هو المتلطح دائما، لا يطيق أن يرى المتعفين الطاهرين من حوله، فإما أن يَتَّسَخُوا مثله، أو سيرميهم بالعظائم، وتأمل قوله تعالى: {إنهم أناس يتطهرون}، فسبحان الله تأمل كيف صار التطهر عند هؤلاء المفسدين جريمة!!

أنت المسؤول إن كنت سببا في فساد ابنك:

وبعد هذا كله تجد الأمة، تُقَلِّقُ أبناءها للذهاب إلى هذه المدارس، وتلك الجامعات، ويطلبون السلامة والنجاة:

أَلْقَوْهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقِيلَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَئَ بِالماء

بل إنما الهم الأكبر عندهم أن يتعلم الأولاد، ولو بسبيل محرمة، بل وإن أتلَفَ دينه، بالقدوات الفاسدة، والبيئة السيئة، والمناهج المدخولة، بالدخن والخبث؛ لأن المعظم أصبح عند هؤلاء هو الحصول على الحياة الدنيا، ولو بذهاب الدين، كُلا أو بعضا، والعجيب أن البعض يزعم، أنه سيذهب بابنه أو ابنته إلى هذا المستنقع الآسن،

وسيحافظ عليه ويراقبه، ولو طالبتة أن يفعل ذلك، مع دنيا أبنائهم لما رضي أبدا بهذه الصفة الخاسرة الجائرة.

بمعنى لو قلت له إن في المدرسة أو الجامعة طاعونا، أو أي مرض مُعْدٍ مُهْلِك، فلماذا لا تسمح لأبنائك بالذهاب، وتحاول جاهدا وقايتهم، وتبيته الأسباب لنجاتهم، لقال لكن وهو ينظر إليك، نظرة من يرميك بالخبَل، أو الجنون، أو على الأقل بنقصان العقل، والطيش والسّفَه، وسيقول لك، وبكل صرامة وثقة ووضوح، وبالْقَمِ الْمَلَان: يا أخي الوقاية خير من العلاج، وأن مأمور أن أحافظ عليهم!!!.

فيا سبحان الله!!، حسنا أين هذه الوقاية مع دين أبنائك، أين هذه الوقاية مع آخرة أبنائك، ألم تعلم أن أبنائك ليسوا عبيدا لك، بل هم شركاؤك، وأنت وإياهم، عبيد لله تعالى، وأن الواجب عليكم جميعا، تنفيذ أمر الله تعالى، ألم تعلم أنه لا يحل لك أبدا، أن يكون سبب فساد الأبناء أنت؟، وأنت مأمور بتجنبيهم جميع سبل الضلال، ولا يحق لك أن تسمح لهم بأدنى شيء منه، فأنت الراعي، وستسأل عن هذه الرعية، فإن كنت غاشا لها، فويل لك، كما في الصحيحين عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمَزْنِي قال قال النبي ﷺ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"، وفي الصحيحين عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ

زَوْجَهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ إِلَّا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ".

واعلم أن الابن إن فسد بسبب خارج عن فعلك؛ فإنه لا لوم عليك، واعتبر بحال نوح عليه السلام، مع ولده، فقد بذل له النصيح، ودعاه إلى آخر لحظات الغرق، ولكنه أبى إلا أن يكون مع الكافرين، فلا لوم ولا تثريب على نوح عليه السلام، ولكن المصيبة كل المصيبة، والورطة الحقيقية، عندما يكون المربي هو أحد الأسباب، التي أدت إلى فساد دين الرعية.

متى تكون المدارس والجامعات حرماً ومنكراً يجب اجتنابه:

والأعجب من هذا كله، أنك ترى من ينكر على من يقول اليوم، بتحريم المدارس والجامعات بوضعها الخبيث المائل أماناً اليوم، ويرمي القائلين بالتحريم بالعظائم، والإفك، والافتراء، والكذب الصراح، فيقول إنهم يحاربون العلوم، ويحرمون كذا وكذا، من العلوم النافعة والمباحة!!!.

أما العلوم المباحة، فقد تقدم التفصيل فيها من قبل، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، متى تكون المدارس والجامعات محرمة؟.

أليس كل شيء يعتريه التحليل والتحريم، فمثلاً قراءة القرآن حال الركوع أو السجود حرام، والأكل والشرب والجماع للصائم في نهار رمضان حرام، والصلاة على

النبى ﷺ بعد تكبيرة الإحرام بدعة، وهكذا، فتسائل متى تكون هذه الجامعات محرمة، عند أصحابها والمنافحين عنها، أم أنهم يرونها حقا محضا مطلقا؟!!

وهذا السؤال يُرِيحُنَا، من سؤال آخر يوجهه المخالف إلينا، وهو، لماذا تحرّمونها؟، وماذا فيها حتى، حَرَّمْتُمُ المدارس والجامعات؟.

فنقول له هَوْنٌ عليك، أنت أخبرنا متى تكون محرمة؟، بمعنى، ما هو الشيء الذي إذا وُجِدَ في الجامعات صارت حراما؟.

وللإجابة على هذا السؤال، سنلقي سؤالاً آخر، فنقول أرأيت لو أنك سُئِلْتَ عن مكان فيه المواصفات التالية: نُشِرَ للعقائد الفاسدة، ودعوة صريحة إلى النصرانية، وتُنْصِرُ للمسلمين، وأركان إقناع ونقاش على المالأ، الملاحدة يبررون إلحادهم، ويدعون إلى كفرهم، وعندهم قانون جاهلي، يسمح بذلك ويكفله، ويدافع عنه، بل ويُجَرِّمُ من يتعرض لهم، وفي نفس المكان، اختلاط وزنا، ومخدرات وفواحش، ونساء كاسيات عاريات، وقُدُوات فاسدة، وممارسات غير شرعية، وأخرى مخرجة بالأدب، ومذهبة للحياء، ومواد فيها انحراف، بل وبعضها يتضمن الكفر بالله تعالى، ويقدمها أقوام لهم منزلة ومكانة اجتماعية، وعلى أقل الأحوال قد فُرِضَ على الحضور احترامهم وتقديرهم، وهناك تهريب بالخصم والحسم وربما الطرد، لمن اعترض أو تردد، وحتى من أراد الإنكار، فما هي إلا وجهة نظري طرحها، كغيرها من الأطروحات، ولأصحاب المكان القبول أو الرد، بل وحتى الإنكار عليه هو كذلك، فشأنها كشأن سائر ما يطرح في ذلك المكان.

والسؤال الكبير الآن: هل الذهاب إلى هذا المكان، وإثباته، والالتحاق به، أو مجرد الانتساب إليه، ولو بأدنى شيء، حلال أم حرام؟.

قطعا كل عاقل، دعك من شخص عنده ولو شيء من الديانة، سيجيب مباشرة، وبلا أدنى تردد، أو فرصة للتفكير، إن هذا حرام قطعا، فإن أقل من هذا كفيل بالحكم بالحرمة، فكيف بها مجتمعة؟.

ولكن ليس سرا أن تعلم، أن هذا الإجابة، سوف تنقلب رأسا على عقب، إذا قلت لهم إن هذا المكان: هو الجامعات الموجودة اليوم، وسترى سيلا هائلا، وركاما عظيما جارفا، من المحاولات الجادة، للتبرير والتميرير، والترقيق والترقيع، وفي نهاية المطاف، سيكون القائل بالتحريم، هو مرمى السهام المأفونة، بالتحريم والتجريح، والتشويه، والتنفير والإسقاط، عياذا بالله من اتباع الهوى.

ضرورة تعليم الناشئة الخير والدعاء لهم:

تنبيه: وعلينا لزاما أن نُعَلِّمَ أبناءنا الخير ونحملهم ونحثهم عليه، وكذلك أن نُبَيِّنَ لهم الشر ونبعدهم عنه ونحذرهم منه، وألا يكون ضلال أحد من أفراد رعيته بسببك أنت، فإذا انضاف إلى ذلك الدعاء؛ كانت النجاة بحول الله تعالى وتوفيقه وقوته، وفي مواضع من الذكر الحكيم، ترى الدعاء حاضرا وبكثرة للذرية بالصالح والنجاة في الدين قبل الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]، وقوله: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٢٨]، وقوله: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: ٣٨]، وقوله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥]، وقوله {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} [إبراهيم: ٤٠]، وقوله: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران: ٣٦]، وقوله: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤]، وقوله: {وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف: ١٥].

والآن نعود إلى موضوع التشريعات الجاهلية، فنقول:

واعلم أن التولي عن شرع الله تعالى هو عين الكفر الذي وقع فيه أهل الكتابين من قبلنا، ومن المقطوع به أن كفرهم بالتولي كان من الكفر الأكبر، فليت شعري كيف انقلب في حقنا إلى أصغر؟!، فتبا لمن هذا فهمه لحق الله تبارك وتعالى، إنها والله لقسمة ضيزى، أن نحكم على أهل الكتاب بالكفر الأكبر إذا تولوا عن التوراة والإنجيل إلى أهواء البشر، حتى إذا تعاطى حكام اليوم نفس هذا التولي، بل وأخبت منه؛ تحول الكفر؛ لأجلهم وللدفاع عنهم، ولدرء الفتنة بهم، وعنهم، تحول إلى كفر أصغر، فيا سبحان الله؟! {أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} [القمر: ٤٣].

وتأمل في هذه الآيات: {سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلشُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)} وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة: ٤٢ - ٤٤].

نعم تأمل قوله تعالى: {وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، فانظر كيف لما حصل منهم التولي عن حكم الله تعالى؛ شهد الله عليهم بعدم الإيمان، فالله تعالى هنا ينفي عن هؤلاء الإيمان، وكذلك عَمَّنْ فعل مثل فعلهم.

والسؤال الكبير، هل يمكن أن يتحول الكفر الأكبر من جهة نوعه وجنسه إلى أصغر باعتبار اختلاف أجناس المتعاطين له؟!.

بل يبقى الكفر كفرا وإن تعاطاه جميع الحكام والسلطين.

وهل القرآن العظيم لا يستحق أن نحكم على من تولى عنه، بالكفر والردة وعدم الإيمان، أم أن ذلك خاص بالتوراة والإنجيل فحسب؟!.

وهل هذه الآية: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} [المائدة: ٦٨]، خاصة بالتوراة والإنجيل؟!، أم أنها عامة في كل كتاب أنزله الله على قوم من عباده؟!

وإلا فما معنى هذه الآيات إذن؟!

قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣].

وقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٣-٢٦]، وتأمل كيف هدد بزوال الملك، عمن ينحي شرعه ويتنكب صراط رب العالمين، في حين أن هؤلاء المخذولين المفتونين، يزعمون أن زوال الملك إنما يكون بتطبيق الشرع.

وقال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ {المائدة: ٤٨ - ٥٠}، فَيَا سَبْحَانَ اللَّهِ، {فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨].

الكلام على أثر ابن عباس وذكر الروايات:

أما احتجاج المرجئة ومن شابههم بحديث ابن عباس (كفر دون كفر) في تفسير الآية {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، وقولهم أن المراد بهذه الآية الكفر الأصغر، فإن هذه من أعظم الظلم والبهتان، ومن أبطل الباطل وذلك من وجوه:

١- ضعف هذا الأثر عن ابن عباس، فقد رواه هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس، وهشام بن حجير ضعفه الإمام أحمد والبخاري ويحيى بن معين، كما أن له وجهاً آخر في الضعف، وهو أن هشاماً خالف من هو أوثق منه، فقد روى عبد الله بن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال: (هي به كفر، ولكن ليس ككفر بالله وملائكته ورسله)، وعبد الله ابن طاووس أوثق بكثير من هشام بن حجير، ثم إن تفرد هشام بمثل هذه الأصول لا يقبل، فكيف مع وقوع المخالفة لمن هو أوثق منه؟، فالأثر معلول بثلاث علل، فإن قيل إن ابن عباس قال (ليس ككفر بالله وملائكته ورسله)؟، فنقول نعم، كما أن الإيمان شعب ودرجات، وكذلك الكفر والنفاق، ضلالات ودركات،

فبعض الكفر أشنع وأغلظ من البعض الآخر، فليس كفر الحاكم بغير ما أنزل الله، كفر الذي كفر بالله وملائكته ورسوله، ولكن الكل كفار في جهنم خالدين فيها أبداً، إلا إن تابوا إلى الله، واستقاموا على الطريقة؛ فإن الله تواب رحيم.

٢- أنهم نزلوا واقع ابن عباس على واقعنا؛ فأخذوا حكم ابن عباس الصادر في واقع معين؛ فجعلوه منطبقاً على واقعنا المعاش اليوم في الأرض، وليت شعري أي مقارنة بين واقع ابن عباس وواقعنا، ففي زمان ابن عباس كانت السنة فاشية، والحكم بالكتاب والسنة، والجهاد قائم على قدم وساق، وشعائر الدين ظاهرة، ولكن وقعت بعض المظالم والتجاوزات، من بعض الأمراء، ولكن لم يكن في التشريع العام أبداً، إذا لم يكن في زمان الصحابة أحد يضع للناس دستوراً وقوانين وشرائع يحكم بها العباد والبلاد، ولو كان كذلك ما توقف أحد في كفر فاعل ذلك الكفر الأكبر، ولهذا لما وقع هذا التبديل للشرائع، والحكم بها في زمان الطاغوت (جنكز خان) أجمع العلماء على كفره وردته وزندقته، ونقل إجماعهم شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى، والحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، ودفع الشرائع وتبديلها كفر بالإجماع، كما نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه، فيما نقله ابن تيمية في أوائل كتابه (الصارم المسلول)، ونقل إجماعهم ابن حزم، وهذا الإجماع إجماع صحيح، إذ لم يتوقف أحد من العلماء في تكفير من كان كحالة (جنكز خان)، ومستند هذا الإجماع، ظاهر من دلائل الكتاب والسنة، أما من الكتاب فقد تقدمت كثير من الآيات في ذلك، ومن أظهرها قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ}، وهم الآن يسمون مواقع الحكم الطاغوتية الجاهلية باسم (المجلس التشريعي)، ويجعلون له رئيساً ونائباً، فهذا رئيس المجلس التشريعي،

وذاك نائب رئيس المجلس التشريعي!!، لمن يشرعون؟!، للعباد والبلاد، فيحكمون في الصباح وينسخون في المساء، ولا يتوقف من كان له أدنى عقل، أو شيء من علم، أن واقع هؤلاء الطواغيت أشبه ما يكون بواقع (جنكز خان)، بل أعظم منه وأشد، وأنه لا تمت له صلة بواقع ابن عباس **t**، إلا عند المُلَفِّقِينَ والمُعَذِّرين، فإن (جنكز خان) جمع قومه على الياسق، وهو عبارة عن جملة من أحكام دين اليهود والنصارى وشيء من الإسلام، وواقع هؤلاء اليوم هو كذلك، فهناك القوانين الأمريكية والقوانين البريطانية والإيطالية والفرنسية والهندية، وهناك مجلس الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، والمحاكم الدولية، وشيء من الإسلام، بهذا يحكم العباد اليوم، فأى مقارنة بين هذا وواقع ابن عباس؟! {سبحانك هذا بهتان عظيم}.

ولكن المرجئة كما تقدم، أضر على الأمة، من كثير من الطوائف لا كثرهم الله، فإذا كان النبي **r** غير اسم (أبي الحكم) إلى أبي شريح كما تقدم؛ لوجود ملمح الوصف في الحكم، فكيف بمن نصب نفسه للعباد مشرعا حاكما بالطاغوت؟!.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: [فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ بِخِلَافِ قَوْلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا سِيَّامًا وَقَدْ صَارَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى بَدْعِ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ أَهْلِ الْإِرْجَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَإِلَى ظُهُورِ الْفُسْقِ فَصَارَ ذَلِكَ الْخَطَأُ الْيَسِيرُ فِي اللَّفْظِ سَبَبًا لِحُطْأٍ عَظِيمٍ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ فَلِهَذَا عَظُمَ الْقَوْلُ فِي ذِمِّ "الْإِرْجَاءِ" حَتَّى قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: لَفِتْنَتُهُمْ - يَعْنِي الْمُرْجِئَةَ - أَخَوْفُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِتْنَةِ الْأَزَاقَةِ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: مَا أُبْتَدِعَتْ فِي الْإِسْلَامِ بَدْعَةٌ أَضَرَّ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ الْإِرْجَاءِ. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: كَانَ يَحْيَى بْنُ

أَبِي كَثِيرٍ وَقَتَادَةُ يَقُولَانِ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَهْوَاءِ أَخَوْفُ عِنْدَهُمْ عَلَى الْأُمَّةِ مِنَ الْإِرْجَاءِ .
 وَقَالَ شَرِيكَ الْقَاضِي - وَذَكَرَ الْمُرْجِيَّةَ فَقَالَ - : هُمْ أَخْبَثُ قَوْمٍ حَسْبُكَ بِالرَّافِضَةِ خُبْنًا
 وَلَكِنَّ الْمُرْجِيَّةَ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ . وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: تَرَكْتُ الْمُرْجِيَّةَ الْإِسْلَامَ أَرَقَّ مِنْ
 ثَوْبِ سَابِرِي وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّمَا حَدَثَ الْإِرْجَاءُ بَعْدَ فِتْنَةِ فِرْقَةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ . وَسُئِلَ مَيْمُونُ
 بْنُ مِهْرَانَ عَنْ كَلَامِ " الْمُرْجِيَّةِ " فَقَالَ: أَنَا أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ لِدَرِّ
 الْهَمْدَانِي: أَلَا تَسْتَحْيِي مَنْ رَأَى أَنَّكَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتْيَانِي: أَنَا أَكْبَرُ مِنْ دِينِ
 الْمُرْجِيَّةِ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْإِرْجَاءِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يُقَالُ لَهُ:
 الْحَسَنُ . وَقَالَ زَادَان: أَتَيْنَا الْحَسَنَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَقُلْنَا: مَا هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي وَضَعْتَ؟ وَكَانَ
 هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ كِتَابَ الْمُرْجِيَّةِ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا عُمَرَ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ مُتَّ قَبْلَ أَنْ أُخْرِجَ
 هَذَا الْكِتَابَ أَوْ أَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ فَإِنَّ الْخَطَأَ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ لَيْسَ كَالْخَطَأِ فِي اسْمِ مُحَدِّثٍ؛
 وَلَا كَالْخَطَأِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ إِذْ كَانَتْ أَحْكَامُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مُتَعَلِّقَةً بِاسْمِ الْإِيمَانِ
 وَالْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ وَالنِّفَاقِ [١] . هـ .

قلت: وقد ساء لهم بعض السلف بيهود هذه الأمة، وهو منسوب إلى

سعيد بن جبير .

وقد تقدم أن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر من ثلاثة وجوه:

- ١- من جهة كونه نحى الشرع المنزل فهذا كفر مستقل .
- ٢- من جهة كونه استعاض عنه بالشرع المبدل وهذا كفر مستقل .
- ٣- تطبيق وتنزيل الشرع المبدل في دنيا الواقع وهذا كفر مستقل .

فكيف بمن اجتمعت فيه هذه الكفریات الثلاث؟، لا شك أنه من أغلظ الناس كفراً، وإن كثرت صلاته وصيامه وصدقاته وعمارته للمساجد وزخرفتها، كما قال تعالى: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٩]؛ ولهذا فلا شك في كفر وردة من ترك أوامر الرسول ﷺ، وطبق عوضاً عنها زبالات الأذهان وحُثالات الأفكار.

وجاء في فتاوى نور على الدرب - لابن عثيمين: [يقول السائل: هل يعتبر التحاكم إلى غير شرع الله كفراً مع العلم بأنه يعتقد اعتقاداً منافياً للشك بأن أحكام الشريعة الإسلامية هي أفضل من الأحكام الوضعية؟ نرجو بهذا التوجيه مأجورين.

فأجاب رحمه الله تعالى: الجواب على هذا السؤال يتبين بالآتي: أولاً: أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته، خلق الجن والإنس ليعبدوه، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}. وعبادة الله سبحانه وتعالى هي التذلل له حباً وتعظيماً بإقامة شرائعه القلبية واللفظية والعملية. ثانياً: يقول الله عز وجل: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}. فلا حاكم بين العباد إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يحل لأحد أن يفصل هذه القضية عما وجهنا الله فيه نحوها: وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله لا إلى غيره. ثالثاً: يقول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}. فتأمل هذه الآية الكريمة تجد أن طاعة

ولادة الأمور تابعة لطاعة الله ورسوله وليست مستقلة، ولهذا قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} ولم يقل: أطيعوا أولي الأمر وهذا يدل دلالة ظاهرة على أن طاعة ولادة الأمور تابعة لطاعة الله ولا يمكن أن تكون مستقلة، كما أن الله تعالى يقول: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}. لم يقل: رددوه إلى القانون الفلاني أو القانون الفلاني أو الرأي الفلاني أو النظرية الفلانية أو ما أشبه ذلك، بل لا مرد إلا إلى الله ورسوله، إلى الله إلى كتابه وإلى رسوله إلى سنته ٢، فإن كان حياً فإليه نفسه، وإن كان ميتاً فإلى ما حفظ من سنته ٢. رابعاً: قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}. فأقسم الله سبحانه وتعالى بربوبيته لرسوله محمد ٢، وهي ربوبية خاصة لا تساويها أي ربوبية بالنسبة للعباد؛ لأنه كلما كان الإنسان أعبد لله كانت ربوبية الله له أخص، ومن المعلوم أن نبينا محمداً ٢ أعبد الناس لله، وعلى هذا فإن الله أقسم بهذه الربوبية الخاصة المضافة إلى رسول الله ٢ أنه لا يؤمن أحد إلا بهذه الشروط: الشرط الأول: {حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} لا يحكموا غيرك. الشرط الثاني: {ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ} بل تتسع صدورهم لذلك وتنشرح صدورهم به، فلا يجدوا حرجاً وضيقاً مما قضيت. والثالث: {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} ينقادوا انقياداً تاماً، وبهذا أكد الفعل بالمصدر بقوله: {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} إذا عرفت هذه الأمور الأربعة تبين لك أن خروج الإنسان عن التحاكم إلى الله ورسوله خلاف ما خلق الله العباد من أجله، وخلاف ما أرشد الله أن يكون التحاكم إليه، وخلاف ما جعل الله تعالى لولادة الأمور من الطاعة، وخلاف تحكيم الرسول عليه

الصلاة والسلام؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [١.هـ].

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه بإسنادين مقبولين في التفسير، قال: حَدَّثَنَا ابْنُ عُليَّةَ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، قَالَ: كَانَ مُجَاهِدٌ يَقُولُ: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ٢، وَرَبِّهَا قَالَ: أُولُو الْعَقْلِ وَالْفَقْهِ فِي دِينِ اللَّهِ.

حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ: الْعُلَمَاءُ. انتهى.

شبهة متهاكة ودحضها:

تنبيه مهم: يورد بعض المخالفين شبهة، وهي قولهم: إن ابن جرير ذكر قول ابن عباس: (هي به كفر، ولكن ليس ككفر بالله وملائكته ورسوله)، تحت من قال بأن آية المائدة في المراد بها (كفر دون كفر).

والجواب على هذه الشبهة المتهاكة، أن ابن جرير نقل عن ابن عباس قولين، هذا أحدهما، وأما الثاني، فقوله: [وقال آخرون: معنى ذلك: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به. فأما "الظلم" و"الفسق"، فهو للمقر به.

ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: "ومن لم يحكم بما أنزل الله

فأولئك هم الكافرون"، قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقرّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسق [١٠هـ]. واختار هذا القول ابن جرير كما سيأتي بيانه.

وللمعلومية، فإن ابن عباس **t** جاء عنه في هذه الآية عدة أقوال وهي: (هي به كفر) (هي به كفر، ولكن ليس ككفر بالله وملائكته ورسله) (من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقرّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسق)، وقوله: (كفر دون كفر) وهو أضعفها إسناداً.

والمبطلون يوهمون الناس بأن ابن عباس ليس له سوى قول واحد في تفسير آية المائدة، وهو قوله: (كفر دون كفر)، ويجعلون تفسيره للآية هو التفسير الوحيد لها، وَيَتَعَمَّوْنَ عَنْ أَقْوَالِهِ الْأُخْرَى فِي نَفْسِ الْآيَةِ، وعن أقوال الصحابة الآخرين في هذه الآية، وهذا من أبرز علامات اتباع الهوى، ورفض الهدى، عياذاً بالله من الخذلان.

وهذا التنوع في تفسير الآية عن ابن عباس **t**، هو من اختلاف التنوع لا التضاد، وذلك لأن أحوال العباد مع الحكم بغير ما أنزل الله على أنواع، فلكل مقام مقالته المناسب له.

فابن عباس **t**، أثبت أن الحكم بغير ما أنزل الله يكون كفراً أكبر، وذلك عندما يقع الجحود، والذي هو التبديل للشرع، وهو ما وقع من بني إسرائيل في سياق قصة الرجم والتحميم.

ومما يجب أن يُعلم أنه لا فرق في ذلك بين المسألة والمسألتين، بمعنى أن من شرّع للعباد، ولو في مسألة واحدة، بحيث صارت هي الدستور المعمول به بين كل العباد،

والأصل المتحاكم إليه عند التنازع (التشريع العام)، لكان ذلك كفراً بالله تعالى الكفر الأكبر، بخلاف الذي شرعه هو الكتاب والسنة، وهو المعمول به والمحكوم به، ولكن في مسألة خاصة اتبع الهوى، وخالف الشرع، ولكنه لم يبدل أصل التشريع، فإذا سألته مثلاً ما حكم السارق عندكم؟، قال: إذا توفرت فيه الشروط وانتفت الموانع فحده القطع، ولكن ربما تغاضى عن حبيب أو قريب فلم يقم عليه الحد، وأمره بالانصراف، ونحو ذلك، فهذا كفر دون كفر عند جماهير السلف والخلف.

إذا نفرق بين من اتبع الهوى، مع ثبوت أصل التشريع عنده، وهو عامل به، لكن غلبته نفسه في قضية معينة؛ فحاد عن حكم الله تعالى؛ فهذا من العصاة، أما المبدل، فهذا كافر كفراً أكبر، وإن لم يحكم به.

ومما يبين ذلك سبب نزول قوله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، فإن اليهود لما رأوا الزنا قد فشا فيهم، لا سيما في أشرافهم، قالوا كيف نرجم أشرافنا؟، فهلّموا إلى شيء نتفق عليه نمضيه على شريفنا ووضعنا، فجعلوا على من زنا، وهو محصن جلد مائة، وتغريب عام، فصيروا ذلك شرعاً بينهم، بدلاً عن الرجم للمحصن، مع ثبوت الآية في كتابهم، فإنهم لم يمحوها من كتابهم، بل أبقوها رسماً فقط، ووضعوا من عندهم شرعاً آخر، يتوافق مع واقعهم وهواهم، فأنزل الله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، فوقع التبديل في هذه المسألة الواحدة، ومع ذلك حكم الله عليهم بالكفر، وهذا من أظهر مسائل الدين، ومن أوضح الواضحات؛ لولا إرجاف المرجئة، لا كثرهم الله.

ومن أعظم المفارقات بين ما كانت عليه الأمة في ماضيها، وما آلت إليه في حاضرها، أن السابقين كان يختلفون ويتنازعون في من الذي يحكم؟، وأما اليوم فالتنازع في بماذا نحكم، فيا لله العجب.

كانوا في ما مضى المحكوم به مفروغ منه، إنه الكتاب والسنة عل كل حال، لا عوض ولا استبدال، أما اليوم فالاختيار واقع في المحكوم به، والشعب هو الإله الجديد الذي عُبدَ في هذا الزمان، إذ هو الذي يختار، وليس رب العزة والجلال، والشعب هو الذي يحكم بما يشتهي، والشرع مطالب أن يكون مطّوعاً للشعب، يميل حيث مالوا، ويقف حيث وقفوا، فرحماك اللهم بنا من هذا الكفر الصراح البواح، والردة الظاهرة عن الإسلام.

الجحود في كلام ابن جرير ليس عملاً قليلاً:

فصل: طامة أورثت فساداً عريضاً، وذلك بعدم فهمهم لمعنى الجحود، الذي قرره ابن جرير الطبري على آية المائدة، وكذلك في كلام السمعاني عليها، ودعواهم أن ابن جرير اختار قول: (كفر دون كفر).

إن كثيراً ممن تكلموا في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله والتشريع العام، يستدلون ويدندنون كثيراً، على قول ابن جرير رحمه الله، وكلامه على آية المائدة، ويزعمون أن ابن جرير علق الحكم على الجحود القلبي فقط، وعليه فكفر الحاكم بغير ما أنزل الله تشريعاً عاماً، مقتصر فقط على عمل القلب، وهو الجحود في هذا المقام في فهمهم، فتراهم يولولون دائماً ويدندنون بقولهم (إلا إن جحد)، ويقصدون عمل القلب، والمعنى مهما

فعل في الظاهر فهو كفر دون كفر إلا إن جحد أي بقلبه، ثم يضيفون أمورا أخرى، فيقولون أو جوز أو استحل، أو ساوى أو فضل ونحو ذلك، وفي نهاية المطاف فكفر المشرع والمبدل لدين الله تعالى عندهم، لا يكون إلا بعمل قلبي، وإلا فالتشريع من دون الله تعالى، والتبديل لأحكام الله تعالى عندهم، لا يعدو أن يكون كفرا أصغر، عياذا بالله من الخلان وسوء الفهم لحقائق الشرع، وهؤلاء في حقيقة الأمر، لم يفهموا كلام ابن جرير رحمه الله تعالى، بل ولا حتى السمعاني، بل ولا حتى كلام ابن عباس ؓ الثابت عنه في هذه الآية، وما الذي فهمه ابن جرير من كلام ابن عباس، حتى ظنوا أن كلام ابن جرير يوافق بدعتهم، ويصب في مصب هواهم، وهذا باطل قطعاً، ولا علاقة له بالحق.

وإليك بيان حقيقة قول الإمام ابن جرير في قضية الجحود، التي دندنوا عليها كثيراً، وأوهموا السامعين بأن مراد ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى من الجحود، أنه يقصد الجحود القلبي، وهذا الكلام ليس بصحيح أصلاً، وبيان كلام ابن جرير - أظن والله أعلم - أنه سينهدم حظ كبير من الإجحاف الجاري في الساحة، وينكشف ذلك الخطأ الكبير، الذي بنى عليه هؤلاء هذه العقيدة الفاسدة، فيما يتعلق بهذه المسألة الخطيرة، أعني قضية التشريع العام؛ ولهذا سأذكر ذلك بشيء من التفصيل والبيان، فأقول مستعينا بالله العلي العظيم:

إن ابن جرير رحمه الله لم يتقل - في أثناء كلامه على آية المائدة: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} - ولم يذكر لا عنه ولا عن أحد من الصحابة مسألة القلب

مطلقاً، أو بعبارة أخرى لم يذكر فيها الاعتقاد مطلقاً، ولم ينقل هذا لا عن الصحابة ولا عن أحد من التابعين، وهذا تراه واضحاً جلياً، فلا تجد فيما نقله عن الصحابة ولا التابعين ذكراً للاعتقاد أبداً.

إن هذه المسألة لا بد أن تكون حاضرة في الذهن تماماً، وهي أن ابن جرير لم يلتفت أثناء بيان حكم هؤلاء المبدلين لشرع الله إلى عمل الباطن مطلقاً، وإنما عول وأبدى وأعاد على ما فعله أهل الكتاب بظاهر حالهم.

ولنبداً بكلام ابن جرير رحمه الله كما هو في تفسيره الذي يعتبر عمدة من عمد التفسير عند أهل السنة والجماعة، بل أطلق عليه اسم (إمام المفسرين).

[قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إنا أنزلنا التوراة فيها بيان ما سألك هؤلاء اليهود عنه من حكم الزانيين المحصنين {ونور} يقول: فيها جلاء ما أظلم عليهم وضياء ما التبس من الحكم {يحكم بها النبيون الذين أسلموا} يقول: يحكم بحكم التوراة في ذلك أي: فيما احتكموا إلى النبي ﷺ فيه من أمر الزانيين {النبيون الذين أسلموا} وهم الذين أذعنوا لحكم الله وأقروا به، وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك نبينا محمداً ﷺ في حكمه على الزانيين المحصنين من اليهود بالرجم وفي تسويته بين دم قتلى النضير وقريظة في القصاص والدية ومن قبل محمد من الأنبياء يحكم بما فيها من حكم الله..... إلى أن قال: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده فأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتجبية والتحميم وكتمانهم الرجم وكقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية وفي الأشراف بالقصاص وفي الأدنياء بالدية

وقد سوى الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة {فأولئك هم الكافرون} يقول : هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه ولكن بدلوا وغيروا حكمه وكنتموا الحق الذي أنزله في كتابه و {هم الكافرون} يقول:هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه، وقد اختلف أهل التأويل في تأويل الكفر في هذا الموضع:.....[١.أ.هـ.].

وهنا سؤالان كبيران مُلِحَّانِ يَحِبُّ الإِجَابَةُ عليهما في سياق هذه القصة وكلام ابن جرير عليها:

الأول: ما الذي أظهره هؤلاء؟. أليس هو تبديل الشرع، والحكم بغير ما أنزل الله، وتأمل عبارة ابن جرير: [هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه ولكن بدلوا وغيروا حكمه وكنتموا الحق الذي أنزله في كتابه و {هم الكافرون} يقول: هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه].

الثاني: ما الذي في قلوبهم؟، أليس هو الاستيقان بمعرفتهم الحق، ثم تعمدهم كتمانهم، والعمل على تبديله، والحكم بالشرع المبدل، وتأمل في قول ابن جرير: [ومن كنتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكما بين عباده فأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتجبية والتحميم وكنتمهم الرجم وكقضائهم في بعض

قتلهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية وفي الأشراف بالقصاص وفي الأدنياء بالدية وقد سوى الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة {فأولئك هم الكافرون} [١].

وتأمل في هذا الحديث المخرج في الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما تجدون في التوراة في شأن الرجم". فقالوا نفصحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام كذبتهم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما قال عبد الله فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة.

فالحديث واضح جداً في أن هؤلاء، بل وجميع أهل الكتاب، كانوا يعلمون علم اليقين حكم الله في هذه المسألة، وقد أيقنت نفوسهم، أن هذا هو حكم الله تعالى في الزاني المحصن، فعمدوا إلى تبديله؛ فوقعوا في الشرك والكفر الأكبر، بما ظهر من فعلهم.

فكيف يحملون كلام ابن جرير إذاً على العمل الباطن، لاشك أن هذا من الفهم السقيم، والخطأ الواضح البين على كلام الأئمة.

فانتبه بالله عليك لتفهم كلام ابن جرير، على وجهه، فإنه يُفْتَحُ لك أموراً.

فابن جرير هنا يبين ويقرر أن الذي في قلوبهم، هو مخالف لما أظهره، فهم موقنون بصدق النبي ﷺ، وموقنون بأن هذا هو الشرع الصحيح، وموقنون بأن هذا هو حكم

الله تعالى في هذه المسألة، إذاً هذا هو ما يتعلق بالقلب، وعليه فابن جرير إذاً الآن يتكلم عن ما ظهر منهم من عمل، وعليه فإن ابن جرير هنا يحكم بالكفر على ماذا؟.

الجواب الذي لا محيد عنه، أنه قطعاً قد أطلق الحكم على ما ظهر من حالهم، فما أتوه هو عند ابن جرير من الكفر الأكبر في ذاته وأصله، إذاً هو يحكم بالكفر على ما ظهر منهم.

وإلا فهل يتصور أن نقول: إن ابن جرير يتكلم عن عمل الباطن؟!؛ وعليه فإنهم كفار؛ لأنهم أيقنوا بالحق أنه مع محمد ﷺ، وأنهم كفار؛ لأنهم أيقنوا أن الحكم في هذه المسألة، هو أن يرحم الزاني المحصن؟!!!.

هذا لا يقوله عالم بل لا يقوله مسلم أصلاً، لأن هذا من الشهادة على الإيمان بالكفر والعياذ بالله، ولكنه لازم قول من لم يفهم كلام ابن جرير، حيث حمّله على هواه ومراده، وأوهم أن ابن جرير يتكلم عن قلوبهم، لا على ما ظهر من حالهم؟!!!.

إذاً قطعاً ابن جرير رحمه الله تعالى هنا يحكم على ما ظهر من أفعال هؤلاء.

ثم قال: وقد اختلف أهل التأويل في تأويل الكفر في هذا الموضع فقال بعضهم بنحو ما قلنا في ذلك من أنه عني به اليهود الذين حرفوا كتاب الله وبدلوا حكمه ذكر من قال ذلك.....هـ.

إذاً هو يتكلم عن الفعل الذي فعله اليهود، وهذا هو الشيء الظاهر الذي جرى عليه الحكم في هذه الآية.

فهل تعرض ابن جرير للقلب هنا عند إطلاقه حكم الكفر على هؤلاء؟!، أم أن هذا لم يقع في كلام ابن جرير أصلاً؟!، بخلاف ما أوهمه هؤلاء، من أن المسألة متعلقة بالقلب، من جهة إطلاق الحكم عليهم.

كما أن ابن جرير لما نقل هذه الأقوال عن السلف، لم ينقل عن أحد منهم، تعليق الحكم على الاستحلال القلبي، ولم يذكر عن أحد منهم، أن هذا هو اعتقاد القوم، ونحو ذلك، فتنبه وتفطن لهذا المسألة، فقد زلت فيها أقدام.

ولنتقل الآن إلى ما ذكره ابن جرير في مؤخر كلامه، والذي هو موافق تماماً لما ذكره في أول كلامه.

[قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت وهم المعنيون بها وهذه الآيات سياق الخبر عنهم فكونها خبراً عنهم أولى فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذكره قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصاً؟ قيل: إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي].^١هـ.

والآن تأمل في قوله: [فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذكره قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصاً؟]. تجد أن هذه هي نفس الشبهة التي وقع فيها كثير من الناس، وهي قضية التفصيل في مسألة الحكم، متى تكون كفراً أكبر ومتى تكون دون ذلك.

قال رحمه الله: [إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر].

فابن جرير يقرر أن الله سبحانه وتعالى، حكم على هؤلاء بالكفر؛ لأنهم كانوا جاحدين لحكم الله تبارك وتعالى، وقد علمنا يقيناً من حادثة التَّحْوِيم المشهورة المذكورة آنفاً، أن هؤلاء القوم كانوا يعلمون حكم الله، إذاً المعرفة والعلم موجود في القلب، وهم مصدقون بذلك، وموقنون بأن هذا هو حكم الله تبارك وتعالى، ومع وجود هذا كله؛ حكم الله عليهم بالكفر، والكفر هنا بالاتفاق في حق هؤلاء اليهود والنصارى، هو الكفر الأكبر.

وعليه فابن جرير رحمه الله يبين أن الآيات تتكلم عن كفر هؤلاء بما فعلوه وما عملوا به في ظاهر حالهم.

معنى الجحود في الكتاب والسنة:

والآن ننتقل إلى مسألة مهمة جداً متعلقة بهذه القضية، وهي قضية معنى الجحود في الكتاب والسنة واللغة، لكي نقرر المسألة في أصلها عموماً.

فنقول: هذه الكلمة وردت بمشتقاتها ثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم، وأنت إذا تأملت فيها؛ وجدت أنها متعلقة بأعمال الظاهر، كقوله تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣]، ففي هذه الآية شهادة من الله على أن القلوب غير مكذبة إذاً في القلب تصديق، وأما الجحود فقد وقع بظاهر فعلهم.

وكقوله تعالى: {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هَوًى وَلَعِباً وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَسَاءُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [الأعراف: ٥١]، فسمى اتخاذهم الدين هواً ولعباً واغترارهم بالحياة الدنيا جحوداً وهذا عمل ظاهري، وكذلك في قوله تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [النحل: ٧١]، فهؤلاء يعرفون أن هذه النعم من الله، ولكنهم ينسبونها إلى غير الله تعالى، ويشكرون غير الله تعالى، وهذا هو الجحود، وهو هنا أيضاً معاملة ظاهرية؛ ولهذا قال تعالى بعد أن عد سبحانه وتعالى جملة من آياته ونعمه، قال سبحانه: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ} [النحل: ٨٣].

ومن أظهر النصوص في هذا المقام قوله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل: ١٤]، فلاحظ كيف أن القلب

مستيقن، ولم يقل (وأيقنتها أنفسهم) بل زاد حرف السين فقال سبحانه: {وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}، وزيادة المبنى تفيد زيادة في المعنى، ومع ذلك سهاهم جاحدين، وذلك لأن الجحود من متعلقات الظاهر، هذا هو الأصل.

فهذه الآيات وغيرها كثير كلها، دالة على أن هؤلاء يعرفون الحق، ويعرفون آيات الله، لكنهم ماذا يفعلون؟ يردونها ويعرضون عنها، ويستكبرون عن الانقياد لها، فمعرفة الحق حاصلة في القلب، ولكنهم يعمدون إلى جحوده في ظاهر حالهم، ومن هنا نعلم يقينا أن الجحود، الأصل فيه أنه عمل ظاهري، ولا يقال قلبي إلا بقرينة.

ولنذكر الآن حديثين للتمثيل لا للحصر، إشارة إلى غيرهما من الأحاديث المتعلقة بذلك، الدالة على أن الجحود الأصل فيه أعمال الظاهر لا الباطن: فمن ذلك حديث عبد الله بن مسعود في الصحيحين واللفظ للبخاري قال: قال رسول الله ﷺ: "من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان". قال فقال الأشعث في والله كان ذلك كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدي فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: "ألك بينة". قلت لا قال فقال لليهودي: "احلف". قال قلت: يا رسول الله إذا يحلف ويذهب بمالي فأنزل الله تعالى {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا} إلى آخر الآية.

مثال آخر في صحيح مسلم من حديث عائشة قالت كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها..... الحديث.

فهذان الخبران دالان وبكل جلاء ووضوح، على أن الجحود هنا، عمل وقع في الظاهر لا في الباطن؛ لأن كلا من اليهودي والمخزومية، كلاهما، يعلمان يقينا بقلوبهم، أن ما ادعوه لأنفسهم، ليس حقاً لهم، لكنهما جحدوه في ظاهر حالهم، مع علمهم أن الأمر بخلاف ذلك حقيقة.

الجحود لغة: والآن فلنقرأ بعض ما قاله علماء اللغة في معنى الجحود:

جاء في كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: [جحد: الجُحود: ضدُّ الإقرار كالإنكار والمعرفة]. وقال أيضاً: [والكُفْرُ أربعةٌ أنحاء: كُفْرُ الجُحود مع معرفة القلب كقوله عز وجل: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} ، وكُفْرُ المعاندة: وهو أن يَعْرِفَ بقلبه ويأبى بلسانه، وكُفْرُ النفاق: وهو أن يؤمن بلسانه والقلبُ كافر، وكُفْرُ الإنكار: وهو كُفْرُ القلبِ واللسان] ١٠١هـ.

وجاء في لسان العرب (جزء ٣ - صفحة ١٠٦): [الجُحْدُ والجُحُود نقيض الإقرار كالإنكار والمعرفة جَحَدَهُ يَجْحَدُهُ جَحْداً وَجُحوداً الجوهرى الجُحُودُ الإنكار مع العلم جَحَدَهُ حَقَّه وَبَحَقَهُ] ١٠١هـ.

وفيه أيضاً: (جزء ٥ - صفحة ١٤٤): [(كفر) الكُفْرُ نقيض الإيمان آمناً بالله وكَفَرْنَا بالطاغوت كَفَرَ يَكْفُرُ كُفْراً وَكُفُوراً وَكُفْراً يُقَالُ لِأَهْلِ دَارِ الْحَرْبِ قَدْ كَفَرُوا أَيْ عَصَوْا وَامْتَنَعُوا وَالْكَفْرُ كُفْرُ النعمة وهو نقيض الشكر والكُفْرُ جُحود النعمة وهو ضدُّ الشكر وقوله تعالى: {إِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ} أي جاحدون وكَفَر نَعَمَةً اللَّهُ يَكْفُرُهَا كُفُوراً وَكُفْراً وَكَفَرَهَا جَحَدَهَا وَسَتَرَهَا وَكَافَرَهُ حَقَّه جَحَدَهُ وَرَجُلٌ مُكْفَرٌ بِجُحُودِ النعمة مع إحسانه وَرَجُلٌ كَافِرٌ جَاحِدٌ لَا تُعْمِ اللَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ السَّتْرِ وَقِيلَ لِأَنَّهُ مُغَطًى عَلَى قَلْبِهِ] ١٠١هـ.

وربما فسر الإنكار بالجحود، كما في لسان العرب (جزء ٥ - صفحة ٢٣٢): [والإنكارُ الجحودُ] ١.هـ.

وجاء في تاج العروس (جزء ١ - صفحة ٣٤٥٩): [قال بعض أهل العلم: الكُفْرُ على أربعة أنحاء: كُفْرُ إنكارٍ بأن لا يعرفَ الله أصلاً ولا يعترف به وكُفْرُ جُحودٍ وكُفْرُ مُعَانَدَةٍ وكُفْرُ نفاقٍ من لقيَ رَبَّهُ بشيءٍ من ذلك لم يَغْفِرْ له ويغْفِرْ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يَشَاءُ. فأما كُفْرُ الإنكارِ فهو أن يكْفُرَ بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يُذَكِّرُ له من التَّوْحِيدِ وأما كُفْرُ الجُحودِ فأن يعترف بقلبه ولا يُقَرِّرَ بلسانه فهذا كافرٌ جاحدٌ ككُفْرِ إبليسَ وكُفْرِ أُمِّيَّةِ بن أبي الصَّلْتِ. وأما كُفْرُ المُعَانَدَةِ فهو أن يعرفَ الله بقلبه ويقرَّ بلسانه ولا يدين به حَسْداً وَبَغياً ككُفْرِ أَبِي جَهْلٍ وأضرابه. وفي التهذيب: يعترف بقلبه ويقرَّ بلسانه ويأبى أن يَقْبَلَ كأبي طالب حيث يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمَحاً بِذَاكَ مُبِينَا
وَأَمَّا كُفْرُ النِّفَاقِ فأن يُقَرِّرَ بلسانه ويكفر بقلبه ولا يعتقد بقلبه] ١.هـ.

وفيه أيضاً: [وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أَيِ تَحَرَّيْتَ كُفْرَانَ نِعْمَتِي. ولما كان الكُفْرانُ جُحودَ النِّعْمَةِ صارَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْجُحُودِ. {وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} أَيِ جَا حِدٍ وَسَا تِرٍ] ١.هـ.

وجاء في مختار الصحاح: [جحد: ج ح د: الجُحُودُ الإنكار مع العلم يقال جَحَدَهُ حَقُّهُ وجحدته بحقه وبابه قطع وخضع و الجَحْدُ قلة الخير] اهـ.

وجاء في كتاب التعاريف: [فصل الحاء: الجحد إنكار ما سبق له وجود وهو خلاف النفي إذ هو إنكار نفس وجود المدعي وقال الراغب الجحود نفي ما في القلب ثباته أو إثبات ما في القلب نفيه] اهـ.

فلاحظ أن الأصل في إطلاق لفظ الجحود في اللغة، أنه على ما يظهره الإنسان مخالفا لما يبطنه، فجعل الجحود من أعمال القلوب، وإيهام الناس بأنه هو الأصل، هو منكر من القول وزور وبهتان، وهو قول مخالف للكتاب والسنة ولغة العرب.

من هذه المقدمة يتبين لنا، معنى كلام ابن جرير رحمه الله تعالى، فلنرجع لنقرأ كلام ابن جرير على هذا الفهم الصحيح، بأن الجحود الذي ظهر من هؤلاء، ليس عملاً قلبياً، كما يزعم هؤلاء، وإنما هو إطلاق حكم، وقع على ما ظهر منهم من عمل؛ فجاء الحكم بالكفر بناءً على هذا العمل، الذي في الظاهر، وهكذا جاء الحكم من الله عز وجل على هؤلاء.

إذاً ابن جرير رحمه الله تعالى، لم يربط أبداً كفر هؤلاء بالقلب مطلقاً، فزعم المرجئة ومن اغتر بهم من أهل السنة، أن ابن جرير كفر هؤلاء بالجحود القلبى، هو باطل قطعاً، وسوء فهم يبيّن لكلام ابن جرير، ولتعامل السلف مع هذه الكلمة، وهذه المسألة.

المعنى الصحيح لكلام السمعاني:

وكذلك القول بالنسبة لكلام الإمام السمعاني كما سيأتي. وهذا حقيقة من العجب الذي وقعوا فيه، وأعجب منه فهمهم لكلام ابن جرير عندما قال: [يقول إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا يحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر كما قال ابن عباس قال لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه بأنه أنزله في كتابه نظير جحوده لنبوة نبيه بعد علمه أنه نبي]...هـ..

فانظر في هذه الفقرة الأخيرة التي لو تنبهوا لها لزال الإشكال!!، وذلك في قوله: (بعد علمه)، إذاً العلم القلبي موجود، واليقين بالحكم حاصل في القلب، وإنما وقعوا في الجحود، الذي هو ما فعلوه في ظاهر حالهم، المتمثل في رد حكم الله تعالى، وتبديله، والتواطؤ على الحكم بما اصطَلَحُوا عليه، وحمل الناس عليه. وهذا عين ما يفعله طواغيت التشريعات الجاهلية، في كل زمان ومكان إلى زماننا هذا، بل هو اليوم أشد وضوحاً وأظهر حالاً.

فالذي يهمني من هذا التقرير هنا، أن يتراجع هؤلاء، عن نسبة هذا القول لابن جرير، وعن زعمهم أنه يكفر في هذا المقام بالجحد القلبي، إذ هو لم يزل من أول كلامه إلى آخره، يثبت أن هؤلاء بقلوبهم كانوا مؤمنين^١، يعلمون

١ - كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦].

الحق، وهم مستيقنون به، ولكن وقع الجحد منهم في الظاهر؛ فكفروا بهذا الظاهر.

فهو لم يعلق الحكم على القلب مطلقاً، لكن هؤلاء لما لم يفهموا من الجحود إلا أن يكون عملاً قلبياً؛ جعلوه قولاً لابن جرير، وبنوا عليه قولهم، وأسسوا عليه عقيدة فاسدة، وهذه إشكالية من يعتقد ثم يبحث ويستدل.

وأقول: ربما ورد الجحود في إطلاقات بعض أهل العلم، على أنه من عمل القلب، ولكن هذا المعنى ليس هو الأصل، ولا الغالب في استعمال الجحود، كما ذكرنا في النصوص المتقدمة، وهو كذلك لا محل له في كلام ابن جرير الطبري، ولا كلام السمعاني، وهذا هو الذي يهمننا في هذا المقام، كما سيأتي معنا بإذن الله جل وعلا.

الفهم الصحيح لكلام ابن جرير:

والآن ننتقل إلى كلام مهم وخطير، وهو الفهم الصحيح لما نقله ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، فالمؤلف نقل عنه قولين وليس منهما قول (كفر دون كفر)، إنه فلم ينقله عن ابن عباس أبداً في هذا الموضع، وإليك بيان ذلك:

القول الأول: [حدثنا هناد قال حدثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن سفيان عن معمر بن راشد عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال: هي به كفر وليس كفرا بالله وملائكته وكتبه ورسله.

حدثني الحسن قال حدثنا أبو أسامة عن سفيان عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: قال رجل لابن عباس في هذه الآيات: {ومن لم يحكم بما أنزل الله} فمن فعل هذا فقد كفر؟ قال ابن عباس: إذا فعل ذلك فهو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وبكذا وكذا.

حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال هي به كفر [أ.هـ].

وأما القول الثاني، فهو قوله: [حدثني المثنى قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق] [أ.هـ].

قوله: [ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق]، معناه أن الشرع هو السائد، وله الهيمنة، وإليه الاحتكام عند التنازع، هذا هو معنى الإقرار، كما سيأتي معنًا في بيان معنى الإقرار من كلام الأئمة، وعليه فالمراد هنا قضية الترك العارض، مع استقرار الشرع،

وهذا ما بينته مرارا وتكرارا في كتابي (فتنة العصر التشريعي)، ولهذا قلت كثيرا: إن ابن عباس ؓ قوله لا يخالف قول غيره من الصحابة ؓ، في مسألة الحكم عندما يكون تشريعا عاما، بل كلامهم متسق متناسق يصب في مصب واحد، إذ هو من مشكاة واحدة.

وأما طريق هشام بن حجير، التي نقل فيها هشام قول (كفر دون كفر)، فلم يذكرها ابن جرير، وهي على كل حال ضعيفة، لضعف هشام بن حجير عند الجمهور، كما تقدم؛ وعليه فاللفظ المحفوظ عن ابن عباس قوله: [هي به كفر.....] و [من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق].

وهذا القول الأخير هو الذي اعتمده ابن جرير، وهو الموافق لما كان عليه أهل الكتاب، من تبديلهم للشرع، والمعنى أن من بدل الشرع وجعله تشريعا عاما فقد وقع في الجحود، كما فعل أهل الكتاب، ومن أقر بالشرع أي أثبته والتزمه وعمله به، ثم لم يحكم بما أنزل الله - مع استقرار الشرع - لهوى فهذا ظالم فاسق.

وأما معنى (كفر دون الكفر)، الذي جاء عن بعض السلف، كطاووس وعطاء، فهو معنى كلام أبي مجلز الذي سيأتي بيانه، وأن المقصود من ذلك، أن يكون الشرع مستقرا معمولا به، وله الهيمنة والسلطان على الدولة، ثم تقع حيدة من الحاكم، اتباعا لهواه، وهذا هو الترك العارض، الذي بينه أبو مجلز كما سيأتي، فهذا الذي يقال فيه كفر دون كفر، وأما التشريع العام، فهو بالإجماع من الشرك والكفر الأكبر.

وقد نقلت في كتابي (فتنة العصر التشريع) جمعا غفيرا هائلا من المنقولات، مفصلة ومبينة هذه المسألة، وتقرير الإجماع على كفر، صاحب التشريع العام، وأنه لا خلاف في ذلك البتة، فليراجع في الكتاب.

لا تعارض في كلام السلف في تفسير آية المائدة:

وبهذا نعلم أنه ليس هناك تعارض في كلام السلف، بين من فسر الآية بالكفر الأكبر، ومن قال إنها تكون في الكفر دون كفر، أي بحسب الحال والواقع.

فأعود لأقول: إذاً معنى الجحود في كلام ابن جرير، قد بات واضحاً، أنه إنما يتكلم عما وقع من أهل الكتاب، من التبديل لشرع الله عز وجل، وما تواطؤوا عليه من ذلك، وتأمل قوله: [فأولئك هم الكافرون] يقول: هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه ولكن بدلوا وغيروا حكمه وكتموا الحق الذي أنزله في كتابه و{هم الكافرون} يقول: هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه].

فهم إذاً ستروا الحق، الذي كانوا يعلمونه، وهم موقنون به، وأن الذي في التوراة، هو غير الذي يطبقونه، ويعملون به، فلم يُغْنِ عنهم ذلك العلم، ولا ذلك اليقين شيئاً، لما بدلوا شرع الله، بل صاروا بذلك كفاراً، مارقين عن الدين؛ ولهذا قال ابن جرير: [وأظهروا لهم غيره، وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه]، فالتبديل والحكم بغير شرع الله جل وعلا، كله من الفعل الظاهر، فوقع الحكم على ما ظهر، ولم يُغْنِ

عنهم ما في قلوبهم، وهذا كقوله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

والسحت الذي ذكره ابن جرير هنا، يفسر لنا معنى ما جاء عن ابن مسعود **t**، في معنى الرشوة في الحكم، وأنه ما يؤخذ في مقابلة تبديل الشرائع، وهناك تكون الرشوة في الحكم كفرا أكبر، وهذا الذي وقع فيه بنو إسرائيل، فصاروا بذلك كفارا مشركين، الكفر والشرك الأكبر، وهذا المعنى كنت قد بينته في الكتاب (فتنة العصر التشريع)، فأعرض عنه المخالفون؛ لشدة جَوْرِهِم، واتباعهم للهوى، نعوذ بالله من الخذلان.

آية براءة في المبدلين للشرائع:

تنبيه: إن آية براءة في قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]، نزلت في أهل الكتاب الذين كانوا يبدلون الشرائع، فهذه الربوبية، هي ربوبية تشريع وتقنين من دون الله رب العالمين، وهو معنى ما جاء في حديث عدي **t**، وهو وإن كان فيه ضعف، إلا أن المفسرين من السلف، مجمعون على أن ما ورد فيه، هو معنى آية براءة.

وإليك أحد روايات هذا الخبر عن عدي بن حاتم **t** قال: أتيت النبي **r** وفي عنقي صليب من ذهب فقال: "يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك" فطرحته فانتهيت إليه، وهو يقرأ سورة براءة، فقرأ هذه الآية: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ}

حتى فرغ منها، فقلت: إنا لسنا نعبدكم، فقال: "أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟" قلت: بلى، قال: "فتلك عبادتهم".

وكذلك في ما أخرجه مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب قال مرَّ على النبيِّ **e** يَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فدعاهم **e** فقال: "هَكَذَا تَحْدُون حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ:، قَالُوا نَعَمْ. فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: "أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى أَهَكَذَا تَحْدُون حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ". قَالَ: لَا وَلَوْ لَا أَنَّكَ نَسَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ نَجْدُهُ الرَّجْمَ وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرْكَنَاهُ وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقْمَنَّا عَلَيْهِ الْحَدَّ قُلْنَا تَعَالَوْا فَلَنَجْتَمِعَ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجُلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **e**: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ". فَأَمَرَ بِهِ فَرَجِمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}، إِلَى قَوْلِهِ: {إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ}، يَقُولُ اثْنَا مُحَمَّدًا **e** فَإِنْ أَمَرَكُم بِالتَّحْمِيمِ وَالْجُلْدِ فَخُذُوهُ وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، فِي الْكُفْرِ كُلِّهَا.

ومثله قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

فهذا هو التشريع الشرعي، الذي يورث صاحبه لَظَى، خالدا فيها أبدا، وإن صلي وصام وزعم أنه مسلم

تنبيه مهم

فصل: في تفنيد شبهة واهية متهاكمة، إذ زعموا أنه لا كفر إلا إذا نسب إلى الله:

قال المبطلون: إن المبدل لا يكفر حتى ينسب حكمه إلى الشرع، واحتجوا بسبب نزول آية المائدة، الوارد في حديث البراء وغيره في مسلم. والرد عليهم من وجوه:

- ١- أن نقول، إذن يلزم من هذا أن أهل الكتاب كانوا بتبديلهم شرع الله وتواطئهم عليه في قضية الرجم والتحميم لم يقعوا في الكفر بالله تعالى، وهذا قول باطل قطعاً فإن الصحابة متفقون في تفسيرهم للآية أنها في حق أهل الكتاب هي من الكفر الأكبر، ولا يقيدون ذلك بنسبته لله تعالى، فسواء نسبوا أو لم ينسبوا، فإنهم بما فعلوه كفار.
- ٢- أن الله تعالى حكم عليهم بأنهم يسارعون في الكفر قبل أن يأتوا نبيه ﷺ: {يَقُولُونَ إِن أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا}. كما في حديث البراء **t** وقد تقدم قريباً.

- ٣- أن تعليقكم كفرهم على نسبة حكمهم لله تعالى، باطل قطعاً؛ لأنهم قد رجعوا عن ذلك بين يدي النبي ﷺ، أم أنكم ستحكمون بإيمانهم بهذا التراجع، وهذا نص تراجعهم: [فدعاهم ﷺ فقال: "هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم" قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: "أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد

الزاني في كتابكم" قال: لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك نجده الرجم.... الحديث، وقد تقدم قريبا.

٤- أنهم ومع هذا التراجع الواضح البين نزلت الآيات بتكفيرهم، فما هو الأمر إذا الذي تبقى مما فعلوه وتعاطوه بعد تراجعهم، وأكفرهم الله تعالى به؟، قطعاً وجزماً لم يبق سوى تبديلهم لحكم الله تعالى، واجتماعهم عليه تشريعاً عاماً فيهم.

وتأمل بارك الله فيك، سياق هذه الآية من سورة المائدة، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة: ٤١].

فالمسارعون في الكفر هاهنا فريقان، أما الأول فهم الذين يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان، كما وصفه الله تعالى: { آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ }، أما الفريق الثاني فهم الذين، يتلاعبون بشرع الله تعالى، تحليلاً وتحريماً، بأهوائهم، ويتواطئون على ذلك، وينزلونه تشريعاً عاماً، وكل واحدة من هذه الأمور كفر أكبر مستقل، وهذا تسارعهم في الكفر، وتجاريتهم فيه، عياذا بالله من الخذلان.

وتذكر أن حكم الله تعالى محفوظ عندهم، مخطوط منصوب عليه في كتابهم، لم يزيلوه، ولم يمسخوه ويكشطوه، فحكم الله تعالى في كتابه موجود، ولكنهم لما تركوه

وأما توه، تعطيلًا وتبديلاً، نعتهم الله تعالى بأنهم، يسارعون في الكفر، {قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا}.

وتذكر أن هذه الأمة أشبه الأمم بأهل الكتاب كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ **t** ، أَنَّ النَّبِيَّ **e** قَالَ: "لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ".

وقد بَيَّنَّ الصحابة رضي الله عنهم، أن هذه الأمة سيقع فيها عَيْنُ ما وقع فيه بنو إسرائيل، كما في تفسير ابن جرير وابن أبي حاتم والثوري وعبد الرزاق الصنعاني واللفظ له من طريق الثوري عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ حَذِيفَةَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، {فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، قَالَ: فَقِيلَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: (نَعَمْ الْإِخْوَةُ لَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِنْ كَانَتْ هُمْ كُلُّ مَرَّةٍ، وَلَكُمْ كُلُّ حُلُوةٍ، كَلَّا وَاللَّهِ لَتَسْلُكَنَّ طَرِيقَهُمْ قَدَّ الشَّرَّاءِ). قلت: وسنده صحيح.

وفي: (السنة) للمروزي: حَدَّثَنَا بُنْدَارٌ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ حَدَّثَنَا سَفْيَانٌ عَنْ أَبِي قَيْسٍ عَنْ الْهَزِيلِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: (إِنْ أَشَبَّهَ النَّاسَ سَمْتًا وَهَيْئَةً بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْتُمْ تَتَّبِعُونَ آثَارَهُمْ حَذُو الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ لَا يَكُونُ فِيهِمْ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ فِيكُمْ مِثْلَهُ). قلت: إسناده لا بأس به، وأبو قيس هو عبد الرحمن بن ثروان، أبو قيس الأودي الكوفي، صدوق في حديثه لين،

ولكنه وافق الثقات، ولم يأت بما ينكر عليه هنا. والهزيل هنا هو: هزيل بن شرحبيل الأودي الكوفي الأعمى، ثقة ثبت.

وفي: (السنة) للمروزي أيضا: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ أَنْبَأَ جَرِيرٌ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ هَمَامِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حَذِيفَةَ، فَذَكَرُوا: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّمَا هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ حَذِيفَةُ: (نَعَمْ) الْأَخُوَّةُ لَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، إِنْ كَانَ لَكُمْ الْخُلُوعُ وَلَهُمُ الْمَرْءُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى تَحْذِيَ السُّنَّةَ بِالسُّنَّةِ، حَذَوِ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ). قلت: وسنده صحيح.

وهذا أحد كبار التابعين يبين ذلك وهو إبراهيم النخعي، كما جاء في تفسير ابن جرير وعبد الرزاق من طريق الثوري عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: [نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرُضِيَ لَهُنَّ الْأُمَّةُ بِهَا]. قلت: وسنده صحيح.

وكذلك عن الحسن البصري كما في تفسير الطبري: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ عَنْ عَوْفٍ عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} قَالَ: [نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ]. اهـ. قلت: وسنده صحيح.

فقد اتفق على ذلك الصحابة رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، وَعَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّ الْكُفْرَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ هُنَا، هُوَ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ الْأَكْبَرِ، وَأَنْ مَنْ وَقَعَ فِي

مِثْلِ مَا وَقَعُوا فِيهِ؛ كَفَرَ كُفْرِهِمْ، فَلَا فَرْقَ، وَقَدْ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} [القمر: ٤٣].

فصل: لماذا أورد ابن جرير كلام أبي مجلز في قسم الكفر الأكبر؟.

فائدة: قد أشكل على البعض، سبب إيراد ابن جرير لكلام أبي مجلز في القسم الذي قال فيه: [فقال بعضهم بنحو ما قلنا في ذلك من أنه عني به اليهود الذين حرفوا كتاب الله وبدلوا حكمه، ذكر من قال ذلك] ١.هـ.

والجواب على ذلك، أن أبا مجلز، يُقَرِّهُ هَؤُلَاءِ الْإِبَاضِيَّةَ، عَلَى أَنْ مَنْ جَعَلَ الْحُكْمَ لغير كتاب الله تعالى - دساتير، أو قوانين، أو سُلوْم قَبَلِيَّةٍ أو عشائرية ونحو ذلك، عنها يصدر الناس، وإليها يفتدون عند اختلافهم، وإليها يردون ما تنازعوا فيه -، أن هذا من الكفر والشرك الأكبر، ولكن أبا مجلز رحمه الله، أخذ يبين لهؤلاء، أن هذا لم يقع من هؤلاء الخلفاء، فليس عندهم تشريع عام، يسوسون به البلاد سوى كتاب الله وسنة رسوله **ﷺ**، وأن ما يقع من تجاوزات إنما هي تصرفات فردية لبعض الأمراء، لا حكماً مستقراً، وتشريعاً عاماً ضربه هؤلاء على رقاب العباد والبلاد، وإنما هي قضايا أعيان تركوا فيها حكم الله واتبعوا أهوائهم، وهذا هو الترك العارض، الذي قال فيه الجمهور: إنه كفر دون كفر.

والآن فلنرجع إلى كلام ابن جرير، عندما قال في اختياره في تفسيره، مما جاء في تفسير الكفر في آية الحكم في سورة المائدة: قال ابن جرير: [إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن

قوم كانوا يحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر كما قال ابن عباس لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي [١.هـ].

قوله: [على سبيل ما تركوه كافرون، وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به، هو بالله كافر]، والمعنى: من فعل مثل ما فعلوه؛ كفر ككفرهم، وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به، هو بالله كافر ككفرهم، ولما كان كفرهم بالإجماع، هو من الكفر الأكبر؛ كان من فعل مثلهم كافراً الكفر الأكبر، وقد تبين أن كفرهم كان بما فعلوه من التبديل للشرع والاستعاضة بالحكم بغير بما أنزل الله تشريعاً عاماً.

ثم تأمل أن ابن جرير بعد ما قال: كما قال ابن عباس، قال: [لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي]، فتأمل فيما نسبته ابن جرير إلى ابن عباس ، لتعلم يقيناً أن قول ابن عباس الذي اختاره ابن جرير، هو أنه في الكفر الأكبر، لا كما توهم كثير من الناس أنه (كفر دون كفر)، فابن جرير، يحكي كفر أهل الكتاب، والذي هو بالإجماع من الكفر والشرك الأكبر، ثم يقول: [كما قال ابن عباس]، ومما يؤكد ذلك قوله بعدها: [لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه، نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي] فتأمل كيف قابل بين جحود هؤلاء وجحود النبوة، وهذا يؤكد ما تقدم تقريره، من معنى الجحود في كلام ابن جرير، كما

أنه بين هنا أن المبدل للشرع، والمشرع من دون الله تعالى، فعله نظير من جحد نبوة نبيه **e** بعد علمه أنه نبي، وتأمل أنه رحمه الله تعالى، يثبت علم هؤلاء، فهم يعلمون حكم الله، وهم موقنون به، ولكنهم بدلوه، وشرعوا بأهوائهم؛ فصاروا إلى الكفر والشرك الأكبر.

والمعنى أن من ترك الحكم بالكتاب واستعاض عنه بالتشريعات الجاهلية؛ فما هو بمؤمن بالكتاب، بل هو جاحد له كافر بالله تعالى، كما أن من لم يتحاكم إلى الرسول **٢**، ويجعله **٢** فاضاً للنزاعات وما يشجر بين الناس، حاكماً فيهم بشرع الله تعالى؛ هو جاحد لنبوة النبي **٢** ورسالته.

إذ لا يغني عن العبد شيئاً، أن يدعي الإيمان بالكتاب وبالرسول، وهو مبدل لكلام الله، واضع لشرع غير شرع رسول الله، محكما له.

أم أن هناك من سيأتي ليقول لنا: إن جحود نبوة نبينا **e** هو من قبيل الكفر دون كفر؟!!! عياذاً بالله من الكفر والتخبط والضلال والخذلان.

ابن بطة يبين معنى الجحود ويذم المرجئة:

وإليك هذا النقل النفيس في معنى الجحود، من كلام الإمام ابن بطة الكُعبري في كتابه: (الإبانة الكبرى): [فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَأَحْكَامِهِ وَفَرَائِضِهِ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ التَّارِكَ لَهَا وَالْمُتَنَاقِلَ عَنْهَا مُؤْمِنٌ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ، وَخَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ، وَنَبَدَ الْإِسْلَامَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَنَقَضَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ، قَالَ عَزَّ

وَجَلَّ: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١]. ثُمَّ قَالَ: {فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: ٨٢]، ثُمَّ قَالَ: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ} [آل عمران: ٨٣]، ثُمَّ قَالَ: {فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: ٨٢]. فَجَمَعَ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَمَنْ رَعَىٰ أَنَّهُ يَقَرُّ بِالْفَرَائِضِ وَلَا يُؤَدِّيَهَا وَيَعْلَمُهَا، وَبِتَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَنْزَجِرُ عَنْهَا وَلَا يَتْرُكُهَا، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مُؤْمِنٌ، فَقَدْ كَذَّبَ بِالْكِتَابِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ، وَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا: {آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ} [المائدة: ٤١]. فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ، وَسَمَّاهُمْ مُنَافِقِينَ، مَاوَاهُمُ الدَّرْكُ الْأَسْفَلُ مِنَ النَّارِ. عَلَىٰ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُرْجِيَّةِ، لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ جَحَدُوا الْعَمَلَ وَعَمِلُوهُ، وَالْمُرْجِيَّةُ أَقْرَأُوا بِالْعَمَلِ بِقَوْلِهِمْ وَجَحَدُوهُ بِتَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ، فَمَنْ جَحَدَ شَيْئًا، وَأَقَرَّ بِهِ بِلِسَانِهِ وَعَمَلَهُ بِبَدَنِهِ أَحْسَنُ حَالًا مِمَّنْ أَقَرَّ بِلِسَانِهِ وَأَبَىٰ أَنْ يَعْمَلَهُ بِبَدَنِهِ، فَالْمُرْجِيَّةُ جَاوِدُونَ لِمَا هُمْ بِهِ مُقَرَّرُونَ، وَمُكَذَّبُونَ بِمَا هُمْ بِهِ مُصَدِّقُونَ، فَهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَيُخْلِفُ لِمَنْ لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ دَلِيلَهُ، فَمَا أَضَلَّ سَبِيلَهُ، وَأَكْشَفَ بَالَهُ، وَأَسْوَأَ حَالَهُ [أ.هـ.].

ومن نفيس ما نقل من كلام الشيخ حافظ الحكمي - رحمه الله - من كتابه: أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة: [س: ما هو كفر الجحود؟].

جـ: هو ما كان بكتمان الحق، وعدم الانقياد له ظاهرا، مع العلم به ومعرفته باطنا، ككفر فرعون وقومه بموسى، وكفر اليهود بمحمد ﷺ، قال الله تعالى في كفر فرعون وقومه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}، وقال تعالى في اليهود: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}، وقال تعالى: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} ا.هـ.

فأصحاب الإرجاء ومن اغتر بقولهم، ما فهموا حقيقة قول ابن عباس ؓ، ولا فهموا كلام ابن جرير أصلاً، بل أخطئوا عليها، وبنوا على هذا الخطأ عقيدة، وتوهموها حقاً، ورموا مخالفهم بالعظائم؛ فضلوا وأضلوا، واغتر بهم خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى كثرة، فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهؤلاء يقرؤون كلام ابن جرير، ثم يحملونه على الجحود القلبي، ثم يزعمون أن ابن جرير اختار قول (كفر دون كفر)، وأنه نسبه إلى ابن عباس !! وهذا حقيقة مما لا ينتهي منه العجب !!.

فالإشكالية حقيقة في عدم التحقيق في المسائل، وعدم الرسوخ في العقيدة؛ ولهذا يضعون تصورا معينا للإيمان، ثم يريدون إثبات هذا التصور، بناءً على فهم خاطئ لكلام أهل العلم.

العودة إلى كلام السمعاني وإيضاحه:

والآن لننتقل إلى كلام السمعاني بعد أن فهمنا معنى الجحود على وجهه الصحيح:

جاء في تفسير السمعاني: [وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، قال البراء بن عازب، وهو قول الحسن: الآية في المشركين. قال ابن عباس: الآية في المسلمين، وأراد به كفر دون كفر، واعلم أن الخوارج يستدلون بهذه الآية، ويقولون: مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ قَالُوا: لَا يَكْفُرُ بِتَرْكِ الْحُكْمِ.

وللآية تأويلان: أحدهما معناه: وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ رَدًا وَجْهًا فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ. والثاني معناه: وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، وَالْكَافِرُ هُوَ الَّذِي يَتْرُكُ الْحُكْمَ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دُونَ الْمُسْلِمِ.

إذن السمعاني هنا يقرر أن الكافر، هو مَنْ اتَّصَفَ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

الأول: مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ رَدًا وَجْهًا؛ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ. والثاني: الَّذِي يَتْرُكُ الْحُكْمَ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دُونَ الْمُسْلِمِ.

وبهذا يتفق كلام السمعاني مع ابن جرير، وهذا ما لا خلاف فيه بين السلف، كما نقلت ذلك في كتابي في مواضع، أن السلف مجمعون على أن التشريع العام، هو من الشرك والكفر الأكبر.

فهذا الإمام السمعاني – الذي يحتج به هؤلاء دون وإدراك ولا فهم لحقيقة قوله – يقرر أن مَنْ رَدَّ وَجْهًا حَكَمَ اللَّهُ، أَنَّهُ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَهَذَا عَيْنُ مَا يَقَعُ مِنْ طَوَاغِيتِ التَّشْرِيعَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ الْيَوْمَ، حَيْثُ يَضَعُونَ دَسَاتِيرَ وَقَوَانِينٍ، يَحْكُمُونَ بِهَا الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ،

بل ويلزمون الناس بذلك، بل والويل كل الويل لمن سولت له نفسه، تجاوز تلك القوانين والدساتير الجاهلية.

وكذلك حَكَمَ السمعاني، على من ترك الشرع برمته، بالكفر كذلك، وهذا من تمام البيان، وإلا فالكل يعلم يقيناً، أن اليهود والنصارى لم يتركوا كل ما في كتبهم، وإنما وقع منهم الرد والجحود لبعض ما فيها؛ فكانوا بذلك كفاراً الكفر والشرك الأكبر، وكلام السمعاني هنا ورد أصالة، فيما وقع من أهل الكتاب، فيما ذكره الله تعالى عنهم هنا في آية المائدة.

ولاحظ أن السمعاني وابن جرير الطبري، لم يذكر أحد منهما الاعتقاد أصلاً، بل ذكرا الحكم على ما جرى من ظاهر حالهم، إذ هو مناط الحكم، وسبب التكفير أصالة.

وختاماً أقول: والمتأمل في كلام ابن جرير رحمه الله تعالى؛ يعلم يقيناً أنه لا يتكلم عن القلب، وإنما يتكلم عن عمل هؤلاء الذي صدر منهم، أي عن الظاهر، وقد تقدم ذكر كلامه في أول تقريره وآخره رحمه الله تعالى في آية المائدة، وتبين من هذا أن الذين يتعلقون بكلام ابن جرير الطبري، لم يفهموا مراده رحمه الله تعالى؛ ولهذا وقعوا في هذا المزلق الوخيم، حيث اشترطوا عمل القلب، في إطلاق الحكم على الأعمال الكفرية، ولمزيد من البيان في ذلك، نذكر بأن الأمة مجمعة على أن تحليل الحرام، وتحريم الحلال كفر أكبر بذاته، وهذا هو عين ما وقع فيه أهل الكتاب في قصة وسبب نزول آيات المائدة، فنزلت الآيات في بيان حكم الله تعالى على هذا الفعل الذي ظهر منهم، وبين ابن جرير رحمه الله تعالى أن هؤلاء الأقوام ما كانوا جاهلين بحكم الله عز وجل، بل هم

يعلمون ذلك، بل وحكموا به زمنًا، كما جاء في الأحاديث الصحيحة الصريحة، ثم بعد ذلك اتفقوا على تبديل شرع الله تعالى، إذاً الشرع عندهم كان معلوماً، وهو في غاية الوضوح، وإنما وقع الحكم على ظاهر حالهم. فالله المستعان.

الفرق بين الحكم العارض والتشريع العام، وقضية الترك العارض والتشريع العام:

فصل: في عدم تفريق المخالفين للحق بين الحكم العارض والتشريع العام، وقضية الترك العارض والتشريع العام.

ولبيان هذه المسألة سأنقل الكلام عليها من كتابي (فتنة العصر التشريعي) حيث قلت: [فالاختلاف الوارد عن السلف في تفسير هذه الآية، هو من اختلاف التنوع لا التضاد، وذلك بحسب حال الحاكم، فمن كان الشرع مستقراً عنده، ولشرع الله تعالى السيادة، والهيمنة على العباد والبلاد، وهو المُحَكَّمُ فيهم في جميع المُحَاكَمِ، وجميع الأحوال، في المعاملات، والسياسة، والاقتصاد، والحدود، والقضاء، وغير ذلك، ثم جَارَ هو في حكم ما؛ فترك تنزيل الحكم على شخص معين؛ كان بذلك عاصياً فاسقاً عند الجمهور، وهذا هو الكفر الأصغر المذكور في كلام السلف، فيجب أن نفرق بين من يخالف الشرع لهوى مع استقرار الشرع في دولته، والعمل به في سلطانه، وبين من يشرع للناس أحكاماً من عند نفسه، أو من غيره؛ ولهذا لما ناظر أبو مجلز بعض الخوارج من الإباضية في زمانه، احتج عليهم بهذه الحقيقة، أن الحكام الذين يزعمون كفرهم، يحكمون بالشرع، ويدعون إليه، وإنما يخالفونهم في خاصة أنفسهم، مع علمهم بأنهم مذنبون، ولا يجعلون ذلك شرعاً في الناس.

* * وإليك ما ذكره ابن جرير في تفسيره: (٣٤٧/١٠): [حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت عمران بن حدير قال: أتى أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس فقالوا: يا أبا مجلز أرأيت قول الله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} أحق هو؟ قال: نعم!، قالوا: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} [المائدة: ٤٥]، أحق هو؟ قال: نعم!، قال فقالوا: يا أبا مجلز فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون وإليه يدعون فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً! فقالوا: لا والله ولكنك تَفَرِّقُ!، قال: أنتم أولى بهذا مني!، لا أرى وإنكم أنتم ترون هذا ولا تحرجون، ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك أو نحو من هذا] ١.هـ.

فأما إذا شَرَعَ للعباد حكماً عاماً يخالف حكم الله تعالى، وجعله فيهم، هدياً وسنة وطريقة، في مقابلة حكم الله تعالى، الذي شرعه لعباده، ولو في مسألة واحدة؛ كان بذلك كافراً، الكفر والشرك الأكبر، وكذلك إن رأى أن الحكم بالشرع المبدل الطاغوتي جائز سائغ، أو رآه أفضل من شرع الله تعالى، أو قَدَّمَهُ على شرع الله تعالى، فكل ذلك من الكفر الناقل عن الملة] ١.هـ.

فهذا أبو مجلز رحمه الله تعالى يعبر بنفس التعبير حيث يقول: [فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً] ١.هـ.

فأبو مجلز هنا عبر بالترك العارض، مع استقرار الشريعة، وهذا الذي يقال فيه كفر دون كفر.

أثر ابن عباس (كفر دون كفر) لا علاقة له بواقعة المعاصر:

واعلم بارك الله فيك، أن أثر ابن عباس (كفر دون كفر)، على فرض صحته، وما جاء في معناه عن السلف، ليس المراد به واقعنا، الذي فيه الرد عند التنازع إلى غير شرع الله، فعلى التَّنَزُّلِ في ثبوت أثر ابن عباس، فليس المراد به قطعاً ما يجري في زماننا هذا، فإن الذي يجري في زماننا، هو من جنس ما جرى من جنكز خان، الذي أجمع العلماء على كفره، لما وضع يأسقَهُ على رقاب العباد والبلاد.

قال الشيخ المحدث أحمد شاكر رحمه الله تعالى في كتابه: عمدة التفسير (ص: ٦٨٤ - ٦٨٥): [ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء، لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه. ولذلك قال لهم في الخبر الأول: "فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً"، وقال لهم في الخبر الثاني: "إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب".]

وإذن، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ. فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله

سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه.

والذي نحن فيه اليوم، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل وأسباب انقضت، فسقطت الأحكام كلها بانقضائها. فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس!!.

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سنّ حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها. هذه واحدة. وأخرى: أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة. وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة. وإما أن يكون حكم به متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب، وسنة رسول الله ﷺ.

وأما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقاء في أمر جاحدا لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط. فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه. فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابها، وصرفها إلى غير معناها، رغبة في نصره سلطان، أو احتيالا

على تسوية الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله[١.هـ].

ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في رسالته تحكيم القوانين: [الذي قيل فيه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاده أنه عاص، وأن حكم الله هو الحق، فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها، وأما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضع فهو كفر، وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل[١.هـ].

قلت: فقول ابن عباس **t** هنا على فرض صحته عنه **t** كان في واقع معين، فهو في معرض الرد على الخوارج، الذين يكفرون بالذنوب التي لا تبلغ حد الكفر، أو الشرك، أو النفاق الأكبر، فأخبرهم أن الآية هنا لا تُحمل على الكفر الأكبر؛ لأن من نزلتموها عليه لم يأت كفراً أكبر، لأنه لم يُشرع، بل أتى معصية دون الكفر بالله تعالى، إذ لم يظهر في زمان ابن عباس، ولا أحد من الصحابة **y** مَنْ يُشرع للناس ديناً من عنده، أو من عند غير الله تعالى عموماً، ثم يضربه على رقاب العباد والبلاد.

فلما ظهر هذا الطاغوت فيما بعد، اتفق العلماء من أهل السنة والجماعة على كفره، الكفر الأكبر، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم. كما سيأتي في المنقولات

وأيضاً في التفريق بين التشريع والحكم قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (جزء ٣٥- صفحة ٣٧٦): [فالشرع الذي يجب على كل مسلم أن يتبعه ويجب على ولاة الأمر نصره والجهاد عليه هو الكتاب والسنة وأما حكم الحاكم فذاك يقال له قضاء القاضي ليس

هو الشرع الذي فرض الله على جميع الخلق طاعته بل القاضي العالم العادل يصيب تارة ويخطئ تارة [١.هـ].

والآن فلنذكر أمثلة من هذا الترك العارض، أفادها أحد الإخوة الفضلاء، فمن ذلك ما ذكره ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق: [وقال أبو الطيب أخبرني أحمد بن عبيد أخبرني الأصمعي عن ابن أبي طرفة قال قدم إلي عبد الملك لص فأمر بقطعه فصاح الرجل قال وأخبرنيه محمد بن يزيد قال كان يقال له حمزة وقدم إلى مروان فقال (ح) قال وأخبرنيه أبو سعيد الأزدي عن أبي محكم الشاعر قال هو طهمان بن عمرو وقدم إلى الوليد بن عبد الملك فقال:

يدي يا أمير المؤمنين أعيدها ... بحقوقك من غار عليها يشينها

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها ... إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فقال هذا حد من حدود الله ولا بد من إقامته، اقطع، فقامت إليه امرأة عجوز كبيرة، فقالت: يا أمير المؤمنين ولدي كادّي وكاسبي، قال: بئس الولد ولدك وبئس الكاد كادك وبئس الكاسب كاسبك، هذا حد من حدود الله لا بد من إقامته، قالت: يا أمير المؤمنين اجعله بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها، فعفا عنه وأمر بتخليته [١.هـ].

وجاء في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي: [وفي كتاب الأوائل للعسكري: كان ابن هرمة شديد الرغبة في الخمر فدخل على المنصور فأنشده:

له لحظات من خفا في سريرة ... إذا كرها فيها عقاب و نائل

فأم الذي أمنت آمنة الردى ... و أم الذي حاولت بالثكل ثاكل

فأعجب به المنصور، وقال: ما حاجتك؟، قال: تكتب إلى عاملك بالمدينة أن لا يحدني إذا وجدني سكران، فقال: لا أعطى حداً من حدود الله، قال: تحتال لي، فكتب إلى عامله: من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة، واجلد ابن هرمة ثمانين. فكان العون إذا مر به وهو سكران يقول: من يشتري مائة بثمانين؟، ويتركه ويمضي [١.١.هـ].

وأنبه هنا على مسألة مهمة وهي أن قضية ترك الحكم هو نوع من الحكم، أو ليس الترك عفو؟ وأليس العفو حكماً؟.

ولكنه لما لم يكن عاماً مستقراً، إليه فض النزاعات، ومنه منطلق الأحكام، كان عند الجمهور من الكفر الأصغر، بخلاف التشريع العام، فإنه من الشرك والكفر الأكبر، بلا خلاف ولا نزاع بين السلف.

وأذكر وأنبه على أن العلماء لو كانوا يرون أن الحكم والتشريع شيء واحد لأعادوا نفس التفصيل الوارد في آية المائدة في المواضع الأخرى المتعلقة بالتشريع العام، ولأعاد مثلاً ابن جرير نفس هذه الأقوال عند الكلام على آيات التشريع. ولكنه ما ذكرها مطلقاً، بل ولا أحال عليها، بل ما نقل هذه الأقوال إلا في آية الحكم لأن الآية تحتل كل هذه الأقوال؛ ولهذا أنا أقول للإخوة أنتم إذا أردتم أن تكونوا علميين وعمليين كذلك، هاتوا لنا تفصيلاً لأهل العلم من السلف في آيات التشريع، يعني لو قلنا على أدنى المستويات مثلاً إن آية المائدة متشابهة مشكلة - مع أنها ليست كذلك ولكن

تنزلاً-، فهاتوا لنا تفصيلاً في التشريع العام؛ لنرد المشكل والمتشابه إلى المحكم؛ فيزول الإشكال، ولكن أنى لهم ذلك فدونه خرط القتاد.

فنحن الآن نتكلم عن التشريع العام، وهناك آيات في التشريع العام كقوله تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً}، فهل هؤلاء الأرباب حكمهم أنهم كفار، كفر أكبر أم أصغر؟، الجواب هو أنهم كفار الكفر والشرك الأكبر بلا خلاف.

وكقوله تعالى: {وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون} فهؤلاء المطاعون، أي هؤلاء الذين وضعوا هذا التشريع، الذين قالوا كيف تأكلون من ذبيحة تذبحونها ولا تأكلون ذبيحة ذبحها الله - يعنون الميتة - فهؤلاء الذين بدلوا الشرع كفار مشركون الشرك والكفر الأكبر لا خلاف فيهم.

وكقوله تعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}، فهؤلاء الذين شرعوا لهم ما لم يأذن به الله، هم كفار ومشركون، الكفر والشرك الأكبر، وهكذا في جميع ما ورد من الأدلة في التشريع العام.

فالتفصيل فقط في آية الحكم، أما آيات التشريع الصريحة، فلا تفصيل فيها، واعلم أن كل تشريع حكم، وليس كل حكم تشريع.

ومما يزيد الأمر وضوحاً أن نقول: الفرق بين الحكم والتشريع، كالفرق بين القاضي والمشرع، وهنا سؤالان: هل القاضي يضع شرائع، أم يقضي بما عنده؟، وهذا الذي عنده من أين أتى به؟.

فإن كان أتى به من الشرع المطهر بنص منه؛ فهذا حاكم بشرع الله، وإن كان أتى به من الشرع المطهر، ولكن باجتهاد منه، فنزع بدليل منه، فهذا إن أصاب حكم الله فهو حاكم بشرع الله، وله أجران، وإن أخطأه مع الحرص وعدم التفريط؛ فله أجر واحد، كما في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر".

وإن كان أتى به من الشرع الطاغوتي -القوانين الوضعية - فهذا حاكم بغير ما أنزل الله، وهو كافر بذلك الكفر والشرك الأكبر؛ لأنه يتعاطى الشرع المبدل - التشريع العام - وحكم به وقضى على الناس به، وجعل الرد إليه لفض النزاعات، وهؤلاء نفى الله تعالى عنهم الإيمان وأقسم على ذلك جل الله في علاه.

قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

أما المشرع فهو الذي يضع الأحكام من حلال وحرام، وجائز وممنوع، وهذا حق محض لله تبارك وتعالى، فمن نصب نفسه من العباد كذلك، فهذا هو المشرع من دون الله تعالى، وهو كافر مشرك بالله تعالى، الكفر والشرك الأكبر، بلا تفصيل، ولا نظر إلى معتقده، أو استحلاله بقلبه.

وتأمل في قوله ٢ في حديث عبد الله بن بريدة: "وَإِذَا حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُواكَ أَنْ تُنَزِّلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنَزِّلُهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتَصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا".

إذاً هنا الاحتمال قائم، أن يكون حكم بحكم الله، وقد يكون حكم بغير حكم الله، لكنه الآن يريد أن يقرر، ويحكم في مسألة، هو مضطر إليها، وليس عنده فيها علم مسبق، وليس متاحاً له ذلك العلم.

فهل الذي يجري اليوم من هؤلاء الحكام، أنهم لا يعرفون أن هناك قرآناً؟!، أم أنهم لا يعرفون أن هناك سنة، وأن هناك شريعة لله؟!.

وسر المسألة أن أية المائدة حمالة وجوه من الحق، والمرجئة ومن اغتر بهم لم يفهموا ما هو سر المسألة فَشَغَبُوا على الحق، عياذ بالله.

وإليك هذا البيان الشافي من الشيخ ابن عثيمين في كتابه (القول المفيد على كتاب التوحيد): [فائدة: يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذي يجعل نظاماً يمشي عليه، ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله؛ فهذا قد يكون كفراً أو فسقاً أو ظلماً. فيكون كفراً إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له. ويكون فسقاً إذا كان لهوى في نفس الحاكم]. ١.٠هـ.

ومن أراد المزيد من التأصيل والتفصيل، والوقوف على القواعد العامة في هذه المسألة، وقراءة المنقولات المستفيضة في ذلك؛ فليراجع كتابي (فتنة العصر التشريع).

فتنة الدخول على السلاطين، فيأياكم والدخول عليهم:

فصل: في التذكير بخطورة الدخول على السلاطين، وذكر طرف مما جاء من التحذير والتنفير البليغ عن السلف الصالح في ذلك، وبيان خطورة ذلك على العالم والأمة جمعاء:

قال مهنا: سألت الإمام أحمد عن إبراهيم بن الهروي، فقال: إنه رجل وسخ، فقلت: ما قولك إنه وسخ؟، قال: من يتبع الولاة والسلاطين فهو وسخ. ١.٥هـ.

وأخرج أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من طريق يوسف بن أسباط يقول: قال لي سفيان الثوري: إذا رأيت القاريء يلوذ بالسلطان فاعلم أنه لص، وإذا رأيت يلوذ بالأغنياء؛ فاعلم أنه مرء، وإياك أن تُخدع فيقال لك: تَرُدُّ مَظْلَمَةً، تَدْفَعُ عن مَظْلُومٍ، فإن هذه خُدْعَةُ إبليس اتخذها القراء سُلْمًا. ١.٥هـ.

وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق يوسف بن أسباط قال: [أخبرني مخبر، أن بعض الأمراء أرسل إلى أبي حازم فأتاه، وعنده الأفريقي والزهري وغيرهما، فقال له تكلم يا أبا حازم، فقال أبو حازم: إن خير الأمراء من أحب العلماء، وإن شر العلماء من أحب الأمراء، وإنه كان فيما مضى إذا بعث الأمراء

إلى العلماء لم يأتوهم، وإذا أعطوهم لم يقبلوا منهم، وإذا سألوهم لم يرخصوا لهم، وكان الأمراء يأتون العلماء في بيوتهم فيسألونهم، فكان في ذلك صلاح للأمراء، وصلاح للعلماء، فلما رأى ذلك ناس من الناس؛ قالوا مالنا لا نطلب العلم حتى نكون مثل هؤلاء، فطلبوا العلم فأتوا الأمراء، فحدثوهم فرخصوا لهم، وأعطوهم فقبلوا منهم فَجَرَّتِ الأمراء على العلماء، وَجَرَّتِ العلماء على الأمراء[أ.هـ].

وروي عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: [فَتَتَبَّى بِالْمُتَوَكِّلِ أَعْظَمَ مِنْ فَتَتَبَّى بِالْمُعْتَصِمِ]، يُشِيرُ إِلَى الْإِكْرَامِ.

وفي ديوان الإمام الشافعي:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا ... فلا يكن لك في أبوابهم ظلُّ
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا ... جاروا عليك وإن أرضيتهم ملُّوا
فاستعن بالله عن أبوابهم كرما ... إن الوقوف على أبوابهم ذلُّ

وجاء في الدرر السنية في الأجوبة النجدية: [وروى ابن أبي حاتم عن علي ؑ أنه خطب فقال: يا أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا أخذتهم العقوبات، فأمرؤا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم الذي نزل بهم، واعلموا: أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يقطع رزقا، ولا يقرب أجلا .

وروى الإمام أحمد، عن جرير مرفوعاً: ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي، هم أعز منه وأمنع لم يغيروا عليه، إلا أصابهم الله بعذاب من عنده ١ وقال تعالى: {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ} [سورة المائدة آية: ٦٣].

قال ابن النحاس: دلت الآية على أن تارك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كمرتكبه، والآية توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قاله القرطبي: وتالله إنهم لأهل لكل توبيخ، فأنى يصلح الناس والعلماء فاسدون؟ أم كيف تعظمون المعصية في قلوب الجاهلين، والعلماء بأفعالهم وأقوالهم لم ينهوه عنهما؟ أم كيف يرغب في الطاعة، والعلماء لا يأتونها؟ أم كيف يتركون البدع والعلماء يرونها فلا ينكرونها؟ إلى أن قال: وأما في زماننا هذا؛ فقد قيد الطمع ألسن العلماء فسكتوا، إذ لم تساعد أقوالهم أفعالهم، ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم، فإذا نظرنا إلى فساد الرعية، وجدنا سببه فساد الملوك؛ وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه فساد العلماء والصالحين؛ وإذا نظرنا إلى فساد العلماء والصالحين، وجدنا سببه ما استولى عليهم من حب المال والجاه، وانتشار الصيت ونفاذ الكلمة، ومداينة المخلوقين، وفساد النيات والأقوال والأفعال. انتهى[١.هـ].

وجاء في فتح الباري لابن حجر في حديثه عن حديث أبي هريرة ؓ المتفق عليه، عن النبي ﷺ قال: "لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ" [وقال القرطبي معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الخطوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في

رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله ويكثر من يذمه من الناس ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعاً بما رزقه الله لا يحرص على الازدياد لغير حاجة ولا يلح في الطلب ولا يلحف في السؤال بل يرضى بما قسم الله له فكأنه واجد أبداً والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أعطى بل هو أبداً في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسف فكأنه فقير من المال لأنه لم يستغن بما أعطى فكأنه ليس بغني ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره علماً بأن الذي عند الله خير وأبقى فهو معرض عن الخرض والطلب وما أحسن قول القائل:

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة ... فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً[١]هـ.

وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر: [فصل: المقارنة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة: تأملت التحاسد بين العلماء فرأيت منشأه من حب الدنيا فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسبون كما قال عز وجل: {و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا}، وقال الله تعالى: {والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا}، وقد كان أبو الدرداء يدعو كل ليلة من إخوانه، وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعي: أبوك من الستة الذين أدعوا لهم كل ليلة وقت السحر، والأمر الفارق بين الفئتين: أن علماء الدنيا ينظرون إلى الرياسة فيها ويحبون كثرة الجمع والثناء وعلماء الآخرة بمعزل من إثارة ذلك وقد كانوا يتخوفونه ويرحمون من يلي به، وكان النخعي لا يستند إلى سارية، وقال علقمة: أكره أن يوطأ عقبي ويقال علقمة، وكان بعضهم إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام عنهم، وكانوا يتدافعون الفتوى

و يجبون الخمول، مثُلُ القوم كمثل راكب البحر وقد خب فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة، وإنما كان بعضهم يدعوا لبعض، ويستفيد منه؛ لأنهم ركب تصاحبوا فتوادوا، فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة[١].هـ.

قلت: ومثل هذا كثير متواتر عن السلف والخلف، هذا وهؤلاء السلاطين الذين حذر السلف من مخالطتهم ومداخلتهم، كانوا قائمين بفريضة الجهاد في سبيل الله، وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاشيا، وكانت الشريعة مطبقة معمولا بها، وإن كان ثمة مظالم، وتجاوزات من السلاطين والأمراء، من فجور وجور وشهوات، ونحو ذلك، فكيف بالطواغيت المبدلين لشرع الله، حماة الشرك والكفر، القائلين بإحلال المواطنة والديمقراطية، مكان عقيدة الولاء والبراء، المحاربين للجهاد والمجاهدين، والذين يقولون بأن اليهود والنصارى، إخوانهم، وصدقوا فإنما هم إخوان المنافقين أبدا، كما في الذكر الحكيم: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ تَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الحشر: ١١]، لا شك أن الخطب أعظم، ومُصَابٌ من يداخلهم من أهل العلم جَلَل، فإنما هو المُساوَمَةُ على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت. فتنبه ولا تغتر، عافانا الله وإياكم.

جاء في تفسير السعدي: {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ} يريدون "يا أهل المدينة" فنادوهم باسم الوطن المنبئ عن التسمية، فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك، مجرد الخور الطبيعي[١].هـ.

وأخرج الذهبي في كتابه: (سير أعلام النبلاء) أبياتا عن يَحْيَى بنِ مَعِينٍ قال فيها:
 الْمَالُ يَذْهَبُ حِلُّهُ وَحَرَامُهُ ... يَوْمًا وَتَبَقَى فِي غَدٍ أَثَامُهُ
 لَيْسَ التَّقِيُّ بِمُتَّقٍ لِإِلَهِهِ ... حَتَّى يَطِيبَ شَرَابُهُ وَطَعَامُهُ
 وَيَطِيبَ مَا يَحْوِي وَتَكْسِبُ كَفَّهُ ... وَيَكُونُ فِي حُسْنِ الْحَدِيثِ كَلَامُهُ
 نَطَقَ النَّبِيُّ لَنَا بِهِ عَنْ رَبِّهِ ... فَعَلَى النَّبِيِّ صَلَاتُهُ وَسَلَامُهُ

قوله: (والدليل قوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم}):
 أي دليل أن الكفر بالطاغوت، فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأنه لا يتأتى التحقق بالإيمان إلا به، وأن من زعم إيمانا بلا كفر بالطاغوت؛ فما آمن وتلك هي العروة الوثقى التي تقدم الكلام عنها في أول الكتاب.

فاحتج المؤلف رحمه الله بهذه الآية، على أن الكفر بالطاغوت، فرض وشرط في صحة الإيمان، وأن من توقف أو تردد فلا إيمان له، هذا هو معنى هذه الآية العظيمة.

الرد على الزنادقة دعاة تعدد الأديان:

ولقد تكلم على هذه الآية بعض الزنادقة، واحتجوا بها على جواز تعدد الأديان، وقبولها وتقاربها، ويدعون إلى التسامح والتعايش السلمي، وترك الجهاد في سبيل الله، وأن الله تعالى أذن بذلك شرعا، في تقرير واضح لتصحيح اليهودية والنصرانية، وإلغاء حكم الردة وحدها، والتلاعب بعقيدة الولاء والبراء التي لا يقوم الإيمان إلا بها، فالمهم

عند هؤلاء الزنادقة المرتدين، أن تكون مؤمناً، سواء مسلماً، أو يهودياً أو نصرانياً، فالكل مؤمنون، وإنما عداوتنا فقط مع الملاحدة والوثنيين اللادينيين.

وهذا لاشك أنه كفر صراح بواح، إذ أن من قال بجواز الخروج من دين الإسلام، والدخول في غيره، وقال إنه لا فرق بين دين الإسلام واليهودية والنصرانية، وكذلك من صحح دين أهل الكتاب، فهذا قد وقع في الكفر الأكبر بالإجماع، وكل هذه محاولة جادة لهدم عقيدة الولاء والبراء، وتعطيل الجهاد في سبيل الله، بل وفوق ذلك كله تعطيل الشريعة الإسلامية، التي جاءت بإثبات كفر أهل الكتاب، وضرورة إقامة شعيرة الولاء والبراء، والكفر بالطاغوت، وفضح أهله، وبغضهم، ولكن مع اعتبار الضوابط الشرعية في طريقة التعامل معهم، فنعتبر حال المعاهد والمستأمن، والذمي، ولكن بالحدود الشرعية، وعليه هو الالتزام بالضوابط الشرعية التي بها تصح تلك العقود.

والآيات في الرد على هؤلاء متكاثرة من الكتاب والسنة، وما كنا نظن في يوم من الأيام، أننا بحاجة إلى بيان كفر اليهود والنصارى لأحد من المسلمين، ولكنه آخر الزمان، الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ .

فمن الكتاب العزيز: مثلاً قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا

أَمُرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ { [التوبة: ٢٩-٣١]،
فبين الله تعالى في هذه الآيات، كفر أهل الكتاب وشركهم، وضرورة مقاتلتهم، حتى إما
الإسلام وإما الجزية.

وقال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ } [البينة: ١ -
٦]، فنعتهم الله تعالى بأنهم شر البرية، وأنهم أهل النار خالدين فيها.

وقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [المائدة: ١٧]، وقال: {لَقَدْ
كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي
وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ
(٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا
يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ
اتَّعْبُدُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [المائدة:

[٧٢ - ٧٦]، وقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [المتحنة: ٤]، وقوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ١-٦].

ومن السُّنة الصحيحة: مثل قوله ❷: "جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألستكم"، وقد تقدم، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ❸ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ❶ أَنَّهُ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"، وقد تقدم ذكر جملة من الأدلة فيما مضى، بل جميع الأحاديث الآمرة بقتال الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم، دالة على نقض كلام هؤلاء الزنادقة، وكذلك الأحاديث الدالة على أن النبي ❶ كان يُسَيِّرُ الجيوش، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، دالة على هذا الأصل العظيم.

شبهة وثيقة المدينة:

وبعض هؤلاء يتشبثون بما هو أوهى من بيت العنكبوت، إذ يذكرون ما يعرف بـ (وثيقة المدينة)، التي يذكرون أن النبي ❶ أبرمها، بينه وبين اليهود ومن معه بالمدينة، وهذه الوثيقة أولا ليس لها إسناد قائم، يصلح الاحتجاج بمثله، فقد ذكرها ابن هشام

نقلا عن محمد بن إسحاق، ومحمد بن إسحاق صدوق ولا يقبل تفرده بالأصول والأحكام، وعلى كل حتى هو ذكرها مرسله بلا إسناد، مما يزيد ضعفها.

ثانيا: أن هذه الوثيقة، هي عليهم لا لهم، فهي مليئة بتقرير عقيدة الولاء والبراء، فالولاء فيها للمؤمنين، والبراء من الكافرين، وقيودها واضحة المعالم في ذلك، كما أنها تقرر الجهاد في سبيل الله، ولكن هؤلاء لا يريدون ما كُتب في هذه الوثيقة، وإنما يريدون أخذ المسمى العام فقط، والانطلاق به؛ للتلبس على الأمة بما يسمى بالتعايش السلمي، وإنما هو الخنوع والذل، والاستسلام للكفار، ومواثيقهم الكفرية الملحدة، وتضييع عقيدة الولاء والبراء، وتعطيل، بل وإلغاء الجهاد في سبيل الله، فأين هذا من هذا؟!، وستأتيك بعد قليل الشروط العمرية؛ لتتضح لك حقيقة وكيفية التعامل مع أهل الكتاب في دار الإسلام.

واعلم أن قول هؤلاء المنافقين، ظاهر الفساد، فإن مقتضاه تعطيل الجهاد، والقضاء على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونقض أصل هذا الدين القائم على الولاء والبراء، وهذا وحده كافٍ في رد هذه المقولة الفاجرة الجائرة الكافرة، كيف وقد تضافت دلالات الكتاب والسنة على إبطال ذلك وفضحه وكشف عواره، وحقائق الإسلام في التعامل مع الكفار، ثابتة واضحة، فيما أن يدخلوا في الإسلام؛ فهم إخواننا لهم ما لنا وعليهم وما علينا، فإن أبوا فلا إكراه في الدين، ولكن عليهم أن يدفعوا الجزية عن يد وهو صاغرون، فإن أبوا، ولم يكن هناك عهد مسبق من أمان أو عهد - بشرط ألا يكونوا قد نقضوه - أو لم يقع بيننا وبينهم شيء من ذلك حالا، فهؤلاء لنا أن نُمضي لهم ذلك ما رأينا ذلك، ونُقرهم عليه ما شئنا، بحسب المصلحة الراجعة إلى الإسلام

وأهله، فإن قرر المسلمون إبطال ذلك، وجب عليهم أن يبنذوا إليهم على سواء، ثم ما هناك إلا السيف، وهذا الكلام في واقعنا المعاصر، مثل الخيال، ولكن هذه هي حقائق الإسلام، التي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تقبل المساومات، ولا أنصاف الحلول.

الشُّرُوطُ الْعُمَرِيَّةُ:

قال الإمام ابن القيم في كتابه: (أحكام أهل الذمة): [ذكر الشروط العمرية وأحكامها وموجباتها: قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثني أبو شحيب الحمصي عيسى بن خالد قال حدثني عمي أبو البيان وأبو المغيرة قالَا أخبرنا إسماعيل بن عياش قال حدثنا غير واحد من أهل العلم، قالوا كتب أهل الجزيرة إلى عبد الرحمن بن غنم إنا حين قدمنا بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا على أنا شرطنا لك على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا فيما حولها ديراً ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا ما كان منها في خطط المسلمين وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل.

ولا نُؤْوِي فيها، ولا في منازلنا جاسوساً، وألا نكتم غشاً للمسلمين، وألا نُضْرِبَ بنواقيسنا إلا ضَرْباً خَفِياً في جُوفِ كنائسنا، ولا نُظْهِرَ عليها صليياً، ولا تُرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نُخْرِجَ صليياً، ولا كِتَاباً في سوق المسلمين، وألا نُخْرِجَ باعوثاً، قال: والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر، ولا شَعَانِينَ، ولا تَرْفَعُ أصواتنا مع

مَوْتَانَا، وَلَا نَظْهَرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نُجَاوِرَهُمْ بِالْخَنَازِيرِ وَلَا بَيْعِ الْخَمُورِ، وَلَا نُظْهَرَ شُرْكَاءَ، وَلَا نُرْغَبَ فِي دِينِنَا، وَلَا نَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدًا.

وَلَا نَتَّخِذُ شَيْئًا مِنَ الرَّقِيقِ الَّذِي جَرَتْ عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَقْرَبَائِنَا أَرَادُوا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ نَلْزِمَ زَيْنًا حَيْثُمَا كُنَا، وَأَلَّا نَتَشَبَّهَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي لِبْسِ قُلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا نَعْلِينَ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ، وَلَا فِي مَرَاكِبِهِمْ، وَلَا نَتَكَلَّمَ بِكَلَامِهِمْ، وَلَا نَكْتَنِّي بِكُنَاهُمْ، وَأَنْ نَجْزِيَ مَقَادِمَ رُؤُوسِنَا، وَلَا نَفَرِّقَ نَوَاصِينَا، وَنَشُدَّ الزَّنَائِرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا، وَلَا نَنْقُشَ خَوَاتِمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا تَرْكَبَ السَّرُوجَ، وَلَا نَتَّخِذُ شَيْئًا مِنَ السِّلَاحِ، وَلَا نَحْمِلُهُ، وَلَا نَتَقَلَّدُ السِّيُوفَ، وَأَنْ نُوقِّرَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَجَالِسِهِمْ.

وَنُرْشِدُهُمُ الطَّرِيقَ، وَنَقُومَ لَهُمْ عَنِ الْمَجَالِسِ إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوسَ، وَلَا نَطْلُعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَلَا نَعْلَمَ أَوْلَادَنَا الْقُرْآنَ، وَلَا يَشَارِكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي تِجَارَةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ إِلَى الْمُسْلِمِ أَمْرَ التِّجَارَةِ، وَأَنْ نَضِيفَ كُلَّ مُسْلِمٍ عَابِرِ سَبِيلٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَنَطْعِمَهُ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَجِدُ.

ضَمِينًا لَكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَذُرَارِينَا وَأَزْوَاجِنَا وَمَسَاكِينِنَا، وَإِنْ نَحْنُ غَيْرُنَا أَوْ خَالَفُنَا عَمَّا شَرَطْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَقَبْلُنَا الْأَمَانَ عَلَيْهِ؛ فَلَا ذِمَّةَ لَنَا، وَقَدْ حَلَّ لَكَ مِنَّا مَا يَحِلُّ لِأَهْلِ الْمَعَانِدَةِ وَالشَّقَاقِ. فَكُتِبَ بِذَلِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنَمٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: أَنْ أَمْضِيَ لَهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَلْحِقَ فِيهِمْ حَرْفَيْنِ اشْتَرَطُوهُمَا عَلَيْهِمْ مَعَ مَا شَرَطُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَلَّا يَشْتَرَوْا مِنْ سَبَايَانَا شَيْئًا، وَمَنْ ضَرَبَ مُسْلِمًا عَمْدًا فَقَدْ خَلَعَ عَهْدَهُ، فَأَنْفَذَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنَمٍ ذَلِكَ، وَأَقَرَّ مِنْ أَقَامَ مِنَ الرُّومِ فِي مَدَائِنِ الشَّامِ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ.

قال الخلال في كتاب أحكام أهل الملل أخبرنا عبد الله بن أحمد فذكره، وذكر سفيان الثوري عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبت لعمر بن الخطاب ؓ حين صالح نصارى الشام.... إلى أن قال: وَشَهْرَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ تُغْنِي عَنْ إِسْنَادِهَا، فَإِنَّ الْأُئِمَّةَ تَلْقَوُهَا بِالْقَبُولِ، وَذَكَرُوهَا فِي كِتَابِهِمْ، وَاحْتَجُّوا بِهَا، وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُ الشُّرُوطِ الْعُمَرِيَّةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَفِي كِتَابِهِمْ. وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها، فذكر أبو القاسم الطبري من حديث أحمد بن يحيى الحلواني حدثنا عبيد بن جناد حدثنا عطاء بن مسلم الحلبي عن صالح المرادي عن عَبْدِ خَيْرٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عَلِيًّا صَلَّى الْعَصْرُ، فَصَفَّ لَهُ أَهْلَ نَجْرَانَ صَفَيْنِ، فَنَاولَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ كِتَابًا، فَلَمَّا رَأَاهُ دَمَعَتْ عَيْنُهُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: يَا أَهْلَ نَجْرَانَ هَذَا وَاللَّهِ خَطِي بِيَدِي وَإِمْلَاءُ رَسُولِ اللَّهِ.

فَقَالُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطَنَا مَا فِيهِ، قَالَ وَدَنُوتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ إِنْ كَانَ رَادًّا عَلَى عَمْرِ يَوْمًا فَالْيَوْمَ يَرُدُّ عَلَيْهِ.

فَقَالَ: لَسْتُ بِرَادٍّ عَلَى عَمْرِ شَيْئًا صَنَعَهُ، إِنْ عَمَرَ كَانَ رَشِيدَ الْأَمْرِ وَإِنْ عَمَرَ أَخَذَ مِنْكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَعْطَاكُمْ، وَلَمْ يَجْرَ عُمَرُ مَا أَخَذَ مِنْكُمْ إِلَى نَفْسِهِ، إِنَّمَا جَرَّهُ لِمَجَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ [١٠١] هـ.

الرد على المنافقين في دعواهم الإذن بالتنصير وبناء الكنائس في بلاد المسلمين:

واعلم أرشدك الله، أن من أعظم ما وقعت به الفتنة في هذه الأزمنة المتأخرة في دين المسلمين، ما ادعاه المنافقون زورا وبهتانا، من أن الإسلام أذن بنشر التنصير، وبناء دور الكافرين من كنائس ومعابد ونحوها، وإليك هذا النقل الذي يفضح هؤلاء المنافقين، ويكشف لك حقيقة الموقف الشرعي:

نقل الشيخ منصور البهوتي عن شيخ الإسلام كما في: (كشاف القناع عن متن الإقناع): [وَقَالَ الشَّيْخُ: مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الْكُنَائِسَ بَيُوثُ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُعْبَدُ فِيهَا وَأَنَّ مَا يَفْعَلُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عِبَادَةً لِلَّهِ وَطَاعَةً لَهُ وَلِرَسُولِهِ أَوْ أَنَّهُ يُحِبُّ ذَلِكَ أَوْ يَرْضَاهُ] فَهُوَ كَافِرٌ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ اعْتِقَادَ صِحَّةِ دِينِهِمْ وَذَلِكَ كُفْرٌ كَمَا تَقَدَّمَ (أَوْ أَعَانَهُمْ عَلَى فَتْحِهَا) أَيِ الْكُنَائِسِ (وَإِقَامَةِ دِينِهِمْ وَ) اعْتَقَدَ (أَنَّ ذَلِكَ قُرْبَةٌ أَوْ طَاعَةٌ فَهُوَ كَافِرٌ) لِتَضَمُّنِهِ اعْتِقَادَ صِحَّةِ دِينِهِمْ (وَقَالَ) الشَّيْخُ (فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ زِيَارَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي كُنَائِسِهِمْ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ وَإِنْ جَهِلَ أَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ عُرِفَ ذَلِكَ فَإِنْ أَصَرَ صَارَ مُرْتَدًّا) لِتَضَمُّنِهِ تَكْذِيبَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [١٠.هـ].

وقال ابن القيم في كتابه (أحكام أهل الذمة): [ذكر حكم الأمصار التي وجدت فيها هذه الأماكن وما يجوز إبقاؤه وما تجب إزالته ومحو رسمه: البلاد التي تفرق فيها أهل الذمة والعهد ثلاثة أقسام:

أحدها: بلاد أنشأها المسلمون في الإسلام.

الثاني: بلاد أنشئت قبل الإسلام فافتتحها المسلمون عنوة وملكوا أرضها وساكنيها.

الثالث: بلاد أنشئت قبل الإسلام وفتحها المسلمون صلحا.

فأما القسم الأول فهو مثل البصرة والكوفة وواسط وبغداد. أما البصرة والكوفة

فأنشئت في خلافة عمر بن الخطاب t .

قال يزيد بن هارون: أخبرنا زياد بن أبي زياد حدثنا عبدالرحمن بن أبي بكرة عن نافع

بن الحارث قال: كان أمير المؤمنين قد هم أن يتخذ للمسلمين مصرا وكان المسلمون قد

غزوا من قبل البحر وفتحوا الأهواز وكابل وطبرستان فلما افتتحوها كتبوا إليه: "إنا

وجدنا بطبرستان مكانا لا بأس بت". فكتب إليهم: "إن بيني وبينكم دجلة ولا حاجة لي في شيء بيني وبينكم فيه دجلة أن نتخذه مصرا".

قال: فقدم عليه رجل من بني سدوس يقال: له ثابت فقال: له يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون دجلة به بادية يقال: لها الخريبة ويقال: للأرض البصرة وبينها وبين دجلة فرسخ به خليج يجري فيه الماء وأجم قصب فأعجب ذلك عمر رضي الله عنه فدعا عتبة بن غزوان فبعثه في أربعين رجلا فيهم نافع بن الحارث وزياذ أخوه لأمه.

قال: سيف بن عمر مصرت البصرة سنة ست عشرة واختطت قبل الكوفة بثمانية أشهر. وقال قتادة: أول من مصر البصرة رجل من بني شيبان يسمى المثني ابن حارثة وإنه كتب إلى عمر **t** "إني نزلت أرضا بصرة" فكتب إليه: "إذا أتاك كتابي هذا فاثبت حتى يأتيك أمري" فبعث عتبة بن غزوان معلما وأميرا فغزا الأبله وقال: حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن إن عمر بن الخطاب **t** مصر البصرة والكوفة إلى أن قال: وقال الإمام أحمد حدثنا معتمر بن سليمان التيمي عن أبيه عن حنش عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن أمصار العرب أو دار العرب هل للعجم أن يحدثوا فيها شيئا فقال: أيما مصر مصرته العرب فليس للعجم أن يبنوا فيه بيعة ولا يضرخوا فيه ناقوسا ولا يشربوا فيه خمرا ولا يتخذوا فيه خنزيرا.

وأيما مَصْرٍ مَصَّرْتُهُ الْعَجْمَ فَفَتْحَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْعَرَبِ فَتَزَلُّوا فِيهِ فَإِنَّ لِلْعَجْمِ مَا فِي عَهْدِهِمْ وَعَلَى الْعَرَبِ أَنْ يُوَفُّوا بِعَهْدِهِمْ وَلَا يَكْلَفُوهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ.

قال عبد الله بن أحمد: وسمعت أبي يقول ليس لليهود والنصارى أن يحدثوا في مصر مصره المسلمون بيعة ولا كنيسة ولا يضربوا فيه بناقوس إلا في مكان لهم صالح وليس لهم أن يظهروا الخمر في أمصار المسلمين.

وقال المروزي: قال لي أبو عبد الله سألوني عن الديارات في المسائل التي وردت من قبل الخليفة فقلت أي شيء تذهب أنت؟ فقال: "ما كان من صلح يقر وما كان أحدث بعد يهدم".

وقال أبو طالب: سألت أبا عبد الله عن بيع النصارى ما كان في السواد وهل أقرها عمر فقال: السواد فتح بالسيف فلا يكون فيه بيعة ولا يضرب فيه ناقوس ولا يتخذ فيه الخنازير ولا يشرب الخمر ولا يرفعون أصواتهم في دورهم إلا الحيرة وبانقيا ودير صلوبا فهؤلاء أهل صلح صولحوا ولم يجاربوا فما كان منها لم يخرب وما كن غير ذلك فكله محدث يهدم وقد كان أمر بهدمها هارون.

وكل مصر مصرته العرب، فليس لهم أن يبنوا فيه بيعة، ولا يضربوا فيه ناقوسا، ولا يشربوا فيه خمر، ولا يتخذوا فيه خنزيرا. وما كان من صلح صولحوا عليه فهو على صلحهم وعهدهم وكل شيء فتح عنوة فلا يحدثوا فيه شيئا من هذا. وما كان من صلح أقروا على صلحهم". واحتج فيه بحديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال أبو الحارث: سئل أبو عبد الله عن البيع والكنائس التي بناها أهل الذمة وما أحدثوا فيها مما لم يكن قال: تهدم، وليس لهم أن يحدثوا شيئا من ذلك، فيما مصره المسلمون يمنعون من ذلك إلا مما صولحوا عليه.

قيل لأبي عبد الله أيش الحجة في أن يمنع أهل الذمة أن يبنوا بيعة أو كنيسة إذا كانت الأرض ملكهم وهم يؤدون الجزية وقد منعنا من ظلمهم وأذاهم قال: حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "أيما مصر مصرته العرب".

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرني عمي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة يعني ابن محمد أن يهدم الكنائس التي في أمصار المسلمين.

قال: وشهدت عروة بن محمد يهدمها بصنعاء.

قال عبد الرزاق: وأخبرنا معمر عن سمع الحسن يقول: "إن من السنة أن تهدم الكنائس التي في الأمصار القديمة والحديثة" ذكره أحمد عن عبد الرزاق.

وهذا الذي جاءت به النصوص والآثار هو مقتضى أصول الشرع وقواعده: فإن إحداث هذه الأمور إحداث شعار الكفر وهو أغلظ من إحداث الخمارات والمواخير فإن تلك شعار الكفر وهذه شعار الفسق.

ولا يجوز للإمام أن يصالحهم في دار الإسلام على إحداث شعائر المعاصي والفسوق فكيف إحداث موضع الكفر والشرك؟!

فإن قيل: فما حكم هذه الكنائس التي في البلاد التي مصرها المسلمون؟

قيل: هي على نوعين:

أحدهما: أن تحدث الكنائس بعد تمصير المسلمين لمصر فهذه تزال اتفاقاً.

الثاني: أن تكون موجودة بفلاة من الأرض ثم يمصر المسلمون حولها المصر فهذه لا تزال والله أعلم.

وورد على شيخنا استفتاء في أمر الكنائس صورته: ما يقول السادة العلماء وفقهم الله في إقليم توافق أهل الفتوى في هذا الزمان على أن المسلمين فتحوه عنوة من غير صلح ولا أمان فهل ملك المسلمون ذلك الإقليم المذكور بذلك وهل يكون الملك شاملا لما فيه من أموال الكفار من الأثاث والمزارع والحيوان والرقائق والأرض والدور والبيع والكنائس والقلايات والديورة ونحو ذلك أو يختص الملك بما عدا متعبدات أهل الشرك فإن ملك جميع ما فيه فهل يجوز للإمام أن يعقد لأهل الشرك من النصارى واليهود بذلك الإقليم أو غيره الذمة على أن يبقى ما بالإقليم المذكور من البيع والكنائس والديورة ونحوها متعبدا لهم وتكون الجزية المأخوذة منهم في كل سنة في مقابلة ذلك بمفرده أو مع غيره أم لا؟ فإن لم يجوز لأجل ما فيه من تأخير ملك المسلمين عنه فهل يكون حكم الكنائس ونحوها حكم الغنيمة يتصرف فيه الإمام تصرفه في الغنائم أم لا وإن جاز للإمام أن يعقد الذمة بشرط بقاء الكنائس ونحوها فهل يملك من عقدت له الذمة بهذا العقد رقاب البيع والكنائس والديورة ونحوها ويزول ملك المسلمين عن ذلك بهذا العقد أم لا لأجل أن الجزية لا تكون عن ثمن مبيع وإذا لم يملكوا ذلك وبقوا على الانتفاع بذلك وانتقض عهدهم بسبب يقتضي انتقاضه إما بموت من وقع عقد الذمة معه ولم يعقبوا أو أعقبوا.

فإن قلنا: إن أولادهم يستأنف معهم عقد الذمة كما نص عليه الشافعي فيما حكاه ابن الصباغ وصححه العراقيون واختاره ابن أبي عصرون في المرشد فهل للإمام الوقت أن يقول لا أعقد لكم الذمة إلا بشرط ألا تدخلوا الكنائس والبيع والديورة في العقد

فتكون كالأموال التي جهل مستحقوها وأيس من معرفتها أم لا يجوز له الامتناع من إدخالها في عقد الذمة بل يجب عليه إدخالها في عقد الذمة.

فهل ذلك يختص بالبيع والكنايس والديورة التي تحقق أنها كانت موجودة عند فتح المسلمين ولا يجب عليه ذلك عند التردد في أن ذلك كان موجودا عند الفتح أو حدث بعد الفتح.

أو يجب عليه مطلقا فيما تحقق أنه كان موجودا قبل الفتح أو شك فيه؟
وإذا لم يجب في حالة الشك فهل يكون ما وقع الشك في أنه كان قبل الفتح وجهل الحال فيمن أحدثه لمن هو؟ لبيت المال أم لا؟.

وإذا قلنا: إن من بلغ من أولاد من عقدت معهم الذمة وإن سلفوا ومن غيرهم لا يحتاجون أن تعقد لهم الذمة بل يجري عليهم حكم من سلف إذا تحقق أنه من أولادهم يكون حكم كنائسهم وبيعهم حكم أنفسهم أم يحتاج إلى تجديد عقد وذمة؟.
وإذا قلنا: إنهم يحتاجون إلى تجديد عقد عند البلوغ فهل تحتاج كنائسهم وبيعهم إليه أم لا؟.

فأجاب: "الحمد لله ما فتحه المسلمون كأرض خيبر التي فتحت على عهد النبي ﷺ وكعامة أرض الشام وبعض مدنها وكسواد العراق إلا مواضع قليلة فتحت صلحا وكأرض مصر فإن هذه الأقاليم فتحت عنوة على خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وقد روي في أرض مصر أنها فتحت صلحا.

وروي أنها فتحت عنوة وكلا الأمرين صحيح على ما ذكره العلماء المتأهلون للروايات الصحيحة في هذا الباب فإنها فتحت أولا صلحا ثم نقض أهلها العهد فبعث

عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يستمده فأمدّه بجيش كثير فيهم الزبير بن العوام ففتحها المسلمون الفتح الثاني عنوة.

ولهذا روي من وجوه كثيرة أن الزبير سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن يقسمها بين الجيش كما سأله بلال قسم الشام فشاور الصحابة في ذلك فأشار عليه كبارهم كعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أن يجلسها فيئاً للمسلمين ينتفع بفائدتها أول المسلمين وآخرهم ثم وافق عمر على ذلك بعض من كان خالفه ومات بعضهم فاستقر الأمر على ذلك.

فما فتحه المسلمون عنوة فقد ملكهم الله إياه كما ملكهم ما استولوا عليه من النفوس والأموال والمنقول والعقار.

ويدخل في العقار معابد الكفار ومساكنهم وأسواقهم ومزارعهم وسائر منافع الأرض كما يدخل في المنقول سائر أنواعه من الحيوان والمتاع والنقد.

وليس لمعابد الكفار خاصة تقتضي خروجها عن ملك المسلمين: فإن ما يقال فيها من الأقوال ويفعل فيها من العبادات إما أن يكون مبدلاً أو محدثاً لم يشرعه الله قط أو يكون الله قد نهى عنه بعدما شرعه.

وقد أوجب الله على أهل دينه جهاد أهل الكفر حتى يكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا ويرجعوا عن دينهم الباطل إلى الهدى ودين الحق الذي بعث الله به خاتم المرسلين ﷺ ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

ولهذا لما استولى رسول الله ﷺ على أرض من حاربه من أهل الكتاب وغيرهم كبنى قينقاع والنضير وقريظة كانت معابدهم مما استولى عليه المسلمون ودخلت في قوله سبحانه: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ}. وفي قوله تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ} {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}.

لكن وإن ملك المسلمون ذلك فحكم الملك متبوع كما يختلف حكم الملك في المكاتب والمدير وأم الولد والعبد وكما يختلف حكمه في المقاتلين الذين يؤسرون وفي النساء والصبيان الذين يسبون كذلك يختلف حكمه في المملوك نفسه والعقار والأرض والمنقول.

وقد أجمع المسلمون على أن الغنائم لها أحكام مختصة بها لا تقاس بسائر الأموال المشتركة؛ ولهذا لما فتح النبي ﷺ خير أقر أهلها ذمة للمسلمين في مساكنهم وكانت المزارع ملكا للمسلمين عاملهم عليها رسول الله ﷺ بشرط ما يخرج منها من ثمر أو زرع ثم أجلاهم عمر ٤ في خلافته واسترجع المسلمون ما كانوا أفروهم فيه من المساكن والمعابد.

فصل: هل يجوز للإمام عقد الذمة مع إبقاء المعابد بأيديهم؟

وأما أنه هل يجوز للإمام عقد الذمة مع إبقاء المعابد بأيديهم فهذا فيه خلاف معروف في مذاهب الأئمة الأربعة منهم من يقول لا يجوز تركها لهم لأنه إخراج ملك المسلمين عنها وإقرار الكفر بلا عهد قديم.

ومنهم من يقول بجواز إقرارهم فيها إذا اقتضت المصلحة ذلك كما أقر النبي ﷺ أهل خيبر فيها وكما أقر الخلفاء الراشدون الكفار على المساكن والمعابد التي كانت بأيديهم. فمن قال بالأول قال: حكم الكنائس حكم غيرها من العقار. منهم من يوجب إبقاءه كما لك في المشهور عنه وأحمد في رواية. ومنهم من يخير الإمام فيه بين الأمرين بحسب المصلحة وهذا قول الأكثرين وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه وعليه دلت سنة رسول الله ﷺ حيث قسم نصف خيبر وترك نصفها لمصالح المسلمين. ومن قال: "يجوز إقرارها بأيديهم" فقله أوجه وأظهر فإنهم لا يملكون بهذا الإقرار رقاب المعابد كما يملك الرجل ماله كما أنهم لا يملكون ما ترك لمنافعهم المشتركة كالأسواق والمراعي كما لم يملك أهل خيبر ما أقرهم فيه رسول الله ﷺ من المساكن والمعابد. ومجرد إقرارهم ينتفعون بها ليس تمليكاً كما لو أقطع المسلم بعض عقار بيت المال ينتفع بغلته أو سلم إليه مسجد أو رباط ينتفع به لم يكن ذلك تمليكاً له بل ما أقروا فيه من كنائس العنوة يجوز للمسلمين انتزاعها منهم إذا اقتضت. المصلحة ذلك كما انتزعها أصحاب النبي ﷺ من أهل خيبر بأمره بعد إقرارهم فيها. وقد طلب المسلمون في خلافة الوليد بن عبد الملك أن يأخذوا من النصارى بعض كنائس العنوة التي خارج دمشق فصالحوهم على إعطائهم الكنيسة التي داخل البلد وأقر ذلك عمر بن عبد العزيز أحد الخلفاء الراشدين ومن معه في عصره من أهل العلم.

فإن المسلمين لما أرادوا أن يزيدوا جامع دمشق بالكنيسة التي إلى جانبه وكانت من كنائس الصلح لم يكن لهم أخذها قهراً فاصطلحوا على المعاوضة بإقرار كنائس العنوة التي أرادوا انتزاعها وكان ذلك الإقرار عوضاً عن كنيسة الصلح التي لم يكن لهم أخذها عنوة.

فصل: تؤخذ كنائس الصلح إذا نقضوا عهدهم، ومتى انتقض عهدهم جاز أخذ كنائس العنوة. كما أخذ النبي ﷺ ما كان لقريظة والنضير لما نقضوا العهد فإن ناقض العهد أسوأ حالاً من المحارب الأصلي كما أن ناقض الإيمان بالردة أسوأ حالاً من الكافر الأصلي.

ولذلك لو انقضى أهل مصر من الأمصار ولم يبق من دخل في عهدهم فإنه يصير للمسلمين جميع عقارهم ومنقولهم من المعابد وغيرها فيئاً.

فإذا عقدت الذمة لغيرهم كان كالعهد المبتدأ وكان لمن يعقد لهم الذمة أن يقرهم في المعابد. وله ألا يقرهم بمنزلة ما فتح ابتداءً. فإنه لو أراد الإمام عند فتحه هدم ذلك جاز بإجماع المسلمين ولم يختلفوا في جواز هدمه وإنما اختلفوا في جواز بقاءه وإذا لم تدخل في العهد كانت فيئاً للمسلمين. أما على قول الجمهور الذين لا يوجبون قسم العقار فظاهر. وأما على قول من يوجب قسمه فلأن عين المستحق غير معروف كسائر الأموال التي لا يعرف لها مالك معين. وأما تقدير وجوب إبقائها فهذا تقدير لا حقيقة له فإن إيجاب إعطائهم معابد العنوة لا وجه له ولا أعلم به قائلاً فلا يفرع عليه وإنما الخلاف في الجواز.

نعم قد يقال: في الأبناء إذا لم نقل بدخولهم في عهد آبائهم لأن لهم شبهة الأمان والعهد بخلاف الناقضين فلو وجب لم يجب إلا ما تحقق أنه كان له فإن صاحب الحق لا يجب أن يعطى إلا ما عرف أنه حقه وما وقع الشك فيه على هذا التقدير فهو لبيت المال. وأما الموجودون الآن إذا لم يصدر منهم نقض عهد فهم على الذمة فإن الصبي يتبع أباه في الذمة وأهل داره من أهل الذمة كما يتبع في الإسلام أباه وأهل داره من المسلمين لأن الصبي لما لم يكن مستقلا بنفسه جعل تابعا لغيره في الإيمان والأمان. وعلى هذا جرت سنة رسول الله ﷺ وخلفائه والمسلمين في إقرارهم صبيان أهل الكتاب بالعهد القديم من غير تجديد عقد آخر.

وهذا الجواب حكمه فيما كان من معابدهم قديما قبل فتح المسلمين أما ما أحدث بعد ذلك فإنه يجب إزالته ولا يمكنون من إحداث البيع والكنائس كما شرط عليهم عمر بن الخطاب ؓ في الشروط المشهورة عنه "ألا يجددوا في مدائن الإسلام ولا فيما حولها كنيسة ولا صومعة ولا ديرا لا قلاية امتثالا لقول رسول الله ﷺ: "لا تكون قبلتان ببلد واحد" رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد، ولما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "لا كنيسة في الإسلام".

وهذا مذهب الأئمة الأربعة في الأمصار ومذهب جمهورهم في القرى وما زال من يوفقه الله من ولاة أمور المسلمين ينفذ ذلك ويعمل به مثل عمر بن عبد العزيز الذي اتفق المسلمون على أنه إمام هدى.

فروى الإمام أحمد عنه أنه كتب إلى نائبه عن اليمن أن يهدم الكنائس التي في أمصار المسلمين فهدمها بصنعاء وغيرها. وروى الإمام أحمد عن الحسن البصري أنه قال: "من السنة أن تهدم الكنائس التي في الأمصار القديمة والحديثة".

وكذلك هارون الرشيد في خلافته أمر بهدم ما كان في سواد بغداد، وكذلك المتوكل لما ألزم أهل الكتاب بشروط عمر استفتى علماء وقته في هدم الكنائس والبيع فأجابوه فبعث بأجوبتهم إلى الإمام أحمد فأجاب بهدم كنائس سواد العراق وذكر الآثار عن الصحابة والتابعين.

فمما ذكره ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أيما مصر مصرته العرب يعني المسلمين فليس للعجم يعني أهل الذمة أن يبنوا فيه كنيسة ولا يضرخوا فيه ناقوسا ولا يشربوا فيه خمرا أيما مصر مصرته العجم ففتح الله على العرب فإن للعجم ما في عهدهم وعلى العرب أن يوفوا بعهدهم ولا يكلفوهم فوق طاقتهم".

وملخص الجواب: أن كل كنيسة في الأمصار التي مصرها المسلمون بأرض العنوة فإنه يجب إزالتها إما بالهدم أو غيره بحيث لا يبقى لهم معبد في مصر مصره المسلمون بأرض العنوة وسواء كانت تلك المعابد قديمة قبل الفتح أو محدثة لأن القديم منها يجوز أخذه ويجب عند المفسدة وقد نهى النبي ﷺ أن تجتمع قبلتان بأرض فلا يجوز للمسلمين أن يمكنوا أن يكون بمداين الإسلام قبلتان إلا لضرورة كالعهد القديم لا سيما وهذه الكنائس التي بهذه الأمصار محدثة يظهر حدوثها بدلائل متعددة والمحدث يهدم باتفاق الأئمة.

وأما الكنائس التي بالصعيد وبر الشام ونحوها من أرض العنوة فما كان منها محدثا وجب هدمه وإذا اشتبه المحدث بالقديم وجب هدمهما جميعا لأن هدم المحدث واجب وهدم القديم جائز وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وما كان منها قديما فإنه يجوز هدمه ويجوز إقراره بأيديهم. فينظر الإمام في المصلحة فإن كانوا قد قلوا والكنائس كثيرة أخذ منهم أكثرها وكذلك ما كان على المسلمين فيه مضرة فإنه يؤخذ أيضا وما احتاج المسلمون إلى أخذه أخذ أيضا وأما إذا كانوا كثيرين في قرية ولهم كنيسة قديمة لا حاجة إلى أخذها ولا مصلحة فيه فالذي ينبغي تركها كما ترك النبي ﷺ وخلفاؤه لهم من الكنائس ما كانوا محتاجين إليه ثم أخذ منهم.

وأما ما كان لهم بصلح قبل الفتح مثل ما في داخل مدينة دمشق ونحوها فلا يجوز أخذه ما داموا موفين بالعهد إلا بمعاوضة أو طيب أنفسهم كما فعل المسلمون بجامع دمشق لما بنوه.

فإذا عرف أن الكنائس ثلاثة أقسام: منها ما لا يجوز هدمه ومنها ما يجب هدمه كالتي في القاهرة مصر والمحدثات كلها ومنها ما يفعل المسلمون فيه الأصلاح. فما كان قديما على ما بيناه فالواجب على ولي الأمر فعل ما أمره الله به وما هو أصلح للمسلمين من إعزاز دين الله وقمع أعدائه وإتمام ما فعله الصحابة من إلزامهم بالشروط عليهم ومنعهم من الولايات في جميع أرض الإسلام.

لا يلتفت في ذلك إلى مُرَجِفٍ، أو مُحَذِّلٍ، يقول: إن لنا عندهم مساجد وأسرى نخاف عليهم فإن الله تعالى يقول: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

وإذا كان نوروز في مملكة التتار قد هدم عامة الكنائس على رغم أنف أعداء الله فحزب الله المنصور وجنده الموعود بالنصر إلى قيام الساعة أولى بذلك وأحق فإن النبي ﷺ أخبر أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ونحن نرجو أن يحقق الله وعد رسوله ﷺ حيث قال: "يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها" ١ ويكون من أجرى الله ذلك على يديه وأعان عليه من أهل القرآن والحديث داخلين في هذا الحديث النبوي فإن الله بهم يقيم دينه كما قال: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

وكما لا يجوز إبقاء الأمكنة التي هي شعار الفسوق كالحمامات والمواخير ولأن أمكنة البيع والكنائس قد صارت ملكا للمسلمين فتمكين الكفار من إقامة شعار الكفر فيها كبيعهم وإجارتهم إياها لذلك ولأن الله تعالى أمر بالجهاد حتى يكون الدين كله له وتمكينهم من إظهار شعار الكفر في تلك المواطن جعل الدين له ولغيره وهذا القول هو الصحيح.

والقول الثاني: يجوز بناؤها لقول ابن عباس رضي الله عنهما: "أيما مصر مصرته العجم ففتحها الله على العرب فنزلوه فإن للعجم ما في عهدهم"؛ ولأن رسول الله ﷺ فتح خيبر عنوة وأقرهم على معابدهم فيها ولم يهدمها ولأن الصحابة رضي الله عنهم فتحوا كثيرا من البلاد عنوة فلم يهدموا شيئا من الكنائس التي بتا.

ويشهد لصحة هذا وجود الكنائس والبيع في البلاد التي فتحت عنوة ومعلوم قطعاً أنها ما أحدثت بل كانت موجودة قبل الفتح.

وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن "لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار". ولا يناقض هذا ما حكاه الإمام أحمد أنه أمر بهدم الكنائس فإنها التي أحدثت في بلاد الإسلام ولأن الإجماع قد حصل على ذلك فإنها موجودة في بلاد المسلمين من غير نكير.

وفصل الخطاب أن يقال: إن الإمام يفعل في ذلك ما هو الأصلح للمسلمين فإن كان أخذها منهم أو إزالتها هو المصلحة لكثرة الكنائس أو حاجة المسلمين إلى بعضها وقلة أهل الذمة فله أخذها أو إزالتها بحسب المصلحة وإن كان تركها أصلح لكثرتهم وحاجتهم إليها وغنى المسلمين عنها تركها.

وهذا الترك تمكن لهم من الانتفاع بها لا تمليك لهم رقابها فإنها قد صارت ملكا للمسلمين.

فكيف يجوز أن يجعلها ملكا للكفار؟ وإنما هو امتناع بحسب المصلحة فللإمام انتزاعها متى رأى المصلحة في ذلك.

ويدل عليه أن عمر بن الخطاب والصحابة معه أجلوا أهل خيبر من دورهم ومعابدهم بعد أن أقرهم رسول الله ﷺ فيها ولو كان ذلك الإقرار تمليكا لم يجز إخراجهم عن ملكهم إلا برضى أو معاوضة. ولهذا لما أراد المسلمون أخذ كنائس العنوة التي خارج دمشق في زمن الوليد بن عبد الملك صالحهم النصارى على تركها وتعويضهم عنها بالكنيسة التي زيدت في الجامع.

ولو كانوا قد ملكوا تلك الكنائس بالإقرار لقالوا للمسلمين: كيف تأخذون أملاكنا قهرا وظلما؟ بل أذعنوا إلى المعاوضة لما علموا أن للمسلمين أخذ تلك الكنائس منهم وأنها غير ملكهم كالأرض التي هي بتا.

فبهذا التفصيل تجتمع الأدلة وهو اختيار شيخنا وعليه يدل فعل الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من أئمة الهدى وعمر بن عبد العزيز هدم منها ما رأى المصلحة في هدمه وأقر ما رأى المصلحة في إقراره. وقد أفتى الإمام أحمد المتوكل بهدم كنائس السواد وهي أرض العنوة.

فصل: الضرب الثالث: ما فتح صلحا:

وهذا نوعان: أحدهما: أن يصالحهم على أن الأرض لهم ولنا الخراج عليها أو يصالحهم على مال يبذلونه وهي الهدنة فلا يمنعون من إحداث ما يختارونه فيها لأن الدار لهم كما صالح رسول الله ﷺ أهل نجران ولم يشترط عيهم ألا يحدثوا كنيسة ولا ديرا.

النوع الثاني: أن يصالحهم على أن الدار للمسلمين ويؤدون الجزية إلينا.

فالحكم في البيع والكنائس على ما يقع عليه الصلح معهم من تَبَقِيَّةٍ وإحداث وعمارة لأنه إذا جاز أن يقع الصلح معهم على أن الكل لهم جاز أن يصالحوا على أن يكون بعض البلد لهم.

والواجب عند القدرة أن يصالحوا على ما صالحهم عليه عمر ؓ ويشترط عليهم الشروط المكتوبة في كتاب عبدالرحمن بن غنم: "ألا يحدثوا بيعة ولا صومعة راهب ولا قلالية".

فلو وقع الصلح مطلقاً من غير شرط حمل على ما وقع عليه صلح عمر وأخذوا بشروطه لأنها صارت كالشرع فيحمل مطلق صلح الأئمة بعده عليها.

ذكر نصوص الإمام أحمد وغيره من الأئمة في هذا الباب: قال الخلال في كتاب أحكام أهل الملل باب الحكم فيما أحدثته النصارى مما لم يصلحوا عليه. أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: كان المتوكل إذا حدث من أمر النصارى ما حدث كتب إلى القضاة ببغداد يسألهم أبي حسان الزياتي وغيره فكتبوا إليه واختلفوا فلما قرئ عليه قال: أكتب بما أجاب به هؤلاء إلى أحمد بن حنبل ليكتب إلي بما يرى في ذلك. قال عبد الله: ولم يكن في أولئك الذين كتبوا أحد يحتج بالحديث إلا أبا حسان الزياتي واحتج بأحاديث عن الواقدي فلما قرئ على أبي عرفة وقال: هذا جواب أبي حسان وقال: هذه أحاديث ضعاف. فأجابه أبي واحتج بحديث ابن عباس رضي الله عنهما فقال: ثنا معمر بن سليمان التيمي عن أبيه عن حنش عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن أمصار العرب أو دار العرب هل للعجم أن يحدثوا فيها شيئاً فقال: "أيما مصر مصرته العرب..." فذكر الحديث.

قال: وسمعت أبي يقول: ليس لليهود والنصارى أن يحدثوا في مصر مصره المسلمون بيعة ولا كنيسة ولا يضربوا فيه بناقوس إلا فيما كان لهم صلحاً وليس لهم أن يظهروا الخمر في أمصار المسلمين على حديث ابن عباس: "أيما مصر مصره المسلمون". أخبرنا حمزة بن القاسم وعبد الله بن حنبل وعصمة قالوا حدثنا حنبل قال أبو عبد الله وإذا كانت الكنائس صلحاً تركوا على ما صلحوا عليه فأما العنوة فلا وليس لهم أن يحدثوا بيعة ولا كنيسة لم تكن ولا يضربوا ناقوساً ولا يرفعوا صليباً ولا يظهروا خنزيراً

ولا يرفعوا نارا ولا شيئا مما يجوز لهم فعله في دينهم يمنعون من ذلك ولا يتركون.
قلت: للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك؟، قال: "نعم على الإمام منعهم من ذلك
السلطان يمنعهم من الإحداث إذا كانت بلادهم فتحت عنوة وأما الصلح فلهم ما
صولحوا عليه يوفي لهم" وقال: "الإسلام يعلو ولا يعلى ولا يظهر خرا".

قال الخلال: كتب إلي يوسف بن عبد الله الإسكافي ثنا الحسن بن علي بن الحسن أنه
سأل أبا عبد الله عن البيعة والكنيسة تحدث قال: "يرفع أمرها إلى السلطان".
وقال محمد بن الحسن: "لا ينبغي أن يترك في أرض العرب كنيسة ولا بيعة ولا يباع
فيها خمر وخنزير ومصر كان أو قرية".

وقال الشافعي في المختصر: ولا يحدثوا في أمصار المسلمين كنيسة ولا مجتمعاً
لصلواتهم ولا يظهرها فيها حمل خمر ولا إدخال خنزير ولا يحدثوا بناء يطولون به على
بناء المسلمين وأن يفرقوا بين هيئاتهم في المركب والملبس وبين هيئات المسلمين وأن
يعقدوا الزنار على أوساطهم ولا يدخلوا مسجداً ولا يسقوا مسلماً خمرًا ولا يطعموه
خنزيراً.

وإن كانوا في قرية يملكونها منفردين لم يعرض لهم في خمرهم وخنزيرهم ورفع
بنيانهم.

وإن كان لهم بمصر المسلمين كنيسة أو بناء طويل كبناء المسلمين لم يكن للمسلمين
هدم ذلك وترك على ما وجد ومنعوا من إحداث مثله.

وهذا إذا كان المصر للمسلمين أحيوه أو فتحوه عنوة وشرط هذا على أهل الذمة.

وإن كانوا فتحوا بلادهم على صلح منهم على تركهم وإياه خلوا وإياه.

ولا يجوز أن يصالحوا على أن ينزلوا بلاد الإسلام يحدثون فيها ذلك.

قال: صاحب النهاية في شرحه البلاد قسماً: بلدة ابتناها المسلمون فلا يمكن أهل الذمة من إحداث كنيسة فيها ولا بيت نار فإن فعلوا نقض عليهم. فإن كان البلد للكفار وجرى فيه حكم للمسلمين فهذا قسماً: فإن فتحه المسلمون عنوه وملكوا رقاب الأبنية والعراض تعين نقض ما فيها من البيع والكنائس وإذا كنا ننقض ما نصادف من الكنائس والبيع فلا يخفي أنا نمنعهم من استحداث مثلها.

ولو رأى الإمام أن يبقى كنيسة ويقر في البلد طائفة من أهل الكتاب فالذي قطع به الأصحاب منع ذلك. وذكر العراقيون وجهين: أحدهما: أنه يجوز للإمام أن يقرهم ويبقى الكنيسة عليهم. والثاني: لا يجوز ذلك وهو الأصح الذي قطع به المروزة.

هذا إذا فتحنا البلد عنوة فإن فتحناها صلحا فهذا ينقسم قسمين:

أحدهما: أن يقع الفتح على أن رقاب الأراضي للمسلمين ويقرون فيها بما لا يؤدونه لسكانها سوى الجزية فإن استثنوا في الصلح البيع والكنائس لم ينقض عليهم وإن أطلقوا وما استثنوا بيعهم وكنائسهم ففي المسألة وجهان:

أحدهما: أنها تنقض عليهم لأن المسلمين ملكوا رقاب الأبنية والبيع والكنائس تغنم كما تغنم الدور.

والثاني: لا نملكها لأننا شرطنا تقريرهم وقد لا يتمكنون من المقام إلا بتبعية مجتمع لهم فيما يروونه عبادة وحقيقة الخلاف ترجع إلى أن اللفظ في مطلق الصلح هل يتناول البيع والكنائس مع القرائن التي ذكرناها؟

القسم الثاني: أن يفتحها المسلمون على أن تكون رقاب الأرض لهم فإذا وقع الصلح كذلك لم يتعرض للبيع والكنائس ولو أرادوا إحداث كنائس فالمذهب أنهم لا يمنعون فإنهم منصرفون في أملاكهم.

وأبعد بعض أصحابنا فمنعهم من استحداث ما لم يكن فإنه إحداث بيعة في بلدهي تحت حكم الإسلام.....[١.هـ].

وهناك نقولات أخرى، عن السلف والخلف، ولكنني اقتصر على هذا القدر؛ لأنه دال على ما سواه، ومُغْنٍ وكاف لمن أراد الله هدايته.

الرد على الزنادقة دعاء تقارب الأديان:

جاء في تفسير ابن كثير: [لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}، يقول تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسورًا. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عامًا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلًا فتجعل على نفسها إن

عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }.

وقد رواه أبو داود والنسائي جميعاً عن بُنْدَارَ به ومن وجوه أخر عن شعبة به نحوه. وقد رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم: أنها نزلت في ذلك.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد الجرشي عن زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصيني كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك.

رواه ابن جرير وروى السدي نحو ذلك وزاد: وكانا قد تنصرا على يدي تجار قدموا من الشام يحملون زيتاً فلما عزموا على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عوف أخبرنا شريك عن أبي هلال عن أُسْقَ قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب فكان يعرض علي الإسلام فأبى فيقول: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } ويقول: يا أُسْقَ لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين.

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال

وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه قال الله تعالى: {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} [الفتح: ١٦]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التحریم: ٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ١٢٣]، وفي الصحيح: "عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل"، يعني: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى عن حميد عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: "أسلم" قال: إني أجدي كارها. قال: "وإن كنت كارها" فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام بل دعاه إليه فأخبر أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة فقال له: "أسلم وإن كنت كارهاً فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص" [١.هـ].

فقوله تعالى: {لا إكراه في الدين}، هذه الآية لا تتكلم مطلقاً، لا عن حكم المرتد عن الإسلام من المسلمين، ولا عن ماهية العلاقة بين المؤمنين والكفار، وإنما تتكلم عن أن الإسلام عزيز منيع، لا يُكره عليه أحد، {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}، أما من دخل فيه فلا حق له في التراجع؛ لأن الله تعالى حكم بذلك ابتداءً، أصبح هذا العبد

مخاطبا، بالحكم الشرعي بمجرد دخوله في الإسلام؛ ولأنه عقد قد أُبرِمَ، وأُخذَ عليه حقوقا من المسلمين، معاملة وولاء، ونصرة وأمانا، وغير ذلك، وترتبت عليه واجبات؛ فليس له النكول أو التراجع عنه.

ولهذا جاء في صحيح البخاري من طريق عِكْرِمَةَ أَنَّ عَلِيًّا **t** حَرَّقَ قَوْمًا فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لِأَنَّ النَّبِيَّ **r** قَالَ: "لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ"، وَلَقَتَلْتُهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ **r**: "مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ".

حكم استِرْفاق المرتد والمُرتدة:

اعلم أن المبدل لدين الإسلام، يستتاب فإن تاب إلا قتل، على الصحيح من القول؛ ولهذا قاتل الصحابة **y** من ارتد بعد موت النبي **r**، والمرتد لا يُقَرُّ على رده، بل إما أن يتوب أو يقتل؛ ولهذا كان الراجح من أقوال أهل العلم أن المرأة المرتدة لا تُسبى؛ لأن في سبيها إقرارا لها على الكفر، بل إما أن تسلم أو تقتل، ولا يثبت عن الصحابة **y** استرقاقها مع ثبوتها على ردها، وقد نقل ابن تيمية الإجماع على هذه الحالة، فقال عن المرتدين، كما في مجموع الفتاوى: [فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَجِبُ قَتْلُهُمْ حَتَّى مَا لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لَهُمْ ذِمَّةٌ وَلَا هُدَنَةٌ وَلَا أَمَانٌ وَلَا يُطْلَقَ أَسِيرُهُمْ وَلَا يُفَادَى بِمَالٍ وَلَا رِجَالٍ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ وَلَا يَسْتَرْقُونَ؛ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى الرَّدَّةِ بِاتِّفَاقٍ. وَيُقْتَلُ مَنْ قَاتَلَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ؛ كَالشَّيْخِ الْهَرَمِ وَالْأَعْمَى وَالزَّمِنِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ. وَكَذَا نِسَاؤُهُمْ عِنْدَ الْجُمْهُورِ] ١.هـ.

وأما من تاب منهن فقد وقع في ذلك الخلاف بين أهل العلم، كما قال ابن قدامة في (المغني): [مَسْأَلَةٌ: قَالَ: (وَإِذَا ارْتَدَّ الزَّوْجَانِ، وَلَحَقَا بِدَارِ الْحَرْبِ، لَمْ يَجْرِ عَلَيْهِمَا وَلَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَوْلَادِهِمَا مِمَّنْ كَانُوا قَبْلَ الرَّدَّةِ رِقٌّ) وَجُمِلَتْهُ أَنَّ الرِّقَّ لَا يَجْرِي عَلَى الْمُرْتَدِّ، سَوَاءً كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً، وَسَوَاءً لَحِقَ بِدَارِ الْحَرْبِ أَوْ أَقَامَ بِدَارِ الْإِسْلَامِ. وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: إِذَا لَحِقَتْ الْمُرْتَدَّةُ بِدَارِ الْحَرْبِ، جَازَ اسْتِرْقَاقُهَا؛ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ سَبَى بَنِي حَنِيفَةَ، وَاسْتَرْقَى نِسَاءَهُمْ، وَأُمُّ مُحَمَّدٍ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ مِنْ سَبْيِهِمْ. وَلَنَا، قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: "مَنْ بَدَلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ"، وَلِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِفْرَاؤُهُ عَلَى كُفْرِهِ، فَلَمْ يَجْزِ اسْتِرْقَاقُهُ كَالرَّجُلِ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ الَّذِينَ سَبَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ كَانُوا أَسْلَمُوا، وَلَا ثَبَتَ لَهُمْ حُكْمُ الرَّدَّةِ. فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّ الْمُرْتَدَّةَ تُسَبَّى. قُلْنَا: هَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ، ضَعَّفَهُ أَحْمَدُ [١]. هـ.

كيفية التفريق بين الكافر الأصلي والمترد:

واعلم رحمك الله، أن كل من انتسب إلى دين الإسلام ثم نقضه بناقض ما، فإنه يكون مرتدا، وليس كافرا أصليا، فالنطق بالشهادتين والانتساب لهذا الدين كاف في هذا الباب، وقد حكى شيخنا العلامة العلوان الاتفاق على ذلك.

ولا يقال إنه لم يحقق الإسلام ونحو ذلك، وأما ذريته فالأصل اعتبار انتسابهم كذلك لهذا الدين، فإن أفصحوا عن الناقض فهم مرتدون كذلك. مع استصحاب شرط إقامة الحجة للحكم بالردة.

أما طبيعة العلاقة، بين المؤمن والكافر، فهو ما جاء في تِمَامَةِ الآية، في قوله تبارك وتعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}، والتي تفسرها الأدلة الأخرى من الشريعة، التي تبين حقائق ذلك، كما تقدم.

الرد على من زعم أن حد الردة سياسي عارض لا شرعي مستقر مضطرد:

وأما قول المبطلين: إن الأمر يقتل من بدل دينه، هو أمر سياسي لا شرعي، هكذا زعموا متلاعبين بعقول البسطاء والسذج، وممعنين في الغواية والضلال، نسال الله العافية والسلامة، وهؤلاء نرد عليهم من وجوه:

الوجه الأول: أنه لا فرق في أحكام الإسلام بين السياسة والشريعة، فالكل من عند الله تعالى، والكل من دين الله تبارك وتعالى، بعث الله به نبينا محمدا ﷺ.

الوجه الثاني: أن هذا الحكم لو كان سياسيا كما يزعم هؤلاء؛ لانتهى بنهاية الحاجة إليه، وهذا باطل قطعاً، فقد استمر هذا الحكم بعد النبي ﷺ، وعمل به الصحابة **y**، من بعد النبي ﷺ، وعملت به الأمة من بعد ذلك، ودونت أحكام فقهية، ونصوا على أبواب الردة ونواقض الإسلام في كتب العقيدة والفقه، ونصوا على حكم الاستتابة، وهذا مستفيض لا ينكره إلا جاهل، أو معاند مستكبر.

الوجه الثالث: أن الأدلة دلت على أن هذا الحكم باق إلى نزول عيسى بن مريم **ؑ**، الذي سيطبق ذلك كذلك بنفسه، وسيعمل به، كما في الصحيحين عن أبي هريرة **رضي**

اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ وَيَضَعَ الْجُزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ". فهذا هو عيسى بن مريم عليه السلام يكسر الصليب، ولا يقبل الجزية؛ لأنه لن يقبل سوى الإسلام، أو القتل.

عيسى بن مريم عليه السلام سيهدم الديمقراطية ويكسر الصليب:

وهذا الحديث العظيم، فيه دليل صريح على أن عيسى بن مريم ﷺ ستكون من أعظم مَهَامِهِ الْكِبَارِ ﷺ، أنه سيهدم أَرْكَانَ الديمقراطية الكافرة المأفونة، وأنه سيسعى في القضاء على كل دين إلا دين الإسلام، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ.

ومعنى قوله: {قد تبين الرشد من الغي}: أي قد أتم الله النعمة، بإكمال هذه الدين؛ فاستبان سبيل المؤمنين من سبيل المجرمين، وعليه قال سبحانه وتعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله واسع عليم}: أي من أراد الرشد وترك الغي، فلا سبيل إلى ذلك، إلا بالاستمسك بالعروة الوثقى، ولا سبيل إلى الاستمسك بالعروة الوثقى، إلا بتحقيق الكفر بالطاغوت، المستلزم بغضه، وبغض أهله، ودعوتهم، ثم مجاهدتهم، كما قال تعالى: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}: أي حتى لا يكون في الأرض شرك، وقال: {لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى}.

وقوله: {لا انفصام لها}: أي هذه العروة، إنها قامت على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، فلا إله إلا الله غير قابلة للتجزئة، والعروة الوثقى لا يمكن أن تقوم مُبَعَّضَةً مُجَزَّئَةً، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة}، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء: ١٥٠-١٥١]، فلا بد من الإتيان بها غير مُنْفَصِمَةٍ.

قال المؤلف: (وهذا معنى "لا إله إلا الله"): أي هذه هي حقيقة هذه الكلمة، فقد قامت على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وقد تقدم أن (لا إله إلا الله) منهج متكامل للحياة.

وقد بين المؤلف مراده من هذه العبارة، لما ذكر الشرط المصحح لقبول هذه الكلمة من العبد.

فقال كما في كتاب التوحيد له معلقا على حديث طارق بن أشيم ؓ في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَرَّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ. وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ الْمَوْلَفُ رحمه الله:

[وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التَلَفُظَ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا مَعْرِفَةَ معناها مع لَفْظِهَا، بل ولا الإِقْرَارَ بذلك، بل ولا كَوْنَهُ لَا يَدْعُو إِلَّا اللَّهَ وحده لا شريك له. بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شَكَّ أو تَرَدَّدَ لم يَحْرَمَ مَالُهُ وَدَمُهُ.

فَيَا لَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَجَلَّهَا، وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ، وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا
لِلْمِنَازَعِ] انتهى.

النصارى أقرب إلى الحق من اليهود والكل كفار:

فصل: في الرد على شبهة كون الله تعالى أثنى على النصارى، ووجوب رد المتشابه إلى
المحكم ليزول الإشكال:

اعلم رحمك الله تعالى، أن هناك من يحاول جاهدا أن يلبس الحق بالباطل، ربما من
حيث لا يدري، وكثيرا من حيث يدري، استجابة لضغط الواقع، تبرير وتبرير هذا
الواقع المر، وتجاوبا مع أجندة الكفار، القاضية بالتسوية بين المؤمنين والكفار؛ ومن
أخطر ذلك ما يكون متعلقا بعلم المعتقد، حيث يعتمد البعض في محاولة جادة لإقناع
الامة، بأن النصارى ليسوا بكفار، مستدلين بقول الله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً
لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا
نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [المائدة: ٨٢].

ولاشك أن هذه الشبهة من أظهر ما تكون بطلانا، ولولا أننا في زمان القلوب فيه
مستشرفة للفتنة، متشربة لها، لما التفتنا إليها، ولا عرجنا عليها، ولكن الله المستعان،
وعليه التكLAN، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فأقول، للرد على ذلك وجوه:

أولاً: أن ما بعدها من الآيات توضح المقصود والمراد، حيث بين الله تبارك وتعالى صفات هؤلاء النصارى، فنعتهم بأنهم لا يستكبرون على الحق إذ عرفوه، وأنهم تحن قلوبهم إليه وتأوي حتى تفيض أعينهم من الدمع، وأنهم يسألون الله تعالى أن يكتبهم من الشاهدين على هذا الحق الذي علموه، فيشهدون بعلم على أنه الهدى والحق والنور المبين، ثم صرحت الآيات بإيمانهم، بل وإنكارهم على من ينتقدونهم إذ آمنوا بالله ورسوله ٢؛ فكانوا من أهل الجنة وشهد الله تعالى لهم بالإحسان.

قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ٨٣ - ٨٥].

ثانياً: أن الآيات بعد أن ذكرت الذين آمنوا من أهل الكتاب، ذكرت الذين كفروا فقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [المائدة: ٨٦]، وهذا مما يؤكد المعنى المتقدم، ويوضح من هم الذين أثنى الله تعالى عليهم في هذه الآيات.

ثالثاً: أن الله تعالى قرر في مواضع من نفس السورة كفر النصارى، فقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٧]، وقال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ { [المائدة: ٧٢-٧٦]، وهذا من أوضح ما يكون.

رابعا: أن النبي ﷺ قال: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ". أخرجه مسلم. وفي هذا المعنى ما جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن ناسا في زمن رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله ﷺ: "نَعَمْ". قال: "هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ". قالوا لا يا رسول الله. قال: "مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَا اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَا أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقُطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ. فَيَقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْعُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهُمْ

سَرَابٌ يَخْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. - قَالَ - فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَخْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.... الحديث".

خامساً: أن الأصل المتفق عليه عند أهل السنة والجماعة، أن الأمر المتشابه لا بد أن يُرَدَّ إلى المُحَكَّم؛ فيزول الإشكال، فإن لم نفعل؛ كان ذلك اتباعاً للهوى وصداً عن الهدى، كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةُ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} إِلَى قَوْلِهِ {أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ} قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ".

كيف والأمر هنا في غاية الإحكام والوضوح، ولكنه من باب التنزل؛ لدحض الشبهة، وإقامة الحجة.

الشك في كفر أهل الكتاب كفر بإجماع المسلمين:

ولنعلم علم اليقين، أن من توقف أو تردد في كفر اليهود والنصارى - الذين، عبدوا غير الله تعالى، أو الذين زعموا توحيد الله تعالى ورفضوا شريعة رسول الله ﷺ، أو الذين

زعموا إفراد الله تعالى مع إنكارهم نبوة ورسالة رسول الله ﷺ -، فهو كافر خارج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين.

ولنعلم أنه لا يغني عن المفتونين قولهم: إنه ليس كل أهل الكتاب يعبدون غير الله، بل بعضهم ينكر ذلك، فنقول لهم: لم تصنعوا شيئاً، فإن الإيمان بالله تعالى يتمثل في تحقيق (شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله) لا انفصام لها، قولاً وعملاً، بحقائقها ولوازمها ومقتضياتها، وإلا فلم يزل كافراً بالله تعالى، فلا يغني عن العبد شيئاً أن ينكر التثليث، وعبادة غير الله تعالى، حتى يضيف إلى ذلك الدخول في طاعة الرسول ﷺ وشريعته.

المصالح والمفاسد والدين الجديد:

فصل: واعلم أن قضية تحديد المصالح والمفاسد أمرها إلى حكم الشارع الحكيم لا إلى أهواء الناس واجتهاداتهم الخاصة، فما أمر به الشارع فلا شك أنه يتضمن المصلحة العليا، وإن رأى من أهل العلم خلاف ذلك، وما نهى عنه الشارع لا شك أنه يتضمن المفسدة، ويتعين اجتنابه وتركه، وإن توهم من توهم أن المصلحة في إتيانه وفعله، ولا يمكن أن تتحول المصلحة التي اعتبرها الشارع إلى مفسدة، والعكس، بدعوى يدعيها من يدعيها من الناس.

وإلا تحول الشرع إلى أهواء وأراء يتجاذبها العباد، فلا تبقى ثوابت في الدين، بل وسيصير الأمر إلى أنه إذا ثبتت المصلحة أو المفسدة عند هؤلاء أو أولئك بآرائهم

واجتهاداتهم الخاصة؛ أخذوا بها مطوحين بالدين، مع أن هناك من ينازعهم في ما زعموه، من أهل العلم، ولكنهم بدعوى المصلحة والمفسدة ينازعون أمر الله ورسوله، والله تعالى يقول في محكم التنزيل: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء: ١٠٥]، وقال سبحانه وتعالى: {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: ٧١].

ولهذه الأسباب قال بعض المحققين:

إن هذا دَيْنٌ جَدِيدٌ، يُدَشَّنُ بِاسْمِ المصالح والمفاسد، فهي: كلمة حق أريد بها باطل. وبناء على هذا التطويح في ميزان المصالح والمفاسد، جوزوا اعتماد الوطنيات عوضاً عن الولاء والبراء، والديمقراطية بدلاً عن الاستسلام لشرع الله، والشعب معبوداً عوضاً عن الله تعالى، فصاروا إلى تدشين الكفر، وهم يدعون أنهم يريدون نصر الإسلام، والإتيان بالشرعية عبر الديمقراطية، وصناديق الاقتراع، ومواثيق الأمم المتحدة الملحدة، خابوا وخسروا وشاھت الوجوه، فقد صرنا إلى زمان صار فيه بعض الخواص لا يميزون ملة إبراهيم، حتى كأنهم لم يسمعوا بها من قبل، بل وأصبح الذين كانوا يحاربون التشريعات الجاهلية، من خلال محاربة البرلمانات، والديمقراطية، والفساد الجاهلية، صار ينافح عنها ويدافع، ويدعو إليها ويجادل عنها، حتى بلغ الحال ببعضهم، إلى أن صار يصرح بأنه، لا سبيل إلى نصر الدين إلا

بهذه السبيل، بل وقال بعضهم: إن الدعوة إلى تطبيق الشريعة في ظل هذه الظروف فتنة، يجب أن تحارب ويُقضى عليها، والله تعالى يقول: {وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا} [القصص: ٥٧]؛ فشابهوا المشركين والمنافقين في أقوالهم، {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}، ويقولون: {إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا}.

قال الشاطبي في كتابه: (الموافقات): [وأما الأسباب الممنوعة؛ فأمرها أسهل؛ لأن معنى تحريمها أنها في الشرع ليست بأسباب، وإذا لم تكن أسبابا لم تكن لها مسببات؛ فبقي المسبب عنها على أصلها من المنع، لا أن المنع تسبب عن وقوع أسباب ممنوعة، وهذا كله ظاهر؛ فالأصل مطرد والقاعدة مستتبة، وبالله التوفيق]. ١.١.هـ.

وقال أيضا: [المسألة الحادية عشرة: الأسباب الممنوعة أسباب للمفاسد لا للمصالح، كما أن الأسباب المشروعة أسباب للمصالح لا للمفاسد]. ١.١.هـ.

وقال أيضا: [والمقصود أن الأسباب المشروعة لا تكون أسبابا للمفاسد، والأسباب الممنوعة لا تكون أسبابا للمصالح؛ إذ لا يصح ذلك بحال]. ١.١.هـ.

التوحيد أعظم المصالح والشرك أعظم المفاسد:

وعليه فلنعلم أن أعظم المصالح التي يجب تحقيقها، هو إقامة التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وأن أعظم المفسدات التي يجب درؤها، هو الشرك بالله تعالى، وتأمل في هذه الحادثة التي وقعت في زمان النبي ﷺ لتعلم حقيقة ذلك.

مثال نبوي عظيم دال على أن درأ مفسدة الشرك لا تعدلها مصلحة:

قال ابن القيم في (زاد المعاد): [بعث المغيرة وأبي سفيان لهدم اللات: وقد كان فيما سألا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سأله شهرا واحدا بعد قدومهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذرائعهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول الله ﷺ أما كسر أوثانكم بأيديكم، فسنعفيكم منه وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنا، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا

الطائف، أراد المغيرة بن شعبه أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك عليه أبو سفيان فقال ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بهاله بذى الهدم فلما دخل المغيرة بن شعبه، علاها يضربها بالمعول وقام دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها، ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالفأس - "واها لك واها لك" فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها، أرسل إلى أبي سفيان مجموع مالها من الذهب والفضة والجزع [١٠١هـ].

فصل: في بيان أن القوم غلطوا على ابن تيمية في مسألة المصالح والمفاسد لتبرير وتمثيل هذه الديمقراطية المأفونة، ومداخلة الطاغوت:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢٩ / ٢٨): [وَجَمَاعُ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي "الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ": فِيمَا إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمُفَاسِدُ وَالْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ أَوْ تَزَاحَمَتْ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ تَرْجِيحُ الرَّاجِحِ مِنْهَا فِيمَا إِذَا ازْدَحَمَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمُفَاسِدُ وَتَعَارَضَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمُفَاسِدُ.

فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ فَيَنْظَرُ فِي الْمُعَارِضِ لَهُ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَقُوتُ مِنَ الْمَصَالِحِ أَوْ يَحْصُلُ مِنَ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ؛ بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إِذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ؛ لَكِنَّ اعْتِبَارَ مَقَادِيرِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ هُوَ بِمِيزَانِ الشَّرِيعَةِ.

فَمَتَى قَدَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى اتِّبَاعِ النُّصُوصِ لَمْ يَعْدِلْ عَنْهَا وَإِلَّا اجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ
لِمَعْرِفَةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ وَقُلْ إِنَّ تَعَوُّزَ النُّصُوصِ مَنْ يَكُونُ خَيْرًا بِهَا وَبِدَلَالَتِهَا
عَلَى الْأَحْكَامِ [١٠.هـ].

اجتناب الطاغوت فريضة لازمة في الإيمان:

فصل: في معنى اجتناب الطاغوت والكفر به، وكيفية تنزيله في أرض الواقع:
إن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة، يجد وبكل جلاء ووضوح، أن أحص خصائص
الإيمان ولوازمه، الكفر بالطاغوت واجتنابه، والبراءة منه ومن أهله.

وإن من العجائب العلمية، أن تجد أقواماً من أهل العلم والإيمان، يقررون في
دروسهم وكتاباتهم، ضرورة اجتناب الطاغوت واعتزاله، ثم هم يفتنون بجواز
مداخلته، وتولي المناصب له!! ولا أقول إنهم لم يفهموا معنى اجتناب الطاغوت بهذا
الاعتبار، ولكنهم تأثروا بأقوال لبعض أهل العلم من المتأخرين، لما حباهم به الله تعالى
من الفهم والتدقيق، والاستقراء والتحقيق، مما علا به كعبهم في العلم، وصار لهم
بفضل الله تعالى وتوفيقه قدم صدق في هذه الأمة، إلا أنه يبقى هذا العالم أو ذلك، غير
معصوم من الخطأ والذهول والنسيان.

ومن استصحب معه هذا الأصل الأصيل؛ سيدرك ولا محالة بإذن الله تعالى، مواضع
الزلل والخطأ والنسيان والذهول في كلام أهل العلم.

وإن من الجناية الكبرى على الشريعة أن تُحَاكِمَ نصوص الكتاب والسنة إلى أقوال الخلف، مع وجود أقوال وأحوال للسلف، في بيان ذلك وتفصيله، بل ومع ظهور دلالات الكتاب والسنة في هذا الشأن أو ذاك، فكيف بهذه المسألة الأصولية الكبرى، المتعلقة بأخطر القضايا وأكبرها، ألا وهي مسألة: كيفية تحقيق الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، والتي هي العروة الوثقى التي لا تقوم للإيمان قائمة بدونها، وإن كثرت صلاة المرء وعباداته.

وإن مما ينبغي أن يتنبه له أهل السنة والجماعة، أنهم يقررون دائماً في دروسهم وكتاباتهم وخطبهم ومواعظهم، أنهم إنما يأخذون دينهم من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

وهذا من الأصول المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة؛ فعلى كل من انتسب إلى هذا الأصل، أن يكون عاملاً به، مفتخراً بذلك، لا ينكل عنه ولا يتنصل منه، ولا يتنكر له باعتبارات وأعداء واهية، كمن يقول: كيف خفي ذلك على العالم الفلاني؟!، أو قولهم: وهل هذا العالم لم يحقق في هذه المسألة المتعلقة بأصل الدين والإيمان؟!، ونحو ذلك من الأقوال، فإن هذا من مواقع الزلل والجهل، والمخالفة الصريحة لما يدين الله تعالى به من الاعتداد بالأصل المتقدم تقريره.

وإن مما ينبغي أن نتذكره دائماً أنه ليس من حقنا أبداً أن نتخذ من الخلف سلفاً؛ لنعارض به، ونعارض أقوالاً وأحوالاً للسلف الصالح، أهل القرون الثلاثة المفضلة. فتأمل.

والمأمل في الساحة الدعوية في هذا العصر؛ يجد أن أقواما انتحلوا ذلك؛ فاتخذوا من الخلف سلفا، وجعلوا أقوالهم قاضية وحاكمة على كل حال، وإن خالفت أقوال السلف، بل وإجماعهم، فالله المستعان، ونعوذ به من العمى والخذلان.

كما أن من المقرر لدى أهل العلم، أن العالم لا يسعه التقليد، وهو قادر على البحث والتنقيب عن الحق لإصابته، فكيف بمسائل العقيدة، فإن الأمر أعلى وأجل.

وإن قضية اجتناب الطاغوت، هي من القضايا التي كثرت معالجاتها في الكتاب والسنة، تارة بالتحذير الصريح، وتارة بالثناء على مجتنبي الطاغوت، وتارة بالحث على اجتنابه، وتارة بذكر نجاة من اجتنب الطاغوت وهلاك وبوار من لم يفعل.

كما أن المتأمل يجد أن الألفاظ قد تنوعت، وتنوعت العبارات، والسياقات، في هذا الصدد كذلك، كل هذا إمعانا في بيان خطورة هذا الشأن العظيم، والخطب الجلل.

فهناك الأمر بالترك، وهناك الأمر بالاعتزال، وهناك النهي عن الركون، وهناك الأمر بالبراءة، وهناك الحث على المنابذة، بل وجاء التصريح بالأمر بالمقاتلة، مع وجود الشوكة؛ لإزالة الطاغوت، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وجميع هذه الألفاظ، قاضية وبكل صراحة ووضوح، أنه لا يحق لعبد مهما بلغ من العلم والديانة والتقوى والورع، أن يكون مداخلا للطاغوت، فضلا عن أن يكون خادما له، إذ كيف يتصور ذلك مع تحقيق المنابذة، والسعي في المقاتلة والإعداد لذلك، والقيام

بالاعتزال التام والبراءة المعلنة، بل كيف يتأتى ذلك مع تحقيق معنى الترك والاجتناب وعدم الركون؟!..

لاشك أن هذا من أبطل الباطل، ومن أقبح أنواع السعي الحثيث في الجمع بين المتناقضات، فإن الإيمان لا يكون دائما إلا في حد في مقابلة الطاغوت على كل حال، فلا تقارب ولا ركون ولا مداخله، بل هو الاعتزال والاجتناب، والحرب المعلنة، والتحدي إن أمكن ذلك، والبراءة من الطاغوت ومتعلقاته، فإنها هو الاجتناب للعابد والمعبود من دون الله تعالى، بكل ما تحمله هذه المعاني من الضرورات والإلزامات.

وقصص الأنبياء والصديقين واضحة المعالم في الكتاب والسنة، كلها دالة وقاضية بتقرير هذا المقام الكبير الخطير، فلا تجد نبيا، ولا رسولا، ولا صديقا، إلا وهو محقق لمعنى هذا الاجتناب، من خلال الاعتزال والترك، والبراءة والتحدي، والمحاربة إن أمكن ذلك، وغير ذلك من المعاني الكبار المتعلقة بهذا الأمر العظيم.

وإن أي مداخله للطاغوت، أو محاولة لإيجاد قواسم مشتركة معه، وإن كانت بدعوى تقليل الباطل أو الظلم، يصب مباشرة في باب التلبيس في الدين، وعدم منابذة الطاغوت، فالحذر الحذر.

وإن من أعظم الأمور التي جرت إلى تثبيت الطاغوت وبقائه، مداخلته وتولي المناصب له، إذ أن الواجب على المسلمين السعي في إزالته، فلما داخلوه وركنوا إليه؛ مسهم العذاب، حيث رقت مسائل الشرع عندهم، بل تناسوا الطاغوت، بل وصاروا معذرين عنه؛ لأنهم والحالة هذه إنما يعذرون عن أنفسهم وواقعهم المر الذي يعيشونه،

ترى ذلك على حالهم ومقاهم، فمن قائل: أتريدنا أن نعتزل المجتمع؟، وآخر يقول: نريد الإصلاح، ومن قائل: هذا ولي أمرنا وتجب طاعته!!.....الخ.

أما علم هؤلاء أن الطاغوت هو عبارة عن مؤسسات وكيانات يمرر من خلالها الطاغوت حكمه الجاهلي بدستوره الكفري؟!.. وهو بحاجة ماسة إلى من يُلَمِّعُ له حاله، ويروج له، وبدخول هؤلاء معه تم له ما يريد.

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه، أليس من القواعد المتفق عليها، عند هؤلاء الذين يزعمون مداخله الطاغوت بدعوى الإصلاح وتقليل الشر، أخذهم بقاعدة: (أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأمرنا بتقديم خير الخيرين بتفويت أدناهما، وبدفع شر الشرين باحتمال أدناهما).

فنقول لهم ولغيرهم: أليس من المقطوع به، أن أعظم الشر على الإطلاق هو الكفر والشرك بالله تعالى، وهو الطاغوت المأمور باجتنابه والكفر به، والبراءة منه ومن أهله؟.

فنسألهم، ما هي المفسدة التي هي أعظم من الطاغوت، التي قادتكم إلى الركون إلى الطاغوت ومداخلته؛ لتدفعوا الأعلى بالأدنى. ولا شك أنه وبهذا الاعتبار والتصوير، أن الأدنى هنا هو الطاغوت، والأعلى هو ذلك الشيء الذي لأجله داخلوا الطاغوت محتملين إياه؛ لدفع ذلك الأعلى!!.

فنعود ونقول: ما هو هذا الأمر الذي هو أعظم من الطاغوت؟!.. حتى دفعتم الأعلى باحتمال الأدنى (الذي هو اجتناب الطاغوت في هذه الحالة)؟!..

إن المتأمل في واقع هذه المداخلات، يجد أن الأمور التي يذكرونها، والتي بسببها داخلوا الطاغوت، كانت على كل حال أدنى بكثير من الطاغوت، بل وفي كثير من الأحيان إن لم يكن دائما، تكون هذه المداخلات؛ لتقليل ضرر وقع على الناس في دنياهم، من مأكّل ومشرب وملبس، ووظائف ونحو ذلك من أسباب المعاش.

ولا شك أن هذه الأشياء، لا يحل معها أبدا بحال من الأحوال مداخلات الطاغوت، المأمور باجتنابه ومحاربته، واعتزاله وتركه، والكفر به والبراءة منه ومن أهله، بل وعدم الركون إليه في قليل ولا كثير.

بل لا يحل أبدا مداخلته مهما كان الأمر؛ لأننا لم نؤمر بهذا فيما يتعلق بالطاغوت، كما هو بين من النصوص الصريحة، وتعامل الأنبياء والصديقين في محكم التنزيل.

ولكنها اللوثة التي أخذت بعض القوم، في ترقيق مسائل التوحيد، والتي تولى كبرها في هذا الزمان بعض الطوائف والأحزاب المنتسبة إلى العمل الإسلامي والدعوة إلى الله، حيث يكون المعظم عند هؤلاء غالبا دنيا الناس لا دينهم.

ومن المقطوع به أن هذا التصور مخالف، بل ومصادم تماما لدعوة الأنبياء والمرسلين، بل ومناهض على طول الخط لملة إبراهيم الخليل الحنيف **e**، الذي أمر الأنبياء من بعده أن يأخذوا بها، ويسيروا على منوالها، لا يرغبون عنها، ولا يلتفتون إلى غيرها أبدا.

جماعة الإخوان المسلمين في ميزان اجتناب الطاغوت:

ومن أبرز هؤلاء، بَغْضُ لَيْسَ بِالْقَلِيلِ، بل كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَمَيِّنِينَ إِلَى جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، حَيْثُ يَرَى هَؤُلَاءِ أَنَّ الشَّرِيعَةَ لَيْسَتْ مُلْزِمَةً عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَكِنَّهَا أَمْرٌ مَهْمٌ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ ذَلِكَ سَيَجْرِ إِلَى فِتْنٍ عَلَى النَّاسِ فِي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيُمْكِنُ تَأْخِيرُ الشَّرِيعَةِ، بَلْ وَإِلْغَاؤُهَا، إِلَّا مِنْ بَعْضِ أَحْكَامِهَا مِنْ نِكَاحٍ وَطَلَاقٍ وَمَوَارِيثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَلَا إِشْكَالَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ اعْتِمَادِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ كَحُلِّ وَسْطٍ - زَعَمُوا - لِلخُرُوجِ بِالْعِبَادِ وَالْبِلَادِ مِنَ الْفِتَنِ!!.

وَمِنْ بَابِ الْإِنْصَافِ لَيْسَ كُلُّهُمْ كَذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قُلْتُ: (كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَمَيِّنِينَ) إِذْ فِيهِمْ مَنْ يَطَالِبُ بِتَطْبِيقِ الشَّرْعِ، وَلَكِنَّهُمْ وَلِلْأَسْفِ مَخْدُوعُونَ بِشَعَارَاتٍ أُخْرَى زَائِفَةٌ خَبِيثَةٌ، يَنْبَغِي أَنْ يَقُومُوا عَلَيْهَا وَيَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا. كَتَجْدِيدِ الدِّينِ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ، وَالْإِعْتِدَادِ بِالْعَقْلِ وَإِنْ خَالَفَ النُّقْلَ، وَالْإِحْتِجَاجَ بِوُجُودِ الْخِلَافِ، وَأَنَّهُ لَا إِنْكَارَ مَعَ وَجُودِ الْخِلَافِ، وَالْكَلِّ يَسَعُهُ أَنْ يَأْخُذَ بِمَا يُوَافِقُ وَاقِعَهُ، وَتَقْدِيمِ الْأُمُورِ التَّنْظِيمِيَّةِ عَلَى الْأَحْكَامِ الرِّبَانِيَّةِ، وَهَذِهِ مِنَ الطَّوَامِ الْعِظَامِ، فَإِنْ جَعَلَ الْوَلَاءَ لِلتَّنْظِيمِ وَلَوْ عَارِضَ شَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ دَاخِلٌ فِي عَمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١].

تنبيه مهم:

أقول لنفسي ولإخواني: اعلم أن الإنصاف، والأدب مع المخالف، من أهل القبله لا يتعارضان، ولا يعني أبدا السكوت عن موبقاته وتمريها، فضلا عن تبريرها.

فإن العالم بالله، الراسخ في دين الله تعالى، لا يقيم بابا ليهدم آخر، فإن كان ذاك باب القسط والنصح بالتي هي أحسن، فإن الآخر هو باب النهي عن المنكر. نصيحة إلى جماعة الإخوان المسلمون: اعلّموا يقينا أن التلييس في الدين، أخطر من الكفر الصراح.

وهنا سؤال: هل الإخوان المسلمون شر من العلمانيين من جهة التلييس في الدين؟ سؤال طرحه البعض وانتقدته. وأرى أن صواب السؤال أن يقال: [رجل يُسمّى الكفرة باسم الإيمان، ويجعل من التلون في الدين (الزندقة) وجهًا من أوجه الإسلام؟]. وآخر يقول: [الإسلام للفرد، في خاصته، وأما الدولة وأحوالها ومؤسساتها، فلا توصف بالتدين؟].

فأيها أخطر على الإسلام وأهله، عقيدة وفقها؟.

الحقيقة مُرّة، ولكن لا بد منها للتّشافي: (صديقك من صدّقك لا من صدّقك)

واعلم أن الأمثلة المضروبة تاريخيا، والاستدلال الباهت المعالم، للتعذير والتبرير لهذا الفكر الخبيث، الذي لا يقيم لتوحيد الله تعالى ولا للولاء والبراء ولا للجهاد في سبيل

الله وزنا، إلا على استحياء سرعان من يزول مع تسارع الأحداث وتداعيات الواقع المر، لا تسعف مع واقع الفكر الإخواني العَقْدِي المبني على أن العدو إنما هو الإلحاد، وأن لكل أهل ملة تَدِينُهَا وَإِيمَانُهَا، فالكل مُؤْمِن، والكل مُتَدَيِّن، وإنما الكافر العدو هو الملحد فحسب، فالتدين على أي ملة كانت عند هؤلاء مطلب محمود؛ يجب تأييده وفسح المجال له، مع تقديم الدعم والتأييد لدعوته، كما أن رؤوسا من هذه الجماعة تنكر حد الردة، وتفتح باب حرية الاعتقاد على مُضْرَاعِيهِ، فللمسلم عندهم أن يتحول نصرانيا أو يهوديا، أو ما شاء من ملل الكفر، والمهم عندهم أن لا يخرج على الناس بسلاحه، أو يحدث فتنة في المجتمع، إلى غير ذلك من أقوالهم الكفرية الشنيعة والقييحة، كقولهم إن ثوابت الإسلام قليلة، وما عداها كله قابل للأخذ والرد، وهو مسرح للاجتهاد؛ ولهذا قال بعضهم: إن حد السرقة حكم فقهي، وليس من ثوابت الإسلام، عياذا بالله من الخذلان.

ويمكن أن يكون السؤال في واقع أفراد هذه الجماعة: المنافقون شر أم الكفار؟. قال تعالى: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَتَى يُؤَفِّكُونَ} [المنافقون: ٤].

وإنما أقول هذا إشفافا ودعوة، ومحبة للخير لي ولهم، لعلمهم أن يعلموا أنه قد آن الأوان لأن يُرَاجِعُوا دينهم، ويثوبوا إلى رشدهم، ويعلموا أنهم قد أبحروا بعيدا عن إسلام محمد ﷺ، وأن الذي يقدمونه ويسعون في نصرته هو إسلام خاص بهم، لا علاقة له بسبيل المؤمنين الصحابة الكرام ﷺ، وسلف هذه الأمة الأخيار الأطهار.

وأقول لهم: ألم يَأْنِ لَكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا، أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ، لَنْ تَنْتَصِرَ، إِلَّا بِتَحْقِيقِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ مِنْ شَاقٍ هَدِي سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ٢، وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَالٍ وَوَبَالٍ وَعَذَابٍ وَنَكَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥].

فكفى ما جنيتهم به على أمة الإسلام، من تضييع لحق الله تعالى، وتمييع لعقيدة الولاء والبراء، وتدجين الأمة والتطبيع مع الأعداء، والإعراض عن الجهاد في سبيل الله، بل ومحاربة أهله، ورميهم بالتطرف والتشدد والإرهاب، وعدم فقه الواقع، عياذا بالله من الخذلان.

واعلم هداك الله، أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا كَبِيرًا بَيْنَ التَّعْذِيرِ عَنِ الْمَخْطِئِ وَتَبْرِيرِ خَطِيئِهِ، فَضِلَا عَنِ الْقَوْلِ بِصَحَّتِهِ، فَإِنْ اجْتَمَعَ التَّعْذِيرُ وَالتَّبْرِيرُ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرَادُّ الْبَاسُ الْبَاطِلُ لِبَاسِ الْحَقِّ، وَإِقْنَاعِ الْجُمُوعِ بِمَبْدِئِ الْعَصْمَةِ.

ونحن في دعوتنا، كما نحذر من المرجئة، والخوارج، ونناصر الجهاد وأهله، وندعوا إلى إقامة شرع الله، فكذلك ننصح للخلق، ونعظم الحق، وإن كره من كره.

فالويل لمن قدم دين الله بناء على تصوراته الخاصة، وأجندة الحزب، لا على ما كان عليه النبي ٢ وأصحابه ٧، فالحق أعظم من الخلق.

طريقة جماعة الإخوان المسلمين في التعامل مع الحق وإصابته:

فجماعة الإخوان المسلمين، من أصولهم الكبار إثبات الخلاف، ولو كان شاذًا، بل منكراً، بل زندقة؛ لتسويغ العمل به، والتبرير لأصحابه، وعدم الإنكار عليهم؛ ليستع الماعون والجلباب، فيشمل كل صاحب هوى، بل تجاوزاً ذلك حتى قال بعضهم إن اليهود والنصارى مؤمنون، وليس بيننا وبينهم اختلاف عقدي، وصرحوا بأنهم إخوة لهم، وليسوا بكفار؛ ومن هنا تعلم خطورة هذا الفكر الذي يؤول إلى اتخاذ الدين لهوا ولعباً، وإنا إن كنا نحارب الطواغيت، فإن هذا الفكر لا يقل عنهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٩ / ٢٥٣): [لَيْسَ كُلُّ مَا يَقُولُهُ الْمُتَكَلِّمُونَ حَقًّا بَلْ كُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا قَالَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ وَغَيْرُهُمْ بِمَا يُوَافِقُ ذَلِكَ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا قَالُوهُ بِمَا يُخَالِفُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَقَدْ عُرِفَ ذَمُّ السَّلَفِ وَالْأَيُّمَةِ لِأَهْلِ الْكَلَامِ الْمُحَدِّثِ، قَالَ: وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ أَرَادُوا بِزَعْمِهِمْ نَصْرَ الشَّرْعِ بِعُقُولِهِمْ النَّاقِصَةِ وَأَقْسَيْتِهِمُ الْفَاسِدَةَ، فَكَانَ مَا فَعَلُوهُ بِمَا جَرَّاءَ الْمُلْحِدِينَ أَعْدَاءَ الدِّينِ عَلَيْهِ فَلَا الْإِسْلَامَ نَصَرُوا وَلَا الْأَعْدَاءَ كَسَرُوا، ثُمَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ يَتَرَكُونَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ الْمُعْصُومِينَ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ إِلَّا الْحَقَّ وَيُعْرِضُونَ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَيَقْلُدُونَ وَيَسَاكِنُونَ مُخَالَفَ مَا جَاءُوا بِهِ مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ وَأَنَّهُ يُحْطِئُ تَارَةً وَيُصِيبُ أُخْرَى وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ]. ١.٠هـ.

الاصطلاح على الدنيا بضياع الدين مؤذن بالدمار والهلاك:

واعلم رحمك الله، أن الحرص على دنيا الناس مع ضياع حق الله تعالى، هو من أعظم أنواع الخيانة وتضييع الأمانة، وهو سبب الانتكاسة، وفساد الأحوال، وتسلط العداة،

ولهذا جاءت الآيات والأحاديث واضحة المعالم في ضرورة أداء الأمانات إلى أهلها، وتأمل كيف قرن الله تعالى الأمانة وضياعها بإثبات حقه تبارك وتعالى في هذه الآيات الآتية، وكيف بين سبحانه أن من تضييع الأمانة عدم إعطاء كل ذي حق حقه، حتى يبلغ الحال بالعباد أن يعطوا المخلوق حق الخالق تبارك وتعالى عياذا بالله من الشرك الأكبر والذنوب الذي لا يغفر، وإليك هذه الآيات، قال تعالى: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [العنكبوت: ٢٥]، أي تصالحتم على أمر دنياكم مع الإبقاء على الطاغوت وحكمه، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى

يُحْكُمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا {
[النساء: ٥٩-٦٥].

العقوبة بنزع الأمانة:

ولهذا كان من أسوء العقوبات الإلهية نزع الأمانة وقبضها من المجتمعات، كما قال البخاري في صحيحه: (باب رفع الأمانة) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا هِلَالُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، **١**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **٢**: "إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ". حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ **٣** حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا: "أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظِلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرِ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَتَقَطُّ فَتَرَاهُ مُتَبَرِّأً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيَقَالُ إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ"، وَلَقَدْ أَتَى عَلَى زَمَانٍ وَمَا أُبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ لِمَنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ الْإِسْلَامَ وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا.

قَالَ الْفَرَبَرِيُّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ حَدَّثْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَاصِمٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ يَقُولُ: قَالَ الْأَصْمَعِيُّ، وَأَبُو عَمْرٍو وَغَيْرُهُمَا جَذَرُ قُلُوبِ الرِّجَالِ الْجَذْرُ

الْأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَالْوَكْتُ أَثَرُ الشَّيْءِ الْيَسِيرُ مِنْهُ وَالْمَجْلُ أَثَرُ الْعَمَلِ فِي الْكَفِّ إِذَا غَلُظَ. حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً". وَحَدِيثُ حذيفة وابن عمر رضي الله عنهما أخرجهما مسلم في صحيحه كذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: [وَقَبْضُ الْأَمَانَةِ وَالْإِيمَانِ لَيْسَ هُوَ قَبْضُ الْعِلْمِ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُؤْتَى إِيْمَانًا مَعَ نَقْصِ عِلْمِهِ . فَمِثْلُ هَذَا الْإِيمَانِ قَدْ يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ كإِيمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا رَأَوْا الْعِجْلَ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ مَعَ الْإِيمَانِ فَهَذَا لَا يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ قَطُّ بِخِلَافِ مُجَرَّدِ الْقُرْآنِ أَوْ مُجَرَّدِ الْإِيمَانِ فَإِنَّ هَذَا قَدْ يَرْتَفِعُ . فَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ . لَكِنْ أَكْثَرُ مَا تَجِدُ الرَّدَّةَ فِي مَنْ عِنْدَهُ قُرْآنٌ بِلاَ عِلْمٍ وَإِيمَانٍ أَوْ مَنْ عِنْدَهُ إِيمَانٌ بِلاَ عِلْمٍ وَقُرْآنٍ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ فَحَصَلَ فِيهِ الْعِلْمُ فَهَذَا لَا يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ] اهـ.

فهذه عقوبات وغيرها كثير، تسلط على الأمة من جراء تلاعبهم بحق الله تعالى، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن أكثر من يكون سببا في ذلك هم الأمراء والسلاطين وملأهم الظالمين، ثم من فسد من العلماء، ويأتي بعد ذلك المستخفون من العامة والدهماء، ولكن العذاب إذا نزل عمَّ عليه القوم ومن اتبعهم على ذلك التلاعب بشرع الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا

فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا { [الإسراء: ١٦ - ١٧]، وقال تعالى عن فرعون وملئه وأتباعه من قومه: { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ { [الزخرف: ٥٤ - ٥٦].

لا يجوز عرض الكفر على الأمة تحت أي دعوى أو شعار

فصل: في بيان أنه لا يجوز عرض الكفر على الأمة، وحثهم عليه، بدعوى نصره الإسلام، وميزان المصالح والمفاسد، إذ أعظم المفاسد كما تقدم الشرك والكفر بالله جل وعلا، فلا مصلحة ترجى بعد ضياع التوحيد والتمكين للكفر.

واعلم أن كل ما يستدل به دعاة الديمقراطية منتقد مُطَّرَح، فهو إما دليل ضعيف الإسناد، أو صحيح غير صريح الدلالة؛ لِطُرُوءِ الاحتمال فيه وَوُرُودِهِ عليه، في مقابلة الأدلة الواضحة البينة الجلية الدالة على المنع من ذلك، ومما يزيد الأمر وضوحاً أنك لا تجد في سبيل المؤمنين قط - النبي ﷺ وأصحابه - أنهم قبلوا عرض الكفر على الأمة بدعوى الحفاظ على الإسلام أو نصرته، وأنى يكون هذا؟!.

بل قد جاءت الأدلة الواضحة البينة الدالة على أنه لا يجوز عرض الكفر على الأمة مطلقاً، وأن هذا ليس محلاً للمساومات والأخذ والعطاء، والقبول وأنصاف الحلول، قال تعالى: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)}

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ { [الكافرون: ١-٦].

فالأمة مأمورة أبدا بعدم قبول الكفر، بل هي مأمورة بأن تأخذ دينها بجدد وتستمسك به وتأخذ بأحسنه، وتأمل في قصة أصحاب الأخدود وما قاموا به من الثبات على الإسلام، وعدم الرضوخ للطاغوت، حتى قُتلوا جميعاً، وسمى الله تعالى ذلك فوزاً عظيماً، وتأمل قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٥].

وقال: {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ} (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ { [الشعراء: ٢١٣-٢١٦].

وقوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤) إِذَا لَا ذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} [الإسراء: ٧٣-٧٥]،
وقوله: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٨-٩]، وقوله: {وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢)}

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ {
[العنكبوت: ١٠-١٣].

ومثل هذا كثير في الأدلة الشرعية، بل هذا هو الأصل، وأما الاحتجاج بها جاء في الصحيحين عن جابر **†** قال قال رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: "مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ". فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ ائْذَنْ لِي فَلَا أَقْتُلُ قَالَ: "قُلْ". فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا وَقَالَ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَرَادَ صَدَقَةً وَقَدْ عَنَّا. فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمْلُئَنَّهُ. قَالَ إِنَّا قَدْ اتَّبَعْنَاهُ الْآنَ وَنَكْرَهُ أَنْ نَدْعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ.... الحديث.

الرد على شبهة قصة قتل كعب بن الأشرف:

فهذا الحديث لا يسعفهم أبدا، وإليك بيان ذلك من وجوه:

أولا: أن المخالف لا يستطيع فعل هذا اليوم بعين ما فُعل من قبل، أي لا يستطيع أن يقول في حق النبي **ﷺ** لينصر الدين، فإن هذا منه ردة والعياذ بالله، فإن قال نعم؛ لأن النبي أذن وهذا لا نملكه فقد مات **ﷺ**؛ قلنا إذن عاد الأمر إلى إذن الشارع، فمن أذن لكم أنتم؟!.

ثانيا: أنه إذا كنا لا نستطيع أن نأتي بالأصل الذي عليه اعتمدنا في الحكم دل ذلك على الخصوصية، فتعميم ذلك والحالة هذه ممتنع فاسد، فإن الأصل إذا انهدم فالفرع أولى وأحرى.

ثالثاً: أن هذه قضية خاصة تَمَّت سرا، فأين هذا من الدعوة العامة للأمة إلى الكفر وقبول الدخول في خطة الكافرين؟!.

ولهذا لا يمكن أن تجد صورة عامة لمثل هذا المثال الذي يضربونه مجادلةً بالباطل – وإن لم يتعمدوا ذلك –، فلا تجد كما تقدم أبداً مثلاً يُعرض فيه الكفر على العباد، بل ويزين لهم، بل ويجعلونه السبيل الوحيدة، بل بعضهم يراها المثل والأُنفع والأُنجع، عياداً بالله من الخذلان.

رابعاً: أن هذا تم في وقت عزة الإسلام، بحيث لا يُخشى على الأمة من جراء ذلك، بخلاف الحال اليوم.

خامساً: أن القول لم يكن صريحاً، وإنما هو القول المحتمل الموهم، وإنما الحرب خدعة، كما ثبت بذلك الخبر عن النبي ﷺ، كما في الصحيحين من حديث علي وأبي هريرة وجابر **Y**، بخلاف الديمقراطية التي فيها عهود ومواثيق، يتم التوقيع عليها والإقرار بها، وتقدم الضمانات الكافية على الالتزام بها، والشعب يراقب ذلك، والمجتمع الدولي بالمرصاد.

سادساً: أن نصر الإسلام بذلك كان مقطوعاً به، بخلاف الديمقراطية التي ما جيء بها إلا لهدم الإسلام، وضمان عدم قيامه في العالمين، إلا إسلاماً مختزلاً مُقَصَّصَ الأطراف (الإسلام الأمريكي الذي يقدمه جماعة الإخوان المسلمين، كما في تركيا وتونس والسودان).

فالبون شاسع بين الحالتين والهُوَّةُ سحيقة، ومما هو متقرر لدى أهل العلم أن الفارق إذا كان أكبر من الجامع بين الأصل المُقاس عليه والفرع المقيس؛ فسد القياس وطرح، وكان إمضاؤه والحالة هذه من أبطل الباطل، واتباعا صريحا للهوى وطرحا للهدى.

فإذا علمنا هذا، فلنعلم أن المتقرر المقطوع به عند أهل العلم، وجوب ترك المتشابه والأخذ بالمحكم، ووجوب طرح المحتمل والأخذ باليقين.

فقد جاء في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} إِلَى قَوْلِهِ {أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ} قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ".

الرد على شبهة الاحتجاج بحلف الفضول:

وأما الاحتجاج بحلف الفضول أو المطيين - على خلاف في هل هما شيء واحد أم لا - فإن الاحتجاج به غير تام؛ لأن الأسانيد لا تخلو من مقال^١، والراجح أن الخبر مرسل.

١ - جاء في موسوعة أقوال الإمام أحمد: [وقال المروزي: قلت لأبي عبد الله: فعبد الرحمان بن إسحاق، كيف هو؟ قال: أما ما كتبنا من حديثه، فقد حدث عن الزهري بأحاديث، كأنه أراد، تفرد بها. ثم ذكر حديث محمد بن جبير في الحلف، حلف المطيين، فأنكره أبو عبد الله. وقال: ما رواه غيره. "سؤالاته" ١. هـ. قلت: وهذا هو المعتمد من كلام الإمام أحمد في هذا الخبر أنه ينكره، فيحمل

وعلى كل فالدخول في أحلاف مع الكفار ثابت شرعاً، ولكن بالضوابط والأدلة الشرعية الصحيحة، والتي دلت على أن أي حلف، أو أي شرط لا يقوم على أصل تعظيم حق الله تعالى وتقديمه وصيانتته فهو باطل، كما في الصحيحين في قصة بريرة مع عائشة رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: "مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِثْلَ شَرْطٍ فَضَاءَ اللَّهِ أَحَقُّ وَشَرْطُ اللَّهِ أَوْثَقُ وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ".

المحتمل من كلامه على هذا، كالمدرسة التي جرت بينه وبين أحمد بن صالح وذكر فيها حلف المطيعين. والله أعلم.

وجاء في كتاب (التعديل والتجريح)، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح) للحافظ أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد ابن أيوب الباجي المالكي: [قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح فهات حتى نتذكر ما روى الزهري عن أولاد أصحاب رسول الله ﷺ فجعلنا يتذاكران إلى أن قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح عندك عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال ما يسرني أن لي حمر النعم وأن لي حلف المطيعين الحديث، فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل أنت الأستاذ وتذكر مثل هذا فقال أحمد هذا رواه عن الزهري رجل مقبول، وهو عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبه الواسطي، وحدثناه عن ذلك الرجل شيخان ثقتان بشر بن مفضل وإسماعيل بن علية فقال أحمد بن صالح سألتك بالله ألا ما أملتته علي فقال من الكتاب فقام وأخرج الكتاب وأملاه عليه فأعجب به أحمد بن صالح وقال لو لم أستفد بالعراق إلا هذا الحديث لكان كثيراً ثم ودعه وخرج من عنده] ١. هـ. قلت: وهذه القصة كما ترى استغرب فيها أحمد بن صالح هذا الخبر، ونفى الغرابة الإمام أحمد بن حنبل، وكما هو معلوم أن نفي الغرابة لا يعني الصحة؛ ولهذا ومع أن أحمد بن حنبل نفى الغرابة إلا أنه قطع بالنعارة في رواية المروزي كما تقدم. والله أعلم.

وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية قال النبي ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً، يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا".

فهذا هو الأصل الأصيل الذي تفتقده العملية الانتخابية والخطة الديمقراطية مطلقاً، بل هي على النقيض من ذلك تماماً، فإنها تقوم على تضييع حق الله تعالى والاستخفاف بالشرعية الربانية.

فَدَعُونَا مِنْ هَذِهِ الْمُحَاحَكَاتِ وَالتَّرْقِيعَاتِ، الَّتِي تَفْضِي إِلَى التَّلَاعِبِ بِحَقِّ الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَفِيقُوا فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ لَا يَنْتَصِرُ إِلَّا بِالْكِتَابِ الْهَادِي وَالسِّيفِ النَّاصِرِ.

الرد على من شبهة ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أماكن الخبث:

وذلك أن البعض يُشَبِّهُ مسألة الدخول في البرلمان، بِحَالَةِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فِي أَمَاكِنِ الْمُنْكَرَاتِ، فَهُوَ يَدْخُلُ وَيُنْكَرُ، يَقُولُ: وَنَحْنُ كَذَلِكَ نَدْخُلُ لِنُنْكَرَ، وَالْجَوَابُ عَلَى هَذِهِ الشَّبْهَةِ الْمُتَهَالِكَةِ مِنْ وَجْهِ:

الوجه الأول: أن الإنكار مع الانتساب لمكان المنكر والدخول في خطته ومنظومته، يختلف تماماً عن حال الذي لا ينتسب إليه، وليس له به أدنى صلة أو علاقة، بل هو دخول محض للإنكار، {فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها}، وهذا فارق عظيم كبير بين الأصل والفرع، يبطل به هذا القياس ويفسد.

الوجه الثاني: أن الدخول في البرلمانات يسبقه الاعتراف بها، والقسم على احترامها والإخلاص في ذلك، بخلاف الذي يدخل دخولا محضا، لا إلزام معه بشيء، من هذه الضلالات والمنكرات، فأين هذا من احترام الكفر والاعتراف به موقعا على ذلك، وإن زعم أنه لا يُقَرُّه، وهذا فارق عظيم آخر بين الأصل والفرع، يبطل به هذا القياس ويفسد.

الوجه الثالث: أنه كما أن هناك فرقا بين من يعمل في خمار ويتعاطى شيئا من الدعوة فيها، وبين من يدخل للإنكار المحض، فالفرق في البرلمانات أشد وأغلظ؛ لأن المنكر هناك هو الكفر بالله تعالى.

على أن الدَّاخل إلى حَائَةِ الخمر للإنكار، إن خَشِيَ تلبيسا على الأمة؛ وجب عليه الترك، أو البيان الشافي قبل الدخول، فكيف بالبرلمان الكفرية الطاغوتية، التي يكون المنكر فيها عضوا من أعضائها.

الوجه الرابع: أن الرسل قاموا بهذا الدور الريادي أكمل قيام، أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأين تجدون في دعوة النبي ﷺ، هذا النوع من الدخول، حالة كونه موقعا العهود والمواثيق على احترام الكفر وتطبيق شروطه، والالتزام ببؤده المناهضة تماما للإسلام، وليس سرا بل في العلن والهواء الطلق؟!.

بل جاءت دعوتهم عليهم الصلاة والسلام أصرح ما تكون في مفاصلة الطاغوت واجتنابه والتحذير منه كما تقدم، وتأمل دعوة إبراهيم الخليل كيف نابذ قومه من قبل ومن بعد، ثم دخل معبدهم وكسر أصنامهم، وهكذا تفعل الرسل عليهم السلام.

الوجه الخامس: أن التغاضي عن المنكر الأعظم تحت دعوى وغطاء وشعار تقليل المنكرات الأخرى، ضرب من التلاعب بالشرعية، فإن العملية الديمقراطية تقوم على تأليه الشعب للشعب، فالخلق فيها لله، ولكن الأمر للشعب، حيث تُطِيعُ الْأَقْلِيَّةُ الْأَغْلَبِيَّةَ.

فأين نحن من هذا الكفر والزندقة حتى تغاضينا عن ذلك، حتى وَقَعْنَا الْعَهودَ والمواثيق على احترام هذا الكفر والشرك بالله تعالى، فلو كنا صادقين في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكان لزاما علينا أولا وقبل كل شيء، أن نتبرأ من هذه العملية الكفرية الشريكية من أساسها، إذ هذا هو أول وأعظم منكر سنقابله، قبل الدخول لتخفيف منكرات أخرى.

الوجه السادس: أن الداخل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دخولا محضاً لا يَسَعُهُ إِلَّا أَنْ يُبَاشِرَ الْمُنْكَرَ الْأَغْلَظَ، ويبادر إليه —ألا وهو الكفر والشرك— لا يُدَارِي وَلَا يُمَارِي، كما كان الرسل يفعلون، بينما أصحاب البرلمانات لا يملكون ذلك؛ لأن الخطوط الحمراء التي وَقَعُوا عَلَيْهَا تُلْزِمُهُمْ بعدم رفع الشعارات الدينية في وجه الأحزاب الكفرية؛ لأن الكل على قدم المساواة في دستور الأحزاب الشركي الطاغوتي، وقوانينه الوضعية الكفرية.

الرد على شبهة من قال: ندخل ولا نستجيب لهم ولا نُقَرُّهُمْ:

وربما احتج هؤلاء بحديث عائشة المتقدم في الصحيحين من قول النبي ﷺ لها: "اشتري لهم الولاء فإنها الولاء لمن أعتق".
والجواب على هذه الشبهة المتهاكة من وجوه:

الوجه الأول: أن المسألة المقيس عليها في هذا الخبر، ليست مسألة كفرية، كما هو الحال في البرلمانات، إذ لا يجوز لأحد أن يتكلم بالكفر اختياراً، فدعوى الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هنا، غير مُتَأَتِيَةِ الْبَتَّة؛ لأنه يلزم من هذا أنهم لو اشترطوا قولاً أو عملاً كفرية؛ لَوَسَّعَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تقوله أو تعمل به اختياراً، وهذا من أقبح وأفسد ما يكون. فتأمل.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ هو السلطان في هذه الحالة، والأمر بيده وإليه، ولا يُخَشَى من ضياع الحق أو التلبيس فيه، بخلاف هؤلاء الذين يدخلون مُحْكُومٌ عَلَيْهِمْ لا حَاكِمِينَ، مُكَبَّلِينَ بسلاسل وأغلال قوانين الأحزاب، مَقْضِيٌّ عَلَيْهِمْ لا قَاضِينَ، فأين هذا من ذاك؟!..

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ بَادَرَ مِباشَرَةً بِالْإِنْكَارِ الْعَلَنِيِّ، والمُبْرَم، بأوضح بيان وأشد عبارة، وهذا ما لا يملكه البرلماني إذا دخل في خطة الكافرين، فهناك إنما يكون الإنكار - إن مُكِّنَ مِنْهُ - على استحياء وَتَرْقُبٍ وَتَوَجُّسٍ، وأَيُّ تَجَاوُزٍ لِلْحُدُودِ الدُسْتُورِيَةِ والقوانين الحزبية، فإن الرادع له بالمرصاد، فأَيُّ تَلْبِيسٍ وَتَضْيِيعٍ لِلْمَبَادِئِ كَهَذَا؟!..

ولا تقل سأنكر في الخطب والمحاضرات، لأننا سنقول لك إن كنت فرداً من أفراد الحزب، فإن قانون الحزب يحكمك، فما هو إلا صورة الإنكار الباهتة المتقدم ذكرها، هذا إن سُمِحَ له بذلك، وإن كنت لست فرداً فيها فما أغنيت عن الأمة شيئاً، فصوتك لا يمثل الحزب أصلاً، وورقتك التي وَقَّعَ عَلَيْهَا أَتْبَاعُكَ وَسَرَّتْ بِهَا الرِّكْبَانُ، قد ألبست على الناس دينهم.

في حين أنك لا تملك إصدار أي ورقة مماثلة باسم الحزب، تتبرأ فيها من هذه العملية الكفرية، ولا أن تشهد فيها بالكفر على الأحزاب العلمانية الأخرى، ولا أن تشهد ببطلان الدستور وقوانين الأحزاب وقانون البلاد، فانظر ما ذا جنيت على الأمة؟!، وما جنيت لها?!.

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ، قال لها ذلك؛ إهدارا لهذا الشرط، وإبطالا له، وإسقاطا لقيمته واعتباره، فأين هذا، ممن يذهب ويوقع على هذه الشروط الكفرية؟!، ويلتزم أجندة الدستور الجاهلي والقوانين الكفرية?!.

الوجه الخامس: أن هؤلاء، أو بعضهم يَتَصَوَّرُونَ، أن اللعبة الشيطانية المسماة بالانتخابات الديمقراطية، يظنونها لعبة اشتروها، حتى إذا فرغوا منها ألقوها.

هيهات هيهات!!، إن الذي أَذِنَ لك بالدخول، يعلم أنك على خلاف معه في الأصول، ولهذا خَزَمَكَ وأَجَمَكَ، بهذه الشروط الكفرية؛ ليضمن عدم تَنَصُّلِكَ عنها، أو تَلَاعُبِكَ بها، وهو رَاصِدٌ لِقَوْلِكَ وَعَمَلِكَ، وَسَتْحَاسِبُ على أدنى تقصير في ذلك، فالشَّعب وقانون الأحزاب من الداخل، والمجتمع الدولي من الخارج، وأنت بينهما لا تملك إلا الانصياع والانقياد، لما وَقَّعْتَ عليه بنفسك، والتزَّمتَ به.

فهذه الشروط في حالة تمكن الطاغوت تقع مُلْزِمَةٌ، بخلاف حال تمكن دولة الإسلام فإنها تقع فاسدة مُلْغَاة، فلا تخلطوا الأمور وتلفقوا الأدلة.

الوجه السادس: أن ما ستقوله عائشة رضي الله عنها لهم سيقع باطلا لا قيمة له، بينما الذي سَتَوْقَعُونَ عليه؛ سَيَقَعُ مُلْزِمًا لا يَحِيدُ عنه ولا مَنَاص، كما تقدم، وإلا فَالطَّرْدُ والإبعاد والإقصاء.

بل أقوالكم التي تعتقدون أنها هي الحق، ولكنها تكون مخالفة لما وَقَّعْتُمْ عليه، هي التي ستذهب سرايا وهباءً مثثوراً، فالدستور الجاهلي، والقانون الكفري فَوْقَكُمْ، وإليه مَرَدُّكُمْ عند التنازع في أي أمر، مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ الحزب والعملية الانتخابية.

أما ما يتعلق بقصة يوسف عليه السلام، ودعوى أنه تولى الولاية للملك الكافر، فهذه دعوى باطلة، مخالفة لنصوص الكتاب والسنة، ومخالفة لما كان عليه السلف الصالح، فقد بين الإمام المفسر المحدث مجاهد بن جبر، وهو أحد أبرز تلاميذ الحبر البحر ابن عباس ؓ، أن الملك أسلم مع يوسف لله رب العالمين.

وكذلك شبهة النجاشي وأنه كان يحكم بالطاغوت، هي دعوى عريضة لا دليل عليها ولا سلف لقائلها، وإن كان من الأئمة المجتهدين، بل فد أثبت إمام السيرة ابن إسحاق أن النجاشي وجنده وعلماء مملكته كلهم أسلموا لله رب العالمين، مع الرسول ﷺ وانقادوا لشرعه، وللتوسع في معرفة بطلان هذا الاستدلال راجع كتابي (فتنة العصر التشريعي)، فقد فَتَدْتُ الحادِثَتَيْنِ بأوجه كثيرة جداً، والله الحمد والمنة.

وكذلك مؤمن آل فرعون لم يكن من عمال فرعون ولا جنوده، بل نُسِبَ إليه لكونه من قومه، ولا تجد أصلاً لهذه الدعوى لا في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال التفسير من السلف، فمن زعم أن مؤمن آل فرعون كان من جنده أو عماله فقد أبعد النَّجْعَةَ وأعظم الفرية، كيف والله تعالى يشهد له بالإيمان؟!، بينما شهد على فرعون وجنوده بالكفر والطغيان، كما قال تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [القصص: ٨]، وقال سبحانه: {وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

إِنِّيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ} [القصص: ٣٩-٤٢].

بل جاء قول عن بعض السلف أن هذا المؤمن كان إسرائيليا، ورجحوا الوقف على قوله تعالى: {وقال رجل مؤمن}، ثم تستأنف: {من آل فرعون يكتنم إيمانه}، فيكون المعنى أنه كان يكتنم إيمانه من فرعون وقومه. ورجح ابن جرير وابن كثير القول الأول. ولتذكر أن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، وأن المتشابه واتباع الظن خبيث عند الله جل وعلا، وأن العاطفة الصادقة في نصره هذا الدين لا تغني عن أصحابها شيئا ما لم تكن على هدي النبي ﷺ وسبيل المؤمنين ﷻ.

فائدة نفيسة عزيزة: قال ابن القيم في: (الفوائد) "[فَلَوْ سَلَكَ الدُّعَاةُ الْمَسْلَكَ الَّذِي دَعَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ النَّاسُ إِلَيْهِ لَصَلَحَ الْعَالَمُ صَالِحًا لَا فَسَادَ مَعَهُ]. اهـ.

واعلم أن كل عقد يفضي إلى الكفر لله تعالى، لا يجوز الدخول فيه، وكل شرط تحت مظلة الطاغوت لا يجوز التوقيع عليه، ولو صوريا، وإن كان في عقود الشركات والأعمال والمؤسسات؛ لأنه كما تقدم سيقع ملزما؛ فيكون العبد قد جر على نفسه الدخول في حكم الطاغوت، الذي أمر أن يكفر به، واعلم أن من أنواع الالتزام الإقرار، فتنبه واحفظ دينك.

البرلمانات إرصادا لمن حارب الله ورسوله:

واعلم أن كل دائرة أو موقع يُدَارُّ فيه الكفر والزندقة، فأنت مطالب باجتنابه تماماً، وإياك أن تقربه أو تُدَاخِلَ أهله بدعوى المصالح والمفاسد، فالحذر الحذر، فإنه إذا كان الله تعالى قد نهى نبيه ٢ عن القيام في مسجد ظاهر أنه بُني لله تعالى، ولكن حقيقته كان اتفاقاً بين اليهود والمنافقين للمكر بالإسلام وأهله، قال الله تعالى لنبيه ٣: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} [التوبة: ١٠٨].

مع أنه كان بالإمكان أن يُغَيَّرَ فيه، وأن يُنَصَّبَ إماماً، ونحو ذلك، ولكنها الهداية الربانية: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا}، ليعلم الجميع أن دور الباطل يجب اعتزالها جملة وتفصيلاً، فأين مسجد الضرار من هذه البرلمانات الكفرية، التي فيها أرباب متشاكسون؟!.

وكذلك فعل النبي ٢ مع دار الندوة، والتي هي مَكْرُمَةٌ قريش، وبرلمانها الكفري، حيث تدار الأمور وتنطلق التشريعات الجاهلية، فلم يدخل النبي ٢ هذه الدار قط، بل أسس دار الحق منطلقاً لدعوته وإرصاداً لمن آمن بالله ورسوله، ألا وهي دار الأرقم ابن أبي الأرقم ٤، هكذا هي دعوة الرسل، لا لبس فيها ولا غش، بل هي المفاصلة التامة للكفر والكافرين وللشرك وأهله، وإعلان البراءة منهم ومن أربابهم وأهنتهم.

هكذا كانت دعوة النبي ٢ وطريقته، فدعك عنك بنيات الطريق، والآراء الفاسدة، التي أفضت بأقوام إلى الدخول في خطة الكفر والكافرين، بل ودَعَوْا الأمة إلى ذلك. فلا تَغْتَرَّ بكثرة القائلين بجواز ذلك، فإنما هو الحق تُعْرِفُ به الرِّجَالُ وتُمَيِّزُ أَقْوَامَهُمْ، ويُحَكِّمُ عليها به، فَلَسْنَا نَعْرِفُ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ. فتنبه فإنه مقام خطير زلت في أقدام.

فيا أيها العلماء والدعاة، أما علمتم أن دخولكم في مثل هذا الخبث، يمثل
جَنَائَةً عَظْمَى على عقيدة الولاء والبراء.

فبدلاً عن أن تكونوا أئمة يُهْتَدَى بكم، باتباعكم لإمام الحنفاء محمد ٢، الذي اتبع
الحنيف الخليل ٢، ناشرين لها داعين إليها؛ تقومون مقام المداخل للطاغوت، الملتزم
بأجندته، والمؤقع على دستوره وقانونه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا
بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا
حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
وَاعْفُ رُبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الممتحنة: ٤ - ٥].

وأخيراً أنظر أخي المغتر بهذا السراب، ألا ترى أنك أصبحت بوقاً يجادل عن العملية
الكفرية، وأنك أوشكت، أن تصبح فرداً في منظومتها، وأنك لا للباطل كسرت، ولا
للحق أظهرت، وإنما هو التلبس على الأمة والضياح.

ثم أذكرُك بحقيقة حَتْمِيَّة، مَبْنِيَّة على المُعْطِيَّات الواقعية، والممارسة العملية، التي
وَقَعَتْ عليها.

بل وَفَوْقَ ذَلِكَ هي مُسَطَّرَةٌ في كتاب الله تعالى، الذي حَذَّرَ من الركون إلى الكفار
والمشركين، والمذكر بقول المنافقين: {يَجْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا}

[النساء: ٦٢]، وَالْمُحَذَّرِ مِنْ خُطُواتِ الشَّيَاطِينِ، وَشِدَّةِ حَسَدِ الْكَافِرِينَ، وَحُبِّهِمْ لِمَوَافَقَتِهِمْ، كَخُطْوَةِ تَجْرُّ مَا بَعْدَهَا إِلَى الْوُقُوعِ فِي كُفْرِهِمْ.

أَنْكَ وَإِنْ تَسَلَّمْتَ الْحُكْمَ فِي نِهَايةِ أَمْرِكَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَكُونَ سِوَى أَدَاةٍ لَتَطْبِيقِ الدِّسْتُورِ الْجَاهِلِيِّ وَالْقَانُونِ الْوَضْعِيِّ، الَّذِي التَزَمْتَ بِاحْتِرَامِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ مَسْبِقًا.

وَهَذَا مَا جَرَى وَيَجْرِي فِي عَالَمِ النَّاسِ الْيَوْمَ، فَتَرَى أَسْمَاءَ إِسْلَامِيَّةً، وَرَبْمَا أَشْكَالًا إِسْلَامِيَّةً كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمَقَالَ أَصْبَحَ عِلْمَانِيًّا، وَالنَّظَرَ وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ صَارَ مِنْ خِلَالِ الدِّسْتُورِ الْجَاهِلِيِّ، وَالْقَانُونِ الْوَضْعِيِّ الْكَافِرِ الْفَاجِرِ.

وَأَنَا أَعْلَمُ، بَلْ وَالْكَلَّ يَعْلَمُ، أَنَّ الدُّوْلَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ، إِنَّمَا هِيَ دَوْلَةٌ مَوْسَّسَاتٍ مَدْنِيَّةً، كَمَا يَسْمُونَهَا، وَأَنَّهَا مُحْكَمَةٌ بِالدِّسْتُورِ وَالْقَانُونِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ تَدْيِينِ الْحَاكِمِ مِنْ عَدَمِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ فِرْقَعَاتٌ هُنَا أَوْ هُنَاكَ يَسْمُونَهَا مَصَالِحَ، لَا تَسَاوِي شَيْئًا فِي جَنْبِ الْكُفْرِ الْمَقْرَرِ دِسْتُورًا وَقَانُونًا، فَصَرْنَا كَالَّذِي يَبْنِي الْمَسَاجِدَ وَيُوَالِي أَعْدَاءَهَا، وَيُوسِعُ الْحَرَمِينَ وَيُشْرِكُ بِاللَّهِ تَعَالَى تَبْدِيلًا وَتَشْرِيعًا جَاهِلِيًّا، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ مِمَارَسَاتِ الْمُنَافِقِينَ.

فَإِنَّمَا هِيَ عِلْمَانِيَّةٌ جَدِيدَةٌ فِي لِبَاسٍ إِخْوَانِيٍّ أَوْ سَلَفِيٍّ، وَانْظُرْ إِلَى حَالِنَا فِي بِلَادِ شَتَى؛ لَتَرَى النَّتِيجَةَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ فِي هَذَا الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، فَإِنَّ لَكَ فِيمَنْ سَبَقَكَ مُعْتَبَرًا، وَالسَّعِيدَ مِنْ وُعْظِ بَغِيرِهِ.

فَهَا هِيَ مِصْرُ وَالسُّودَانُ، وَتُرْكِيَا وَالْمَغْرِبُ وَتُونِسُ، وَبِالْأَمْسِ الْجَزَائِرُ.

ألا فلتلق الله في دين الله تعالى، وأمة محمد ﷺ، فليس الإسلام ملكاً لنا حتى نتلاعب به بهذه الصورة، ونطوح به في أتونٍ ونجاسات العملية الانتخابية الكفرية الفاجرة.

فصل: في بيان أن الذي قاد هؤلاء الدعاة إلى هذه السُّبُل الشَّرِكية الكفرية، هو تحوُّلهم من دعوة النبي ﷺ القائمة على الكتاب الهادي والسيِّف الناصر، إلى الدعوة السلمية - زعموا عبر الانتخابات الديمقراطية والبرلمانات وكلاهما شرك بالله تعالى - والتَّنكُّر للجهاد في سبيل الله، بل ورمي من ينادي بالرجوع إلى سبيل المصطفى ﷺ، بإقامة الكتاب الهادي وسُلِّ السيف الناصر، يرمونه بالتطرف والغلو والتشدد والإرهاب.

وهذا إضافة إلى أنه مصادمة صريحة للأدلة الشرعية، ودعوة الرسل قاطبة التي قامت على الصبر والمصابرة والمراعاة والمجاهدة، والاستعلان بالكفر بالطاغوت، والسعي في القضاء المبرم عليه، والدعوة إلى ذلك مقبلين غير مدبرين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، فهو كذلك جري وراء سراب، إذ أن الكفار لن يزالوا يقاتلوننا وإن لم نقاتلهم، كما قال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة: ٢١٧]، ولن يزالوا ساعين في صدنا عن سبيل الله، كما قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبْغِ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: ١٢٠].

قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ مُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنَّ تَمَسُّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصَبِّحُكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصَبِّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ١١٩-١٢١].

فالدعوة السلمية الديمقراطية لم تكن أبدا سبيلا للرسول، إذ أن أول ما تتصل منه هذه الدعوة، هو تحقيق عقيدة الولاء والبراء، بل هي تدعو إلى احترام الكفر وأهله ومواقفه المصادمة للإسلام، وتنشر، وتكفل الحريات الدينية والفكرية والسلوكية، وبمعنى مختصر فإنها تدعو إلى تأليه البشر لأنفسهم، والله تعالى يقول: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: ١١٥-١١٧].

فعلى الأمة أن تعلم أن هذه الديمقراطيات لن تأتي أبدا بإسلام محمد ﷺ، مع استصحاب أنها سبيل كفرية غير مأذون فيها أصلا، ولكنها تستشه الإسلام الحق، وتطبع مع العدو الذي يسعى في استئصالنا، وأن هذه الديمقراطية لن تفرز إلا نظاما محاربا لثوابت الإسلام من الولاء والبراء والتطبيق العام لشرع الله تعالى وإقامة الجهاد في سبيل الله، وبمعنى آخر، فهو طاغوت من نوع آخر، يتسربل باسم الإسلام؛ ليهدم الإسلام باسم الإسلام: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤].

وأقولها وبكل صراحة، ما أسعد الغرب الكافر، بهذه الأحزاب الإسلامية، التي تدخل وهي تعلم أنها لن تستطيع أن تطبق الشريعة، وإنما الدستور والقانون، وها هو الغرب يساوم المجاهدين على مبدء التنازل عن الشريعة. ولكن هيهات هيهات.

ولإزالة هذه الطواغيت الغربية، وتلك الأخرى المصنعة في بلاد الغرب فكرا ومضمونا، وهم من بين جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، لابد من إحياء شعيرة الولاء والبراء والجهاد في سبيل الله؛ لاجتثاث هذا الطاغوت الذي دأب على تقريب الأنجاس الأرجاس، ومحاربة أهل الإصلاح والإخلاص، وحتى يزول الذي يحول بين الناس وكتاب ربهم وهدى نبيهم ﷺ؛ ليبصروا الحق ويعملوا به.

وإلا فسيبقى الطاغوت مزينا للباطل، إماماً فيه، مُبَغِضاً له، مُبَغَّضاً للحق محارباً له ولأهله، مستعملاً خطة كبيرهم ومقدمهم فرعون الذي وصفه الله تعالى بقوله: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: ٢٦]، وقال: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠ / ١٢): {وَقَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَأَنَّهُ أَنْزَلَ الْحَدِيدَ لِأَجْلِ الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ؛

وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ وَهَذَا كَانَ قَوَامُ الدِّينِ بِكِتَابٍ يَهْدِي وَسَيْفٍ يَنْصُرُ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا.

وَالْكِتَابَ وَالْحَدِيدَ وَإِنْ اشْتَرَكَا فِي الْإِنْزَالِ فَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا نَزَلَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَنْزِلِ الْآخَرُ. حَيْثُ نَزَلَ الْكِتَابُ مِنْ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، وَقَالَ تَعَالَى: {الرَّكِتَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}، وَالْحَدِيدُ أُنْزِلَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا. وَكَذَلِكَ وَصَفَ الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَى الْبِرِّ الَّذِي هُوَ جَمَاعُ الدِّينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} إِلَى قَوْلِهِ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَوَصَفَهُمْ سُبْحَانَهُ بِالْكَذِبِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَاعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وَنَحْوُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ[١] هـ.

وما أحسن ما قيل:

دعا المصطفى دهرًا بمكة لم يُجِبْ... وقد لَانَ مِنْهُ جَانِبٌ وَخِطَابُ

فَلَمَّا دَعَا وَالسَّيْفُ صَلَّتْ بِكَفِّهِ... لَهُ أَسْلَمُوا وَاسْتَسَلَمُوا وَأَنَابُوا

فصل: في بيان أحوال العمل مع الإيمان، وأنه على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يكون العمل منافياً لأصل الإيمان، بحيث لا يُتصور وجود الإيمان مع وجوده، فهذا العمل يُبطل الإيمان ويذهب به بالكلية؛ ويكون صاحبه كافراً بالله تعالى، وإن صلى وصام وحج كل عام، وإن كثرت سائر طاعاته، وهذا ما مثل له المؤلف بقوله: (والطواغيت كثيرون رؤوسهم خمسة): فإن هذه الأعمال تنافي أصل الإيمان، فإذا طرأت على الإيمان؛ أفسدته، كما أن الحدث إذا طرأ على الطهارة أفسدها. ومن أمثلة ما ينافي أصل الإيمان، حب انخفاض الدين، والفرح بذلك، والاستبشار بتمكن أعداء الإسلام، ومثله أيضاً مودة من حاد الله ورسوله، وقد تقدم ذكر جملة من نواقض الإسلام، وإنما سميت بذلك لأنها تنقض أصل الدين، وتخرج صاحبها عن كونه مسلماً، إلى الكفر الأكبر، والعياذ بالله؛ ولما كان الحكم بغير ما أنزل الله فيه التفصيل السابق، ولم يذكر المؤلف هذا التفصيل؛ علمنا يقيناً أن المؤلف إنما يتكلم عن النوع الذي ينافي أصل الإيمان، ويصير به صاحبه، طاغوتاً، كافراً مرتداً عن الإسلام، وهو التشريع والتقنين العام، كما تقدم بيانه والتفصيل فيه.

المرتبة الثانية: أن يكون العمل منافياً للإيمان الواجب، كارتكاب الكبائر ومُقَارَفَةِ المعاصي، التي لا تصل إلى حد الكفر والشرك الأكبر، كعقوق الوالدين والربا وشرب الخمر والزنا، وغير ذلك من الكبائر، فهذه لا يكفر صاحبها؛ لأنه يُتصور وجود الإيمان مع وجودها، بدلالات الكتاب والسنة، لكنه إيمان ناقص، ولهذا يقال عن هذا الصنف مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وهؤلاء تحت المشيئة، وأمرهم إلى الله جل وعلا.

المرتبة الثالثة: أن يكون العمل مما ينافي كمال الإيمان المستحب، كفعل المكروهات والتوسع فيها، والوقوع في الأمور المشتبهة، وكثر النوافل.

والمرتبة الثانية والثالثة هي التي تميز بين المقربين، والأبرار، والظالمين لأنفسهم، بينما أصحاب المرتبة الأولى، قد انعدم الإيمان وانتفى من قلوبهم، بارتكابهم لشيء من تلك النواقض.

تنبيه مهم:

حكم تقنين الشريعة:

اعلم رحمك الله أن تقنين الشريعة، أي جعل الشريعة في مواد، ودستور ونظام، هو من البدع المحدثه، بل ويفضي إلى طمس الحق، بل وفي بعض الأحيان، يفضي إلى التزام الباطل؛ فيكون حكماً بغير ما أنزل الله، وهو في هذه الحالة سيكون من التشريع العام؛ فيكون كفراً أكبر والعياذ بالله.

وإليك بيان ذلك، إن التقنين للشريعة، أولاً لم يكن موجوداً، لا في زمان النبي ﷺ، ولا أصحابه **ؑ**، ولا في القرون المفضلة، بل إلى تقريباً الدولة العثمانية، ثم إن هذا التقنين لا بد فيه من الالتزام بقول معين، لا يجوز المحيد عنه، فهو ملزم للجميع، ولا بد من اختيار أحد المذاهب، أو الأقوال لبعض العلماء في ذلك، وهذا باطل قطعاً؛ لأننا مطالبون بالاجتهاد في إصابة الحق، وعليه فلو جعلنا التقنين على مذهب مالك مثلاً، ثم وجدنا الحق مع الشافعي، وتركناه؛ فقد أخذنا بالباطل وتركنا الحق، وهذه جريمة

عظيمة، تصل إلى حد الكفر إذا صارت تشريعا عاما، وألزمنا الناس بالباطل، بدعوى أنه قول فلان من الأئمة، أو بدعوى أنه يدرء الفتنة.

ولهذا كان الأمر في القرون المفضلة، أن القاضي والذي هو العالم الذي يُختار للقضاء، يجتهد في إصابة الحق، فإن أصابه؛ فله أجران، وإن أخطأه؛ فأجر واحد، كما دل عليه الخبر الصحيح، وهكذا.

وجاء في مجموع الفتاوى: [وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ اللَّازِمِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ "حُكْمُ الْحَاكِمِ" وَلَوْ كَانَ الْحَاكِمُ أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ؛ بَلْ حُكْمُ الْحَاكِمِ الْعَالِمِ الْعَادِلِ يُلْزَمُ قَوْمًا مُعَيَّنِينَ تَحَاكَمُوا إِلَيْهِ فِي قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ لَا يُلْزَمُ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَلَا يَجِبُ عَلَى عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقْلُدَ حَاكِمًا لَا فِي قَلِيلٍ وَلَا فِي كَثِيرٍ إِذَا كَانَ قَدْ عَرَفَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ بَلْ لَا يَجِبُ عَلَى أَحَادِ الْعَامَّةِ تَقْلِيدُ الْحَاكِمِ فِي شَيْءٍ؛ بَلْ لَهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ يَجُوزُ لَهُ اسْتِفْتَاؤُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَاكِمًا وَمَتَى تَرَكَ الْعَالِمُ مَا عَلَّمَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَاتَّبَعَ حُكْمَ الْحَاكِمِ الْمُخَالَفِ لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَانَ مُرْتَدًّا كَافِرًا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَالَ تَعَالَى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} * اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}. وَلَوْ ضُرِبَ وَحُسِّ وَأُودِيَ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى لِيَدَعَ مَا عَلَّمَهُ مَن شَرَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَاتَّبَعَ حُكْمَ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِعَذَابِ اللَّهِ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَإِنْ أُوذِيَ فِي اللَّهِ فَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَاتَّبَاعِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الْم} * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ

وَالصَّابِرِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ} وَقَالَ تَعَالَى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرُزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}. وَهَذَا إِذَا كَانَ الْحَاكِمُ قَدْ حَكَمَ فِي مَسْأَلَةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ قَدْ تَنَازَعَ فِيهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ فَحُكْمُ الْحَاكِمِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ سُنَّةُ لِرَسُولِ اللَّهِ **e** تُخَالِفُ مَا حَكَمَ بِهِ فَعَلَى هَذَا أَنْ يَتَّبِعَ مَا عَلِمَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ **e** وَيَأْمُرَ بِذَلِكَ وَيُفْتِيَ بِهِ وَيَدْعُو إِلَيْهِ وَلَا يَقْلُدَ الْحَاكِمَ. هَذَا كُلُّهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَإِنْ تَرَكَ الْمُسْلِمُ عَالِمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ عَالِمٍ مَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ **e** لِقَوْلِ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ قَالَ تَعَالَى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْحَاكِمُ قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ هَذَا النَّصُّ - مِثْلَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ تَكَلَّمُوا فِي مَسَائِلَ بِاجْتِهَادِهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ سُنَّةُ لِرَسُولِ اللَّهِ **e** تُخَالِفُ اجْتِهَادَهُمْ - فَهُمْ مَعذُورُونَ لِكُونِهِمْ اجْتِهَدُوا وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} وَلَكِنْ مَنْ عَلِمَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ **e** لَمْ يَجْزُ لَهُ أَنْ يَعْدِلَ عَنِ السُّنَّةِ إِلَى غَيْرِهَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} وَمَنْ اتَّبَعَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ كَانَ مَهْدِيًّا مَنْصُورًا بِنُصْرَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنُصُّرُونَ} {وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} وَإِذَا أَصَابَتْ الْعَبْدَ مُصِيبَةٌ كَانَتْ بِذَنْبِهِ لَا بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ **e** [١.هـ].

* * وجاء في الصارم المسلول لابن تيمية: [وقال سبحانه: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون * إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا] {النور: ٤٧ - ٥١}، فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن وأن المؤمن هو الذي يقول: سمعنا وأطعنا، فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره مع أن هذا ترك محض، وقد يكون سببه قوة الشهوة، فكيف بالنقص والسب ونحوه؟] ١.هـ.

وقال ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين): [ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت وقد أمر أن يكفر به ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحکم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر] ١.هـ.

وقال أيضا الشيخ أبو بكر الجصاص الحنفي في كتابه: أحكام القرآن: [وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فَأَوْعَدَ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ، وَجَعَلَ مُخَالَفَ أَمْرِ الرَّسُولِ وَالْمُتَنَعِ مِنْ تَسْلِيمِ مَا جَاءَ بِهِ وَالشَّاكِّ فِيهِ خَارِجًا مِنَ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} قِيلَ فِي الْحَرْجِ هَهُنَا إِنَّهُ الشَّكُّ، رُويَ ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ.

وأنه {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وأنه هو الذي {يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي يضيقه على من يشاء وهو {بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويجلجل ويحرم، ولا تقبلوا تشريعاً من كافر خسيس حقير جاهل.

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩] فقله فيها: {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ} كقوله في هذه {فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}.

وقد عجب نبيه **e** بعد قوله: {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ} من الذين يدعون الإيمان مع أنهم يريدون المحاكمة، إلى من لم يتصف بصفات من له الحكم، المعبر عنه في الآيات بالطاغوت، وكل تحاكم إلى غير شرع الله فهو تحاكم إلى الطاغوت، وذلك في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ٦٠].

فالكفر بالطاغوت، الذي صرح الله بأنه أمرهم به في هذه الآية، شرط في الإيمان كما بينه تعالى في قوله: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [البقرة: ٢٥٦]. فيفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت لم يتمسك بالعروة الوثقى، ومن لم يتمسك بها فهو مترد مع الهالكين [١.هـ].

وجاء في الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١١ / ٩٥): [فهذا دليل على أنه يجب رد موارد النزاع، في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله، أصوله وفروعه، إلى الله ورسوله، لا إلى غير الله ورسوله. فمن أحوال في الرد على غيرهما، لقول فلان أو نص كتابه، أو عمل فلان وطريقة أصحابه، فقد ضاد الله في أمره؛ فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون، إلى الله ورسوله؛ ولهذا قال: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [سورة النساء آية: ٥٩]، وهذا شرط ينتفي المشروط بانتفائه؛ فدل: على أن من حكّم غير الله ورسوله في موارد النزاع، كان خارجاً عن مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر] ١.هـ.

التشريع يدخل في جميع أنواع التوحيد أصالة:

واعلم رعاك الله، أن التشريع من متعلقات الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، بل هو والله أعلم الظلم الذي سيملاً الأرض في آخر الزمان، إذ من المقطوع به أن ثمة عدلاً سيبقى في الأرض، فالمقصود إذن بالحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما بمعان متقاربة أن النبي ﷺ قال: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني" أو من أهل بيتي "يوأطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً". المقصود به ظلم التشريعات الجاهلية التي طبقت الأرض وملأتها.

فهذا هو الظلم الأكبر الذي سينتشر في الأرض، وهذا ما نحن فيه اليوم، إذا ليس هناك دولة في الأرض اليوم تحكم بكتاب الله، وإنما إن وجد فهناك من يحكم ببعض ويترك الأكثر، على طريقة من يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

بل وكل من يحاول ذلك، أو حتى فقط يرفع شعاره؛ يرميه العالم بأسره عن قوس واحدة، ويجند الشيطان أجناده وسراياه؛ لإحباط ذلك، رغبة أو رهبة، ولو استدعى الأمر التدخل العسكري، فليكن، وهذا ما جرى في أفغانستان، والصومال، واليمن، وأخيرا في مالي.

ولكن هيهات هيهات، لأن رب العالمين، ومالك الملك قال: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف: ٨-٩]، وقال جل جلاله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١-١٧٣]، فالله تعالى، رب العالمين، ومالك الملك، قضى أنه مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، فلا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، فتربصوا إنا معكم متربصون.

فمتى يَعْقِلُ المسلمون، وَيُثِقِنُونَ يَقِينًا عَمَلِيًّا، أن الله تعالى أصدق وأقدر من الإدارة الأمريكية، ومن جميع جَحَافِلِ الرُّومِ، وأَعْدَاءِ الْمَلَّةِ؟!..

قوله: (وفي الحديث: "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله")، هذا الحديث رواه الإمام أحمد وغيره وسنده جيد.

وهذا لفظه من مسند أحمد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ قَالَ: "لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَعَبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتُحُجُّ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ" ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ حَتَّىٰ بَلَغَ... {يَعْمَلُونَ}}، ثُمَّ قَالَ: "أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ" فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "رَأْسُ الْأَمْرِ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ"، ثُمَّ قَالَ: "أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ"، فَقُلْتُ لَهُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: "كَفَّ عَلَيْكَ هَذَا"، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لُمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: "تَكَلَّمْتَ أَثْمَكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ" (١).

فصل في بيان خطورة اللسان:

١ - أخرجه الإمام أحمد وعبد الرزاق وابن أبي شيبة والترمذي والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم والطبراني في الكبير وغيرهم كلهم من حديث معاذ بن جبل ؓ وفي إسناده مقال لبعض أهل العلم للانقطاع بين أبي وائل ومعاذ ولكن ليس كل منقطع ضعيفا؛ ولهذا قال أبو عيسى الترمذي عقب تخريجه لهذا الخبر من هذه الطريق: (هذا حديث حسن صحيح). وقد جاء من طريق أخرى لكن فيها شهر بن حوشب مضطرب الحديث، وفي طريق أخرى عن عروة بن النزال أو النزال بن عروة وفيه كلام عند أهل العلم، ومن طريق ميمون بن أبي شبيب وفيه مقال أيضا.

قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ١٦- ٢٢].

وفي صحيح البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ حَيِّهِ وَمَا بَيْنَ رَجُلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَوْ يَنْزِلُ بِهَا فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ".

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ".

قال ابن رجب في كتابه: (جامع العلوم والحكم): [وقوله: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله"، قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، فقال: "كفَّ عليك هذا"، إلى آخر الحديث. هذا يدلُّ على أَنَّ كَفَّ اللسان وضبطه وحبسه هو أصلُ الخير كُلِّهِ، وأنَّ من ملك لسانه، فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه، وقد سبق الكلامُ على هذا المعنى في شرح حديث: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليصمت". وفي شرح حديث: "قل: آمنتُ بالله، ثم استقم". وخرَّجَ البزار في "مسنده" من حديث أبي اليسر أَنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، دلَّني على عملٍ يُدخلني الجنة، قال: "أمسك هذا"، وأشار

إلى لسانه، فأعادها عليه، فقال: "ثكلتك أمك، هل يكبُّ النَّاسُ على مناخرهم في النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"، وقال: إسناده حسن. والمراد بحصائد الألسنة: جزاء الكلام المحرَّم وعقوباته؛ فإنَّ الإنسانَ يزرع بقوله وعمله الحسنات والسَّيِّئَاتِ، ثمَّ يحصدُ يومَ القيامة ما زرع، فمن زرع خيراً من قولٍ أو عملٍ حَصَدَ الكرامة، ومن زرع شراً من قولٍ أو عملٍ حصدَ غداً النَّدامة. وظاهرُ حديثٍ معاذٍ يدلُّ على أنَّ أكثر ما يدخل النَّاسُ به النار النَّطْقُ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فإنَّ معصية النَّطقِ يدخل فيها الشُّرْكُ وهو أعظمُ الذنوب عند الله - عز وجل -، ويدخل فيها القولُ على الله بغير علم، وهو قرينُ الشُّرْكِ، ويدخل فيه شهادةُ الزُّور التي عدلت الإِشْرَاقَ بالله - عز وجل -، ويدخل فيها السَّحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصَّغائر كالكذب والغيبة والنَّميمة، وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالباً من قولٍ يقترن بها يكون معيناً عليها.

وفي حديث أبي هريرة، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: "أكثر ما يدخل النَّاسَ النَّارَ الأُجوفان: الفمُّ والفرجُ" خرَّجه الإمام أحمد والترمذي. وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: "إنَّ الرجلَ ليتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّنُ ما فيها، يَزِلُّ بها في النَّارِ أبعد ما بينَ المشرق والمغرب" وخرَّجه الترمذي، ولفظه: "إنَّ الرجلَ ليتكلَّم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النَّار".

وروى مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أنَّ عمرَ دخل على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهو يجبذُ لِسَانَهُ، فقال عمر: مه، غَفَرَ اللهُ لك! فقال أبو بكر: هذا أوردني المَوَارِدَ.

وقال ابنُ بريدة: رأيتُ ابنَ عَبَّاسٍ أخذاً بلسانه وهو يقول: ويحك، قُلْ خيراً تغنم، أو

اسكت عن سوء تسلّم، وإلا فاعلم أنّك ستندم، قال: فقليل له: يا ابن عباس، لم تقول هذا؟ قال: إنّه بلغني أنّ الإنسان - أراه قال - ليس على شيء من جسده أشدّ حنقاً أو غيظاً يوم القيامة منه على لسانه إلا من قال به خيراً، أو أملى به خيراً. وكان ابن مسعود يحلف بالله الذي لا إله إلا هو: ما على الأرض شيءٌ أحوج إلى طولِ سجنٍ من لسان. وقال الحسن: اللسان أميرُ البدن، فإذا جنى على الأعضاء شيئاً جنت، وإذا عفّ عفّت. وقال يونس بن عبيد: ما رأيتُ أحداً لسانه منه على بالٍ إلا رأيتُ ذلك صلاحاً في سائر عمله. وقال يحيى بن أبي كثير: ما صلح منطقُ رجلٍ إلاّ عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطقُ رجلٍ قطُّ إلاّ عرفت ذلك في سائر عمله. وقال المبارك بن فضالة، عن يونس بن عبيد: لا تجد شيئاً من البرِّ واحداً يتبعه البرُّ كلّ غير اللسان، فإنّك تجد الرجل يصوم النهار، ويُفطر على حرام، ويقوم الليل ويشهد بالزور بالنهار - وذكر أشياء نحو هذا - ولكن لا تجده لا يتكلّم إلاّ بحقٍّ فيُخالف ذلك عمله أبداً[١]. هـ.

وما ذكره المؤلف هو جزء من الحديث، وقد ذكر محل الشاهد منه، وقد تقدم معنا جواز ذلك والعمل به عند السلف، وما جاء في هذا الشاهد، هو ما جاء في قوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج: ٧٨]

قوله: (رأس الأمر الإسلام): قد تقدم بيان حقيقة المعنى الذي يصير به العبد مسلماً عند الله تعالى، وأن الإسلام عند الإطلاق يفيد العموم، وهو العمل بالدين ظاهراً

وباطنا، وقد تقدم بيان مراتب العمل مع الإيمان.

الصلاة وأهميتها وحكم تاركها:

قوله: (وعموده الصلاة): بيان لمنزلة الصلاة من الإسلام، وقد تقدم، وإثبات النبي ﷺ أن الصلاة هي عمود الإسلام، دال على كفر تارك الصلاة، ولا فرق على الراجح بين المتهاون والمتكاسل والجاحد، إلا من جهة أن الكفر بعضه أغلظ من بعض، فهي عمود هذا الدين ولا يقوم إسلام المرء بدونه. وقد جاءت الآيات المتكاثرة والأحاديث المتظافرة في بيان أهميتها وعظيم منفعتها، وأنه لا قوام للعباد والبلاد بدونها؛ ولهذا أجمع الصحابة **ﷺ** على كفر تاركها وردته عن الإسلام، وقد نقل إجماعهم غير واحد من أهل العلم منهم عبد الله بن شقيق العقيلي، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن نصر المروزي، وابن بطة في الإبانة، والإمام الحميدي، والآجري في الشريعة، وابن حزم في المحلى، وابن تيمية، وابن القيم، وقد نقل أقوال العلماء في ذلك مستوفاة في كتابه (الصلاة وحكم تاركها)، فليراجع.

ومصدق ذلك قوله تعالى: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: ٣١-٣٢]، وقد تقدم ذكر آيات أخرى من قبل، ومن السنة ما أخرجه مسلم في صحيحه من طريق ابن جريج، قال: أَخْبَرَنِي أَبُو الزَّيَّيرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ". وما أخرجه أحمد وغيره والترمذي وصححه من طريق الحسين بن واقد حدثنا عبد الله

بن بريدة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر". وما أخرجه أحمد والدارمي بسند جيد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: "أنه ذكر الصلاة يوماً فقال من حافظ عليها كانت له نورا وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف"، وما أخرجه أحمد وغيره والترمذي وصححه من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْماً قَرِيباً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: "لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحْجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} حَتَّى بَلَغَ {يَعْمَلُونَ} ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: تَكَلَّمْتَ أَمَّا يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنْأَخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ". قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ولهذا كان عمر الفاروق ؓ يرسل إلى الأمصار يأمرهم بالصلاة ويبين لهم أنها من أهم أمور العبادة والعباد، كما أخرج ذلك مالك في موطنه من طريق نافع أن عمر بن

الخطاب كتب إلى عماله: "إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ثم كتب: أن صلوا الظهر إذا كان الفيء ذراعا إلى أن يكون ظل أحدكم مثله، والعصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية قدر ما يسير الراكب فرسخين أو ثلاثة قبل غروب الشمس. والمغرب إذا غربت الشمس، والعشاء إذا غاب الشفق إلى ثلث الليل، فمن نام فلا نامت عينه، فمن نام فلا نامت عينه، فمن نام فلا نامت عينه، والصبح، والنجوم بادية مشتبكة" ١.

نعم فإن الأمة التي تقيم صلاة ربها، وتعتني بها؛ ستقيم دينها، وستحافظ على حرمتها ومقدساتها، وستجاهد في الله حق جهاده، وستتنافس في إرضاء ربها تبارك وتعالى. ولعظمة هذه الصلاة وأهميتها أمرنا النبي ﷺ أن لا نؤديها كيفما اتفق، ولا كما يؤديها الأكثر من الناس، ولا كما يؤديها الآباء والأجداد، بل أمر أن تؤدى على الصورة التي أداها بها النبي ﷺ كما جاء ذلك مصرحا به في صحيح البخاري من طريق أيوب عن أبي قلابة عن مالك بن الحويرث **t** قال: قال رسول الله ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلي" فأمر النبي ﷺ بالعناية التامة الفائقة بهذه الصلاة؛ لعلمه ﷺ بأهميتها وعظيم منزلتها عند الرب تبارك وتعالى. والآيات في بيان فضلها وأهميتها لا تكاد تحصى، فلا

١ - هذا الأثر فيه انقطاع لأن نافعا لم يدرك عمر **t** ولكن من المقطوع به أن نافعا هو من أجل تلاميذ عبد الله بن عمر مولاه ومثل هذا الانقطاع يمكن أن يحمل على أنه مما تلقاه نافعا عن ابن عمر **t**. وليس كل منقطع ضعيف وقد تلقى الأئمة هذا الأثر بالقبول واحتج به مالك في موطنه.

تكاد تتر سورة من سور القرآن غالبا إلا وفيها ذكر الصلاة أو منافعها أو مدلولاتها وأهميتها، والأحاديث في ذلك أيضا متكاثرة أيضا بحمد الله تعالى.

وقد جعلها الله تعالى من أعظم الأسباب المعينة على استتباب الأمن، وحصول الخيرات والبركات، ودفع الفحشاء والمنكرات ١، كما قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}، كما أنها من أعظم ما يعين على قضاء الحوائج، وجلب الأرزاق، ودفع الهموم والغموم، كما قال تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}، وقوله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}، ولهذا بين النبي ﷺ أنها أعظم سبيل مهيع يدخل به العبد الجنة كما أخرج مسلم في صحيحه من طريق الوليد بن هشام المغيثي: حَدَّثَنِي مَعْدَانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيُّ قَالَ: لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يَدْخِلُنِي اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ. أَوْ قَالَ قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ، فَسَكَتَ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: "عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ". قَالَ مَعْدَانُ: ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَسَأَلْتُهُ. فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ لِي ثَوْبَانُ.

١ - جاء في كتاب الدرر المنتشرة: [حديث: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا" الطبراني من حديث ابن عباس وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عمران بن حصين. وابن جرير في تفسيره من حديث ابن مسعود ومن مرسل الحسن وأحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفا] ١.هـ.

ومن طريق يحيى بن أبي كثير: حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ: حَدَّثَنِي رِبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ قَالَ: كُنْتُ أَيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَتَيْتُهُ بِوُضُوئِهِ وَحَاجَّتِهِ. فَقَالَ لِي: "سَلْ" فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: "أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟" قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: "فَاعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السَّجُودِ".

وتأمل هذه الآيات: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ إِنِّي آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} [مريم: ٢٩ - ٣٤]، تأمل كيف أن عيسى عليه السلام لما أنطقه الله في المهدي كان مما ذكر الوصية بالصلاة.

وهذا موسى وأخوه هارون عند الشدة والتضييق الفرعوني، يوصيهم الله تعالى بالصلاة، كما قال تعالى: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٣ - ٨٧].

وهذا شعيب عليه السلام، يَفْهَمُ قَوْمَهُ أَنْ الصَّلَاةَ مُؤَثَّرَةٌ عَلَى أَهْلِهَا، وَلَهَا أَحَالُوا عَلَيْهَا: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَاأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود: ٨٧].

وهذا سليمان عليه السلام يغضب، إِذَا انشغل بالخیل حتى غرب الشمس، كما قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِثِّيِّ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: ٣٠ - ٣٣].

وها هي مريم يأتيها رزقها، وهي محراب ربها، حيث الصلاة والعبادة، وها هو زكريا يتلقى البشارة وهو قائم يصلي، كما قال تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ٣٧-٣٩].

وها هي الوصية الربانية بالصلاة، تأتي من الجبار جل جلاله إلى موسى عليه السلام، وهو في ميقات ربه، كما قال تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [طه: ١٣ - ١٦].

وهذا لقمان وهو يعظ ابنه يوصيه بالصلاة، كما قال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: ١٧].

والصلاة من أعظم الأسباب المعينة على تحقيق عقيدة الولاء والبراء، كما قال تعالى: {وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود: ١١٣ - ١١٥].

وها هو نبينا يدعو على الكفار، إذ شَغَلُوهُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ، مع أنه كان في جهاد عظيم، كما في الصحيحين عَنْ عَلِيٍّ **t**، عَنِ النَّبِيِّ **e** أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْخُنْدَقِ: "مَلَأَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ".

ولما علم سلفنا الصالح هذه الأهمية العظمى، وتلك المنزلة الكبرى لهذه الصلاة؛ شَمَرُوا عَنْ سَاعِدِ الْجَدِّ، وَسَعَوْا سَعِيًّا حَثِيثًا فِي إِتْقَانِهَا وَأَدَائِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَجِبُهُ اللَّهُ وَبِرِضَاهُ؛ فَعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَعَظُمَ حِرْصُهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَحُبُّهُمْ لِرَبِّهِمْ، حَتَّى إِنْ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيَجِدُ لَذَّةَ الْعَظْمَى وَمَتْعَةَ الْكِبَرَى فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ، وَيَجِدُ فِيهَا الرَّاحَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ التَّامَةَ وَالْمَقْرَعِ عِنْدَمَا تَنْزِلُ بِهِ نَازِلَةٌ أَوْ يُخْرِجُهُ أَمْرٌ عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} ومصادقا لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه

أحمد وأبو داود من طريق مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي ﷺ قال: "يا بلال أرحنا بالصلاة" ١.

وما أخرجه أحمد وأبو داود من طريق عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلي قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة قال حذيفة: "كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى". حسنه الحافظ في الفتح ، وفيه ضعف لحال عكرمة ومحمد الدؤلي وجهالة في عبد العزيز. والله أعلم. لكن معناه صحيح وله شواهد من فعله ٢.

قال المناوي في فيض القدير: [قم فصل فإن في الصلاة شفاء من الأمراض القلبية والبدنية والهموم والغموم: {واستعينوا بالصبر والصلاة}؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فرع إليها، والصلاة مَجْلِبَةٌ للرزق حافظة للصحة دافعة للأذى مطردة للداء مقوية للقلب مفرحة للنفس مذهبة للكسل منشطة للجوارح ممدة للقوى شارحة للصدر مغذية للروح منورة للقلب مبيضة للوجه حافظة للنعمة دافعة للنقمة جالبة للبركة مبعدة للشيطان مقربة من الرحمن وبالجملة فلها تأثير عجيب في حفظ صحة القلب والبدن وقواهما ودفع المواد الرديئة عنهما سيما إذا وفيت حقها من التكميل فما

١ - لقد اُخْتُلِفَ في هذا الخبر على سالم بن أبي الجعد اختلافا كثيرا، فتارة يجعله من مسند علي t ، وتارة من مسند بلال t ، وتارة عن رجل من الأنصار، ثم في هذه الطرق تختلف الوسطة بينه وبين الصحابي، وهذا يعد اضطرابا مؤثرا في الخبر؛ يمنع من قبوله، وقد أورد هذه الطرق الدارقطني في العلل وقال: (وقول عمرو بن مرة أصح). فليراجع فإنه نفيس.

استدفعت أذى الدارين واستجلبت مصالحهما بمثلها وسرها أنها صلة بين العبد وربّه
وبقدر الوصلة يفتح الخير وتفاض النعم وتدفع النقم[١]هـ.

بغض الشيطان للسجود:

واعلم أرشدك الله إلى حسن عبادته، أن السجود هو أشد ما يكون على الشيطان من
صلاتك، لأنه يذكره بما كان سبباً لطرده من رحمة الله تعالى، فهو لا يطيق منك أبداً
إطالة هذا الركن العظيم، ولا يطيق ذكر الله فيه والدعاء؛ ولهذا تجد أكثر الناس لا يصبر
على طول السجود، مع كثرة حوائج العباد، وعلمهم بأنهم لا غنى لهم عن الله تعالى
وفضله جل الله في علاه، وعلمهم بشدة حاجتهم إلى الدعاء والتفنى فيه والتلذذ به،
ولكن الشيطان قد قعد لهم يصدّهم عن السبيل، وأكثر العباد قد أطاعه في ذلك، عياذاً
بالله من الخذلان.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ
فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي كُرَيْبٍ يَا وَيْلِي - أُمِرَ ابْنُ آدَمَ
بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ".

ولهذا فمن مكره الشيطان بهذه الأمة؛ أنك تجد أن أكثر ما يتلاعب به الشيطان من صلاة العباد هو في هذا الركن العظيم، وتجد أن هذا الركن فيه من الأخطاء في أدائه شيئاً كثيراً^١ والعياذ بالله.

وفي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ".

وفيه أيضاً عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النَّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَى لَهُ أَلَا وَإِنِّي مُهِيتٌ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظُمُوا فِيهِ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ".

ليس لتارك الصلاة حق في العيش الكريم:

واعلم رحمك الله، أن الأئمة المتقدمين الذين قالوا بعدم كفر تارك الصلاة؛ لعدم ارتقاء الأدلة عندهم لتكفيره، قد قرروا أنه ليس لتارك الصلاة حياة كريمة، يهنأ بها بين المؤمنين، بل هو بين قول بأنه يودع السجن حتى يتوب، وقول بأنه يقتل تعزيراً لا حداً، وإذا كان النبي ﷺ هم بتحريق بيوت الذين لا يشهدون الجماعة، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة، فكيف بتاركي الصلاة، وإذا هذا كذلك فأنى لتارك الصلاة الحياة

١ - لمعرفة كثيراً من ذلك راجع كتابي: (موسوعة الجامع الثمين لأخطاء المصلين والأئمة والمؤذنين).

الكريمة في بلاد المسلمين، فتأمل؛ لتعلم البون الشاسع بين تعامل السلف والمعاصرين مع تارك الصلاة. والله المستعان.

تَارِكَةُ الصَّلَاةِ شَرٌّ مِنَ السَّارِقَةِ وَالزَّانِيَةِ، وَالتَّارِكُ كَذَلِكَ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في: (جامع المسائل لابن تيمية): [وإذا عَلِمَ الرجلُ أن المَخْطُوبَةَ لَا تُصَلِّي كَانَتْ زَوْجُهُ أَشَرَّ مِمَّا إِذَا عَلِمَ أَنَّهَا قَحْبَةٌ أَوْ سَارِقَةٌ أَوْ شَارِبَةٌ خمر، فإن تَارَكَ الصَّلَاةَ شَرٌّ مِنَ السَّارِقِ وَالزَّانِي بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، إِذْ تَارَكَ الصَّلَاةَ سَوَاءً كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً يَجِبُ قَتْلُهُ عِنْدَ جَمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَا لَكَ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ، وَالسَّارِقُ لَا يَجِبُ قَتْلُهُ، وَلَا يَجِبُ قَتْلُ الزَّانِيَةِ الَّتِي لَمْ تُحْصَنَ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ بَكَرًا بِالْغَا عِنْدَ أَبَوَيْهَا وَهِيَ لَا تُصَلِّي كَانَتْ شَرًّا مِنْ أَنْ تَكُونَ قَدْ زَنَتْ عَنْدهُمْ أَوْ سَرَقَتْ، وَإِذَا كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ يُنْكِرُونَ أَنْ يَتَزَوَّجَ الرَّجُلُ بِسَارِقَةٍ أَوْ زَانِيَةٍ أَوْ شَارِبَةٍ خمر ونحو ذلك فيجبُ أَنْ يَكُونَ إِنْكَارُهُمْ لِتَزَوُّجِ مَنْ لَا تُصَلِّيَ أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ بِاتِّفَاقِ الْأُئِمَّةِ. فَإِنَّ الَّتِي لَا تُصَلِّيَ شَرٌّ مِنَ الزَّانِيَةِ وَالسَّارِقَةِ وَشَارِبَةِ الْخَمْرِ.

وليس لقائل أن يقول: فالمسلم يجوزُ له أن يتزَوَّجَ اليهوديةَ والنصرانيةَ، فكيف بهذه؟ لأنَّ اليهوديةَ والنصرانيةَ تُقَرُّ عَلَى دِينِهَا، فَلَا تُقْتَلُ وَلَا تُضْرَبُ، وَأَمَّا تَارِكُ الصَّلَاةِ وَالسَّارِقُ وَالشَّارِبُ وَالزَّانِي فَلَا يَقْرَ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ يُعَاقَبُ إِمَّا بِالْقَتْلِ وَإِمَّا بِالْقَطْعِ وَإِمَّا بِالْجُلْدِ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُهُ فِي الْآخِرَةِ أَخْفَ مِنْ عِقَابِ الْكَافِرِ، لَكِنْ لَا يَجُوزُ لغيره أَنْ يُقَرَّهَ عَلَى فَسَقِهِ، فَمَنْ أَقَرَّ فَاسِقًا عَلَى فَسَقِهِ وَلَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِ كَانَ عَاصِيًا أَثَمًا، وَمَنْ أَقَرَّ ذَمِيًّا عَلَى دِينِهِ لَمْ يَكُنْ أَثَمًا وَلَا عَاصِيًّا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: (الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ

وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ (١) أي النساء الخبيثات للرجال الخبيثين، والنساء الطيبات للرجال الطيبين، والخبيثة هي الفاجرة، فهي للرجل الخبيث الفاجر.

والخُبْتُ إن قيل المراد به الزنا دل على أن تزوج الزانية لا يجوز حتى تتوب، وهو أصحُّ قولي العلماء؛ لقوله تعالى: {وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ}، ولأن النبي ﷺ نَهَى رجلاً أن يتزوج امرأة كان يزني بها اسمها عَنَاقُ^١ (٢)، وأنزل الله هذه الآية في ذلك، ولهذا كان المتزوج بها مذموماً عند عامة العقلاء، حتى يقال: شَتَمَهُ بالزین والقاف، أي قال له: يا زوجَ الفَحْبَةِ. والحديث الذي يروى في الرجل الذي قال: إن امرأتِي لا تَرُدُّ كَفَ لَامِسِي، قد ضَعُفُوهُ (٣)، ولا شكَّ أنَّ الزانية يُخَافُ منها إفسادُ الفراش، وهو من هذا الوجه شَرٌّ من غيرها، بخلاف مَنْ كان فسقُها بغير ذلك، ولهذا يقال: ما بَغَتِ امرأةٌ نَبِيَّ قُطٍ، لكن عقوبة المرأة التي تترك الصلاة أعظم من عقوبة بعض البغايا فالتزوج بها يكون قد أقر في بيته من المنكرات أعظم من أن يُقرَّ عنده أخته الزانية وبنته الزانية. وأما انفساخ النكاح بمجرد الترك فلا يُجَكِّمُ بذلك، لكن إذا دُعِيَتْ إلى الصلاة وامتنعت

١ - رواه النسائي في الكبرى والمجتبى، وأبو داود في سننه واللفظ له كلاهما من طريق عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَخْنَسِ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الْأَسَارَى بِمَكَّةَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقُ وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ، قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْكِحْ عَنَاقَ؟، قَالَ: فَسَكَّتْ عَنِّي، فَتَزَلَّتْ: {وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ}، فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: "لَا تَنْكِحُهَا". قلت: وسكت عنه أبو داود، وهو صالح عنده بهذا الاعتبار، وأدخله النسائي في مُجْتَبَاهُ الذي أخرج فيه ما صَحَّ عنده؛ فالخبر صالح للاحتجاج. والله أعلم.

انفسخ نكاحها في أحد قولي العلماء، وفي الآخر لا ينفسخ، لكن على الرجل أن يقوم بما يجب عليه. وليس كل من وجب عليه أن يطلقها ينفسخ نكاحها بلا فعله، بل يقال له: مرها بالصلاة وإلا فارقها، فإن كان عاجزاً عن ذلك لثقل صداقها كان مُسيئاً بتزوجه من لا تُصلي على هذا الوجه، فيتوب إلى الله من ذلك، وينوي أنه إذا قدر على أكثر من ذلك فعَله، والله أعلم[١]هـ.

قوله: (وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، تقدم معنا أن الإيمان لا يقوم ولا يُقبل حتى تقوم في القلوب عقيدة الولاء والبراء، من خلال تحقيق الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وهذه العروة الوثقى هي الفتيل الذي يُشعل، الجهاد في سبيل الله، وبه تسل سيوف الجهاد؛ حتى يفيء الناس إلى أمر الله، بعد تقديم الدعوة الناصحة لهم، فلا بد من الكتاب الهادي والسيف الناصر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ["الدِّينُ النَّصِيحَةُ الدِّينُ النَّصِيحَةُ"، قَالُوا لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ". وَقَدْ قَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي أَهْلِ الشُّوَرَى: أَمْرٌ فُلَانًا وَفُلَانًا فَجَعَلَ يَذْكُرُ فِي حَقِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السِّتَةِ - وَهُمْ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ - أَمْرًا جَعَلَهُ مَانِعًا لَهُ مِنْ تَعْيِينِهِ. وَإِذَا كَانَ النَّصْحُ وَاجِبًا فِي الْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ: مِثْلَ ثِقَلَةِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ يَغْلُطُونَ أَوْ يَكْذِبُونَ كَمَا قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: سَأَلْتُ مَالِكًا وَالثَّوْرِيَّ وَاللِّثَّ بْنَ سَعْدٍ - أَظُنُّهُ - وَالْأَوْزَاعِيَّ عَنْ الرَّجُلِ يَتَّبِعُهُمْ فِي الْحَدِيثِ أَوْ لَا يَحْفَظُ؟ فَقَالُوا: بَيْنَ أَمْرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: أَنَّهُ يَثْقُلُ عَلَيَّ أَنَّ أَقُولَ فُلَانٌ كَذًا وَفُلَانٌ كَذًا. فَقَالَ: إِذَا سَكَتَ أَنْتَ وَسَكَتَ أَنَا فَمَتَى

يُعْرِفُ الْجَاهِلُ الصَّحِيحُ مِنَ السَّقِيمِ. وَمِثْلُ أَيْمَةِ الْبِدْعِ مِنْ أَهْلِ الْمَقَالَاتِ الْمُخَالَفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ الْعِبَادَاتِ الْمُخَالَفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَإِنَّ بَيَانَ حَالِهِمْ وَتَحْذِيرَ الْأُمَّةِ مِنْهُمْ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قِيلَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَعْتَكِفُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَوْ يَتَكَلَّمُ فِي أَهْلِ الْبِدْعِ؟، فَقَالَ: إِذَا قَامَ وَصَلَّى وَاعْتَكَفَ فَإِنَّهَا هُوَ لِنَفْسِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ فِي أَهْلِ الْبِدْعِ فَإِنَّهَا هُوَ لِلْمُسْلِمِينَ هَذَا أَفْضَلُ. فَيَبِينَ أَنَّ نَفْعَ هَذَا عَامٌّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ مِنْ جَنْسِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ إِذْ تَطْهِيرُ سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَهُ وَمَنْهَاجَهُ وَشَرْعَهُ وَدَفْعُ بَغْيِ هَؤُلَاءِ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ لَا مَنْ يُقِيمُهُ اللَّهُ لِدَفْعِ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ لَفَسَدَ الدِّينُ وَكَانَ فَسَادُهُ أَعْظَمَ مِنْ فَسَادِ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا اسْتَوْلَوْا لَمْ يُفْسِدُوا الْقُلُوبَ وَمَا فِيهَا مِنَ الدِّينِ إِلَّا تَبَعًا وَأَمَّا أُولَئِكَ فَهُمْ يُفْسِدُونَ الْقُلُوبَ ابْتِدَاءً. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ}، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنَّهُ أَنْزَلَ الْحَدِيدَ كَمَا ذَكَرَهُ. فَقَوَامُ الدِّينِ بِالْكِتَابِ الْهَادِي وَالسِّيفِ النَّاصِرِ، {وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}.

وَالْكِتَابُ هُوَ الْأَصْلُ؛ وَهَذَا أَوَّلُ مَا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ؛ وَمَكَثَ بِمَكَّةَ لَمْ يَأْمُرْهُ بِالسِّيفِ حَتَّى هَاجَرَ وَصَارَ لَهُ أَعْوَانٌ عَلَى الْجِهَادِ.

وَأَعْدَاءُ الدِّينِ نَوَعَانِ: الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِجِهَادِ الطَّاغُوتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلِظْ عَلَيْهِمْ} فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ. فَإِذَا كَانَ أَقْوَامٌ

مُنَافِقُونَ يَتَدْعُونَ بِدَعَا مُخَالِفِ الْكِتَابِ وَيُلْبِسُونَهَا عَلَى النَّاسِ وَلَمْ تُبَيِّنْ لِلنَّاسِ: فَسَدَ أَمْرُ الْكِتَابِ وَبُدِّلَ الدِّينُ؛ كَمَا فَسَدَ دِينُ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ التَّبْدِيلِ الَّذِي لَمْ يُنْكَرْ عَلَى أَهْلِهِ وَإِذَا كَانَ أَقْوَامٌ لَيْسُوا مُنَافِقِينَ لَكِنَّهُمْ سَمَاعُونَ لِلْمُنَافِقِينَ: قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ حَتَّى ظَنُّوا قَوَّهُمْ حَقًّا؛ وَهُوَ مُخَالِفُ الْكِتَابِ وَصَارُوا دُعَاةً إِلَى بَدْعِ الْمُنَافِقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ}.

فَلَا بُدَّ أَيْضًا مِنْ بَيَانِ حَالِ هَؤُلَاءِ؛ بَلْ الْفِتْنَةُ بِحَالِ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ فَإِنَّ فِيهِمْ إِبْرَانَا يُوجِبُ مُوَالَاتِهِمْ وَقَدْ دَخَلُوا فِي بَدْعٍ مِنْ بَدْعِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي تُفْسِدُ الدِّينَ فَلَا بُدَّ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنْ تِلْكَ الْبَدْعِ وَإِنْ اقْتَضَى ذَلِكَ ذِكْرَهُمْ وَتَعْيِينَهُمْ.

بَلْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلَقَّوْا تِلْكَ الْبَدْعَةَ عَنْ مُنَافِقٍ؛ لَكِنْ قَالُوا ظَانِّينَ أَنَّهَا هُدًى وَأَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا دِينٌ؛ وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ لَوْجَبَ بَيَانُ حَالِهَا [أ.هـ].

الجهاد يردع الكفار ويقطعهم:

وقد تقدم الكلام عن أنواع الجهاد، وأهميته وأنه لا قوام للأمة، ولا عز ولا نصر لها إلا به، وأن هذا الجهاد من أعظم ما يخيف الكفار ويردعهم، ويرد كيدهم وبغيهم، كما قال تعالى: {أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ خَشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ

وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ { [التوبة: ١٣- ١٥]، وقال: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } [النساء: ٨٤]، وقال: {فَإِمَّا تَثْقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُ لَا يُظْلِمُونَ } [الأنفال: ٥٧- ٦٠].

خطورة ترك الجهاد والإنفاق عليه:

فمتى تركت الأمة ذلك؛ وقت في الهلكة والضياع، كما في صحيح البخاري قال: [باب قَوْلِهِ: {وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} . التَّهْلُكَةُ وَالْهَلَاكُ وَاحِدٌ. حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ عَنْ حُذَيْفَةَ {وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} قَالَ نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ] اهـ.

وفي سنن أبي داود والنسائي والترمذي من طريق أسلم أبي عمران التَّجِيبِيُّ قَالَ كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا

التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقْمَنَّا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةُ عَلَى الْأَمْوَالِ وَإِصْلَاحُهَا وَتَرْكُنَا الْغُرُوزَ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ. قَالَ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

وفي صحيح مسلم عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "سَتُفْتَحَ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُلْهَوْ بِأَسْهُمِهِ".

ويضر بها الله تعالى بالذل والمهانة، كما جاء ذلك في مسند أحمد بسند لا بأس به من حديث ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قَلَّةٍ بَنَاءُ يَوْمٍ مِذٍ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غَنَاءً كَغَنَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمُهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ"، قَالَ قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ، قَالَ: "حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".

وفي الحديث الذي في مسند أحمد وسنن أبي داود وسكت عنه وفي سننه اختلاف عن ابنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"؛ ولهذا حث النبي ﷺ على الجهاد في سبيل الله، وتكاثر الآيات في كتاب الله بالأمر به، والثناء على أهله، حتى قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ

الْجَنَّةِ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]، وَحَرَّضَ عَلَى ذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَكَّدَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦]، وَقَوْلُهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَعِنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُخَشُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}

[النساء: ٧٨-٧١]، وقوله: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّيًّا} [النساء: ٨٤]، وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) إِنْ حَقَّقَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٦٤-٦٦]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدَنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٠-١٤]، والآيات في هذه كثيرة جدا.

ومن السنة: ما جاء في صحيح مسلم من طريق عبد الله بن المبارك عن وهيب المكي عن عمر بن محمد بن المنكدر عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ". قَالَ ابْنُ سَهْمٍ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ فَتَرَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. r

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمَ لَوْثُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ".

وعن سلمان **t** قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات فيه جري عليه عمله الذي كان يعمل وأجري عليه رزقه وأمن الفتان" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة **t** قال قال رسول الله ﷺ: "ما من مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلِمُهُ يَدْمَى اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرَّيْحُ رِيحُ مِسْكٍ" متفق عليه.

وعن أبي عبس عبد الرحمن بن جبر **t** قال قال رسول الله ﷺ: "ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار" رواه البخاري.

وعن البراء **t** قال: أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد فقال: يا رسول الله أقاتل أو أسلم؟ فقال: "أسلم ثم قاتل" فأسلم ثم قاتل فقتل فقال رسول الله ﷺ: "عمل قليلا وأجر كثيرا" متفق عليه.

وعن أنس **t** أن النبي **r** قال: "ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة" وفي رواية: "لما يرى من فضل الشهادة" متفق عليه.

وعن أبي قتادة **t** أن رسول الله **r** قام فيهم فذكر أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله **r**: "نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر" ثم قال رسول الله **r**: "كيف قلت" قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله **r**: "نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة **t** قال قال رسول الله **r**: "ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة" رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال سمعت أبي **t** وهو بحضرة العدو يقول قال رسول الله **r**: "إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف" فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله **r** يقول هذا؟ قال: نعم فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل. رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري **t** أن رسول الله **r** قال: "من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا وجبت له الجنة" فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علي يا رسول الله فأعدها عليه ثم قال: "وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين

كما بين السماء والأرض" قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: "الجهاد في سبيل الله الجهاد في سبيل الله" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة **t** أن رسول الله **r** قال: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض" رواه البخاري.

وعن أبي هريرة **t** أن رسول الله **r** قال: "من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هَيْعَةً أو فَرْعَةً طَارَ على مَتْنِهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ أو الْمَوْتَ مَظَانَّةً أو رجل في غُنَيْمَةٍ أو شَعْفَةٍ من هذه الشعف أو بطن وادٍ من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة **t** قال قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: "لا تستطيعونه" فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: "لا تستطيعونه" ثم قال: "مثل المجاهد في سبيل الله كمثلي الصائم القائم بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله" متفق عليه. وهذا لفظ مسلم. وفي رواية البخاري: أن رجلا قال: يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد. قال: "لا أجده" ثم قال: "هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر" فقال: ومن يستطيع ذلك.

وعن سهل بن سعد **t** أن رسول الله **r** قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها" متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري **t** قال: أتى رجل رسول الله **r** فقال: أي الناس أفضل؟ قال: "مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله" قال: ثم من؟ قال: "مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره" متفق عليه.

وعن أبي ذر **t** قال: قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: "الإيمان بالله والجهاد في سبيله" متفق عليه.

وعن أنس **t** أن رسول الله **r** قال: "لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها" متفق عليه.

وعن أبي هريرة **t** قال: سئل رسول الله **r** أي العمل أفضل؟ قال: "إيمان بالله ورسوله" قيل: ثم ماذا؟ قال: "الجهاد في سبيل الله" قيل: ثم ماذا؟ قال: "حج مبرور" متفق عليه.

وفي صحيح مسلم من طريق مسروق قال سألنا عبد الله عن هذه الآية: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، قال أما إننا قد سألنا عن ذلك فقال: "أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا"، إلى غير

ذلك من فضائل الشهداء نسأل الله أن يرزقنا الشهادة في سبيله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فلأجل هذه الأدلة المتكاثرة المتظافرة، قال النبي ﷺ: "وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله."

التواطؤ العالمي على إطفاء جذوة الجهاد، ويأبى الله:

واعلم رحمك الله أنه هذه الشعيرة، شعيرة الجهاد في سبيل الله، قد تواطأ العالم بأسره، من كفار ومشركين ومنافقين، على تعطيله، بل وإلغائه، خاصة على أمة الإسلام، بل ما أُبرِمت موائيق الأمم المتحدة، المناهضة لما يسمى بالتدخل في الشؤون الداخلية للدول، ولا نشرت الحريات، وعدم التفرقة بين بني الإنسان؛ إلا لإزهاق جذوة الجهاد في سبيل الله، وإلغاء عقيدة الولاء والبراء، والعجيب أن العالم كله يقاتل، وغالب الحروب دينية، ولكن ليس لدى المجتمع الدولي وأذنابه من طواغيت العرب ومنافقيهم، أدنى إشكال في ذلك، بشرط ألا يكون المقاتل هو المسلم، الذي يطالب بتطبيق الشريعة، وإقامة دولة الخلافة الراشدة، عجل الله بها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أقول: وعندهم كُلُّ من حقه أن يقاتل، إلا نحن، فليس من حقنا أن نجاهد، ومتى ما رُفعت راية للجهاد هنا أو هناك، انطلق العالمُ بأسره، يردد وراء السَّادِنِ الأكبر، والزانية الكبرى أمريكا، (هذا إرهاب ولا بد من الحرب ضد الإرهاب)، وكل هذه الدول متعلقة بحبل أمريكا، وكلهم يخشى الجهاد والشريعة الربانية، ومن وراء هؤلاء

شرذمة، لا تقل خبثاً ومكراً، عن المرجفين في المدينة، سلطوا سهامهم الإعلامية، والفتاوى المُعلَّبة، الصادرة حسب الطلب، الصادر من البلاط الملكي، والقصر الجمهوري؛ لينددوا ويحذروا من الجهاديين، تحت شعارات وأعداء مختلفة، أكثرها مختلق ملفق مُدَّعى، وبعض هؤلاء يهرف بما لا يعرف، ويركب الموجة؛ ليعزف على كل وتر، وإنْ وَتَرًا صُنِعَ في أمريكا، وفُصِّلَ على أيدي طواغيت العرب؛ فَتَاهَتِ العقول، وأصبحت الأمة تحارب عِزَّها، ومَجْدَها، وتتنكر لجهادها، الذي سطره النبي ﷺ وأصحابه **٧** بدمائهم، وضربوا في ذلك أروع أمثلة الصبر والمصابرة، والجهاد والمجاهدة، ولكن لعل هذا هو الزمان الذي قال فيه النبي ﷺ، كما في سنن النسائي بسند جيد عن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله أذال النَّاسُ الخيل، ووضعوا السلاح، وقالوا لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بِوَجْهه، وقال: "كَذَبُوا الْآنَ الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، وَيُزِيغُ اللهُ لهم قلوب أقوام، وَيَرْزُقُهُم منهم، حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل مَعْقُودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهو يوحى إلي أني مقبوض غير مُلَبَّثٍ، وأنتم تتبعوني أفناداً يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين الشام"^١.

١ - وأما حديث: (لا يزال الجهاد حلوا خضرا. الحديث) هو بهذا اللفظ لا يصح وجاء بقريب منه عن أنس ولا يصح. ومثله ما رواه أبو يعلى في مسنده أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود "رضي الله عنه" فقال: أسمعت رسول الله ﷺ يقول في الخيل شيئاً؟ قال: نعم؛ سمعت رسول الله ﷺ

قال شيخ الإسلام في (الاستقامة): [وسنام ذلك الجهاد في سبيل الله فإنه أعلى ما يحبه الله ورسوله واللائمون عليه كثير إذ كثير من الناس الذين فيهم إيمان يكرهونه وهم إما مُحَذَّلُونَ مُقْتَرُونَ للهمة والإرادة فيه وإما مُرْجَفُونَ مُضْعِفُونَ للقوة والقدرة عليه وإن كان ذلك من النفاق، قال الله تعالى: {قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا}، وقال تعالى: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونكم فيها إلا قليلا}]. اهـ.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي رحمه الله تعالى:

نَعِيبُ زَمَانِنَا وَالْعَيْبُ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
وَنَهْجُو ذَا الزَّمَانِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ... وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَانَا
وَلَيْسَ الذَّنْبُ يَأْكُلُ لَحْمَ ذَنْبٍ ... وَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عِيَانَا

يقول: (الخبيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة اشترى على الله واستقرضوا على الله). قيل: يا رسول الله كيف نشترى على الله ونستقرض على الله؟ قال: قولوا أقرضنا إلى مقاسمنا وبعنا إلى أن يفتح الله لنا، لا تزالون بخير ما دام جهادكم خضرًا، وسيكون في آخر الزمان قوم يشكُّون في الجهاد، فجاهدوا في زمانهم ثم اغزوا فإن الغزو يومئذ أخضر). وإسناده ضعيف ويغني عن ذلك ما ذكرناه في الشرح بسند جيد عن سلمة بن نفيل الكندي [†]، ومن الموقوف الجيد ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني أبو هانيء حدثني شُعْبَةُ عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: "يأتي على الناس زمان قلوبهم قلوب الأعاجم، ما آتاهم الله من رزق جعلوه في الحيوان، يعدون الصدقة مغرمًا، والجهاد ضرارًا". وروي مرفوعًا ولا يصح.

واليوم في مصر والشام، وفي ديار أخرى، حُرِّبَ صُرُوس بين الإسلام والكفر،
والشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ الدَّوْلِيَّةُ، وعلينا أن نعلم أنه لا مجال للتوقف، بل علينا أن
نكون أبداً في خندق من رفع شعار الكتاب الهادي والسيف الناصر على سبيل المؤمنين،
فتلك هي الطائفة المنصورة، التي لا يضرها من خذلها ولا من خالفها. {فَلَا تَهِنُوا
وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرِكُمْ أَعْمَالُكُمْ} [محمد: ٣٥].

ومن نفيس كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى وهو يتكلم عن فتنة
التتار ووجوب قتالهم وأمثالهم من الطوائف المارقة، وكذلك المرتدة، والممتنعة عن
إقامة شرائع الإسلام وشعائره، فقال في: [وطائفة كانت مسلمة فارتدت عن الإسلام
وانقلبت على عقبيها من العرب والفرس والروم وغيرهم وهؤلاء أعظم جرماً وعند
رسوله والمؤمنين من الكافر الأصلي من وجوه كثيرة فإن هؤلاء يجب قتلهم حتماً ما لم
يرجعوا إلى ما خرجوا عنه لا يجوز إن يعقد لهم ذمة ولا هدنة ولا أمان ولا يطلق
أسيرهم ولا يفادى بهما ولا رجال ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ولا يسترقون
مع بقائهم على الردة بالاتفاق ويقتل من قاتل منهم ومن لم يقاتل كالشيخ الهرم
والأعمى والزمن باتفاق العلماء وكذا نساؤهم عند الجمهور.

والكافر الأصلي يجوز أن يعقد له أمان وهدنة ويجوز المن عليه والمفاداة به إذا كان
أسيراً عند الجمهور ويجوز إذا كان كتابياً أن يعقد له ذمة ويؤكل طعامهم وتنكح
نساؤهم ولا تقتل نساؤهم إلا أن يقاتلن بقول أو عمل باتفاق العلماء وكذلك لا يقتل
منهم إلا من كان من أهل القتال عند جمهور العلماء كما دلت عليه السنة.

فالكافر المرتد أسوأ حالا في الدين والدنيا من الكافر المستمر على كفره وهؤلاء القوم منهم من المرتدة مالا يحصى عددهم إلا الله فهذان صنفان، وفيهم أيضا من كان كافرا فانتسب إلى الإسلام ولم يلتزم شرائعه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت والكف عن دماء المسلمين وأموالهم والتزام الجهاد في سبيل الله وضرب الجزية على اليهود والنصارى وغير ذلك، وهؤلاء يجب قتالهم بإجماع المسلمين كما قاتل الصديق مانعي الزكاة بل هؤلاء شر منهم من وجوه وكما قاتل الصحابة أيضا مع أمير المؤمنين علي ؑ الخوارج بأمر رسول الله حيث قال ؓ في وصفهم: "تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة"، وقال: "لو يعلم الذين يقاتلون ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل"، وقال: "هم شر الخلق والخليقة شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه"، فهؤلاء مع كثرة صيامهم وصلاتهم وقرائتهم أمر النبي بقتالهم وقاتلهم أمير المؤمنين علي وسائر الصحابة الذين معه ولم يختلف أحد في قتالهم كما اختلفوا في قتال أهل البصرة والشام لأنهم كانوا يقاتلون المسلمين فإن هؤلاء شر من أولئك من غير وجه وإن لم يكونوا مثلهم في الاعتقاد فإن معهم من يوافق رأيه في المسلمين رأي الخوارج فهذه ثلاثة أصناف، وفيهم صنف رابع شر من هؤلاء وهم قوم ارتدوا عن شرائع الإسلام وبقوا مستمسكين بالانتساب إليه فهؤلاء الكفار المرتدون والداخلون فيه من غير التزام لشرائعه والمرتدون عن شرائعه لا عن سمته كلهم يجب قتالهم بإجماع المسلمين حتى يلتزموا شرائع الإسلام وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وحتى

تكون كلمة الله التي هي كتابه وما فيه من أمره ونهيه وخبره هي العليا هذا إذا كانوا قاطنين في أرضهم فكيف إذا استولوا على أراضي الإسلام من العراق وخراسان والجزيرة والروم فكيف إذا قصدوكم وصالوا عليكم بغيا وعدوانا: {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم}.

واعلموا أصلحكم الله أن النبي قد ثبت عنه من وجوه كثيرة أنه قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة"، وثبت أنهم بالشام، فهذه الفتنة قد تفرق الناس فيها ثلاث فرق الطائفة المنصورة، وهم المجاهدون لهؤلاء القوم المفسدين، والطائفة المخالفة، وهم هؤلاء القوم ومن تحيز إليهم من خباله المنتسبين إلى الإسلام، والطائفة المخدلة، وهم القاعدون عن جهادهم، وإن كانوا صحيحي الإسلام، فلينظر الرجل أيكون من الطائفة المنصورة، أم من الخاذلة، أم من المخالفة، فما بقى قسم رابع.

واعلموا أن الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة، وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة قال الله تعالى في كتابه: {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين} يعنى إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة، فمن عاش من المجاهدين؛ كان كريما له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ومن مات منهم أو قتل فإلى الجنة، ثم ذكر أحاديث في فضل لجهاد

تقدمت إلى أن قال: وكذلك اتفق العلماء فيما أعلم على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد^١، فهو أفضل من الحج وأفضل من الصوم التطوع وأفضل من الصلاة التطوع. والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة **t**: [لأن أرباط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود] فقد اختار الرباط ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي **r** وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة لمعان منها أنهم كانوا مرابطين بالمدينة فإن الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط والأعمال بالنيات قال رسول الله: "رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم سواه فيما من المنازل" رواه أهل السنن وصححوه، وفي صحيح مسلم عن سلمان أن النبي قال: "رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطا أجرى عليه عمله وأجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتان"، يعنى: منكر ونكير، فهذا في الرباط فكيف الجهاد..... إلى أن قال محرضا أهل الشام ومثبثا لهم: **وَأَعْلَمُوا - أَصْلَحَكُمْ اللَّهُ - أَنْ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَى مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا أَنْ أَحْيَاهُ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي يُجَدِّدُ اللَّهُ فِيهِ الدِّينَ وَيُجِئِي فِيهِ شِعَارَ الْمُسْلِمِينَ وَأَحْوََالَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ حَتَّى يَكُونَ شَبِيهَاً بِالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.**

فَمَنْ قَامَ فِي هَذَا الْوَقْتِ بِذَلِكَ كَانَ مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

١ - وهذا فيه نظر فقد حكي عن الثوري وعن غير واحد من السلف وحكي اتفاقا أن أفضل التطوع طلب نفل العلم، فنفل العلم مقدم على غيره من النوافل. والله أعلم.

الْعَظِيمُ. فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْمُنْحَةِ الَّتِي حَقِيقَتُهَا مِْنَحَةٌ كَرِيمَةٌ مِنْ اللَّهِ وَهَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي فِي بَاطِنِهَا نِعْمَةٌ جَسِيمَةٌ حَتَّى وَاللَّهِ لَوْ كَانَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَغَيْرُهُمْ - حَاضِرِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ لَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِهِمْ جِهَادُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. وَلَا يَفُوتُ مِثْلُ هَذِهِ الْغَزَاةِ إِلَّا مَنْ خَسِرَتْ تِجَارَتُهُ وَسَفَقَ نَفْسُهُ وَحُرِمَ حَظًّا عَظِيمًا مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ عَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى كَالْمَرِيضِ وَالْفَقِيرِ وَالْأَعْمَى وَغَيْرِهِمْ وَإِلَّا فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَهُوَ عَاجِزٌ يَبْدِيهِ فَلْيَعِزُّ بِإِلَهِهِ. هـ.

وقال شيخنا العلامة المحدث سليمان بن ناصر العلوان في شريط (ألا إن نصر الله قريب): [أعظم عوامل النصر وأجل مقوماته هو: وجود المؤمنين الصادقين وقد نصر الله نبيه محمدا ﷺ يوم الغار بلا جيش ولا سلاح، ونصر الله رسوله ﷺ وأصحابه يوم بدر بالملائكة، ونصر الله رسوله ﷺ وحزبه المؤمنين يوم الأحزاب بالريح والجنود، وغير ذلك من نصر الله لجنده وحزبه بعوامل النصر الكثيرة، فالشأن كل الشأن في وجود فئة مؤمنة تفهم الإسلام فهما صحيحا، تعيش معه في كل مجالات الحياة وتقيم في ظله شعبا صادقا، يعرف الحق من الباطل والإسلام من الكفر، لا يتنازل عن عقيدته ومراميه، ولا يقبل المساومات والإغراءات للتنازل عن ذلك مهما أُوذِيَ وعذب وسجن. وما هي رزية ولا خسارة أن يؤذى أحد أو يقتل في سبيل دينه وعقيدته، والثبات على دعوته وأفكاره وأقواله، وقد تواعد فرعون السحرة حين آمنوا بربهم وهددهم بالقتل فما استكانوا لفرعون وما وهنوا وما ضعفوا، ولم يكن من أمرهم إلا أن: {قالوا لن نؤثر}]

على ما جاءنا من البيئات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض {، فالإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يلوي على الباطل ولا يتحول عن الحق مهما كان الابتلاء من الضرب والحبس أو القتل، أو الابتلاء بالسراء من الإغراءات بالمال والمنصب والجاه، فالفتن والمحن لا تزيد المؤمنين ولا سيما العلماء منهم إلا إيماناً بالله وتسليماً، وقد قيل: كم من محنة انقلبت منحة، وهذا حق! فكم من عالم قتل بنوايا خبيثة ومرامي سياسية، فعاشت أفكاره وأقواله بين الناس، وأصبحت شجنة من بعده في أبناء المسلمين، والأمثلة والأدلة على ذلك كثيرة، المهم أن نقول الحق ولا نلبسه بالباطل، وأن نصدع بما نعلمه ديناً وشريعة وعقيدة ومنهجاً] اهـ.

الجهاد يوجه الطاقات ويفرغ الشحنات النفسية في الأعداء:

واعلم رحمك الله تعالى، أن في النفس البشرية من الإحْن والأَصْغَان ما الله تعالى به عليم، وأن الأمة متى تركت الجهاد في سبيل الله تعالى؛ سُلِّطَ بعضهم على بعض؛ فعمدوا إلى تفريغ هذه الشحنات الشيطانية فيما بينهم، فوقع الاحتراب، وحصلت الشحناء والبغضاء، وصار بأُسُنَا بَيْنَنَا، ومتى ما قام الجهاد في سبيل الله تعالى، كان من أعظم الأسباب إلى ائتلاف المسلمين ووحدتهم وقوتهم، وتفرغت تلك الشحنات في أعدائهم؛ فصلحت الأحوال، وصدروا بخير وأمن وأمان، والله المستعان.

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ آيَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّخْرِيشِ بَيْنَهُمْ".

وجاء في جامع المسائل لابن تيمية: [وكان النبي - ﷺ - يحضُّ المسلمين على الإنفاق في سبيل الله، حتى إنه في غزاة تبوك حَضَّهُمْ، وكان المسلمون في حاجة شديدة، فجاء عثمان بن عفان بألف راحلة من ماله في سبيل الله بأحلاسها وأفتاها، وأعوزت خمسين راحلة فكمَّلها بخمسين فرساً، فقال النبي - ﷺ - : "ما صرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم".

وذمَّ الله المخلفين عن الغزو في سورة براءة بأقبح الذم حين قال: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}. وقال: {إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}.

فمن ترك الجهاد عذبه الله عذاباً أليماً بالذَّل وغيره، ونزع الأمر منه فأعطاه لغيره، فإن هذا الدين لمن ذبَّ عنه..... إلى أن قال: ومتى جاهدت الأمة عدوها أَلَفَ الله بين قلوبها، وإن تركت الجهاد شغل بعضها ببعض.

ومن نِعِمَّ الله على الأمة أنها قد اجتمعت على ذلك في الشرق والغرب، حتى إن المؤمنين من أهل المشرق قد تحرَّكت قلوبهم انتظاراً لجنود الله [أ.هـ].

وقال أيضاً في (مجموع الفتاوى): [وقوله تعالى: {إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} قَدْ يَكُونُ الْعَذَابُ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ يَكُونُ بِأَيْدِي الْعِبَادِ فَإِذَا تَرَكَ النَّاسُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ يَبْتَلِيهِمْ بِأَنْ يُوقَعَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ حَتَّى تَقَعَ بَيْنَهُمُ الْفِتْنَةُ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا اشْتَغَلُوا بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَمَعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ وَجَعَلَ بَأْسَهُمْ عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوَّهُمْ، وَإِذَا لَمْ يَنْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ يُلْسِسَهُمْ

شَيْعًا وَيَذِيقُ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} يَدْخُلُ فِي الْعَذَابِ الْأَذْنَى مَا يَكُونُ بِأَيْدِي الْعِبَادِ كَمَا قَدْ فُسِّرَ بِوَقْعَةٍ بَذَرِ بَعْضٍ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَذَابِ [١.هـ].

وقال ابن حزم في كتابه: (المحلى): [وَلَا إِنَّمْ بَعْدَ الْكُفْرِ أَعْظَمُ مِنْ إِثْمٍ مَنْ تَهَى، عَنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَأَمَرَ بِإِسْلَامِ حَرِيمِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ فَسَقِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ لَا يُحَاسِبُ غَيْرُهُ بِفُسْيقِهِ] ١.هـ.

قال ابن القيم في (زاد المعاد): [(فصل في هديه ٢ في الجهاد والمغازي والسرايا والبعوث): كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا فهم الأعلون في الدنيا والآخرة كان رسول الله ٢ في الذروة العليا منه واستولى على أنواعه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا وأعظمهم عند الله قدرا.

(كان الجهاد في أول الإسلام بتبليغ الحجة): وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال: {ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهادا كبيرا} فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام قال تعالى: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل والقائمون به أفراد في العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددا فهم الأعظمون عند

الله قدرا. ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسول - صلوات الله عليهم وسلامه - من ذلك الحظ الأوفر وكان لنبينا - صلوات الله وسلامه عليه - من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

(جهاد أعداء الله فرع على جهاد النفس): ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات قال النبي ﷺ: "المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"؛ كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج وأصلا له فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج .

(هناك جهاد ثالث هو جهاد الشيطان): فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهدهما وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهداه وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ويخذه ويرجف به ولا يزال يُخِيلُ له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهداه فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشيطان قال تعالى: {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا} والأمر باتخاذ عدوا تنبيه على است فراغ الوسع في محاربته ومجاهدته كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

(جهاد هؤلاء الأعداء الثلاثة ليمتحن من يتولاه): فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتهم وجهادهم وقد بلي بمحاربتهم في هذه الدار وسلطت عليه امتحانا من الله له

وابتلاء فأعطى الله العبد مددا وعدة وأعوانا وسلاحا لهذا الجهاد وأعطى أعداءه مددا وعدة وأعوانا وسلاحا وبلا أحد الفريقين بالآخر وجعل بعضهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه كما قال تعالى: {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أَتَصْبِرُونَ} وكان ربك بصيرا {وقال تعالى: {ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن لِيَبْلُوَ بعضكم ببعض} وقال تعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين وَنَبِّئُوا أخباركم} فأعطى عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوى وأنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله وأمدهم بملائكته وقال لهم: {أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم وأخبرهم أنهم إن امثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوهم وعدوهم وأنه إن سلطه عليهم فليتركهم بعض ما أمروا به ولمعصيتهم له ثم لم يُؤَيِّسْهُمْ ولم يقنطهم بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ويداؤوا جراحهم ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليه ويظفرهم بهم فأخبرهم أنه مع المتقين منهم ومع المحسنين ومع الصابرين ومع المؤمنين وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم ولولا دفاعه عنهم لتخطفهم عدوهم واجتاحهم . وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره فإن قوي الإيمان قويت المدافعة فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(معنى وجاهدوا في الله حق جهاده): وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون كله لله

وبالله لا لنفسه ولا بنفسه ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتياب نهيه فإنه يعد الأمانى ويمنى الغرور ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر الإيثار كلها فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هي العليا. واختلفت عبارات السلف في حق الجهاد فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم. وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته. وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى. ولم يصب من قال إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق وحق تقاته وحق جهاده هو ما يطيقه كل عبد في نفسه وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز والعلم والجهل. فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء وتأمل كيف عقب الأمر بذلك بقوله {هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج} والخرج الضيق بل جعله واسعاً يسع كل أحد كما جعل رزقه يسع كل حي وكلف العبد بما يسعه العبد ورزق العبد ما يسع العبد فهو يسع تكليفه ويسعه رزقه وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما قال النبي ﷺ بعثت بالحنيفية السمحة أي بالملة فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل. وقد وسع الله سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه ورزقه وعفوه ومغفرته وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد وفتح لهم باباً لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة أو صدقة أو حسنة ماحية أو مصيبة مكفرة وجعل بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم

منه وأطيب وألذ فيقوم مقامه ليستغني العبد وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسرا قبله ويسرا بعده فلن يغلب عسر يسرين فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلا عما لا يطيقونه ولا يقدرّون عليه.

فصل (مراتب الجهاد): إذا عرف هذا فالجهاد أربع مراتب جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين. مراتب جهاد النفس فجهاد النفس أربع مراتب أيضا: إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين. الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها. الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيّنات ولا ينفعه علمه ولا ينجيّه من عذاب الله. الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مَشَاقِّ الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجتمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السموات.

فصل (مراتب جهاد الشيطان): الشيطان فمرتبتان إحداها: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القاذحة في الإيمان. الثانية جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات فالجهاد الأول يكون بعده اليقين والثاني يكون بعده الصبر. قال تعالى: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا

يوقنون}، فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

فصل (مراتب جهاد الكفار والمنافقين): وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب بالقلب واللسان والمال والنفس وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان.

فصل (جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات): وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب الأولى: باليد إذا قدر فإن عجز انتقل إلى اللسان فإن عجز جاهد بقلبه فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق.

فصل: (شرط الجهاد): ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وكما أن الإيمان فرض على كل أحد ففرض عليه هجرتان في كل وقت عز وجل بالتوحيد والإخلاص والإنابة والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والتوبة وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره والتصديق بخبره وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله وجهاد شيطانه فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد، وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

فصل: (أكمل الخلق من كمل مراتب الجهاد وأكملهم محمد ﷺ): وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله متفاوتهم في مراتب الجهاد ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله فإنه كمل مراتب الجهاد وجاهد في الله حق جهاده وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل فإنه لما نزل عليه {يا أيها المدثر قم فأندر وربك فكبر وثيابك فطهر} شمر عن ساق الدعوة وقام في ذات الله أتم قيام ودعا إلى الله ليلا ونهارا وسرا وجهارا ولما نزل عليه {فاصدع بما تؤمر} فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحر والأسود والجن والإنس . ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة وناداهم بسبب آلهتهم وعيب دينهم ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى وهذه سنة الله عز وجل في خلقه كما قال تعالى: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك}، وقال: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن}، وقال {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون}، فعزى سبحانه نبيه بذلك وأن له أسوة بمن تقدمه من المرسلين وعزى أتباعه بقوله: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب}، وقوله {الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن

العالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين} [١٠.هـ].

وهكذا كان أصحاب محمد ﷺ رضي الله تعالى عنهم، ربح بيعهم لما اشترى الله منهم نفوسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فقاموا يكسرون السيوف في الجهاد في سبيل الله، كلما انكسر سيف سلوا آخر من غمده، وحالهم كما قال القائل:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفُهُمْ ... بِهِمْ فُلُوكَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

ولهذا عزوا وذللنا، وسادوا وصرنا نحن إلى ما ترون، فالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال ابن القيم في (زاد المعاد في هدي خير العباد) في قصة دخول النبي ﷺ معتمرا عمرة القضية في العام الذي يلي عام الحديبية:

[وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرْتَحِزُ مُتَوَشِّحًا بِالسَّيْفِ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ

فِي صُحُفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ ... يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

إِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ فِي قَبُولِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

صَرَبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الْحَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: [فَإِنَّ الرَّسُولَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّ اللَّهُ وَيَنْهَى عَمَّا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَيَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيُخْرِجُ بِمَا يُحِبُّ اللَّهُ التَّصَدِيقَ بِهِ، فَمَنْ كَانَ مُحِبًّا لِلَّهِ لَزِمَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ فَيُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَ وَيَتَأَسَّى بِهِ فِيمَا فَعَلَ وَمَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ فَعَلَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ؛ فَيُحِبُّهُ اللَّهُ؛ فَجَعَلَ اللَّهُ لِأَهْلِ حُبِّهِ عَلامَتَيْنِ: اتِّبَاعَ الرَّسُولِ، وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَادَ حَقِيقَتُهُ الْاجْتِهَادُ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ وَمِنْ دَفْعِ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ} إِلَى قَوْلِهِ: {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} فَتَوَعَّدَ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِهَذَا الْوَعِيدِ] ١. هـ.

الجهاد هو قدرُ هذه الأمة، وهي إليه صائرة:

ولنعلم جميعاً، أن الجهاد هو قدر هذه الأمة، وإن أرغى العالم وأزبد، رضي من رضي وسخط من سخط، ولو شاء الله تعالى لنصر عباده المؤمنين بلا قتال، كما فعل مع كثير من الرسل وأتباعهم، ولكن الله في ذلك حكمة بالغة، كما قال تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَّرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)}

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَاهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَاهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ {محمد: ٤ - ١١}.

ولكنه شرف ادخر الله تعالى أكثره لهذه الأمة، إذ لا يعرف في الأمم الماضية أمة مجاهدة كأمة محمد ﷺ. فاللهم لك الحمد كله، أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا.

بُشْرِيَّاتُ بِمُضِيِّ الْجِهَادِ وَبِقَائِهِ:

وها هي بشريات ذلك بدأت تلوح في الأفق، بل وظهر ذلك في وضوح النهار، فقد هبَّ المجاهدون الأشاوس، يقارعون الكفر العالمي، غير عابئين بمن خذلهم، ولا من خالفهم، وهم داخلون أصالة في قول النبي ﷺ: "لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ". متفق عليه من حديث معاوية t.

فالجهاد ماضٍ إلى قيام الساعة حتى يأتي أمر الله، بعز عزيز أو بذل ذليل، وإليك هذه الأخبار التي تبين لك، أن الجهاد هو قدر هذه الأمة، وأن انتصارها سيكون به بإذن الله تعالى، وأنه ماضٍ باقٍ:

ففي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ فَيُخْرِجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ فَإِذَا تَصَافَوْا قَالَتِ الرُّومُ خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَّوْنَا نَقَاتِلُهُمْ. فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَا وَاللَّهِ لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا. فَيَقَاتِلُونَهُمْ فَيَنْهَزُهُمْ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينَةَ فَيَسْمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ. فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ فَيَسْمَا هُمْ يُعْدُونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّهُمْ فَإِذَا رَأَوْا عَدُوَّ اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ فَلَوْ تَرَكَهُ لَأَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ".

وفي صحيح مسلم من طريق يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هَجِيرٌ إِلَّا يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ جَاءَتِ السَّاعَةُ. قَالَ فَقَعَدَ وَكَانَ مُتَكَيِّفًا فَقَالَ: إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى لَا يُقَسَمَ مِيرَاثٌ وَلَا يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ. ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا - وَنَحَاَهَا نَحْوَ الشَّامِ - فَقَالَ عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَيَجْمَعُ هُمْ أَهْلَ الْإِسْلَامِ. قُلْتُ الرُّومُ تَعْنِي قَالَ نَعَمْ وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمْ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ فَيُسْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّ

غَيْرُ غَالِبٍ وَتَفَنَى الشُّرْطَةُ ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً
فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّ غَيْرُ غَالِبٍ وَتَفَنَى الشُّرْطَةُ ثُمَّ
يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ
وَهَؤُلَاءِ كُلُّ غَيْرُ غَالِبٍ وَتَفَنَى الشُّرْطَةُ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ
فَيَجْعَلُ اللَّهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً - إِمَّا قَالَ لَا يَرَى مِثْلَهَا وَإِمَّا قَالَ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا -
حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَابَتِهِمْ فَمَا يُخْلِفُهُمْ حَتَّى يَحِرَّ مَيِّتًا فَيَتَعَادُ بَنُو الْأَبِ كَانُوا مِائَةً فَلَا
يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ فَبَآئِي غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ فَبَيْنَمَا هُمْ
كَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَاسٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ إِنَّ الدَّجَالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي
ذَرَارِيهِمْ فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَيُقْبِلُونَ فَيَبْعَثُونَ عَشْرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةٍ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ: "إِنِّي لَأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَأَلْوَانَ خِيُولِهِمْ هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ
الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ أَوْ مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ".

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي
غَزْوَةٍ - قَالَ - فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ، فَوَافَقُوهُ عِنْدَ
أَكْمَةٍ، فَأَيَّاهُمْ لِقِيَامَ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ - قَالَ - فَقَالَتْ لِي نَفْسِي أَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ
لَا يَغْتَالُونَهُ - قَالَ - ثُمَّ قُلْتُ لَعَلَّهُ نَجَّى مَعَهُمْ. فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ - قَالَ -
فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ أَعُدُّهُنَّ فِي يَدِي قَالَ: "تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ
فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَالَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ". قَالَ
فَقَالَ نَافِعٌ يَا جَابِرُ لَا تَرَى الدَّجَالَ يُخْرِجُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ.

وغير ذلك من الأحاديث، الواردة في هذا الباب، فالله الله بتحديث النفس بالجهاد، والله الله بالاستعداد لذلك، فإنه أمر الله، وإنه آت لا محالة، فالشبات الثبات عباد الله.

ولنعلم أن هذا الدين منصور لا محالة، إن نصره العرب، وإلا نصره العجم، أو من يشاء الله من عباده، إلا أن وعده سبحانه وتعالى نافذ، وكلمته تامة متحققة، والسعيد من استعمله الله تعالى، وإلا فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

فاللهم أصلحنا، واستعملنا، ولا تستبدلنا.

يا أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

فصل: في ذكر أهداف الجهاد في سبيل الله:

اعلم رحمك الله تعالى، أن الله تعالى ما شرع للعباد الجهاد في سبيله، وكتبه عليهم، مع أنه كُرِّهَ لهم؛ إلا لما في ذلك من المصالح العظيمة، والخير الواسع، والنفع العميم، للعباد في معاشهم ومعادهم، ولنذكر جملة من ذلك على سبيل التذكير، لا على سبيل الاستيعاب والحصر، وإلا فإن الأمر أعظم من ذلك وأكبر:

- ١- إعلاء كلمة الله تعالى، حتى لا يبقى في الأرض سلطان أعلى من سلطان الله تعالى، وهذا هو المقصود الأعظم، إذ ليس المراد من الجهاد، محو الكفر وإزالته بالكلية، إذ أن هذا متعذر قطعاً؛ لأن الله تعالى قضى في سنته القدريّة الكونية، أن الكفر سيبقى إلى نهاية العالم الدنيوي، حيث لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، كما تقدم.
- ٢- التبعّد لله تعالى بهذه الفريضة والشعيرة العظيمة من شعائر الإسلام.
- ٣- إقامة الدولة الإسلامية الممكنة في الأرض، والذود عنها، وحمايتها وأهلها ومقدراتها.

٤- تحقيق بعض معاني الابتلاء في الإيثار بالله تعالى، واتخاذ شهداء في سبيل الله تعالى، كما قال تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٤٠].

٥- تقديم الآخرة على الحياة الدنيا، والتذكير بما أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين، فإن الأمة متى ما برزت فيها هذه الشعيرة العظيمة؛ صارت الآخرة مقدمة عندها على الحياة الدنيا.

٦- إظهار عزة المؤمنين، ومنعتهم وقوتهم، وتربية الأمة على معاني العزة والكرامة، والألفة عن الضيم، وتحقيق معاني الشجاعة والبرسالة.

٧- تربية النفوس المؤمنة على المعاني السامية الرفيعة، ففي الجهاد في سبيل الله تظهر أسمى معاني الإيثار والتراحم، وحب الخير للعالم، وإقامة العدل في الأرض بتطبيق الإسلام، وتظهر معاني الصبر والمصابرة والمراعاة في أروع صورها العملية.

٨- إظهار ولاء المؤمنين لبعضهم، وبغضهم للكفار والبراءة منهم، وأنهم يد على من سواهم، وأن بلادهم واحدة، وأعراضهم ودمائهم وأموالهم متكافئة، فيغضبون لبعضهم، وينتصرون لإخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها، وتربي الأمة على هذه العقيدة التي بدونها لا تقوم للإسلام قائمة في العبد، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مَنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٥٤ - ٥٧].

٩- نيل محبة الله تعالى، ببذل المهج والنفوس رخيصة في سبيل الله تعالى، كما في الآية السابقة، وفي قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١].

١٠- إزالة العوائق بين العباد وبين رؤية الحق وإبصاره؛ بالقضاء على الطاغوت الجاثم على رقاب العباد، الصَّادُّ عن سبيل الله تعالى، رغبة أو رهبة؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

١١- الغيرة على حق الله تعالى بإقامة شرعة والقضاء على ضده.

١٢- تخلص المستضعفين من أيدي الظالمين والباطشين، فكم من دم مسفوك بغير وجه حق، وكم من أسير مظلوم، وكم من عرض مهتوك، وكم من أرض سليبة، وكم من خوف ورعب عظيم مبثوث هنا أو هناك.

جاء في (أحكام القرآن) لابن العربي المالكي: [وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا}: فَإِنَّ ذَلِكَ عَامٌّ فِي النُّصْرَةِ وَالْمِيرَاثِ؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ مُقِيمًا بِمَكَّةَ عَلَى إِيْمَانِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُعْتَدًا لَهُ بِهِ، وَلَا مُثَابًا عَلَيْهِ حَتَّى يُهَاجِرَ. ثُمَّ نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ، بِفَتْحِ مَكَّةَ، وَالْمِيرَاثِ بِالْقَرَابَةِ، سَوَاءً كَانَ الْوَارِثُ فِي دَارِ الْحَرْبِ، أَوْ فِي دَارِ السَّلَامِ؛ لِسُقُوطِ اعْتِبَارِ الْهَجْرَةِ بِالسَّنَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونُوا أُسْرَاءَ مُسْتَضْعَفِينَ؛ فَإِنَّ الْوِلَايَةَ مَعَهُمْ قَائِمَةٌ، وَالنُّصْرَةُ لَهُمْ وَاجِبَةٌ بِالْبَدَنِ بَلَا يَبْقَى مَنَّا عَيْنٌ تَطْرِفُ حَتَّى نَخْرُجَ إِلَى

اسْتِنْقَاذِهِمْ إِنْ كَانَ عَدَدُنَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ، أَوْ نَبْذُلَ جَمِيعَ أَمْوَالِنَا فِي اسْتِخْرَاجِهِمْ، حَتَّى لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ دِرْهَمٌ كَذَلِكَ.

قَالَ مَالِكٌ وَجَمِيعُ الْعُلَمَاءِ: فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَلَى مَا حَلَّ بِالْخَلْقِ فِي تَرْكِهِمْ إِخْوَانَهُمْ فِي أَسْرِ الْعَدُوِّ، وَبِأَيْدِيهِمْ خَزَائِنُ الْأَمْوَالِ وَفُضُولُ الْأَحْوَالِ وَالْعُدَّةُ وَالْعَدَدُ، وَالْقُوَّةُ وَالْجُلْدُ[١]. هـ.

قلت: وهذا إذا كان ثمة قدرة على ذلك، وإلا فإن النبي ﷺ كان أصحابه بمكة يعذبون وربما قتل بعضهم، وهو لا يملك لهم سوى الدعاء والصبر والتثبيت، وكذلك لما قامت دولته ﷺ بالمدينة، وأسر بعض أصحابه، فلما لم يكن بمقدوره استنقاذهم، قَتَلَ يدعو لهم حتى فك الله أسرهم.

كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ يَفْرُغُ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَيُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ: "سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ". ثُمَّ يَقُولُ وَهُوَ قَائِمٌ: "اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ كَسَنِي يُوسُفَ اللَّهُمَّ الْعَنَ لِحَيَّانَ وَرِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ". ثُمَّ بَلَّغْنَا أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ لَمَّا أُنْزِلَ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}.

قلت: ولكن لا بد أن نفرق بين العَاجِزِ والمُتَعَاجِزِ.

١٣ - إظهار قوة الإسلام وأهله، مما يكون سبباً لانتشار الإسلام، فإن النفوس غالباً ما تنقاد للقوي.

١٤- ردع النفوس الخبيثة الفاجرة الجائرة عن غيها وضلالها، حيث لا تنفع معها المواعظ والذكرى، وكما قيل: يَزْعُ اللهُ بالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزْعُ بِالْقُرْآنِ، قال تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّلًا} [النساء: ٨٤].

١٥- قطع الألسنة الفاجرة المرجفة في المدينة من المنافقين وأذنانهم، فإن هؤلاء يضمحل أمرهم، ويضعف مكرهم، مع وجود الدولة الإسلامية الممكنة في الأرض.

١٦- إرهاب الكفار، وتخويفهم، حتى لا يجترؤوا على ديار المسلمين، ولا أعراضهم وأموالهم ومقدراتهم، بل يحسبون لهم ألف حساب، وفي السيرة والتاريخ، أرسل خالد بن الوليد رسالة إلى كسرى قال فيها: [أسلم تسلم وإلا فقد جئتكم برجال يحرصون على الموت كما تحرصون على الحياة]، فلما قرأها كسرى؛ خاف خوفا عظيما وارتعد، وأرسل يطلب النجدة والمدد من ملك الصين، فرد عليه ملك الصين قائلا: (يا كسرى لا قبل لي برجال لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها).

وقد نُقِلَ أن في الدولة العثمانية كانت السفن الإسلامية إذا مرت بالموانئ الأوربية، كان الكفار في مدنها المطلّة على الشاطئ يوقفون دق أجراس الكنيسة ونواقيسها خشية استفزاز المسلمين فيغروهم بفتح تلك المدينة. وأمثال هذه الصورة كثيرة جدا تحكي عزة المسلمين ومنعتهم.

١٧- وضع الأمور في نصابها، بأن تكون أمة الإسلام ودولته الممكنة، هي الرائدة والقائدة للعالم كله، فيحصل بذلك الخير لأهل الأرض كلهم؛ لأنها الأمة التي تقضي

بالحق وبه تعدل، وهي أمة الشهادة على الناس، وتأمل لما صارت قيادة العالم في أيدي الكافرين، كيف جَرَّ ذلك على العالم كله، الولايات والشُرور، ما لا يمكن إحصاؤه ولا حكايته، إذ لا يعلم عظيم هذا الخطب المدلهم إلا الله تعالى، فكم من خبايا وخفايا، ورزايا وبلايا، في رَوَايا الأرض وتُخَوِّمها، وقد أحسن أحد الكتاب لما سمي كتابه: (ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

١٨- إغاية الكافرين والمنافقين، فإن الجهاد في سبيل الله من أغبط ما يكون على أعداء الملة والدين، قال تعالى: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٢٠-١٢١].

١٩- تربية الأمة على روح الفداء لدين الله تعالى، وتقديم التضحيات؛ مما يدل على الصدق مع الله وتعالى، وأن الدين هو أغلى ما تملكه الأمة، وتنافح وتدافع عنه، وفيه التربية على اليقين من أن الموت أشرف ما يكون في ساحات الجهاد في سبيل الله، وأن الأمر كما قال تعالى: {أَيُّنَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ} [النساء: ٧٨]، وكما قال الناظم وينسب إلى علي ؑ :

من أي يَوْمَيَّ من الموت أفر... من يوم لا يقدر أم يوم قدر
يوم لا قُدِّرَ لا أرهبه... ومن المَقْدُورِ لا يَنْجُو الحَذِر

وَأَنْتَ لَوْ تَأَمَّلْتَ فِي عِدَدِ الْمَوْتَى فِي الْمُسْتَشْفِيَّاتِ، مَعَ مَا يَقَعُ فِي سَاحَاتِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لَوَجَدْتَ أَنَّ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي الْمُسْتَشْفِيَّاتِ وَعَلَى فُرُشِهِمْ أَكْثَرَ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةً مِمَّنْ يَمُوتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَالْجِهَادُ وَالنِّقِيرُ لَا يَعْنِي بِالضَّرُورَةِ الْمَوْتَ، كَمَا أَنَّ الْإِخْلَادَ إِلَى الْأَرْضِ وَالْفِرَارَ لَا يَعْنِي الْخُلُودَ. فتأمل.

٢٠- تحصيل أحد أعظم أسباب الخيرات للعباد والبلاد، ومتى ما أعرضت الأمة عن الجهاد؛ ضربها الله تعالى بالتية والضياع، الذي جرى على بني إسرائيل من قبل، وكما تقدم فإن هذه الأمة ستأخذ مأخذهم، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكُمُ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٤-٢٦]، وقال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: ٤١].

محبة صادقة:

إليك أخي المسلم هذا الحديث العجيب - ومثله كثير في أحوال الصحابة **y** - ،
الذي يعكس لك طرفاً مما كان عليه ذلك الجيل العظيم، من المحبة الصادقة للنبي **r** ،
والحرص الشديد الأكيد على الذب عنه والانتصار له **r** .

ففي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ قَالَ بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ
نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةَ أَسْنَانٍمَا تَمَيَّنْتُ لَوْ كُنْتُ
بَيْنَ أَضْلَعٍ مِنْهُمَا فَعَمَزَنِي أَحَدُهُمَا. فَقَالَ يَا عَمَّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ وَمَا
حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي قَالَ أَخْبَرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ **r** وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكُنْ
رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا. قَالَ فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ فَعَمَزَنِي
الْآخَرُ فَقَالَ مِثْلَهَا - قَالَ - فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَزُولُ فِي النَّاسِ فَقُلْتُ أَلَا
تَرَيَانِ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ قَالَ فَاثْبَدْرَاهُ فَضَرَبَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا حَتَّى قَتَلَاهُ ثُمَّ
انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ **r** فَأَخْبَرَاهُ. فَقَالَ: "أَيُّكُمَا قَتَلَهُ". فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَا قَتَلْتُ.
فَقَالَ: "هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا". قَالَا لَا. فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ فَقَالَ: "كِلَاكُمَا قَتَلَهُ". وَقَصَى
بِسَلْبِهِ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ، وَالرَّجُلَانِ: مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ وَمُعَاذُ ابْنِ
عَفْرَاءَ.

كما أن هذا الخبر يُرشدك كذلك إلى طريقة التربية الإيمانية، التي كان الصحابة **y**
يُربُّونَ عليها أبناءهم، فإذا كان هذا حال صغارهم فكيف بكبارهم؟!.

بل وكانوا يتنافسون على الجهاد في سبيل الله وهو صغر السنّ، كما وفي الصحيحين
عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ عَرَضَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْقِتَالِ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ
يُجْزِنِي وَعَرَضَنِي يَوْمَ خَنْدَقٍ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي.

فَالَّذِينَ مُقَدَّمُوا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالرَّفْعَةُ وَالسِّيَادَةُ أَبَدًا اللَّهُ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ، هَكَذَا كَانُوا
y، فَنَظَرُوا إِلَى أَحْوَالِنَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

قال الشوكاني في نيل الأوطار في معرض شرحه لحديث ابن عمر: "إذا تبايعتم
بالعينة وأخذتم أذنان البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا
ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم" وهو حديث فيه علة: [وقد روى الترمذي بإسناد
صحيح عن ابن عمر: (كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم فخرج
إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن
عبيد فحمل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم فصاح المسلمون وقالوا
سبحان الله يلقي بيده إلى التهلكة فقام أبو أيوب فقال يا أيها الناس إنكم لتأولون هذا
التأويل وإنما نزلت هذه الآية لما أعز الله الكلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرا
أن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا
وأصلحنا ما ضاع منا فأنزل الله على نبيه ما يرد علينا فقال: {ولا تلقوا بأيديكم إلى
التهلكة}، فكانت التهلكة الأموال وإصلاحها وترك الغزو)، قوله: "ذلا" بضم الذال
المعجمة وكسرها أي صغارا ومسكنة. ومن أنواع الذل الخراج الذي يسلمونه كل سنة
لملاك الأرض وسبب هذا الذل والله أعلم أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه

عز الإسلام وإظهاره على كل دين عاملهم الله بنقيضه وهو إنزال الذلة بهم فصاروا يمشون خلف أذنان البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان [١.هـ].

قال شيخ الإسلام ابن القيم في: (طريق المجرتين وباب السعادتين): [الطبقة السادسة: المجاهدون في سبيل الله: وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه، ويدفع بهم بأس أعدائه، ويحفظ بهم بيضة الإسلام، ويحمي بهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله؛ ليكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ودفع أعدائه، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها، وإن باتوا في ديارهم، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم، فإنهم كانوا هم السبب فيه، والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر] ١.هـ.

وقال رحمه الله تعالى في كتابه: (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) وهو يتكلم عن قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١].

[وَأَفْهَمَتِ الْآيَةَ خَطَرَ النَفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَشَرَفَهَا، وَعَظَمَ مَقْدَارَهَا، فَإِنَّ السِّلْعَةَ إِذَا خَفِيَ عَلَيْكَ قَدْرُهَا، فَانْظُرْ إِلَى الْمُشْتَرِي لَهَا، مَنْ هُوَ؟، وَانْظُرْ إِلَى الثَّمَنِ الْمَبْذُولِ فِيهَا، مَا هُوَ؟، وَانْظُرْ إِلَى مَنْ جَرَى عَلَى يَدِهِ عَقْدُ التَّبَايُعِ، فَالسِّلْعَةُ النَفْسُ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ الْمُشْتَرِي

لها، والثلث لها جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة، وأكرمهم عليه، وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه:

قد هيوك لأمر لو فطنت له ... فأربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل [١.هـ].

ليس على النساء جهاد بالنفير إلى الأمصار:

إن المتأمل في هدي النبي **r** وأصحابه **y**؛ يعلم يقيناً أنه ليس للمرأة أن تنفر للجهاد في سبيل الله، مع وجود غلبة الظن على أمرها، أو تعرضها للفتنة في عرضها، أو دينها، وأنها ليست مخاطبة بذلك، بل ما كنت المرأة في زمانهم تخرج إلا مع محارمها إن كان الغزو مسافة سفر، ومعهم الجند فيداوين الجرحى والكلمى، ويسقين الجند، كما في صحيح البخاري عن حفصة قالت: كُنَّا نَمْنَعُ عَوَاتِقَنَا أَنْ يَخْرُجْنَ فِي الْعِيدَيْنِ، فَقَدِمَتِ امْرَأَةٌ، فَتَرَكْتُ قَصْرَ بَنِي خَلْفٍ، فَحَدَّثْتُ عَنْ أُخْتِهَا، وَكَانَ زَوْجُ أُخْتِهَا غَزَا مَعَ النَّبِيِّ **e** ثِنْتِي عَشْرَةَ، وَكَانَتْ أُخْتِي مَعَهُ فِي سِتٍّ، قَالَتْ كُنَّا نُدَاوِي الْكَلْمَى وَنَقُومُ عَلَى الْمُرْصَى، فَسَأَلْتُ أُخْتِي النَّبِيَّ **e** أَعَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا جِلْبَابٌ أَنْ لَا تَخْرُجَ قَالَ: "لِتُلْبِسَهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا".

فتأمل في هذا الخبر كيف أنها كانت تغزوا مع زوجها، وكان ذلك في عز الإسلام ومنعة أهله، وعليه فلا يجوز للمرأة المخاطرة بعرضها، ووقوعها في الأسر، فإن ذلك ثلمة في الإسلام ورزية على المسلمين.

وإذا كان النبي **r** يأمر الرجال أن يرجعوا عن الجهاد، بعد أن اكتبوا فيه؛ لِيَحْجُوا مع نسائهم، حتى لا تخرج المرأة من غير محرم، كما في صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ **e** يَقُولُ: "لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مُحْرَمٌ"، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْتُبْتُ فِي غَزْوَةٍ كَذَا وَكَذَا، وَخَرَجْتُ امْرَأَتِي حَاجَةً قَالَ: "اذهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ".

قلت: فكيف بالنساء يَنْفِرْنَ، بلا محرم، مع التعرض للمخاطر؟!، لا شك أن هذا مخالف تماما لهدي النبي **r** وأصحابه **y**.

وما كان النبي يندب النساء لذلك، بل كان يترك على النساء والصبيان والذرية أميرا بالمدينة ويخرج.

أما إذا دَهَمَ الْعَدُوُّ الْبَلَدَ شُرِعَ لِنِسَائِهَا كَذَلِكَ الْمَدَافَعَةُ، أما ما نسمعه اليوم من الفتاوى من هنا أو هناك، تَحْتُ النساء على الهجرة، والنفير العام إلى أرض الجهاد، مع ما نعلمهم من الخوف العظيم، وغلبة الظن على الأسر، وهتك العرض، فهؤلاء حَرِيٌّ بِهِمْ أَنْ يَسْكُتُوا وَأَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي أَعْرَاضِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، بل وبعضهم من جُرْأَتِهِ يفتي بذلك ولو بدون محرم، عياذا بالله من الخذلان، ومن القول على الله بغير علم.

وكما تقدم معنا مرارا، ليس الشأن أن تستدل فحسب، بل القضية العظمى أن تستدل وأن تفهم الدليل على ما كان عليه النبي **r** وأصحابه **y**، فذاك هو سبيل المؤمنين الذي أُمِرْنَا بِهِ، أما تَلْفِيقُ الْأَدْلَةِ فُكُلٌ يُحْسِنُهُ، وهذا كما تقدم سبب زيغ وضلال فئام من طوائف هذه الأمة.

فليست القضية أن تَنْزِعَ بدليل، ثم تطير به كُلَّ مَطَارٍ، وإنما أن تَفْقَهَهُ وتُنَزِّلَهُ في الواقع، على وَفْقِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهَنَّاكَ تَكُونُ النَّجَاةُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى. والله والموفق.

وإليك بعض ما جاء في جهاد النساء، قال البخاري رحمه الله في صحيحه: [(باب جهاد النساء). حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ جِهَادُكِنَّ الْحُجَّ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بِهَذَا. حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بِهَذَا وَعَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلَهُ نِسَاؤُهُ، عَنِ الْجِهَادِ فَقَالَ نَعَمْ الْجِهَادُ الْحُجَّ.]

(باب غزو المرأة في البحر) حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا t، يَقُولُ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ابْنَةِ مِلْحَانَ فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَتْ لِمَ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: "نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِثْلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرِ"، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ"، ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ، فَقَالَتْ لَهُ مِثْلُ، أَوْ مِمَّ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: "أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَسْتَ مِنَ الْآخِرِينَ"، قَالَ: قَالَ أَنَسٌ فَتَزَوَّجَتْ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، فَارْكَبَتِ الْبَحْرَ مَعَ بِنْتِ قَرْظَةَ، فَلَمَّا قَفَلَتْ رَكِبَتْ دَابَّتَهَا فَوَقَصَتْ بِهَا فَسَقَطَتْ عَنْهَا فَهَاتَتْ.

(باب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه). حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ النُّمَيْرِيُّ حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ عُروَةَ بْنَ

الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ كُلِّ، حَدَّثَنِي طَائِفَةٌ مِنَ الْحَدِيثِ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ **e** إِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَأَيُّهُنَّ يُخْرَجُ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا النَّبِيُّ **e** فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ **e** بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ.

(باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال). حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ عَنْ أَنَسٍ **t**، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَرَمَ النَّاسُ، عَنِ النَّبِيِّ **e** قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُسَمَّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِيهِمَا تَنْقُزَانِ الْقِرْبَ - وَقَالَ غَيْرُهُ تَنْقُلَانِ الْقِرْبَ - عَلَى مُتُونِهِمَا ثُمَّ تَفَرَّغَانِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ثُمَّ تَرَجَعَانِ فَتَمْلَأْنِهَا ثُمَّ تَحِيَّتَانِ فَتَفَرَّغَانِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ.

(باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو). حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ ثَعْلَبَةُ بْنُ أَبِي مَالِكٍ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ **t**، قَسَمَ مُرُوطًا بَيْنَ نِسَاءٍ مِنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ فَبَقِيَ مُرْطٌ جَيِّدٌ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ عِنْدَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطِ هَذَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ **e** الَّتِي عِنْدَكَ يُرِيدُونَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عَلِيٍّ فَقَالَ عُمَرُ أُمَّ سَلِيطٍ أَحَقُّ وَأُمَّ سَلِيطٍ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ **e** قَالَ: عُمَرُ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَزْفِرُ لَنَا الْقِرْبَ يَوْمَ أُحُدٍ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ تَزْفِرُ تَحِيْطُ

(باب مداواة النساء الجرحى في الغزو). حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ ذَكْوَانَ عَنِ الرَّبِيعِ بِنْتُ مُعَوِّذٍ قَالَتْ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ **e** نَسْقِي وَنُدَاوِي الْجَرْحَى وَنَرُدُّ الْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ.

(باب رد النساء الجرحى والقتلى). حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ عَنْ خَالِدِ بْنِ ذَكْوَانَ عَنِ الرَّبِيعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ كُنَّا نَعْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَسْقِي الْقَوْمَ وَنَخْدُمُهُمْ وَنَرُدُّ الْجُرْحَى وَالْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ [١]. هـ.

المؤمن لا يرضى بالهوان وعيشة الأنعام:

ولنتذكر أن المسلم الحق، الأصل فيه أنه لا يرضى إلا الحياة الكريمة، التي يحقق فيها عبادة الله تعالى على بصيرة، في الهواء الطلق، والجو الصّحو، بعيداً عن انحرافات المبطلين، وضلالات الملبسين، وتزييف الطواغيت وتزيينهم.

ولسان حال الواحد منهم يقول:

فِي مَآ حَيَاةٌ تُغِيظُ الْعِدَا... وَإِنَّمَا مَاتُ إِلَى الْجَنَّةِ

وهذا لا يتأتى لهذه الأمة أبداً، إلا إذا أقامت الكتاب الهادي، وحملت السيف الناصر، وَلْنَحْذَرُ مِنْ حَيَاةِ عُبَادِ الدَّرْهِمِ وَالْدِينَارِ، وَالَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ الْحَيَاةَ غَايَةَ يَتَنَازِلُونَ لِأَجْهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ كَانَ هُوَ الدِّينَ، كَمَا ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِذَلِكَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضٍ حَرْجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

فهذا مُرَادُهُمْ وتلك هي غَايَتُهُمْ، الحِرْصُ، بل إنهم الأَخْرَصُ على حَيَاة، هكذا ذكر الله تعالى الحياة مُنْكَرَةً، مما يدل على أنهم يريدونها مهما كان شكلها وحالهم معها، أو حالها معهم، وإن كانت عيشة دُونِيَّة.

المهم أن يكون في هذه الحياة، وإن كنت قلوبهم ميتة لا تَعْرِفُ الله تعالى، إلا معرفة على هامش الدين، يعبدون الله تعالى على حرف، مما قادهم إلى الذل والهوان بل إلى الزندقة والكفر والعياذ بالله.

وتلك هي سُنَّةُ الله تعالى في كل من تكون الدنيا غايته ومُبْتَغَاهُ، أن يضرب الله تعالى عليهم الذل والهوان، كما قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمُسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: ١١٢].

وها أنت ترى أمة الإسلام قد جرى عليها شيء من هذه السُنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، التي لا تُحَابِي أحدا، ولا تَقِفُ عند أحد، فَمَنْ تَنَكَّبَ صِرَاطَهَا؛ جَرَّتْ عَلَيْهِ، فها هي الأمة تعيش الذل والهوان، لأنها صَارَتْ تَحْنُ إِلَى الْأَرْضِ، وتحرص على هذه الحياة، وإن تَنَازَلَتْ لأجلها عن شيء من دينها، حتى صار الحال إلى التحاكم إلى الطاغوت، وهكذا هي خطوات الشيطان، أنه لا يزال بالعبد حتى يقع في الكفر بالله تعالى، ثم يتبرأ منه، كما قال تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ [الحشر: ١٦-١٧].

فائدة جلييلة مهمة: قال شيخنا الحافظ، سليمان بن ناصر العلوان: [قولهم: لا يُفْتِي للمجاهدين قاعد، مقولة فاسدة، فالأئمة الأربعة، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وابن معين، وأصحاب الكتب الستة، لم يقاتلوا، وتكلموا في الجهاد] اهـ. قلت: على أننا كنا قد بينا آنفاً في هذا الكتاب أنه لا يُسَمَّى النَّافِرُ بِعِلْمِهِ قَاعِدًا أصلاً.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ). قال القاضي عياض في كتابه: (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى): [وقال بكر القشيري: الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي ﷺ رحمة، وللنبي ﷺ تشريف وزيادة تكريمة، وقال أبو العالية: صلاة الله وثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء قال القاضي أبو الفضل: وقد فرق النبي ﷺ في حديث تعليم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة ولفظ البركة فدل أنهما بمعنيين، وأما التسليم الذي أمر الله تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر بن بكر نزلت هذه الآية على النبي ﷺ فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه وكذلك من بعدهم أمروا أن يسلموا على النبي ﷺ عند حضورهم قبره وعند ذكره، وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه: أحدهما السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدراً كاللذاذ واللذاذة. الثاني: أي السلام على حفظك ورعايتك متول له وكفيل به ويكون هنا السلام اسم الله. الثالث أن السلام بمعنى المسألة له والانقياد كما قال: {فلا

وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} [١.هـ].

قال ابن القيم في: (جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنعام): [أن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته، يصلون على رسوله فصلوا أنتم عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليما لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من شرف الدنيا والآخرة] [١.هـ].

وجاء في تفسير ابن كثير على قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}: [والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملائكة الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا] [١.هـ].

ولا أعلم دليلا صحيحا على مشروعية الاختتام بالصلاة على النبي ﷺ، في الكتب والمراسلات والخطب والمواعظ، والمقصود أن التعبد بذلك يفتقر إلى الدليل، فمن فعله عرضا لا بقصد السنة فلا حرج.

وأنا أقول: وآخر دَعْوَانَا، أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وجزى الله تعالى شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب عنا وعن أمة الإسلام، خير ما جزى داع عن دعوته، وإماما عن أمته، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، فكم اهتدى بعلمه من أمم، وكم فُتِّدَتْ من شُبُهَةٍ، وكم أُزِيلَتْ من بَدْعٍ، فجزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الخاتمة

وأخيراً، تأمل بارك الله فيك، كيف نفع الله تعالى الأمة بهذا الكتاب، القليل في كلماته الواسع في معانيه، وتأمل كم اهتدى بسببه إلى التوحيد الخالص؛ لتعلم أهمية العلم وأهله.

فيا من آتاك الله علماً، اعلم أن الناس قد أعدوك لِدِينِهِمْ، وأعدُّوا غَيْرَكَ لِدُنْيَاهُمْ؛ فاحمد الله تعالى أن اختارك مؤتمناً على دينه، فأنت أشرف الرُّجُلَيْنِ، فلا تَكْذُنَّ عَيْنَيْكَ، واتَّقِ الله واصبر ولا تَجْزَعْ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ حَمِيدَةٌ.

واعلم أن العلم النَّافِعَ وَالْخَيْرَ وَالْوَافِرَ، هو ما كان في حِلْقِ العلم، التي تُدَارِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا رِيَاءَ وَلَا سُمْعَةَ، وَلَا لِعَرْضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فكن على حذر من المدارس والجامعات، وَالزَّمِ الْمَسَاجِدَ، حيث حَلَقَ الْعِلْمَ الدَّاعِيَةَ إِلَى هَدْيِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ٢، وتأمل في هذه الآيات من سورة الطلاق: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٢-٣]، وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: ٤]، وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: ٥].

قال أحد الصالحين: [كُنَّا نَتَلَقَّى الْعِلْمَ فِي الْمَسَاجِدِ، فَبَيَّتِ الْمَدَارِسُ؛ فَزَالَتِ الْبَرَكَةُ، ثُمَّ وُضِعَتِ الْكَرَاسِي؛ فَزَالَ التَّوَاضُّعُ، ثُمَّ وُضِعَتِ الشَّهَادَاتُ؛ فَزَالَ الْإِخْلَاصُ]، فنسأل الله العافية والسلامة.

وقد تقدّم في أوّل هذا الكتاب حَظٌّ وَافِرٌ مِنْ هَذَا الْبَيَانِ وَالتَّحْذِيرِ، مِنْ مَدَارِسٍ وَجَامِعَاتٍ الضَّرَارِ، الَّتِي أَضَرَّتْ بِالْمَسَاجِدِ؛ فَجَعَلَتْهَا يَبَابًا!، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، وَأَضَرَّتْ بِالْعِلْمِ، وَأَزَرَّتْ بِهِ؛ فَصَارَ يُلَاحَقُ بِهِ النَّاسُ، وَالنَّاسُ مُعْرِضُونَ عَنْهُ، إِلَّا مَا كَانَ سَبَبًا مُوَصِّلًا لَشَيْءٍ مِنْ حُطَامِ هَذِهِ الْفَائِيَةِ؛ فَإِنَّهُمْ يَقْبَلُونَ عَلَيْهِ، وَإِلَّا فَلَا هِمَّةَ وَلَا نَهْمَةَ لَهُمْ فِيهِ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

واحذر من الابتداع في الدين، واعلم أنك أن تكون تابعا في الحق، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ رَأْسًا فِي الضَّلَالَةِ، واعلم أن ما تُخَلِّفُهُ بَعْدَكَ سَيْرُهُ غَيْرُكَ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا جَرَتْ عَلَيْكَ الْحَسَنَاتُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا جَرَتْ عَلَيْكَ السَّيِّئَاتُ مِنْهُ.

واعلم، أن هذا ليس خَاصًّا بِالْبِدْعِ، بَلْ هُوَ عَامٌّ؛ فَرَاجِعُ مَا كَتَبْتُ، وَمَا اسْتَوْدَعْتُهُ فِي مَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ عَلَى الشَّبَكَةِ الْعَنُكْبُوتِيَّةِ، بَلْ وَأَنْظُرُ فِي بَيْتِكَ وَمَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَاتٍ شَرْعِيَّةٍ، مِنْ أَغَانِي وَأَفْلَامٍ وَتِلْفَازٍ وَدِجِيتَلْ، وَرَاجِعُ جَوَالِكَ كَذَلِكَ، فَكُلْ هَذِهِ الشُّرُورَ تَرِكَةً سَتُخَلِّفُهَا بَعْدَكَ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

ومن جميل ما نقله الشاطبي عن الغزالي في كتابه: (الموافقات) قوله: [ثم حكى عن بعضهم أن إنفاق درهم زائف أشد من سرقة مائة درهم؛ قال: (لأن السرقة معصية واحدة، وقد تمت وانقطعت، وإظهار الزائف بدعة أظهرها في الدين، وسن سنة سيئة يعمل عليها من بعده؛ فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة، ومائتي سنة، إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد ونقص من أموال الناس بسببه، وطوبى لمن مات ومات معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة، يعذب بها في قبره، ويسأل عنها إلى انقراضها، وقال تعالى: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: ١٢]؛ أي: نكتب أيضا ما أخرؤهُ مِنْ آثَارِ أَعْمَالِهِمْ كَمَا نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوهُ، ومثله قوله تعالى: {يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]، وإنما أَخَّرَ آثَرَ أَعْمَالِهِ، مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً عَمِلَ بِهَا غَيْرُهُ] اهـ.

فأَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَلَا أَنْفَعْ لَكَ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمِهِ وَنَشْرِهِ وَالْاِحْتِسَابِ فِي ذَلِكَ، وَلَا تُضَيِّعْ وَقْتُكَ فِي الْقِيلِ وَالْقَالَ، وَالسَّفْسَاطَةِ، وَجَحَارَةِ الْأَقْرَانِ فِي ثَلَبِ النَّاسِ وَتَنْقِصِهِمْ، لَا سِيَّمَا أَهْلَ الْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّينَ، الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ قَوْلًا وَعَمَلًا، واحذر من أن تَنْشَغَلَ بِمَا يَسْمَى الْيَوْمَ عِنْدَ الْعَاطِلِينَ الْبَطَّالِينَ، بعلم الجُرْحِ والتعديل، والذي يقصدون به،

تَنْصِيبَ أَنْفُسِهِمْ طَاعِينَ فِي الْمَجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، الَّذِينَ دَعَوْا إِلَى خَلْعِ الطَّوَاغِيتِ، وَوَقَّفُوا فِي خَنْدَقٍ وَاحِدٍ مَعَ الْجِهَادِ وَأَهْلِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ انْشِغَالَكَ بِهَذَا، هُوَ مِنْ قِلَّةِ الْبَرَكَاتِ، وَمِنْ الْخُذْلَانِ، كَمَا أَنَّهُ تَضْيِيعٌ لِلْحَسَنَاتِ، وَهَلَكَةٌ عَظِيمَةٌ وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

جاء في كتاب: (سير أعلام النبلاء) للذهبي: [قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، وَغَيْرُهُ: كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ أَنْ اكْتُبْ إِلَيَّ بِالْعِلْمِ كُلِّهِ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ خَفِيفَ الظَّهْرِ مِنْ دِمَاءِ النَّاسِ، خَمِصَ الْبَطْنِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، كَافَّ اللِّسَانَ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ، لَازِمًا لِأَمْرِ جَمَاعَتِهِمْ، فَافْعَلْ] اهـ.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَذْمُونَ الْكَلَامَ فِيهَا لَا يَنْفَعُ، وَمَا كَانَ فَلَسَفَةً وَتَكَلُّفًا، فَكَيْفَ بِهَا يَضُرُّ بِهِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟!.

جاء في كتاب معرفة الثقات للعجلي: [وقال رجل لعبد الرحمن -يعني ابن مهدي- يا أبا سعيد لو قيل لك: ادخل الجنة بغير حساب ولا تكن لك رئاسة، أو قيل لك: تكن لك رئاسة الدنيا وأمرك إلى الله، أيها أحب إليك؟، قال له: بالله أسكت] اهـ.

وَالزَّمِ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ وَغَرَزَهُمْ، وَلَا تَتَعَدَّاهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَالصِّرَاطِ الْقَوِيمِ الْمُسْتَقِيمِ، وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَا يَنْتَصِرُ إِلَّا

بِإِقَامَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا الْإِبْتِدَاعُ فَلَا يَزِيدُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا ضَعْفًا وَشَتَاتًا، وَذُلًّا وَخُسْرَانًا، فَلَا تَتَوَهَّمَنَّ أَبَدًا أَنَّ الْبِدْعَةَ، يَكُونُ فِيهَا نَصْرٌ لِهَذَا الدِّينِ، فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ سَبِيلِ الشَّيَاطِينِ، وَتَزَيِّنْ أَهْلَ الْبَاطِلِ بِأَهْوَائِهِمْ، أَوْ مَنْ اغْتَرَبَهُمْ، مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى السَّنَةِ.

قال ابن حزم في كتابه: (الفصل في الملل والأهواء والنحل): [واعلموا رحمكم الله، أن جميع فِرَق الضلالة، لم يُجِرِ اللهُ على أيديهم خيرا، ولا فَتَحَ بهم مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ قَرْيَةً، وَلَا رَفَعَ لِلْإِسْلَامِ رَايَةً، وَمَا زَالُوا يَسْعَوْنَ فِي قَلْبِ نِظَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُفَرِّقُونَ كَلِمَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَسْلُونَ السَّيْفَ عَلَى أَهْلِ الدِّينِ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، أَمَا الْخَوَارِجُ وَالشَّيْعَةُ فَأَمَرَهُمْ فِي هَذَا أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُتَكَلَّفَ ذِكْرُهُ، وَمَا تَوَصَّلَتِ الْبَاطِنِيَّةُ إِلَى كَيْدِ الْإِسْلَامِ، وَإِخْرَاجِ الضَّعْفَاءِ مِنْهُ إِلَى الْكُفْرِ إِلَّا عَلَى السَّنَةِ الشَّيْعِيَّةِ، وَأَمَّا الْمَرْجُئَةُ فَكَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ الْحَارِسَ بْنَ سَرِيحٍ خَرَجَ بِنِ عَمِّهِ مَنْكَرًا لِلْجُورِ ثُمَّ لَحِقَ بِالْتَرَكِ فَقَادَهُمْ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ فَنَهَبَ الدِّيَارَ وَهَتَكَ الْأُسْتَارَ، وَالْمُعْتَزِلَةَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ ابْتَلِيَ بِتَقْلِيدِ بَعْضِهِمُ الْمُعْتَصِمَ وَالْوَاتِقَ، جَهْلًا وَظَنًا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَكَانَتْ لِلْمُعْتَصِمِ فَتُوحَاتُ مَحْمُودَةِ كِبَابِلِ وَالْمَازِيَارِ وَغَيْرِهِمْ، فَاللَّهُ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، تَحَفَّظُوا بِدِينِكُمْ، وَنَحْنُ نَجْمَعُ لَكُمْ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ، الزَّمُوا الْقُرْآنَ وَسُنَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَا مَضَى عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ **y**، وَالتَّابِعُونَ وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ، عَصْرًا عَصْرًا، الَّذِينَ طَلَبُوا الْأَثَرَ؛ فَلَزِمُوا الْأَثَرَ، وَدَعُوا كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ] ١.هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في: (مجموع الفتاوى): [فَكَانَ الْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ وَالْجِهَادُ عَنْ دِينِهِ سَبَبًا لِحَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَبِالْعَكْسِ الْبِدْعُ وَالْإِحَادُ وَمُخَالَفَةُ مَا جَاءَ بِهِ سَبَبٌ لِشَرِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في كتابه: (الفوائد): [قال بشر بن الحارث: أهل الآخرة ثلاثة: عَابِدٌ وَرَاهِدٌ وَصِدِّيقٌ، فالعابد يعبد الله مع العلائق، والزاهد يعبد على ترك العلائق، والصديق يعبد على الرضا والموافقة، إن أَرَاهُ أَخَذَ الدُّنْيَا أَخَذَهَا، وإن أَرَاهُ تَرَكَهَا تَرَكَهَا، إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر فإن ذلك يفضي إلى المُشَاقَّةَ وَالْمُحَادَّةَ، وهذا أصلها، ومنه اشتقاقها، فإن المُشَاقَّةَ أن يكون في شِقٍّ، وَمَنْ يُخَالِفُهُ فِي شِقٍّ، وَالْمُحَادَّةَ أن يكون حَدٌّ وهو في حَدٍّ، وَلَا تَسْتَسْهِلْ هَذَا، فإن مبادئه تجر إلى غايته، وقليله يدعو إلى كثيره.

وكن في الجانب الذي يكون فيه الله ورسوله، وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته، وأكثر الخلق إنما يكونون من الجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرغبة، فهناك لا تكاد تجد أحدا في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يعده الناس ناقص العقل، سيء الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلى الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرسل، فأنهم نسبوهم إلى الجنون، لما كانوا في شق وجانب، والناس في شق وجانب آخر، ولكن من وَطَّنَ نفسه على ذلك، فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول، يكون يقينا له لا ريب عنده فيه، وإلى صبر تام، على مُعَادَاة مَنْ عَادَاهُ وَلَوْ مِمَّنْ لَامَهُ، ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار والآخرة، بحيث تكون الآخرة أحب إليه

من الدنيا، وآثر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك في مبادئ الأمر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومُعاشره من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربة، فإن صبر وثبت؛ جاءه العون من الله، وصار ذلك الصعب سهلاً، وذلك الألم لذة، فإن الرَّبَّ شَكُورٌ، فلا بد أن يُذِيقَهُ لَذَّةَ تَحْيِيزِهِ إِلَى اللَّهِ وإلى رسوله، ويُريهِ كَرَامَةَ ذَلِكَ، فيشتد به سروره وغبطته، ويبتهج به قلبه، ويظفر بقوته، وفرحه وسروره، ويبقى من كان محارباً له على ذلك بين هائب له، مسالم له، ومساعد، وتارك، ويقوى جنده، ويضعف جند العدو.

لَا تَسْتَصْعِبْ مُحَالَفَةَ النَّاسِ وَالتَّحْيِيزُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ كُنْتَ وَحْدَكَ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ، وَأَنْتَ بَعِينُهُ وَكَلَاءَتُهُ وَحِفْظُهُ لَكَ، وَإِنَّمَا امْتَحَنَ يَقِينَكَ وَصَبْرَكَ. وَأَعْظَمُ الْأَعْوَانِ لَكَ عَلَيْهِ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ هَذَا بَعُونُ اللَّهِ التَّجَرُّدُ مِنَ الطَّمَعِ وَالْفَرْعُ فَمَتَى تَجَرَّدْتَ مِنْهُمَا هَانَ عَلَيْكَ التَّحْيِيزُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكُنْتَ دَائِمًا فِي الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَتَى قَامَ بِكَ الطَّمَعُ، فَلَا تَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَلَا تَحْدُثُ نَفْسُكَ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ أَسْتَعِينُ عَلَى التَّجَرُّدِ مِنَ الطَّمَعِ، وَمِنَ الْفَرَعِ، قُلْتَ: بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ، وَعِلْمُكَ بِأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ مَعَ اللَّهِ شَيْءٌ.

نصيحة: هَلُمَّ إِلَى الدُّخُولِ عَلَى اللَّهِ، وَمُجَاوَرَتِهِ فِي دَارِ السَّلَامِ، بِلَا نَصِيبٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا عَنَاءٍ، بَلْ مِنْ أَقْرَبِ الطَّرِيقِ وَأَسْهَلِهَا، وَذَلِكَ أَنَّكَ فِي وَقْتٍ بَيْنَ وَقَتَيْنِ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ

عُمْرُكَ، وهو وَقْتُكَ الحاضر، بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه، ولا نصب ولا مُعَانَاةَ عَمَلٍ شاق، إنما هو عمل قَلْبٍ، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك تَرْكُ وَرَاحَةٍ، ليس هو عملاً بالجوارح يُشَقُّ عليك مُعَانَاتُهُ، وإنما هو عَزْمٌ وَنِيَّةٌ جَازِمَةٌ تُرِيحُ بَدَنَكَ وَقَلْبَكَ وسرك، فما مَضَى تُصْلِحُهُ بالتوبة، وما يَسْتَقْبَلُ تُصْلِحُهُ بِالامْتِنَاعِ، والعَزْمُ والنِّيَّةُ، وليس للجوارح في هَذَيْنِ نَصَبٌ وَلَا تَعَبٌ، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أَضَعْتَ سعادتك وَنَجَاتَكَ، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكرت؛ نَجَوْتَ وَفُزْتَ بالراحة واللذة والنعيم.

وحفظه أَشَقُّ من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وانفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية، التي تجمع فيها الزاد لِمَعَادِكَ، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك؛ بَلَغْتَ السعادة العظمى، والفوز الأكبر، في هذه المدة اليسيرة، التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن أثرت الشهوات والرَّاحَاتِ واللَّهْوِ واللَّعِبِ؛ انقضت عنك بسرعة وَاغْتَبَتِكَ الأَلَمُ العَظِيمُ الدائم، الذي مُقَاسَاتُهُ وَمُعَانَاتُهُ أَشَقُّ وَأُصْعَبُ وَأَدْوَمُ من مُعَانَاةِ الصَّبْرِ عن مَحَارِمِ الله، والصبر على طاعته، ومخالفة الهوى لأجله[١] هـ.

قال الإمام الدارمي في سننه أخبرنا يعلى ثنا الأعمش عن شقيق قال قال عبد الله t - يعني ابن مسعود -: (كيف أنتم إذا لَبِسْتُمْ فِتْنَةً يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً، فَإِذَا غُيِّرَتْ قَالُوا غُيِّرَتِ السُّنَّةُ، قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟، قَالَ: إِذَا كَثُرَتْ قُرْأُوكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ وَقَلَّتْ

أُمْنَاؤُكُمْ وَالتُّمِسْتُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ) ١٠.هـ. قلت: وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه بنحوه. فاللهم احفظ علينا ديننا وأعنا ولا تكلنا إلى أنفسنا طَرْفَةَ عَيْنٍ.

إِذَا انْقَطَعَتْ أَطْمَاعُ عَبْدٍ عَنِ الْوَرَى ... تَعَلَّقَ بِالرَّبِّ الْكَرِيمِ رَجَاؤُهُ
فَأَصْبَحَ حُرًّا عِزَّةً وَكَرَامَةً ... عَلَى وَجْهِهِ أَنْوَارُهُ وَضِيَاؤُهُ
وإِنْ عَلِقَتْ بِالْخَلْقِ أَطْمَاعُ نَفْسِهِ ... تَبَاعَدَ مَا يَرْجُو وَطَالَ عَنَاؤُهُ
فَلَا تَرْجُ إِلَّا اللَّهَ فِي الْخُطْبِ وَحْدَهُ ... وَإِنْ صَحَّ فِي خِلِّ الصَّفَاءِ صَفَاؤُهُ

تم الفراغ منه بحمد الله تعالى، وتوفيقه ومَنِّه وَكَرَمِهِ، في يوم الأربعاء، السادس من شهر، ربيع الأول، من عام ألف، وأربعمائة وخمسة وثلاثين (١٤٣٥/١/٦هـ)، للهجرة النبوية المباركة، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فجزى الله خير الجزاء، كل من أعان على إخراج هذا الكتاب، إعانة بالفوائد، وعملا ومساهمة، وتنسيقا، ومن أعان بنصحه، أو ماله، أو إرشاده، أو بتهيئة الأجواء لكتابته وإخراجه.

والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا.